

الموسوعة الشامية في تاريخ الحزب والصلبيّة

المصادر العربية
مؤرخو القرن السابع (٢)

تأليف وتحقيق وترجمة
الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الخامس عشر

دمشق
١٩٩٥ - ١٤١٦ هـ

المصادر العربية
مؤرخو القرن السابع

- ١ - ابن شداد - سيرة صلاح الدين
- ٢ - سبط ابن الجوزي - من مرآة الزمان

دمشق ١٤١٥ / ١٩٩٥

توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم

اعتمد السلطان صلاح الدين في ادارته لدولته على ثلاثة اعلام مدنيين ، كان اولهم القاضي الفاضل ، وثانيهم العماد الاصفهاني ، وثالثهم ابن شداد ، وأما القاضي الفاضل فكان لكل مهم ، وأما العماد فكانت اليه كتابه الانشاء ، وأما ابن شداد فكان قاضي عسكر صلاح الدين والفقير الاول لبيه ، وفقط القاضي الفاضل كان من اصل شامي وأما العماد فقد جاء - كما رأينا - اصلاً من _____ فها . وتعد _____ رف صلاح الدين الى القاضي الفاضل في بداية صعوده السياسي في مصر ، ورأينا أن العماد عمل أولاً في دولة نور الدين ، ثم التحق بصلاح الدين بعد وفاة نور الدين ، والتحق ابن شداد بخدمة صلاح الدين متأخراً بعض الوقت وعمر طويلاً بعده .

ويلاحظ ان هؤلاء الثلاثة كتبوا بالتاريخ ، ومن المؤسف أنه لم يصلنا مما كتبه القاضي الفاضل سوى بعض النقول ، وما تزال رسائله مجموعة لم تنشر بعد ، ولا شك انها تحتوي على مواد ثمينة جداً .

وكتابات هؤلاء العلماء الثلاثة مضاف اليها مادونه سواهم من معاصريهم ، ولا سيما ابن أبي طي يحيى بن حميدة الحلبي هامة بلا حدود وتغطي عصر صلاح الدين بشكل ممتاز ، ويمكننا التعرف الى ابن شداد من خلال السيرة التي صنفها عن حياة صلاح الدين ومن خلال التراجم التي أعدها عن حياته معاصروه وتلاميذه ولا سيما ابن

خلكان ، وسنطلع فيما يلي في موسوعتنا هذه على ماكتبه ابن خلكان ، ولذلك سأكتفي هنا بتقييم عرض موجز عن حياته .

هو بهاء الدين ابو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم ، شهر بابن شداد ، نسبة الى أخواله ، ولد بمدينة الموصل سنة ٥٣٩ هـ / ١١٤٥ م ، وفيها نشأ ونال علومه الاولى ، ثم التحق ببغداد لاكمال تحصيله بالنظامية ، حيث أعاد فيها مدة اربع سنوات ، ثم رجع الى الموصل ، حيث علا نجمة وبات واحدا من ابرز اعلامها .

وكننت اشرت في الجزء الاول من موسوعتنا هذه الى المكانة الرفيعة التي احتلها علماء الدين الاسلامي لدى حكام السلاجقة ، ونظرا لهذه المكانة ولأن السلاجقة والايوبيين بعدهم كانوا بالاصل أعاجم امتهتوا العمل العسكري ، فقد أخذوا يكلفون العلماء بالمهام الدبلوماسية من سفارات ومفاوضات ، وبهذه الوساطة تعرف ابن شداد الى صلاح الدين أثناء الصراع حول ميراث نور الدين ولدى محاولة صلاح الدين احتلال الموصل ، وانتهى الصراع هذا ، وانصرف صلاح الدين بالامكانات الكبيرة التي توفرت لديه نحو جهاد الفرنجة ، فكانت حطين وتحرير القدس ، وبتحرير القدس أخذت اعداد كبيرة من المسلمين تقصد هذه المدينة المقدسة للصلاة في أولى القبلتين وثالث الحرمين ، وكان من هؤلاء ابن شداد ، فبعدما قضى فريضة الحج ، توقف في دمشق ، ثم توجه منها الى القدس ، وفي الطريق علم أن صلاح الدين قائم على حصار قلعة كوكب ، فعرج نحو معسكره لزيارته ، واستقبله صلاح الدين ورحب به وأنسه ، وكلف العمل

الاصفهانى أن يطلب منه القدوم لزيارته ثانية بعد الفراغ من زيارة القدس ، وهذا ما فعله ، وهنا رغب إليه صلاح الدين الالتحاق بخدمته فاستجاب ، ورافق منذ ذلك الحين سلاطانه العظيم - وشاركة الام حصار عكا والتصدي لما عرف باسم الحملة الصليبية الثالثة ، وما برح معه حتى يوم وفاته ، فالتحق بعد أمد قصير بالظاهر غازي ابن صلاح الدين ، وأسهم في ادارة شؤون مملكة

حلب والتعليم فيها ، عالي المكانة ، عظيم الاحترام موفور الكرامة حتى توفي سنة ٦٣٢ هـ / ١٢٣٥ م.

وصنف ابن شداد عدة كتب نشر منها « دلائل الأحكام في الأحاديث التي استنبطت منها الأحكام » في أربعة مجلدات ، ومهم بالنسبة لي من كتبه كتابين هما الكتاب الذي نقدم له اليوم عن سيرة صلاح الدين واسمه « الذوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » وكتاب في « فضائل الجهاد » صنفه لصلاح الدين ، أنا موعود بنسخة مصورة عنه ، وكان لكتب الجهاد وفضائل الدين ، لاسيما فضائل القدس أوسع الأثر على المسلمين في عصر الحروب الصليبية .

وفيما يختص بسيرة صلاح الدين ، هو أهم كتاب كامل وصلنا في باب ، أهم مما كتبه العماد الاصفهاني لأنه كتب بدون تكلف ولا صنعة كلامية ، فيه أمانة وبساطة نادرتين ، وفيه اعتدال وعقلانية المؤلف الذي كان هادئاً عميق الإيمان والتفكير ، يشير أحيانا الى نفسه وإلى أدواره ، لكن ليس من باب التبجح والدعاية للذات .

واتخذ ابن شداد في عرض مواده أسلوبا خاصا به ، استوحاه من الفراغ العظيم الذي نتج عن وفاة صلاح الدين ، واستهدف به احتذاء المثل الأعلى الذي ضربه صلاح الدين ، وكأنه بذلك كان يتوجه باللوم إلى بني أيوب الذين عاشوا بعد صلاح الدين للملذات القريبة والصراعات الداخلية ، ومع أن ابن شداد رأى في صلاح الدين مثالا أعلى للحاكم المسلم الملتزم بعقيدته المنصرف نحو الجهاد وتحرير الأرض ، الكريم بلا حدود والشجاع الصابر المتواضع بلا تكلف ، فإنه لم يخترع شخصية بطله أو حاول صدق صورته ، بل دون الحقيقة لأن صلاح الدين كان عظيما مثلما وصفه ابن شداد لابل أكثر عظمة ، كان الابن البار لمثالية الاسلام ، وعلى عكسه تماما كان قادة الصليبيين ولاسيما أرناط ورتشارد قلب الأسد ، وانها لم تكن حقيقة أن نقرأ في أيامنا هذه سيرة صلاح الدين ونستلهم منها.

وكنّا فيما مضى تحدثنا عن المؤرخ الكبير ابن الجوزي ، ورأينا كيف أن دمشق نور الدين وصلاح الدين قد جذبت إليها علماء المسلمين في المشرق والمغرب ، وكان فيمن جذبته إليها من المشرق سبط ابن الجوزي شمس الدين - أبي المظفر يوسف بن قزاوغلي وكان ابن الجوزي قد رزق بثلاثة أولاد وبعد من البنات منهن واحدة حملت اسم رابعة ، زوجها أبوها للمرة الثانية ، بعد وفاة زوجها الأول ، من حسام الدين قزاوغلي بن عبد الله ، وكان تركياً من مماليك الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة .

وكانت رابعة كأخواتها سمعت الحديث على أبيها وعلى غيره من الحديثين ، وأنجبت ابنها يوسف - سنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م ، ولما ترعرع يوسف أخذه جده إليه وتكفل بتعليمه ، فغدا أشبه الناس به ، لاسيما في مجال الوعظ والتأثير الشعبي ، وعندما غدا يوسف شاباً يقارب العشرين من عمره ، كان جده قد توفي ، فقرر أن يفارق بغداد ويقصد بلاد الشام .

عندما نقرأ نيل الروضتين لأبي شامة سنلتقي مراراً بأخبار سبط ابن الجوزي ونشاطاته في بلاد الشام ، فهو قد حظي بمكانة رفيعة بين علماء دمشق وأقبل الناس على على مجالس وعظه ، ونشأت له علاقات جيدة بابناء العادل الايوبي ولم تقتصر نشاطاته على الميادين العلمية ، بل جند جيشاً من المتطوعة غزا به الأراضي التي كان يحتلها الفرنجة في فلسطين .

وجذب ميدان التاريخ إليه سبط ابن الجوزي فصنف فيه « مرآة الزمان في تاريخ الأعيان » وقد سار فيه على خطة جده في المنتظم ، يعرض المواد الاخبارية وفق طريقة الحوليات أخبار كل حولية على حده أولاً وبعد ذلك تراجم لوفيات تلك الحولية ، ورأيت في مكتبات العالم أكثر من نسخة من هذا الكتاب ، ووضح لدي أن سبط ابن الجوزي كتب مؤلفه - أو بعض أجزائه - أكثر من مرة ، لذا تحتوي بعض النسخ على مواد أكثر من سواها ، وكنت قد صورت من هذا

الكتاب قطعة كبيرة من المكتبة الوطنية في باريس فيها أخبار القرن الخامس للهجرة ، كما صورت من مكتبة أحمد الثالث (٢٩٠٧ - ب) في استانبول الأجزاء التي تبدأ بأخبار سنة / ٣٠٠ هـ / وتنتهي مع نهاية الكتاب . وبودي لو أصور بقية النسخة هذه مع غيرها ، ومن ثم أعمل على تحقيقه ، لأنه من أهم الموسوعات التاريخية وكتب التراجم بالوقت نفسه .

لقد أكثر أبو شامة من النقل عن سبط ابن الجوزي ، واختصر ابن تغري بردي مواد مرآة الزمان وبنى عليها كتابه النجوم الزاهرة .

واشرت قبل قليل الى وطيد العلاقات التي قامت بين سبط ابن الجوزي ، وأبناء العادل الايوبي لاسيما الملك الأشرف ، وأكثر منه الملك المعظم عيسى ، وكان أبناء العادل مثل سواهم من أفراد البيت الايوبي قد انشغلوا في صراعاتهم الداخلية ، ولم يتورع بعضهم عن الاستعانة بالفرنجة في هذا الصراع ، الذي تطور الى حد التضحية بمنجزات صلاح الدين والتخلي عن القدس للفرنجة الأمر الذي كان له ردات فعل شديدة ، أفسدت العلاقات ما بين سبط ابن الجوزي والملك الأشرف ، فقد انتقد سبط ابن الجوزي الأشرف مع أخيه السلطان الكامل لتخليهما عن القدس وتسليمهما للفرنجة ، وعد ذلك خيانة ، وبعد موعظة شديدة على منبر دمشق قال فيها : « انقطعت عن البيت المقدس وفود الزائرين ، يا وحشة المجاورين ، كم كان لهم في تلك الأماكن من ركعة ، وكم جرت لهم على تلك الأماكن من دمة ، تاله لو صارت عيونهم عيوننا لما وفيت ، ولو قطعت قلوبهم أسفا لما شفت ، أحسن الله عزاء المؤمنين ، يا خجلة ملوك المسلمين ، لمثل هذه الحادثة تسكب العبرات ، لمثلها تنقطع القلوب من الزفرات ، لمثلها تعظم الحسرات » . بعد هذه الموعظة افتى بشرعية قتال الكامل والأشرف لعقدتهما صفقة تسليم القدس للإمبراطور الألماني فردريك الثاني بشكل شائن .

واضطرب سبط ابن الجوزي الآن الى مغادرة دمشق والالتجاء الى قلعة الكرك . حيث مكث فيها من سنة ٦٢٦ الى سنة ٦٣٣ هـ / ١٢٢٩ - ١٢٣٦ م ، ثم رجع الى دمشق حيث مكث قليلا ، وأخذ يتردد ما بين دمشق والقدس والكرك ، ثم قصد مصر سنة ٦٣٩ هـ / ١٢٤١ م ، وأقام بها حتى سنة ٦٥٣ هـ / ١٢٥٥ م ، حيث عاد الى بلاد الشام ، فزار حماه لفترة وجيزة ثم رجع الى دمشق حيث توفي فيها سنة ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م .

من يقرأ المنتظم لابن الجوزي يتيقن أنه كان شخصية بغداد الاولى في قرنة ، وكذلك فعل سبطه الذي اقتدى به بكل سبيل ، فكان شخصية الشام وشارك سبط ابن الجوزي السلطان العظيم صلاح الدين في اسمه واستعار منه لقبه « ابو المظفر » واستلهم سيرته وشجاعته ، فأثر مصالح الامة على منافعه ، وفضل آخرته على دنياه .

ولا شك ان هذا الاستلهام مع المصادقية قد انعكسا على عمله التاريخي ومنحا لكتابه مراة الزمان مكانة عالية ، وقام سبط ابن الجوزي مثل غيره من المؤرخين باستقاء أخباره ممن تقدمه من المؤرخين ، لا سيما من ابن القلانسي ، ومع هذا لديه بعض التفاصيل غير الموجودة لدى ابن القلانسي ، وغالبا ما حذقت نقوله عن ابن القلانسي كما وحذقت بعض الأخبار التي لاهلاقة لها بالحروب الصليبية وكذلك بعض ، لايل غالب التراجع .

أرجو من الله التوفيق والعون والسداد ، وله جلا وعلا الحمد والشكر والصلاة والسلام على النبي لمصطفى وعلى آله وأصحابه أجمعين .

دمشق ٢٤ - ذي القعدة - ١٤١٥ هـ

٢٣ - نيسان - ١٩٩٥ م

سهيل زكار

كتاب

الزواجر السلطانية والمحاسن اليوسفية

سيرة السلطان صلاح الدين الأيوبي

تأليف

القاضي بهاء الدين بن شداد

ت ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي من علينا بالاسلام ، وهدانا بالايمان الجاري على احسن نظام ، وأنعم علينا بشفاعه نبينا محمد عليه افضل الصلاة والسلام ، وجعل سير الاولين عبرة لأولي الافهام ، وتقلبات الاحوال قاضية على كل أمر حادث بالانصرام ، كيلا يغتر ذو جمال حسن ولا يئأس من لعبت بأحواله أكف السقام ، واشهد إن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تشفي القلوب من لظى الآوam ، واشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذي فتح للهداية أبوابا يلج المستفتحون لها بمفاتيح الانقياد والاستسلام ، صلى الله عليه وعلى آله صلاة دائمة ببقاء الأيام .

وبعد فإنني رأيت أيام مولانا السلطان ، الملك الناصر جامع كلمة الايمان ، وقامع عبدة الصلابان ، رافع على العدل والاحسان ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الاسلام والمسلمين ، منقذ بيت المقدس من أيدي المشركين ، خادم الحرمين الشريفين أبي المظفر يوسف بن أيوب بن شاذي سقى الله ضريحه ذوب الرضوان ، وأذاقه في مقر رحمته حلاوة نتيجة الايمان ، قد صدقت من أخبار الاولين ما كذبه الاستبعاد ، وشهدت بالصحة لما روي من نواذر الكرام الأجواد ، وحققت وقعات شجعان مماليكها ما قدحت فيه الشكوك من أخبار الشجعان ، ورأيت بالعيان من الصبر على المكاره في ذات الله ما قوى بها الايمان ، وعظمت عجائبها عن أن يحيط بها خاطر أو يجنأ جنان ، وجلت نواذرهما أن تحد ببيان لسان ، أو أن تسطر في طرس بينان ، وكانت مع ذلك من قبيل لا يمكن الخبير بها إخفاؤها ، ولا يسع المطلع عليها إلا أن تروي عنه أخبارها وأنباؤها ، ومسني من رق نعمتها ، وحق

محبته وواجب خدمتها ، مايجب علي به إبداء مصادقت من حسناتها ، ورواية ما علمت من محاسن صفاتها .

رأيت أن اختصر من ذلك على ما أملاه علي العيان ، أو الخبر الذي يقارب مظلونه درجة الايقان ، وذلك جزء من كل ، وقل من جل ، ليستدل بالقليل على الكثير ، وبالشعاع على المستطيل بعد المستطير ، وسميت هذا من مختصر تاريخها (الزواجر السلطانية ، والمحاسن اليوسفية) وجعلته قسمين أحدهما في مولده رحمه الله ومذنبه وخصائصه وأوصافه وأخلاقه المرضية ، وشماله الراجعة في نظر الشرع الوفية ، والقسم الثاني في تقلبات الأحوال به ووقائعه وفتوحه ، وتواريخ ذلك أيام حياته قدس الله روحه ، والله المستعان في الصيانة عن هفوات اللسان والقلم ، وجريان خاطر بما فيه مزية القدم ، وهو حسبي ونعم الوكيل .

القسم الأول في ذكر مولده وخصائصه

وأوصافه وشمائله وخلالله رحمة الله عليه

كان مولده رحمه الله تعالى على ما بلغنا من أسنة الثقافات الذين تتبعوه حتى بذوا عليه تسيير مولده على ما تقتضيه صناعة التنجيم في شهور سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة وذلك بقلعة تكريت .

وكان والده أيوب بن شاذي رحمه الله تعالى وإليها بها ، وكان كريما أريحيا حليما حسن الأخلاق مولده بدوين ، (١) ثم اتفق له الانتقال من تكريت إلى الموصل المحروسة ، وانتقل ولده المذكور معه وأقام بها إلى أن ترعرع ، وكان والده محترما هو وأخوه أسد الدين شيركوه عند أتابك زنكي ، واتفق لوالده الانتقال إلى الشام وأعطى بعلبك وأقام بها مدة ، فنقل ولده المذكور إلى بعلبك المحروسة وأقام بها في خدمة والده يتربى تحت حجره ، ويرتضع ثدي محاسن أخلاقه حتى بدت منه إمارات السعادة ، ولاحت لوائح التقدم والسيادة ، فقدمه الملك العادل نور الدين بن زنكي رحمه الله تعالى وعول عليه ، ونظر إليه وقربه وخصصه ، ولم يزل كلما تقدم قدما تبدو منه أسباب تقضي تقيمه إلى ما هو أعلى منه حتى بدا لعمه أسد الدين رحمه الله الحركة إلى مصر المحروسة ونهاهه إليها . وسيأتي ذكر بيان ذلك مفصلا مبينا أن شاء الله تعالى .

ذكر ماشهدناه من مواظبته على القواعد الدينية وملاحظته للأمور الشرعية .

ورد في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « بني الاسلام على خمس : شهادة إن لا إله إلا الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، والحج إلى بيت الله الحرام » وكان رحمة الله عليه حسن العقيدة كثير الذكر لله تعالى قد أخذ عقيدته على الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء ، وفهم من ذلك ما يحتاج إلى تفهمه بحيث كان إذا جرى الكلام بين يديه يقول فيه قولاً حسناً ، وإن لم يكن بعبارة الفقهاء فتحصل من ذلك سلامة عقيدته عن كدر التشبيه ، غير مارق سهم النظر إلى التعطيل والتمويه ، جارية على نمط الاستقامة ، موافقة لقانون النظر الصحيح ، مرضية عند أكابر العلماء ، وكان قد جمع له الشيخ قطب الدين النيسابوري عقيدة تجمع جميع ما يحتاج إليه في هذا الباب ، وكان من شدة حرصه عليها يعلمها للصغار من أولاده حتى ترسخ في أذهانهم في الصغر ، ورأيته وهو يأخذها عليهم ، وهم يلقونها من حفظهم بين يديه .

وأما الصلاة : فإنه كان رحمه الله تعالى شديد المواظبة عليها بالجملة ، حتى أنه ذكر يوماً أن له سنين ماضى إلا جماعة ، وكان إن مرض يستدعي الامام وحده ويكلف نفسه القيام ويصلي جماعة ، وكان يواظب على السنن الرواتب ، وكان له صلوات يصلها إذا استيقظ في الليل وإلا أتى بها قبل صلاة الصبح ، ولم يكن يترك الصلاة مادام عقله عليه ، ولقد رأيته قدس الله روحه يصلي في مرضه الذي مات فيه قائماً ، وماترك الصلاة إلا في الايام الثلاثة التي تغيب فيها ذهنه ، وكان إذا أدركته الصلاة وهو سائر نزل وصلى .

وأما الزكاة : فإنه مات رحمه الله تعالى ولم يحفظ ماتجب عليه به الزكاة .

وأما صدقة الذفل : فإنها استترقت جميع مملكه من الأموال فإنه ملك ممالك ولم يخلف في خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهما ناصرية ، وجرما واحدا ذهبيا ولم يخلف ملكا ولا دارا ولا عقارا ولا بستانا ولا قرية ولا مزرعة ولا شيئا من أنواع الاملاك .

وأما صوم رمضان : فإنه كان عليه منه فوائت بسبب أمراض تواترت عليه في رمضانات متعددة ، وكان القاضي الفاضل قد تولى ثبت تلك الأيام ، وشرع رحمه الله في قضاء تلك الفوائت بالقدس الشريف في السنة التي توفي فيها ، وقد واظب على الصوم مدة حتى بقيت عليه فوائت رمضانين شغلته الأمراض وملازمة الجهاد عن قضائها ، ومع كون الصوم لا يوافق مزاجه الهمة الله تعالى الصوم وأقدره على ما قضاه من تلك الفوائت ، فكان يصوم وأنا أثبت الأيام التي يصومها لأن القاضي كان غائبا ، وكان الطبيب يلومه وهو لا يسمع ، ويقول : لا أعلم ما يكون ، فكأنه كان ملهما مايراد به رحمه الله تعالى .

وأما الحج: فإنه كان لم يزل عازما عليه وناويا له سيما في العام الذي توفي فيه ، فإنه صمم العزم عليه ، وأمر بالتأهب ، وعملنا الرفادة ولم يبق إلا المسير فاعتاق عن ذلك بسبب ضيق الوقت ، وخلو اليد عما يليق بأمثاله ، فأخر إلى العام المستقبل ، ففضى الله ما قضى ، وهذا شيء اشترك في العلم به الخاص والعام .

وكان رحمه الله تعالى يحب سماع القرآن العظيم ، ويستجيد إمامه ، ويشترط أن يكون عالما بعلم القرآن العظيم متقنا لحفظه ، وكان يستقرئ من يحرسه في الليل وهو في برجه (٢) الجزئين والثلاثة والأربعة وهو يسمع ، وكان يستقرئ وهو في مجلسه العام من جرت عادته بذلك الآية والعشرين والزائد على ذلك ، ولقد اجتاز

على صغير بين يدي أبيه وهو يقرأ القرآن فاستحسب قراءته فقربه ، وجعل له حظا من خاص طعامه ، ووقف عليه وعلى أبيه جزءا من مزرعة .

وكان رحمه الله تعالى خاشع القلب رقيقه غزير الدمعة إذا سمع القرآن يخشع قلبه وتدمع عينه في معظم أوقاته ، وكان رحمه الله شديد الرغبة في سماع الحديث ، إذا سمع عن شيخ ذي رواية عالية وسماع كثير ، فإن كان ممن يحضر عنده استحضره وسمع عليه فأسمع من يحضره في ذلك المكان من أولاده ومالكه المختصين به ، وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث إجلالا له ، وإن كان ذلك الشيخ ممن لا يطرق أبواب السلاطين ويتجافى عن الحضور في مجالسهم سعى إليه وسمع عليه ، تردد إلى الحافظ الأصفهاني بالاسكندرية حرسها الله تعالى وروي عنه أحاديث كثيرة .

وكان رحمه الله تعالى يحب أن يقرأ الحديث بنفسه ، وكان يستحضرني في خلوته ويحضر شيئا من كتب الحديث ويقرأها هو فإذا مر بحديث فيه عبرة رق قلبه ودمعت عينه .

وكان رحمة الله عليه كثير التعظيم لشعائر الدين ، يقول ببعث الأجسام ونشورها ، ومجازاة المحسن بالجنة ، والمسيء بالنار مصدقا بجميع ما وردت به الشرائع ، مذكرا بذلك صدره مبغضا للفلاسفة والمعتلة ومن يعاند الشريعة ، ولقد أمر ولده صاحب حلب الملك الظاهر أعز الله أنصاره بقتل شاب نشأ يقال له السهروردي ، قيل عنه انه كان معاندا للشرائع مبطلا ، وكان قد قبض عليه ولله المذكور لما بلغه من خبره ، وعرف السلطان به ، فأمر بقتله فطلبه أياما فقتله .

وكان قدس الله روحه حسن الظن بالله ، كثير الاعتماد عليه ، عظيم الانابة اليه ، ولقد شاهدت من آثار ذلك ما أحكيه ، وذلك إن الفرنج خذلهم الله كانوا نازلين ببيت نوبة ، وهو موضع قريب من

القدس الشريف حرسها الله تعالى ، بينهما بعض مرحلة ، وكان السلطان بالقدس ، وقد أقام يزكا (٣) على العدو محيطا به ، وقد سير إليهم الجواسيس والمخبرين ، فتواصلت الأخبار بقوة عزمهم على الصعود إلى القدس ومحاصرته ، وتركيب القنابل (٤) عليه ، واشتدت مخافة المسلمين بسبب ذلك ، فاستحضر الأمراء وعرفهم ماقد دهم المسلمين من الشدة وشاورهم في الإقامة بالقدس ، فأتوا بمجاملة باطنها غير ظاهرها ، وأصر الجميع على أنه لامصلحة في إقامته بنفسه ، فإنها مخاطرة بالاسلام وذكروا أنهم يقصدونهم ، ويخرج هو رحمه الله بطائفة من العسكر يكون حول العدو كما كان الحال بعكا ، ويكون هو ومن معه بصدد منع ميرتهم والتضييق عليهم ، ويكونون هم بصدد حفظ البلد والدفع عنه ، وانفصل مجلس المشورة على ذلك وهو مصر على أن يقيم بنفسه علما منه أنه إن لم يقم لم يقم احد ، فلما انصرف الأمراء الى بيوتهم جاء من

عندهم من أخبر أنهم لا يقيمون إلا أن يقيم أخوه الملك العادل ، أو أحد أولاده حتى يكون هو الحاكم عليهم ، والذي يأترون بأمره ، فعلم أن هذه إشارة منهم إلى عدم الإقامة وضاق صدره وتقسم فكره واشتدت فكرته ، واقد جلست في خدمته في تلك الليلة ، وكانت ليلة الجمعة من أول الليل إلى أن قارب الصبح ، وكان الزمان شتاء وليس معنا ثالث إلا الله تعالى ، ونحن نقسم أقساما ونرتب على كل قسم بمقتضاه ، حتى أخذني الاشفاق عليه ، والخوف على مزاجه ، فإنه كان يغلب عليه اليأس ، فشفعت إليه حتى يأخذ مضجعة لعله ينام ساعة ، فقال رحمه الله : لعلك جئك الذوم ثم نهض فما وصلت إلى بيتي وأخذت لبعض شأنني إلا وأذن المؤذن وطلع الصبح وكنت أصلي معه الصبح في معظم الأوقات ، فدخلت عليه وهو يمر الماء على أطرافه فقال : ما أخذني الذوم أصلا ، فقلت : قد علمت ، فقال : من أين ؟ فقلت : لأنني مانمت ، وما بقي وقت للذوم ، ثم اشتغلنا بالصلاة وجلسنا على ما كنا عليه ، فقلت له : قد وقع لي واقع وأظنه مفيدا إن شاء الله تعالى ، فقال : وما هو ؟ فقلت له : الإخلاق إلى الله تعالى والانابة إليه ،

والاعتماد في كشف هذه الغمسة عليه ، فقال : وكيف نصنع ؟ فقلت : اليوم الجمعة يغتسل المولى عند الرواح ويصلي على العادة بالأقصى موضع مسرى النبي صلى الله عليه وسلم ، ويقدم المولى التصديق بشيء خفية على يد من يثق به ، ويصلي المولى ركعتين بين الأذان والاقامة ، ويدعو الله في سجوده ، فقد ورد فيه حديث صحيح ، وتقول في باطنك : « يا إلهي قد انقطعت أسبابي الأرضية في نصره بينك ، ولم يبق إلا الإخلاص إليك والاعتصام بحبك والاعتماد على فضلك ، أنت حسبي ونعم الوكيل » ، فإن الله أكرم من أن يخيب قصدك ، ففعل ذلك كله ، وصليت على جانبه على العادة ، وصلى الركعتين بين الأذان والاقامة ، ورأيتُه ساجدا ودموعه تتقاطر على شيبته ثم على سجادته ولا أسمع ما يقول ، فلم ينقض ذلك اليوم حتى وصلت رقعة من عز الدين جريدك ، وكان على اليزك يخبر فيها أن الأفرنج مختبطون ، وقد ركب اليوم عسكرهم بأسره إلى الصحراء ووقفوا إلى قائم الظهيرة ثم عادوا إلى خيامهم ، وفي بكرة السبت جاءت رقعة ثانية تخبر عنهم بمثل ذلك ، ووصل في أثناء النهار جاسوس أخبر أنهم اختلفوا فذهبت الفرندسية إلى أنهم لا يد لهم من محاصرة القدس ، ونهب الانكتار وأتباعه إلى أنه لا يخاطر بدين النصرانية ويرميهم في الجبل مع عدم المياه فإن السلطان كان قد أفسد جميع ماحول القدس من المياه ، وأنهم خرجوا للمشورة ومن عادتهم أنهم يتشاورون للحرب على ظهور الخيل ، وأنهم قد نصوا على عشرة أنفس منهم وحكموهم فأبي شيء أشاروا به لا يخالفونهم ، ولما كانت بكرة الاثنين جاء المبشر يخبر أنهم رحلوا عائدين إلى جهة الرملة ، فهذا ما شاهدته من آثار استنباطه وإخلاده إلى الله تعالى رحمه الله .

ذكر عدله رحمه الله تعالى

روى أبو بكر الصديق ، رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الوالي العادل ظل الله في أرضه ، فمن نصحه في نفسه أو عباده أظله الله تحت عرشه يوم لا ظل إلا ظله ، ومن خانته في نفسه أو في عباد الله خذله الله يوم القيامة ، يرفع للوالي العادل في كل يوم عمل ستين صديقا كلهم عابد مجتهد لنفسه » (٥)

ولقد كان رحمه الله عادلا رؤوفا رحيفا ، ناصرا للضعيف على القوي ، وكان يجلس للعدل في كل اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ، ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كل أحد من كبير وصغير وعجوز هرمة وشيخ كبير ، وكان يفعل ذلك سفرا وحضرا ، على أنه كان في جميع زمانه قابلا لجميع ما يعرض عليه من القصص في كل يوم ، ويفتح باب العدل ، ولم يرد قاصدا للحوادث والحكومات ، وكان يجلس مع الكاتب ساعة أما في الليل أو في النهار ، ويوقع على كل قصة بما يجريه الله على قلبه ، ولم يرد قاصدا أبدا ولا منتحلا ولا طالب حاجة ، وهو مع ذلك دائم الذكر والمواظبة على التلاوة رحمة الله عليه ، ولقد كان رؤوفا بالرعية ناصرا للدين مواظبا على تلاوة القرآن العزيز عالما بما فيه عاملا به لا يعدوه أبدا رحمة الله عليه ، وما استغاث إليه أحد إلا وقف وسمع قضيته ، وكشف ظلامته واعتنى بقصته ، ولقد رأيت أنه وقد استغاث إليه إنسان من أهل دمشق يقال له ابن زهير على تقبي الدين (٦) ابن أخيه ، فأنفذ إليه ليحضر إلى مجلس الحكم ، فما خالسه إلا أن شهد عليه شاهدين معروفين مقبولي القول ، أنه وكل القاضي أبا القاسم أمين الدين - قاضي حماه - في المخاصمة والمنازعة ، فحضر الشاهدان وأقاما الشهادة عندي في مجلسه - رضي الله عنه - بعد دعوى الوكيل الوكالة الصحيحة ، وإنكار الخصم فلما ثبتت الوكالة أمرت أبا القاسم بمساواة

الخصم ، فساواه - وكان من خواص السلطان رحمه الله - ثم جرت المحاكمة بينهما ، واتجهت اليمين على تقى الدين وانقضى المجلس على ذلك ، وقطعنا عن إحضاره بخول الليل ، وكان تقى الدين من أعز الناس عليه ، وأعظمهم عنده ، ولكنه لم يحابه في الحق .

وأعظم من هذه الحكاية مما يدل على عدله قضية جرت له مع إنسان تاجر يدعى عمر الخلاطي ، وذلك أني كنت يوما في مجلس الحكم بالقدس الشريف إذ دخل علي شيخ حسن تاجر معروف يسمى عمر الخلاطي معه كتاب حكمي يسأل فتحه ، فسألته : من خصمك ؟ قال : خصمي السلطان ، وهذا بساط العدل ، وقد سمعنا أنك لاتحابي ، قلت : وفي أي قضية هو خصمك ؟ فقال إن سنقر الخلاطي كان مملوكي ولم يزل على ملكي إلى أن مات ، وكان في يده أموال عظيمة كلها لي ومات عنها واستولى عليها السلطان وأنا مطالبه بها ، فقلت له : يا شيخ وما أقعدك إلى هذه الغاية ؟ فقال الحقوق لاتبطل بالتأخير ، وهذا الكتاب الحكمي ينطق بأنه لم يزل في ملكي إلى أن مات فأخذت الكتاب منه وتصفحته مضمونه فوجدته يتضمن حلية سنقر الخلاطي وأنه قد اشتراه من فلان التاجر بارجيش اليوم الفلاني من كذا من سنة كذا ، وأنه لم يزل في ملكه إلى أن شذ عن يده في سنة كذا ، وما عرف شهود هذا الكتاب خروجه عن ملكه وجه ما ، وتم الشرط إلى آخره فتعجبت من هذه القضية ، وقلت للرجل : لايسعني سماع الدعوى بلا وجود الخصم ، وأنا أعرفه وأعرفك ماعنده ، فرضي الرجل بذلك ، واندفع فلما اتفق المثل بين يديه في بقية ذلك اليوم عرفته القضية فاستبعد ذلك استبعادا عظيما وقال : كنت نظرت في الكتاب ؟ فقلت : نظرت فيه ورأيت متصل الورود والقبول إلى دمشق ، وقد كتب عليه كتاب حكمي من دمشق ، وشهد به على يد قاضي دمشق شهود مغروفون ، فقال : مبارك نحن نحضر الرجل ونحاكمه ونعمل في القضية ما يقتضيه الشرع ، ثم اتفق بعد ذلك جلوسه معي فقلت له هذا الخصم يتردد ولا بد أن تسمع دعواه ، فقال : أقم عني وكيفا

يسمع الدعوى ، ثم يقيم الشهود شهادتهم وآخر فتح الكتاب إلى حين حضور الرجل هاهنا ، ففعلت ذلك ، ثم أحضر الرجل واستدناه حتى جلس بين يديه ، وكنت الى جانبه ، ثم نزل من طراحته حتى ساواه وقال : إن كان لك دعوى فاذكرها فحرر الرجل الدعوى على معنى ماشرح أولا ، فأجابه السلطان إن سنقر هذا كان مملوكي ولم يزل على ملكي حتى أعذقته وتوفي وخاف ماخلفه لورثته ، فقال الرجل : لي بيعة تشهد بما ادعيت ، ثم سأل فتح كتابه ففتحته فوجدته كما شرحه ، فلما سمع السلطان التاريخ قال عندي من يشهد أن سنقر هذا في هذا التاريخ كان في ملكي وفي يدي بمصر وأناي اشتريته مع ثمانية أنفس في تاريخ متقدم على هذا التاريخ بسنة ، وأنه لم يزل في يدي وملكى إلى أن أعذقته ، ثم استحضر جماعة من أعيان الأمراء والمجاهدين فشهدوا بذلك وذكروا القصة كما ذكرها والتاريخ كما ادعاه ، فأبأس الرجل ، فقلت له : يا مولاي هذا الرجل ما فعل ذلك إلا طلبا لمراحم السلطان ، وقد حضر بين يدي المولى ولا يحسن أن يرجع خائبا للقصد ، فقال هذا بساب آخر ، وتقدم له بخلعة ودفقة بالغة قد شذ عن مقدارها ، فانظر إلى ما في طي هذه القضية من المعاني الغريبة العجيبة ، والتواضع والانقياد إلى الحق ، وارغام النفس والكرم في موضع المؤاخنة مع القدرة التامة ، رحمه الله تعالى رحمة واسعة .

ذكر شجاعته قدس الله روحه

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ان الله يحب الشجاعة ولو على قتل حية » (٨) ، ولقد كان رحمه الله تعالى من عظماء الشجعان قوي النفس ، شديد البأس ، عظيم الثبات ولا يهوله أمر ، ولقد رأيت - رحمه الله - مرابطا في مقابلة عدة عظيمة من الفرنج ، ونجدهم تتواصل ، وعساكرهم تتواتر ، وهو لا يزداد الا قوة نفس وصبر ، ولقد وصل في ليلة واحدة منهم نيف وسبعون مركبا على عكا ، وأنا أعدها من بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس ، وهو لا يزداد إلا قوة نفس ، ولقد كان - رحمه الله - يعطي دستورا في أوائل الشتاء ، ويبقى في شرمه يسيرة في مقابلة عددهم الكثير ، وقد سألت باليان بن بارزان ، وهو من كبار ملوك الساحل وهو جالس بين يديه رحمه الله يوم انعقاد الصلح عن عدتهم ، فقال الترجمان عنه : انه يقول : كنت أنا وصاحب صيدا ، وكان أيضا من ملوكهم وعقلائهم قاصدين عسكرنا من صور ، فلما أشرفنا عليه تحازرناه فحزرهم هو خمس مائة ألف وحزرتهم أنا بستمائة ألف ، أو قال عكس ذلك ، قلت : فكم هلك منهم ؟ فقال : أما بالقتل فقريب من مائة ألف ، وأما بالموت والغرق فلا نعلم ، ومارجع من هذا العالم إلا الأقل .

وكان لا بد له من أن يطوف حول العدو في كل يوم مرة أو مرتين ، إذا كنا قريبا منهم .

وكان رحمه الله تعالى إذا اشتد الحرب يطوف بين الصفين ومعه صبي واحد على يده جنيب ، ويخرق العساكر من الميمنة إلى الميسرة ويرتب الأطلاب ويأمرهم بالتقدم والوقوف في مواضع يراها ، وكان يشارف العدو ويجاوره رحمه الله ، ولقد قرىء عليه جزآن من الحديث بين الصفين ، وذلك أنني قلت له قد سمع الحديث في جميع المواطن الشريفة ولم ينقل أنه سمع بين الصفين ، فإن رأى المولى

أن يؤثر عنه ذلك كان حسنا ، فأنن في ذلك فأحضر جزاه كما أحضر
من له به سماع ، فقرأ عليه ونحن على ظهور الدواب بين الصفين ،
نمشي تارة ونقف أخرى .

وما رأيته استكثر العدو أصلا ولا استعظم أمرهم قط ، وكان مع
ذلك في حال الفكر والتدبير تذكر بين يديه الأقسام كلها ، ويرتب على
كل قسم بمقتضاه من غير حدة ولا غضب يعتريه ، ولقد انهزم
المسلمون في يوم المصاف الأكبر بمرج عكا حتى القلب ورجاله ووقع
الكوس والعلم ، وهو رضي الله عنه ثابت القدم في نفر يسير حتى
إنحاز إلى الجبل يجمع الناس ، ويردهم ويخجلهم حتى
يرجعوا ، ولم يزل كذلك حتى نصر عسكر المسلمين على العدو في ذلك
اليوم ، وقتل منهم زهاء سبعة آلاف مابين راجل وفارس ، ولم يزل
رحمه الله مصابرا لهم ، وهم في العدة الوافرة إلى أن ظهر له ضعف
المسلمين فصالح وهو مسؤول من جانبهم فإن الضعف والهلاك كان
فيهم أكثر ، ولكنهم كانوا يتوقعون النجدة ، ونحن لانتوقعها ،
وكانت المصلحة في الصلح وظهر ذلك لما أبدت الأقضية الالهية
والأقدار ما في مكنونها .

وكان رحمه الله يمرض ويصح وتعتريه أحوال مهولة وهو مصابر
مرابط ، وتترأى الناران ، ونسمع منهم صوت الناقوس ،
ويسمعون منا صوت الأذان الى أن انقضت الواقعة على أحسن حال
وأيسره ، قدس الله روحه ونور ضريحه

ذكر اهتمامه بأمر الجهاد

قال الله تعالى : (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين) (١) ونصوص الجهاد كثيرة ، ولقد كان رحمه الله شديد المواظبة عليه عظيم الاهتمام به ، ولو حلف حالف أنه ما أنفق بعد خروجه الى الجهاد ديناراً ولا درهما الا في الجهاد أو في الأرفاد لصدق وبر في يمينه ، ولقد كان حبه للجهاد والشفغ به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيماً بحيث ما كان له حديث الا فيه ، ولا نظر الا في آله ، ولا كان له اهتمام الا برجاله ، ولا ميل الا الى من يذكره ويحث عليه ، ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله اهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر بلاده ، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة ، ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلة ريحية على مرج عكا فلو لم يكن في البرج لقتلته ولا يزيد ذلك الا رغبة ومصابرة واهتماماً .

وكان الرجل اذا أراد أن يتقرب اليه يحثه على الجهاد وأنا ممن جمع له فيه كتاباً جمعت فيه آدابه وكل اية وردت فيه وكل حديث روي في فضله وشرحت غريبها . وكان رحمه الله كثيراً ما يطلعه حتى أخذه منه ولده الملك الأفضل عز نصره ،

ولأحكين عنه ما سمعت منه ، وذلك انه كان قد أخذ كوكب في ذي القعدة سنة أربع وثمانين وخمسمائة ، وأعطى العساكر دستوراً وأخذ عسكر مصر في العود الى مصر وكان مقدمه أخاه الملك العادل عز نصره ، فسار معه ليودعه ويحظى بصلاة العيد في القدس الشريف حرسه الله تعالى ، وسرنا في خدمته ، ولما صلى العيد في القدس وقع له ان يمضي الى عسقلان ويودعهم بعسقلان ، ثم يعود على طريق الساحل يتفقد البلاد الساحلية الى عكا ، ويرتب أحوالها ، فاشاروا عليه ان لا يفعل فان العساكر اذا فارقتنا نبقي في

عدة يسيرة والفرنج كلهم بصور ، وهذه مخاطرة عظيمة ، فلم يلتفت رحمه الله ، وودع اخاه بالعسكر بعسقلان ، ثم سرنا في خدمته الى الساحل طالبين عكا ، وكان الزمان شتاء والبحر هائجا شديدا ، وموجه كالجبال كما قال تعالى ، (١٠) وكنت حديث عهد برؤية البحر فعظم امر البحر عندي ، حتى خيل لي اني لو قال لي قائل قادر : ان جزت في البحر ميلا واحدا ملكتك الدنيا لما كنت افعل واستسخرت رأي من ركب البحر رجاء نينار أو درهم ، واستحسن رأي من لا يقبل شهادة راكب بحر . هذا كله خطر لي لعظم الهول الذي شاهدته من حركة البحر وتموجه ، فبينما انا في ذلك اذ التفت إلي رحمه الله ، وقال : اما : احكي لك شيئا في نفسي انه متى مايسر الله تعالى فتح بقية الساحل ، قسمت البلاد وأوصيت ، وودعت وركبت هذا البحر الى جزائرهم وأتبعتهم فيها حتى لا أبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت ، فعظم وقع الكلام عندي حيث ناقض ما كان خطر لي ، وقلت له : ليس في الأرض أشجع نفسا من المولى ولا أقوى منه نية في نصرته بين الله تعالى ، فقال : وكيف ؟ فقلت : اما الشجاعة فلان مولانا ما يهوله أمر هذا البحر وهوله ، وأما نصرته بين الله فهو ان المولى ما يقنع بقلع اعداء الله من موضع مخصص في الأرض حتى يطهر جميع الأرض منهم ، واستأننت أن احكي له ما كان خطر لي ، فحكيت له ثم قلت : ماهذه الا نية جميلة ، ولكن المولى يسير في البحر العساكر وهو سور الاسلام ومنعته فلا ينبغي له ان يخاطر بنفسه ، فقال : انا استفتيك ما اشرف الميتات ؟ فقلت : الموت في سبيل الله ، فقال : غاية ما في الباب ان اموت اشرف الميتات فانظر الى هذه الطوية ما طهرها ، والى هذه النفس ما اشجعها وأجراها ، رحمة الله عليه ، اللهم اذك تعلم أنه بذل جهده في نصرته بينك ، وجاهد رجاء رحمتك فارحمه .

صبره واحتسابه رحمة الله عليه

قال الله سبحانه وتعالى : (ثم جاهدوا وصبروا ان ربك من بعدها لغفور رحيم) . (١١) ولقد رأيت رحمة الله بمرج عكا وهو على غاية من مرض اعتراه بسبب كثرة دماويل كانت ظهرت عليه من وسطه الى ركبتيه بحيث لا يستطيع الجلوس ، وانما يكون منكبا على جانبه إن كان بالخيمة وامتنع من مد الطعام بين يديه لعجزه عن الجلوس ، وكان يأمر أن يفرق على الناس ، وكان مع ذلك قد نزل بخيمة الحرب قريبا من العدو وقد رتب الناس ميمنة وميسرة وقلبا ، تعبئة القتال ، وكان مع ذلك كله يركب من بكرة النهار الى صلاة المغرب يطوف على الاطلاب صابرا على شدة الألم ، وقوة ضربان الدماويل وأنا أتعجب من ذلك ، فيقول : اذا ركبت يزول عني ألمها حتى أنزل ، وهذه عناية ربانية .

واقدر مرض رحمة الله ونحن على الخروبة ، وكان قد تأخر عن تل الحجل بسبب مرضه فبلغ الافرنج فخرجوا طمعا في أن ينالوا شيئا من المسلمين ، وهي ذوبة النهر فخرجوا في مرحلة الى الابار التي تحت التل ، فأمر رحمة الله بالثقل حتى يتجهز بالرحيل والتأخر الى جهة الناصرة ، وكان عماد الدين صاحب سنجار متمرضا أيضا فأنن له ان يتأخر مع الثقل ، واقام هو ، ثم رحل العدو في اليوم الثاني يطلبنا ، فركب على مضض ، ورتب العسكر للقاء القوم تعبئة الحرب ، وجعل طرف الميمنة الملك العادل ، وطرف الميسرة تقي الدين ، وجعل ولده الملك الظاهر والملك الأفضل عز نصرهما في القلب ، ونزل هو وراء القوم يطلبهم ، وأول ما نزل من التل أحضر بين يديه افرنجي قد أسر من القوم ، فأمر بضرب عنقه بين يديه بعد عرض الاسلام عليه وابائه عنه ، وكلما سار العدو يطلب رأس النهر سار هو يستدير الى ورائهم ، حتى يقطع بينهم وبين خيامهم ، وهو يسير ساعة ثم ينزل يستريح ويتظلل بمنديل على رأسه من شدة وقع الشمس ، ولا ينصب له خيمة حتى لا يرى العدو ضعفه ، ولم يزل

كذلك حتى نزل العدو برأس النهر ونزل هو قبالتهم على تل مطل عليهم الى أن نخل الليل ، ثم أمر العساكر المنصورة أن عادت الى محل المصابرة وأن يبيتوا تحت السلاح ، وتأخر هو ونحن في خدمته الى قمة الجبل ، فضربت له خيمة لطيفة ، وبيتنا تلك الليلة اجمع انا والطبيب نمرضه ونشأغله ، وهو ينام تارة ويستيقظ اخرى حتى لاح الصباح ، ثم ضرب البوق وركب وركبت العساكر ، وأحدثت بالعدو ، ورحل العدو عائدا الى خيامهم من الجانب الغربي من النهر ، وضايقهم المسلمون في ذلك اليوم مضايقة شنيعة ، وفي ذلك اليوم قدم أولاده بين يديه احتسابا وجميع من حضر منهم ، ولم يزل يبعث من عنده حتى لم يبق عنده الا انا والطبيب وعارض الجيش والغلمان بأيديهم الاعلام والبيارق لاغير ، فيظن الرائي لها عن بعد أن تحتها خلقا عظيما ، ولم يزل العدو سائرا والقتل يعمل فيهم ، وكلما قتل منهم شخص دفنوه ، وكلما جرح منهم رجل حملوه حتى لايبقى بعدهم من يعلم قتله وجرحه ، وهم سائرون ونحن نشاهدهم حتى اشتد بهم الامر ، ونزلوا عند الجسر ، وكان الافرنج متى نزلوا الى الارض ايس المسلمون من بلوغ غرض منهم لانهم يحتمون في حالة النزول حماية عظيمة ، وبقي رحمه الله في موضعه والعساكر على ظهور الخيل قبالة العدو الى اخر النهار ، ثم أمرهم أن يبيتوا على مثل ما باتوا عليه بارحتهم ، وعدنا الى منزلنا في الليلة الماضية ، وعاد العسكر في الصباح الى ماكان عليه بالامس من مضايقة العدو ، ورحل العدو ، وسار على ماضي من القتل واقتال حتى دنا الى خيامه ، وخرج اليه من أنجده حتى وصلوا الى خيامهم .

فانظر الى هذا الصبر والاحتساب والى اي غاية بلغ هذا الرجل ! اللهم انك الهمة الصبر والاحتساب ووفقته له ، فلا تحرمه ثوابه يا ارحم الراحمين .

ولقد رأيته رحمه الله تعالى وقد جاءه خبر وفاة ولد له بالغ يسمى اسماعيل فوقف على الكتاب ولم يعرف احدا ولم نعرف حتى سمعناه

من غيره ، ولم يظهر عليه شيء من ذلك سوى انه لما قرأ الكتاب دمعت عينيه .

ولقد رأيت ليلة على صدف وهو يحاصرها ، وقد قال : لاننام الليلة حتى تنصب لنا خمس مناجيق ، ورتب لكل منجنيق قوما يتولون نصبه ، وكنا طول الليل في خدمته قدس الله روحه في الذمفاكهة ، وارغد عيش ، والرسل تتواصل تخبره بان قد نصب من المنجنيق الفلاني كذا ومن المنجنيق الفلاني كذا حتى اتي الصباح وقد فرغ منها ، ولم يبق الا تركيب خنازيرها عليها ، وكانت من اطول الليالي واشدها بردا ومطرا .

ورأيت وقد وصل اليه خبر وفاة تقي الدين ابن أخيه ، ونحن في مقابلة الافرنج جريئة على الرملة ، وفي كل ليلة تقع الصيحة ، فتقلع الخيام والناس تقف على ظهر الى الصباح ، ونحن بالرملة ، والعدو بيازور ، بيننا وبينها شواط فرس لاغير ، فأحضر الملك العادل ، وعلم الدين سليمان بن جندر ، وسابق الدين بن الداية ، وعز الدين ابن المقدم ، وأمر بالناس فطردوا من قريب الخيمة بحيث لم يبق حولها أحد زيادة عن غلوة سهم ، ثم أظهر الكتاب ووقف عليه وبكى بكاء شديدا حتى أبكنا من غير أن نعلم السبب ، ثم قال رحمه الله والعبرة تخذه : توفي تقي الدين ، فاشتد بكاءه وبكاء الجماعة ، ثم عدت الى نفسي فقلت : استغفروا الله تعالى من هذه الحالة ، وانظروا أين وفيهم أنتم ، وأعرضوا عما سواه ، فقال رحمه الله : نعم استغفر الله ، وأخذ يكررها ، ثم قال : لا يعلم بهذا أحد ، واستدعى بشيء من الماورد فغسل عينيه ، ثم أشخص الطعام ، وحضر الناس ، ولم يعلم بذلك حتى عاد الى يافا وعنا نحن الى النطرون وهو مقر ثقلنا .

وكان رحمه الله شديد الشغف والشفقة بأولاده الصغار ، وهو صابر على مفارقتهم راض ببعدهم عنه ، وكان صابرا على مر العيش وخشونته مع القدرة التامة على غير ذلك احذسابا لله

- ٦٦٥٦ -

تعالى ، اللهم أنه ترك ذلك كله ابتغاء مرضاتك فارض عنه
وارحمه .

ذكر نبيذ من حلمه وعفوه رحمه الله

قال سبحانه وتعالى : (والعافين عن الناس والله يحب المحسنين) ، (١٢) ولقد كان متجاوزا قليل الغضب . ولقد كنت في خدمته بمرج عيون قبل خروج الافرنج الى عكا يسر الله فتحها وكان من عادته ان يركب في وقت الركوب ، ثم ينزل فيمد الطعام ويأكل مع الناس ، ثم ينهض الى خيمة خاصة له ينام فيها ، ثم يستيقظ من منامه ويصلي ويجلس خلوة ، وانا في خدمته نقرأ شيئا من الحديث ، أو شيئا من الفقه ، ولقد قرأ علي كتابا مختصرا تصنيف الرازي يشتمل على الارباع الاربعة من الفقه ، ونزل يوما على عادته ومد الطعام بين يديه ، ثم عزم على النهوض فقبل له : إن وقت الصلاة قد قرب ، فعاد الى الجلوس وقال : نصلي وننام ، ثم جلس يتحدث حديث مضجر ، وقد اخلى المكان ، الا ممن لزم ، فتقدم إليه مملوك كبير محترم عنده ، وعرض عليه قصة لبعض المجاهدين ، فقال له : انا الان ضجران اخرها ساعة فلم يفعل ، وقدم القصة لقريب من وجهه الكريم بيده ، وفتحها يقرأها ، فوقف على الاسم المكتوب في رأسها فعرفه فقال : رجب مستحق ، فقال : يوقع المولى له ، فقال : ليست الدواة حاضرة الآن وكان رحمه الله جالسا في باب الخركاه بحيث لا يستطيع احد الدخول اليها والدواة في صدرها ، والخركاة كبيرة ، فقال له المخاطب : هذه الدواة في صدر الخركاه ، وليس لهذا معنى الا امره اياه باحضار الدواة لاغير ، فالتفت رحمه الله فرأى الدواة ، فقال والله لقد صدق ، ثم امتد على يده اليسرى ، ومسده اليمنى ا حضرها ووقع له ، فقلت : قال الله تعالى في حق نبيه صلى الله عليه وسلم : (وانك لعلى خلق عظيم) (١٢) وما أرى المولى الا قد شاركه في هذا الخلق ، فقال : ماضرنا شيئا قضينا حاجته ، وحصل الثواب ، ولو وقعت هذه الواقعة لاحاد الناس وأفرادهم لقام وقعد ، ومن الذي يقدر أن يخاطب أحدا هو تحت حكمه بمثل

ذلك ، وهذا غاية الاحسان والحلم ، (والله لا يضيع أجر
المحسنين) . (١٤)

ولقد كانت طراحته تدا س عند التزاحم عليه لعرض القصص ، وهو
لا يتأثر لذلك ، ولقد نفرت يوما بغلتي من الجمال وأنا راكب في خدمته
فزحمت وركه حتى لفته وهو يتبسم رحمه الله ، ولقد دخلت بين يديه
في يوم ريح مطير الى القدس الشريف وهو كثير الوحل ، فنضحت
البغلة عليه من الطين حتى أذلت جميع ما كان عليه ، وهو يتبسم
وأردت التأخر عنه بسبب ذلك فما تركني .

ولقد كان يسمع من المستغيثين والمتظلمين أغلظ ما يمكن أن
يسمع ، ويلقي ذلك بالبشر والقبول ، وهذه حكاية يندر أن يسطر
مثلا ، وذلك انه كان قد اتجه نحو أخو ملك الافرنج خذلهم الله الى
البلد ، فإن العسكر كان قد رحل عنهم وبعد ، وتراجع الى النظرون ،
وهو مكان بينه وبين يافا للعسكر مرحلتان للمجد ، وثلاث معتاة ،
وجمع رحمه الله العسكر ومضى الى قيسارية يلتقي نجدتهم عساه
يبلغ منها غرضا ، وعلم الافرنج الذين كانوا بيافا ذلك ، وكان بها
الانكتارومعه جماعة فجهز معظم من كان عنده في المراكب الى
قيسارية خشية على النجدة أن يتم عليها أمر ، وبقي الانكتار في نفر
يسير لعلمهم ببعده رحمه الله عنهم وبعد العسكر ، ولما وصل رحمه
الله الى قيسارية ورأى النجدة قد وصلت الى البلد واحتمت به ،
وعلم أنه لا ينال منهم غرضة سرى من ليلته في أول الليل الى آخره
حتى أتى يافا صباحا ، والانكتار في سبعة عر فارسا وثلاثمائة
راجل نازلا خارج البلد في خيمة له فصبحه العسكر صباحا فركب

الملعون وكان شجاعا باسلا صاحب رأي في الحرب ، وثبت بين يدي
العسكر ولم يدخل البلد ، فاستدار العسكر الاسلامي بهم إلا من
جهة البحر وتعبي العسكر تعبئة القتال وأمر السلطان العسكر
بالحملة انتهازا للفرصة ، فأجابه بعض الأكراد بكلام فيه خشونة
تعتب لعدم التوفير في أقطاعه ، فعطف رحمه الله عنان فرسه

كالمغضب لعلمه أنهم لا يعملون في ذلك اليوم شيئاً وتركهم وانصرف راجعاً ، وأمر بخميته التي كانت منصوبة أن قلعت وانفضوا متيقنين ان السلطان في ذلك اليوم ربما صلب جماعة واقعد حكى لي ولله الملك الظاهر أعز الله أنصاره أنه خاف منه في ذلك اليوم ، حتى أنه لم يتجاسر أن يققع في عينيه مع أنه حمل في ذلك اليوم ، وأوغل ، ولم يزل سائراً حتى نزل بيازور ، وما من الأمراء إلا من يرعد خيفة ، ومن يعتقد أنه مأخوذ مسخوط عليه ، قال : ولم تصدثني نفسي بالخول عليه خيفة حتى استدعاني ، قال : فدخلت عليه وقد وصله من دمشق المحروسة فأكهة كثيرة ، فقال : اطلبوا الأمراء حتى يأكلوا شيئاً ، قال : فسرى عني ما كنت أجده ، وطلبت الأمراء ، فحضروا وهم خائفون فوجدوا من بشره وانبطه ما أحدث لهم الطمأنينة والامن والسرور ، وانصرفوا على عزم الرحيل كأن لم يجر شيء أصلاً ، فانظر إلى هذا الحلم الذي لا يتأتى في مثل هذا الزمان ولا يحكي عن تقدم من أمثاله رحمه الله عليه .

ذكر محافظته على أسباب المروءة

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « بعثت لاتمم مكارم الأخلاق » وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا صافحه الرجل لا يترك يده حتى يكون الرجل هو التارك الذي يبدأ بذلك ، ولقد كان السلطان كثير المروءة ندي اليد كثير الحياء مبسوط الوجه لمن يرد عليه من الضيوف ، لا يرى أن يفارقه الضيف حتى يطعم عنه ، ولا يخاطبه بشيء إلا وينجزه ، وكان يكرم الوافد عليه وإن كان كافرا .

ولقد وفد عليه البرنس صاحب أنطاكية ، فما أحس به إلا وهو واقف على باب خيمته بعد وقوع الصلح في شهر شوال سنة ثمان وثمانين وخمس مائة عند منصرفه من القدس إلى دمشق ، عرض له في الطريق وطلب منه شيئا فأعطاه العمق ، وهي بلاد كان أخذها منه عام فتح الساحل ، وهو سنة أربع وثمانين .

ولقد رأيته وقد نخل عليه صاحب صيدا بالناصره فاحترمه وأكرمه وأكل معه الطعام ، ومع ذلك عرض عليه الاسلام فذكر له طرفا من محاسنه وحثه عليه .

وكان يكرم من يرد عليه من المشايخ وأرباب العلم والفضل وذوي الأقدار ، وكان يوصينا بأن لا تغفل عمن يجتاز بالخيم من المشايخ المعروفين حتى يحضرهم عنده وينالهم من إحسانه ، ولقد مر بنا سنة أربع وثمانين وخمس مائة رجلا جمع بين العلم والتصوف ، وكان من ذوي الأقدار وأبوه صاحب توريث ، فأعرض هو عن فن أبيه واشتغل بالعلم والعمل ، وحج ووصل زائرا لبيت الله المقدس ، ولما قضى لبائته منه ورأى آثار السلطان رحمه الله فيه ، وقع له زيارته ، فوصل إلينا إلى المعسكر المنصور ، فما أحسست به إلا وقد دخل علي في الخيمة ، فلقيته ورحبت

به ، وسألته عن سبب ذلك ووصوله ، فأخبرني بذلك وأنه يؤثر زيارة السلطان لما رأى له من الآثار الحميدة الجميلة ، فعرفت السلطان بذلك في ليلة وصول هذا الرجل ، فاستحضره وروي عنه حديثا ، ثم انصرفنا وبات عندي في الخيمة ، فلما صليت الصبح أخذ يودعني ، فقبحت له المسير بدون وداع السلطان فلم يلتفت ولم يلو على ذلك ، وقال : قد قضيت حاجتي منه ولا غرض لي فيما عدا رؤيته وزيارته ، وانصرف من ساعته ، ومضى على ذلك ليال فسال السلطان عنه فأخبرته بفعله ، فظهر عليه آثار الغضب كيف لم أخبره برواحه ، وقال : كيف يطرقنا مثل هذا الرجل وينصرف عنا من غير إحسان يمسه منا ، وشدد التذكير علي في ذلك ، فما وجدت بدا من أن أكتب كتابا إلى محيي الدين قاضي دمشق كلفته فيه السؤال عن حال الرجل وإيصال رقعة كتبتهما إليه طي كتابي أخبره فيها بإنكار السلطان رواحه من غير اجتماعه به ، وحسنت له فيها العود ، وكان بيني وبينه صداقة تقتضي مثل ذلك ، فما أحسست به إلا وقد عاد إلي فرحب به السلطان وانبط معه ، وأمسكه أياما ، ثم خلع عليه خلعة حسنة ، وأعطاه مركبا لا ذقا وثيابا كثيرة يحملها إلى بنيه وأتباعه وجيرانه ، وانصرف عنه وهو أشكر الناس وأخلصهم دعاء لأيامه .

واقدر رأيته وقد مثل بين يديه أسير إفرنجي قد أصابه كرب بحيث أنه ظهرت عليه إمارات الخوف والجزع ، فقال للترجمان : من أي شيء يخاف ؟ فأجروا الله على لسانه أن قال : كنت أخاف قبل أن أرى هذا الوجه فبعد رؤيتي له وحضوري بين يديه أيقنت أنني ما أرى إلا الخير ، فرق له ومن عليه وأطلقه .

ولقد كنت راكبا في خدمته في بعض الأيام قبالة الأفرنج وقد وصل بعض اليزكية ، ومعه امرأة شديدة التخوف كثيرة البكاء متواترة الدق على صدرها ، فقال اليزكي : إن هذه خرجت من عند الأفرنج فسألت الحضور بين يديك ، وقد أتينا بها ، فأمر الترجمان أن يسألها عن قصتها ، فقالت : اللصوص المسلمون نخلوا البارحة

إلى خيمتي وسرقوا ابنتي وبت البسارحة أسستغيث إلى بسكرة
النهار ، فقال لي الملوك : السلطان هو أرحم ونحن نخرجك اليه
تطلبين ابنتك منه ، فأخرجوني إليك وما أعرف ابنتي إلا منك ، فرق
لها ودمعت عينه وحركته مروءته وأمر من ذهب إلى سوق العسكر
يسأل عن الصغيرة من اشتراها ويدفع له ثمنها ويحضرها ، وكان
قد عرف قضيتها من بكرة يومه ، فما مضت ساعة حتى وصل
الفرس والصغيرة على كتفه ، فما كان إلا أن وقع نظرها عليها
فخرت إلى الأرض تعفر وجهها في التراب ، والناس يبكون على
مانالها ، وهي ترفع طرفها إلى السماء ، ولانعلم ما تقول ، فسلمت
ابنتها إليها وحملت حتى أعيدت إلى عسكرهم .

وكان رحمه الله لا يرى الاساءة إلى من صحبه وإن أفرط في
الخيانة ، ولقد أبدل في خزائنه كيسان من الذهب المصري بكيسين
من الفلوس فما عمل بالذواب شيئا سوى أن صرفهم من عملهم
لاغير .

ولقد دخل البرنس أرناط صاحب الكرك مع ملك الأفرنج بالساحل
لما أسرهما في واقعة حطين في شهور سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ،
والواقعة تجيء مشروحة في موضعها إن شاء الله تعالى ، وكان قد
أمر بإحضارهما ، وكان أرناط هذا اللعين كافرا عظيما جبارا
شديدا ، وكانت قد اجتازت به قافلة من مصر حين كان بين المسلمين
وبينهم هدنة فغدرها وأخذها ، ونكل بهم وعذبهم وأسكتهم المطامير
والحبوس الحرجة ، وذكروا له حديث الهدنة ، فقال : قولوا لمحمدكم
يخلصكم ، فلما بلغه رحمه الله ذلك عنه نذر أنه متى أظفره الله به
قتله بذنسه ، فلما أمكنه الله منه في ذلك اليوم قوي عزمه على قتله
وفاء بنذره ، فأحضره مع الملك فشكا الملك العطش ، فأحضر له قبحا
من شراب فشرب منه ، ثم ناوله أرناط فقال السلطان للترجمان
قل للملك : أنت الذي سقيته وأما أنا فما أسقيته من
شرابي ، ولا أطعمه من طعامي ، فقصد رحمه الله أن من أكل من
طعامي فالمرءة تقتضي أن لاأؤنيه ، ثم ضرب عنقه بيده وفاء

بنذره ، وأخذ عكا ، وأخرج الأسرى كلهم من ضيق الأسر ، وكانوا زهاء أربعة آلاف أسير وأعطى كل واحد منهم نفقة يصل بها إلى بلده وأهله ، هكذا بلغني على السنة جماعة لأنني لم أحضر هذه الواقعة .

وكان حسن العشرة لطيف الأخلاق طيب الفكاهة ، حافظا لأنساب العرب ووقائعهم ، عارفا بسيرهم وأحوالهم ، حافظا لأنساب خيلهم عالما بعجائب الدنيا ونواديرها ، بحيث كان يستفيد محاضرة منه مالا يسمع من غيره .

وكان حسن الخلق يسأل الواحد منا عن مرضه ومداواته ، ومطعمه ومشربه وتقلبات أحواله .

وكان طاهر المجلس لا يذكر بين يديه أحد إلا بخير ، وطاهر السمع فلا يحب أن يسمع من أحد إلا الخير ، وطاهر اللسان فما رأيته ولع به شتم قط ، وطاهر القلم ، فما كتب بقلمه إيذاء مسلم قط ، وكان حسن العهد والوفاء ، فما أحضر بين يديه يتيم الا وترحم على مخالفه ، وجبر قلبه وأعطاه خبز مخلفه ، وإن كان له من أهله كبير يعتمد عليه سلمه إليه ، وإلا أبقى له من الخبز ما يكفي حاجته وسلمه إلى من يكفله ويعتني بتربيته .

وكان لا يرى شيئا إلا ويرق له ويعطيه ويحسن إليه ، ولم يزل على هذه الأخلاق إلى أن توفاه الله إلى مقر رحمته ومكان رضوانه . فهذه نبذ من محاسن أخلاقه ومكارم شيمه ، اقتصرنا عليها خوف الإطالة والسآمة ، وما سطرنا إلا ما شاهدته ، أو أخبرني الثقة به وحققته ، وهذا بعض ما أطلعت عليه في زمان خدمتي له ، وهو يسير فيما أطلع عليه غيري من طالت صحبته وتقدمت خدمته ولكن هذا القدر يكفي الأريب في الاستدلال على طهارة تلك الأخلاق والخلال .

وحيث نجز هذا القسم فنشرع الآن في القسم الثاني من الكتاب في

- ٦٦٦٤ -

بيان تقلبات أحواله ووقائعه وفتوحاته في تواريخها قدس اله
روحه ، ونور بنور رحمته ضريحه .

القسم الثاني

في بيان تقلبات أحواله وفتوحاته في تواريخها

ذكر حركته إلى مصر في الدفعة الأولى صحبة عمه أسد الدين

وكان سبب ذلك أن شاوور وزير المصريين كان قد خرج عليه إنسان يقال له الضرغام ، وكان يروم منصبه ومكانه ، فجمع له جموعا كثيرة لم يكن له بها قبل ، وغلب عليه وأخرجه من القاهرة وقتل ولده واستولى على المكان وولي الوزارة .

وكانت عادة المصريين أنه إذا غلب شخص صاحب المنصب وعجز عن دفعة وعرفوا عجزه وقعوا للقاهر منهم ورتبوه ومكذوه ، فإن قوتهم إنما كانت بعسكر وزيرهم وهو الملقب عندهم بالسلطان ، وما كان يرون المكاشفة وقواعدهم مستقرة من أول زمانهم على هذا المثال ، فلما قهر شاوور وأخرج من القاهرة اشتد في طلب الشام قاصدا خدمة نور الدين بن زنكي ، مستصرخا به مستنصرا على أعدائه بعسكره ، فتقدم نور الدين إلى أسد الدين شيركوه بالخروج إلى مصر المحروسة قضاء لحق الوافد المستصرخ ، وحفظا للبلاد ، وتطلعا إلى أحوالها ، وذلك في شهر سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ، فتأهب أسد الدين شيركوه ، وسار إلى مصر فاستصحبه معه رحمه الله عن كراهية منه لما كان افتقاره إليه ، وجعله مقدم عسكره وصاحب رأيه ، وساروا حتى وصلوا إلى مصر ، وشاور معهم ، في الثاني من جمادى الآخرة سنة ثمان المذكورة .

وكان لوصولهم إلى مصر وقع عظيم وخافه أهل مصر ، ونصر شاوور على خصمه وأعانه إلى منصبه ومرتبته ، وقرر قواعده واستقر أمره ، وشاهد البلاد ، وعرف أحوالها وعاد منها وقد غرس في قلبه الطمع في البلاد ، وعرف أنها بلاد بغير رجال ، تمشي الأمور فيها بمجرد الإيهام والمحال .

وكان ابتداء رحلته عنها متوجها إلى الشام في السابع من ذي الحجة سنة ثمان المذكورة ، وكان لا يفصل أمرا ولا يقرر حالا إلا بمشورته ورايه لما لاح له من آثار الاقبال والسعادة والفكرة الصحيحة ، واقتران النصر بحركاته وسكناته ، فأقام بالشام مدبرا لأمره مفكرا في كيفية رجوعه إلى البلاد المصرية ، محدثا بذلك نفسه ، مقرررا قواعد ذلك مع الملك العادل نور الدين بن زنكي إلى سنة اثنتين وستين وخمسمائة .

ذكر عودته إلى مصر في الواقعة الثانية.

وهي معروفة بوقعة البابين

ولم يزل أسد الدين يتحدث بذلك بين الناس حتى بلغ شاور ، فداخله الخوف على البلاد من الأتراك ، وعلم أن أسد الدين قد طمع في البلاد ، وأنه لا بد له من قصدتها ، فكاتب الأفرنج وقرر معهم أنهم يجيئون إلى البلاد ، ويمكنهم تمكيننا كلياً ، ويعيذونه على استئصال أعدائه بحيث يستقر قلبه فيها ، وبلغ ذلك أسد الدين والملك العادل نور الدين فاشتد خوفهم على مصر إن ملكها الكفار ، استولوا على البلاد كلها ، فتجهز أسد الدين وأنفذ نور الدين معه العساكر ، وألزم السلطان رحمه الله المسير معه على كراهية منه لذلك .

وكان توجههم في اثني عشر ربيع الأول سنة اثنتين وستين وخمسمائة ، وكان وصولهم إلى البلاد المصرية مقارناً لوصول الأفرنج إليها ، واتفق مع الأفرنج على أسد الدين والمصريون بأسرهم ، وجرت بينهم حروب كثيرة ووقعات شديدة ، وانفصل الأفرنج عن التيار المصرية ، وانفصل أسد الدين ، وكان سبب عود الأفرنج أن نور الدين جرد العساكر إلى بلاد الأفرنج ، وأخذ المنيطرة ، وعلم الأفرنج بذلك فضافوا على بلادهم وعادوا ، وكان سبب عود أسد الدين ضعف عسكره بسبب موقعة الأفرنج والمصريين ، وما عانوه من الشدائد وعائذوه من الأهوال ، وما عاد حتى صالح الأفرنج على أن ينصرفوا كلهم من مصر ، وعاد إلى الشام في بقية السنة ، وقد انضم إلى قوة الطمع في البلاد شدة الخوف عليها من الأفرنج لعلمه أنهم قد كشفوها كما كشفها ، وعرفوها من الوجه الذي عرفها ، فأقام على مضض وقلبه مقلقل ، والقضاء يجره إلى شيء قد قدر لغيره وهو لا يشعر بذلك .

ذكر عوده الى مصر في الدفعة الثالثة وهي التي ملكوها فيها وجرى ماجرى في شهور سنة أربع وستين وخمسمائة

ملك نور الدين قلعة المنيطرة بعد سير أسد الدين في رجب وخرب
قلعة أكاف بالبرية ، وفي رمضان منها اجتمع نور الدين وأخواه قطب
الدين وزين الدين بحماه للغزاة وساروا إلى بلاد الأفرنج فحاربوا
هونين في شوال منها .

وفي ذي القعدة كان عود أسد الدين إلى مصر ، وكان سبب ذلك أن
الأفرنج خذلهم الله جمعوا راجلهم وفارسهم وخرجوا يريدون الديار
المصرية ناكثين لجميع ما استقر مع المصريين وأسد الدين من الصلح
والقواعد طمعا في البلاد .

فلما بلغ ذلك نور الدين وأسد الدين لم يسعهما الصبر دون أن
سارعا إلى قصد البلاد ، أما نور الدين فبالمال والرجال ، ولم يسر
بذفسه خوفا على البلاد من الأفرنج ، ولأنه قد حدث نظره إلى جانب
الموصل بسبب وفاة زين الدين بن بكتكين ، فإنه توفي في ذي الحجة
سنة ثلاث وستين وخمسمائة وتسلم ما كان في يده من الحصون إلى
قطب الدين ماعدا إربل فأنها كلها كانت له من أتابك زنكي رحمه
الله ، فحدث لنور الدين إلى ذلك الجانب الطمع بهذا السبب فسير
العسكر .

وأما أسد الدين فبسيفه وماله وأهله ورجاله ، ولقد قال لي
السلطان قدس الله روحه : كنت أكره الناس بالخروج في هذه
الواقعة ، وما خرجت مع عمي باختياري ، وهذا معنى قوله
تعالى : (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم) (١٥) ، وكان
شاورا لما أحس بخروج الأفرنج إلى مصر على تلك القاعدة أنفذ إلى

أسد الدين يستصرخه ويستنجده ، فخرج مسرعا ، وكان وصولهم إلى مصر في اثناء ربيع الأول سنة أربع وستين وخمسمائة .

ولما علم الأفرنج وصول أسد الدين إلى مصر عن اتفاق بينه وبين أهلها رحلوا راجعين ، وعلى أعقابهم ناكسين ، وأقام أسد الدين بها يتربد إليه شاوور في الأحيان ، وكان وعدهم بمال مقابلة ما خسروه من النفقة فلم يوصل إليهم شيئا ، وعلقت مخاليب أسد الدين في البلاد ، وعلم أن الأفرنج متى وجدوا فرصة أخذوا البلاد ، وترددهم إليها في كل وقت لا يفيد ، وأن شاوور يلعب بهم تارة وبالأفرنج تارة أخرى ، وعلموا أنه لا سبيل إلى الاستيلاء على البلاد مع بقاء شاوور ، فأجمعوا أمرهم على قبضه أن خرج إليهم ، وكانوا هم يتربدون إلى خدمته دون أسد الدين ، وهو يخرج في بعض الأحيان إلى أسد الدين يجتمع به .

وكان يركب على قاعة وزرائهم بالطبل والبوق والعلم ، فلم يتجاسر على قبضه من الجماعة إلا السلطان بنفسه ، وذلك إنه لما سار إليهم تلقاه راكبا وسار إلى جانبه ، وأخذ بتلابيبه ، وأمر العسكر أن أخذوا على أصحابه ففروا ، ونهبهم العسكر وقبض على شاوور وأنزل إلى خيمة مفردة ، وفي الحال جاءه التوقيع من المصريين على يد خادم خاص لا بد من رأسه جريا على عادتهم في وزرائهم في تقرير قاعدة فيمن قوي منهم على صاحبه ، فحزت رقبتة وأنفذ رأسه إليهم ، وأنفذ إلى أسد الدين خلع الوزارة فلبسها وسار وبخل القصر ورتب وزيرا ، وذلك في سابع عشر ربيع الآخر سنة أربع وستين وخمسمائة ، ودام أمرا ناهيا ، والسلطان رحمه الله مباشر الأمور مقرر لها ، وزمام الأمر والنهي مفوض إليه لما كان كفايته وبرايته وحسن رأيه وسياسته إلى الثاني والعشرين من جمادى الآخرة من السنة المذكورة .

ذكر وفاة أسد الدين ومصير الأمر إلى السلطان

وذلك أن أسد الدين كان كثير الأكل ، شديد المواظبة على تناول اللحوم الغليظة ، وتتواتر عليه التخم والخوانيق وينجو منها بعد مقاساة شدة عظيمة ، فأخذه مرض شديد ، واعتراه خانوق عظيم فقتله في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة ، وفوض الأمر بعده إلى السلطان ، واستقرت القواعد واستتببت الأحوال على أحسن نظام ، وبذل المال ، وملك الرجال ، وهانت عنده الدنيا فملكها ، وشكر نعمة الله عليه ، فتاب من الخمر وأعرض عن أسباب اللهو ، وتقمص بلباس الجد والاجتهاد ، وماعاد عنه ولازداد إلا جدا إلى أن توفاه الله إلى رحمته .

ولقد سمعت منه يقول : لما يسر الله لي الديار المصرية علمت أنه أراد فتح الساحل لأنه أوقع ذلك في نفسي ، ومن حين استتب له الأمر مازال يشن الغارات على الأفرنج إلى الكرك والشوبك وبلادهما ، وغشي الناس من سحائب الأفضال والنعيم ما لم يؤرخ عن غير تلك الأيام ، هذا كله وهو وزير متابع القوم ، ولكنه مقول لمذهب السنة ، غارس في أهل البلاد العلم والفقه والتصوف والدين ، والناس يهرعون إليه من كل صوب ، ويفدون عليه من كل جانب ، وهو لا يخيّب قاصدا ، ولا يعدم وافدا ، ولما عرف نور الدين استقرار السلطان بمصر أخذ حمص من نواب أسد الدين ، وذلك في رجب من سنة أربع وستين .

ذكر قصد الأفرنج دمياط حرسها الله تعالى

ولما علم الأفرنج ماجرى من المسلمين وعساكرهم ، وماتم للسلطان من استقامة الأمر في الديار المصرية ، خافوا أن يملك بلادهم ، ويخرب بيارهم ، ويقلع آثارهم لما حدث له من القوة والملك ، فاجتمع الأفرنج والروم جميعا ، وحدثوا أنفسهم بقصد الديار المصرية والاستيلاء عليها وملكها ، وراوا قصد دمياط لتمكن القاصد لها من البر والبحر ، ولعلمهم أنها إن حصلت لهم حصل لهم مغرس قدم ، فاستصحبوا المنجنقات والدبابات والجروح والآلات الحصار وغير ذلك ، ولما سمع أفرنج الشام بذلك اشتد أمرهم فسر قوا حصن عكار ، من المسلمين ، وأسروا صاحبه وكان مملوكا لنور الدين يسمى خلطج العلم دار وذلك في ربيع الآخر منها ، ولما رأى نور الدين ظهور أمر الأفرنج وبلغه نزولهم على دمياط قصد شغل قلوبهم فنزل على الكرك محاصرا لها في شعبان من هذه السنة ، فقصدته أفرنج الساحل فرحل عنها وقصد لقاءهم فلم يقف لهم على أثر ، ثم بلغه وفاة مجد الدين بن الداية بحلب ، وكانت وفاته في شهر رمضان سنة خمس وستين ، فاشتغل قلبه لأنه كان صاحب أمره ، فعاد يطلب الشام قبله خبر الزلزلة بحلب التي أخرجت كثيرا من البلاد المذكورة ، فسار يطلب حلب قبله موت قطب الدين أخيه بالموصل وكانت وفاته في الثاني والعشرين من ذي الحجة من السنة المذكورة ، وبلغه الخبر وهو بتل باشر ، فسار من ليلته طالبا بلاد الموصل ، ولما علم السلطان شدة قصد العدو دمياط أنفذ إلى البلد وأودعه من الرجال وأبطال الفرسان والميرة والآلات السلاح ما آمن معه عليه ، ووعد المقيمين فيه بإمدادهم بالعساكر والآلات وإبعاد العدو عنهم إن نزل عليهم ، ثم نزل الأفرنج في التاريخ المذكور ، واشتد زحفهم عليها وقتالهم لها وهو يشن الغارة عليهم من خارج والعساكر تقاتلهم من داخل ، ونصر الله المسلمين ، وأيدهم وحسن قصدهم في نصر بين الله وأسعدهم وأنجدهم حتى بان للأفرنج الخسران ،

- ٦٦٧٤ -

وظهر على الكفر الايمان ، وراوا أنهم ينجون برؤوسهم ، ويسلمون
بذفوسهم ، فرحلوا خائبين خاسرين ، فحرقت مناجيقهم ونهبت ،
وقتل منهم خالق كثير ، وسلم البلد بحمد الله ومنه عن قصدهم وظهر
بتوفيق الله فل حدهم ، واستقرت قواعد السلطان .

ذكر طلبه والده

ثم أنفذ في طلب والده ليكمل السرور به ويتم الحبور ، وتجري القصة مشاكلة لما جرى للنبي يوسف صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء ، فوصل والده نجم الدين إليه في أثناء جمادى الآخرة من سنة خمس وستين ، وسلك معه من الأدب ما كان عادته ، وألبسه الأمر كله فأبى أن يلبسه ، وقال : يا ولدي ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت كفو له ، ولا ينبغي أن يغير موقع السعادة ، فحكمه في الخزائن بأسرها ، ولم يزل السلطان وزيرا محكما حتى مات العاضد أبو محمد عبد الله وبه ختم أمر المصريين .

وأما نور الدين فإنه أخذ الرقة في المحرم سنة ست وستين ، وسار منها إلى نصيبين فأخذها في بقية الشهر ، وأخذ سنجار في ربيع الآخر منها ، ثم قصد الموصل ، وقصد أن لا يقاتلها فعبر بعسكره من مخاضة بلد ، وسار حتى خيم قبالة الموصل على تل يقال له الحصن ، وراسل ابن أخيه عز الدين غازي صاحب الموصل وعرفه صحة قصده فصالحه وبخل الموصل في ثالث عشر جمادى الأولى ، وقرر صاحبها فيها ، وزوجه ابنته ، وأعطى عماد الدين ابن أخيه سنجار ، وخرج من الموصل قاصدا نحو الشام فدخل حلب في شعبان من هذه السنة .

ذكر موت العاضد

وكان موته يوم الاثنين العاشر من المحرم سنة سبع وستين
واستقر الملك للسلطان .

وكان خطب لبني العباس في أواخر أمر العاضد وهو حي ، وكانت
الخطبة ابتداءها للمستضيء بأمر الله ، واستمرت القواعد على
الاستقامة ، وهو كلما استولى على خزانة من المال وهبها ، وكلما
فتح له خزائن ملك أنهبها ، ولا يبق ل نفسه شيئاً ، وشرع السلطان
في التاهب للغزاة وقصد بلاد العدو وتعبية الأمر لذلك وتقرير
قواعده ، وأما نور الدين فإنه عزم على الغزاة واستدعى صاحب
الموصل ابن أخيه فوصل بالعساكر الى خدمته ، وكانت غزاة عرقة
واخذها في المحرم سنة سبع وستين .

ذكر أول غزوة غزاها من الديار المصرية

ولم يزل على قدم بسط العدل ، ونشر الاحسان ، وإقامة الاحسان على الناس إلى سنة ثمان وستين ، فعند ذلك خرج بالعساكر يريد بلاد الكرك والشوبك ، وإنما بدأ بها لأنها كانت أقرب إليه ، وكانت في الطريق تمنع من يقصد الديار المصرية ، وكان لا يمكن أن تصل قافلة حتى يخرج هو بنفسه يعبرها بلاد العدو ، فأراد توسيع الطريق وتسهيله لتتصل البلاد بعضها ببعض ، وتسهل على السابلة ، فخرج قاصدا لها فحاصرها وجرى بينه وبين الأفرنج وقعات ، وعاد عنها ولم يظفر منها بشيء في تلك الواقعة وحصل ثواب القصد .

وأما نور الدين فإنه فتح مرعش في ذي القعدة من هذه السنة وأخذ بهسنا في ذي الحجة منها .

ذكر وفاة والده نجم الدين

ولما عاد السلطان من غزاته بلغه قبل وصوله إلى مصر وفاة أبيه نجم الدين ، فشق عليه ذلك حيث لم يحضر وفاته ، وكان سبب وفاته وقوعه عن الفرس ، وكان رحمه الله شديد الركض ولعا بلعب الكرة ، بحيث من رآه يلعب بها يقول مايموت إلا من وقوعه عن ظهر الفرس ، وكانت وفاته في شهور سنة تسع وستين ، ورأى السلطان قوة عسكره وكثرة عدد إخوته ، وقوة بأسهم ، وكان بلغه إن باليمن إنسانا استولى عليها ، وملك حصونها وهو يخطب لنفسه يسمى بعبد النبي بن مهدي ، ويزعم أن ينتشر ملكه في الأرض كلها ويستتب الأمر له ، فرأى أن يسير إليها أخاه الأكبر شمس الدولة الملك المعظم تورانشاه ، وكان كريما أريحا حسن الأخلاق ، سمعت منه رحمه الله الثناء على كرمه وحسن أخلاقه وتـرجيحه على نفسه ، وكان توجهه إليها في أثناء رجب سنة تسع وستين ، فمضى إليها وفتح الله على يديه ، وقتل الخارجي الذي كان بها ، واستولى على معظمها وأعطى وأغنى خلقا كثيرا .

ذكر وفاة نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله

وكانت وفاته بسبب خوانيق اعترته أيضا عجز الأطباء عن علاجها ، وتوفي يوم الأربعاء في الحادي والعشرين من شوال سنة تسع وستين ، في قلعة دمشق ، وقام مقامه ولده الملك الصالح اسماعيل .

واقعد حكى لي السلطان قال : كان بلغنا عن نور الدين أنه ربما قصدنا بالبيار المصرية ، وكانت جماعة أصحابنا يشيرون بأن نكاشف ونخالف ونشق عصاه ونلقى عسكره بمصاف نرده إذا تحقق قصده ، وكنت وحدي أخالفهم وأقول لا يجوز أن يقال شيء من ذلك ، ولم يزل النزاع بيننا حتى وصل الخبر بوفاة .

ذكر منافقة الكنز بأسوان وذلك في شهور سنة تسع وستين

والكنز انسان مقدم من المصريين كان قد نزح إلى اسوان فاقام بها ، ولم يزل يدبر أمره ويجمع السودان عليه ويخيل لهم أنه يملك البلاد ويعيد الدولة مصرية ، وكان في قلوب القوم من مهاواة المصريين ما تستصغر هذه الأفعال عنده ، فاجتمع عليه خلق كثير وجمع وافر ، وقصدوا قوص وأعمالها ، وانتهى خبره إلى السلطان فجرد له عسكريا عظيما شاكي السلاح من النين نازقوا حلاوة المصرية ، وخافوا على فوت ذلك منهم ، وقدم عليهم أخاه الملك العادل سيف الدين ، وسار بهم حتى أتى القوم ، فلقاهم بمصاف ، فكسبرهم وقتل منهم خلقا عظيما واستأصل شأفتهم ، وأخذ ثأرتهم ، وذلك في السابع من صفر سنة سبعين ، واستقرت قواعد الملك ، واستوت أموره والله الحمد والمنة . (١٦)

ذكر قصد الافرنج ثغر الاسكندرية حرسها الله تعالى

وذلك أن الافرنج لما علموا تغيرات الأحوال بالنيار المصرية وتقلبات الدول بها داخلهم الطمع في البلاد ، وجردوا عساكرهم في البحر ، وكانوا ستمائة قطعة مابين شيني وطرانة وبطسة وغير ذلك ، وكانوا في ثلاثين ألفا على ماذكر ، ونازلوا الثغر وذلك في أثناء صفر في السابع منه من هذه السنة ، وهي سنة سبعين ، فأمد السلطان بالعساكر المنصورة ، وتحرك وأنخل الله في قلوبهم من

- ٦٦٨١ -

الخوف والرعب مالم يمكنهم الصبر معه ، وعادوا خائبين خاسرين
بعد أن ضايقوا الثغر وزحفوا عليه ثلاثة أيام وقاتلوا قتالا
شديدا ، وعصمه الله منهم .

ولما أحسوا بحركة السلطان نحوهم مالبثوا أن خافوا مناجيتهم
وراءهم والتهم ، فخرج أهل البلد إلى نهجها وإحراقها ، وكان أمرا
عظيما ، ومن أعظم النعم على المسلمين وإمارة كل سعادة .

ذكر خروج السلطان الى الشام وأخذه دمشق

وأما نور الدين فإنه خلف ولده الملك الصالح اسماعيل وكان بدمشق ، وكان بقلعة حلب ابن الداية شمس الدين علي وشاذ بخت ، وكان علي قد حدث نفسه بأمور فساد الملك الصالح من دمشق إلى حلب ، فوصل ظاهرها ثاني المحرم ، ومعه سابق الدين ، فخرج بدر الدين للقائه فقبض عليه سابق الدين ، ولما دخل الملك الصالح القلعة قبض على شمس الدين وأخيه حسن وأودع الثلاثة السجن ، وفي ذلك اليوم قتل ابن الخشاب أبو الفضل لفتنة جرت بحلب ، ذكروا أنه قتل قبل إمساك أولاد الداية بيوم لأنهم تولوا ذلك .

ولما تحقق السلطان وفاة نور الدين ، وكان ولده طفلا لا ينهض بأعباء الملك ولا يستقل بدفع عدو الله عن البلاد ، تجهز للخروج إلى الشام إذ هو أصل بلاد الاسلام ، فتجهز بجمع كثير من العساكر ، وخلف في الديار المصرية من يستقل بحفظها وحراستها ، ونظم أمورها وسياستها ، وخرج هو سائرا مع جمع من أهله وأقاربه ، وهو يكاتب أهل البلاد وأمراءها ، واختلقت كلمة أصحاب الملك الصالح واختلت تدابيرهم ، وخاف بعضهم من بعض ، وقبض على جماعة منهم ، وكان ذلك سبب خوف الباقين من فعل ذلك وسببا لتغير قلوب الناس عن الصبي ، فاقتضى الحال أن كاتب شمس الدين بن المقدم السلطان ، ووصل البلاد مطالبا بالملك الصالح ، ليكون هو الذي يتولى أمره ويرب حاله ، فيقوم له ما عوج من أمره ، فوصل دمشق ولم يشق عليه عصا ، وبخلها بالتسليم في يوم الثلاثاء سلخ ربيع الآخر سنة سبعين وتسلم قلعتها .

وكان أول دخوله إلى دار أبيه ، واجتمع الناس إليه وفرحوا به ، وأنفق في ذلك اليوم في الناس مالا طائلا ، وأظهر الفرح والسرور بالدمشقيين وأظهروا الفرح به ، وصعد القلعة واستقر قدمه في ملكها ، فلم يلبث أن طلب حلب ، فنازل حمص فأخذ مدينتها في جمادى الأولى سنة سبعين ، ولم يشتغل بقلعتها ، وسار حتى أتى حلب ونازلها في يوم الجمعة سلخ الشهر المذكور وهي الواقعة الأولى .

ذكر تسيير سيف الدين أخاه عز الدين إلى لقائه

ولما أحس سيف الدين صاحب الموصل بما جرى ، علم أن الرجل قد استفحل أمره وعظم شأنه وعلت كلمته ، وخاف أنه إن غفل عنه استحوذ على البلاد واستقر قدمه في الملك وتعدى الأمر إليه ، فجهز عسكرا وافرا وجيشا عظيما ، وقدم عليه أخاه عز الدين مسعودا ، وساروا يريدون لقاء السلطان ، وضرب المصاف معه ورده عن البلاد .

ولما بلغ السلطان ذلك رحل عن حلب مستهلا رجب من السنة المذكورة عائدا إلى حماه ، وسار إلى حمص فاشتغل بأخذ قلعتها فأخذها ، ثم وصل عز الدين إلى حلب وانضم إليه من كان بها من العسكر وخرجوا بجمع عظيم ، ولما عرف هو بسيرهم سار حتى وافاهم في قرون حماه (١٧) وراسلهم وراسلوه واجتهد أن يصلحوه فما صالحوه ورأوا أن المصاف ربما نالوا به الغرض الأكبر ، والمقصود الأوفر والقضاء يجبر إلى أمور وهم بها لا يشعرون ، وقام المصاف بين العسكرين بقضاء الله فانكسروا بين يديه ، وأسر جماعة منهم ، ومن عليهم وأطلقهم وذلك في تاسع عشر رمضان سنة سبعين أيضا ، ثم سار عقيب انكسارهم ونزل على حلب وهي الدفعة الثانية وصالحوه على أن أخذ المعرة وكفر طاب وأخذ بارين وذلك في أواخر هذه السنة .

ذكر مسير سيف الدين بذقسه

ولما وقعت هذه الواقعة كان سيف الدين على سنجار يحاصر أخاه عماد الدين بقصد أخذها منه وبخوله في طاعته وكان قد أظهر أخوه الانتماء إلى السلطان واعتصم بذلك ، واشتد سيف الدين في حصار المكان وضربه بالمنجنيق حتى انهدم من سورته ظلم كثيرة وأشرف على الأخذ ، فبلغه وقوع هذه الواقعة فخاف أن يبلغ ذلك أخاه فيشتد أمره فراسله إلى الصالح فصالحه ، ثم سار من وقته إلى نصيبين واهتم بجمع العساكر والانفاق فيها ، وسار حتى أتى الفرات وعبر بالبيرة وخيم على جانب الفرات الشامي .

وراسل كمشتكين والملك الصالح حتى تستقر قاعته يصل عليها اليهم ، ووصل كمشتكين إليه وجرت مراجعات كثيرة وعزم فيها إلى العود مرارا حتى استقر اجتماعه بالملك الصالح وسامحوا به ، وسار ووصل حلب وخرج الملك الصالح إلى لقائه بذقسه ، فالتقاء قريب القلعة واعتذقه وضمه إليه وبكى ، ثم أمره بالعود إلى القلعة فعاد إليها ، وسار هو حتى نزل بعين المباركة (١٨) وأقام بها مدة وعسكر حلب يخرج إلى خدمته في كل يوم ، وصعد القلعة جريدة وأكل بها خبزا ونزل وسار راحلا إلى تل السلطان (١٩) ومعه النيار البكرية وجمع كثير ، والسلطان قد أُنْفِذ في طلب العساكر من مصر وهو يترقب وصولها ، وهؤلاء يتأخرون في أمورهم وتدايبرهم وهم لا يشعرون أن في التأخير تدبيراً حتى وصل عسكر مصر ، فسار رحمه الله حتى أتى قرون حماء ، فبلغهم أنه قارب عسكره ، فاخرجوا اليك وجهزوا من يكشف الأخبار فوجدوه قد وصل جريدة إلى جباب التركمان وتفرق عسكره يسقي ، فلو أراد الله نصرتهم لقصدوه في تلك الساعة ، (ولكن ليقتضي الله أمرا كان مفعولا) (٢٠) فصـبـروا عليه حتى سـقـى خيله هـو وعسكره ، واجتمعوا وتعبوا تعبيرة القتال .

وأصبح القوم على مصاف وذلك في بكرة الخميس العاشر من شوال سنة إحدى وسبعين ، فالتقى العسكران وتصادما وجرى قتال عظيم ، وانكسرت ميسرة السلطان بآبن زين الدين مظفر فإنه كان في ميمنة سيف الدين ، وحمل السلطان عليه بنفسه فانكسر القوم وأسر منهم جمعا عظيما من كبار الأمراء منهم فخر الدين عبيد المسيح فمن عليهم وأطلقهم ، وعاد سيف الدين الى حلب المحروسة فأخذ منها خزانة ، وسار حتى عبر الفرات وعاد إلى بلاده ، وأمسك هو رحمه الله عن تتبع العسكر ، ونزل في بقية ذلك اليوم في خيام القوم فانهم كانوا قد أبقوا الثقل على ماكان عليه والمطابخ قد عملت ، ففرق الاصطبلات ، ووهب الخزائن وأعطى خيمة سيف الدين لغز الدين فرو خشاه وسار إلى منبج وتسلمها في بقية الشهر المذكور .

وسار حتى نزل على قلعة أعزاز يحاصرها وذلك في رابع ذي القعدة سنة إحدى وسبعين ، وعليها وثب الاسماعيلية عليه فنجاه الله من كيدهم وظفر بهم ، ولم يقل ذلك عزمه وأقام عليها حتى أخذها وذلك في رابع عشر ذي الحجة من السنة ، وسار حتى نزل على حلب في سادس عشر منه ، فأقام مدة ، ثم سار عنها فأخرجوا إليه ابنة لوزر الدين صغيرة وسألت منه أعزاز فوهبها إياها .

وفي بقية الشهر أيضا وصل شمس الدولة أخوه من اليمن إلى دمشق وأقام بها مدة ، ثم عاد إلى الديار المصرية وتوفي باسكندرية مستهل صفر سنة ست وسبعين .

ثم أن السلطان عاد إلى الديار المصرية ليتفقد أحوالها ويقرر قواعدها ، وكان مسيره إليها في ربيع الأول من شهور سنة اثنتين وسبعين ، واستخلف أخاه شمس الدولة بدمشق ، فأقام رحمه الله بها يقرر قواعدها ويسد خللها ، وأراح العسكر ، ثم تاهب للغزاة وخرج يطلب الساحل حتى وافى الأفرنج على الرملة وذلك في أوائل جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين .

ذكر كسرة الرملة

وكان مقدم الأفرنج البرنيس أرناط ، وكان قد بيع بحلب ، فإنه كان أسيرا بها من زمن نور الدين ، وجرى خلال في ذلك اليوم على المسلمين ، ولقد حكى السلطان صبرة الكسرة في ذلك اليوم ، وذلك أن المسلمين كانوا قد تعبوا تعبىة القتال ، ولما قرب العدو رأى بعض الجماعة أن تعبر الميمنة إلى جهة الميسرة والميسرة إلى جهة الميمنة ليكونوا حالة اللقاء وراء ظهورهم تل معروف بأرض الرملة ، فبينما اشتغلوا بهذه التعبية هجم الأفرنج وقدر الله كسرتهم فانكسروا كسرة عظيمة ، ولم يكن لهم حصن قريب يأوون إليه ، فطلبوا جهة الديار المصرية ، وضلوا في الطريق وتبدوا وأسر منهم جماعة منهم الفقيه عيسى ، وكان وهنا عظيما جبره الله بوقعة حطين المشهورة ولله الحمد .

وأما الملك الصالح فإنه تخبط أمره وقبض على كمشتكين صاحب دولته وطلب منه تسليم حارم إليه فلم يفعل فقتله ، ولما سمع الأفرنج بقتله نزلوا على حارم طمعا فيها وذلك في جمادى الآخرة سنة ثلاث وسبعين ، وقابل عسكر الملك الصالح العساكر الأفرنجية ، ولما رأى أهل القلعة خطرهما من جانب الأفرنج سلموها إلى الملك الصالح في العشر الأواخر من شهر رمضان من السنة المذكورة .

ولما علم الأفرنج ذلك رحلوا عن حارم طالبيين بلاهم ، ثم عاد الملك الصالح إلى حلب ، ولم يزل أصحابه على اختلاف يميل بعضهم إلى جانب السلطان حتى بلغه عصيان عز الدين قليج بتل خالك فأخرج إليه العسكر وذلك في عاشر المحرم سنة ست وسبعين ، ثم بلغه وفاة ابن عمه سيف الدين غازي صاحب الموصل ، وكانت وفاته في ثالث صفر من هذه السنة ، وولي مكانه أخوه عز الدين مسعود في الخامس منه ، وكانت وفاة شمس الدولة بالاسكندرية .

ذكر عود السلطان إلى الشام

ولما عاد السلطان بعد الكسرة إلى الديار المصرية ، وأقام بها ريثما لم الناس شعثهم ، علم بتخبط الشام ، عزم على العود إليه ، وكان عوده الغزاة فوصله رسول قليج أرسلان يلتمس من السلطان الموافقة ويستغيث إليه من الارمن ، فاستقل نحو ابن لاون لنصرة قليج أرسلان ونزل بقره حصار ، وأخذ عسكر حلب في خدمته لأنه قد اشترط في الصلح ، فاجتمعوا على النهر الأزرق بين بهسنا وحصن منصور ، وعبر منه إلى النهر الأسود وطرف بلاد ابن لاون ، وأخذ منهم حصنا وأخربه ، وبذلوا له أسارى وألتمسوا منه الصلح وعاد عنه ، ثم راسله قليج أرسلان في صلح الشرقيين بأسرهم ، واستقر الصلح وحلف السلطان في عاشر جمادى الأولى سنة ست وسبعين ، وبخل في الصلح قليج أرسلان والمواصلة ونيار بكر ، وكان ذلك على نهر سنجة وهو نهر يرمي إلى الفرات ، وسار السلطان نحو دمشق .

ذكر وفاة الملك الصالح ووصول عز الدين إلى حلب

وفي سنة سبع وسبعين مرض الملك الصالح بالقولنج وكان أول مرضه في تاسع رجب ، وفي ثالث عشر منه غلق باب القلعة لشدة مرضه ، واستدعي الأمراء واحدا واحدا وحلفوا لعز الدين صاحب الموصل ، وفي الخامس والعشرين منه توفي رحمه الله ، وكان لموته وقع عظيم في قلوب الناس ، ولما توفي سارعوا إلى إعلام عز الدين مسعود بن قطب الدين بذلك ، وإعلامه بما جرى له من الوصية إليه وتحليف الناس له فسارع سائرا إلى حلب مبادرا خوفا من السلطان ، وكان أول قادم من أمرائه إلى حلب مظفر الدين بن زين الدين ، وصاحب سروج ، ووصل معهما من حلف جميع الأمراء له وكان وصولهم في ثالث شعبان من السنة المذكورة ، وفي العشرين منه وصل عز الدين إلى حلب وصعد القلعة واستولى على خزانها ونخائرها ، وتزوج أم الملك الصالح خامس شوال من السنة المذكورة .

ذكر مقايضة عز الدين أخاه عماد الدين بالبلاد

ثم أقام عز الدين بقلعة حلب إلى سادس شوال ، وعلم أنه لا يمكنه حفظ الشام مع الموصل لحاجته إلى ملازمة الشام لأجل السلطان ، وألح عليه الأمراء في طلب الزيادات ورأوا أنفسهم أنهم قد اختاروه ، وضاق عطنه ، وكان صاحب أمره مجاهد الدين قايماز ، وكان ضيق العطن لم يعتد بمقاساة أمراء الشام ، فرحل من قلعة حلب طالبا للركة وخلف ولده مظفر الدين بها ، وسار حتى أتى الرقة وأقيه أخوه عماد الدين عن قرار بينهم ، واستقر مقايضة حلب بسنجار ، وحلف عز الدين لأخيه على ذلك في الحادي عشر من شوال ، وسار من جانب عماد الدين من تسلم حلب ، ومن جانب عز الدين من تسلم سنجان ، وفي ثالث عشر محرم سنة ثمان وسبعين صعد عماد الدين إلى قلعة حلب .

ذكر عود السلطان من مصر

وأما السلطان فإنه لما وقع الصلح على قليج أرسلان صعد إلى الديار المصرية واستخلف بن أخيه عز الدين فروخشاه واليا ، ولما بلغ السلطان قدس الله روحه وفاة الملك الصالح عزم على العود إلى الشام خوفا على البلاد من الأفرنج ، وبلغه أيضا وفاة فروخشاه في يوم الجمعة مستهل رجب سنة سبع وسبعين وخمس مائة ، فاشتد عزمه .

وكان وصوله إلى محروسة دمشق في سابع عشر صفر سنة ثمان وسبعين ، ثم أذن التأهب لغزاة بيروت ، فإنه عبر على الأفرنج في

عوبه من مصر مكابرة من غير صلح ، فقصد بيروت ونزلها ولم يذل منها غرضاً ، واجتمع الأفرنج فراحلوه عنها ، وبخل إلى دمشق ، وبلغه أن رسل الموصل وصلوا إلى الأفرنج يحدثونهم على قتال المسلمين ، فعلم أنهم نكثوا اليمين وأنشأ العزم على قصدهم لجمع كلمة العساكر الإسلامية على عدو الله ، فأخذ في التأهب لذلك ، فلما بلغ ذلك عماد الدين سير إلى الموصل يشعروهم بالخبر ، ويستحث العساكر .

وسار السلطان حتى نزل على حلب في ثامن عشر جمادى الأولى من هذه السنة ، وأقام ثلاثة أيام ورحل في الحادي والعشرين يطلب الغزاة ، واستقر الحال بينه وبين مظفر الدين ، وكان صاحب حران ، وكان قد استوحش من جانب الموصل ، وخاف من مجاهد الدين ، فالتجأ إلى السلطان ، وعبر إلى قاطع الفرات ، وقوى عزمه على البلاد ، وسهل أمرها عنده ، وبخل الرها والرقعة ونصيبين وسروج ثم شحن على الخابور وأقطعه .

ذكر نزوله على الموصل

وكان نزوله عليها في هذه الواقعة في يوم الخميس حادي عشر شهر رجب ، وكنت إذ ذاك في الموصل فسيرت رسولا إلى بغداد قبيل نزوله بأيام قلائل ، فسرت مسرعا في الدجلة ، وأتيت بغداد بعد يومين وساعتين من اليوم الثالث مستجدا بهم ، فلم يحصل منهم سوى الانفاذ إلى شيخ الشيوخ وكان في صحبته رسول من جانبهم يأمرونه بالحديث معه ، ويتلطف الحال معه ، ويسير إلى بهلوان رسولا من الموصل يستجدونه ، فلم يحصل من جانبه سوى شرط كان الدخول تحته أخطر من حرب السلطان ، ثم أقام السلطان على الموصل أياما وعلم أنه بلد عظيم لا يتحصل منه شيء بالمحاصرة على هذا

الوجه ، ورأى أن طريق أخذه أخذ قلاعه وما حوله من البلاد
واضعافه بطول الزمان ، فرحل عنها .

ذكر أخذه سنجار

ونزل على سنجار في سادس عشر شعبان ، وأقام يحاصرها ،
وكان فيها شرف الدين بن قطب الدين وجماعة ، واشتد عليه الأمر
حتى كان ثاني شهر رمضان فأخذها عنوة ، وخرج شرف الدين
وجماسته محترمين محذوفين إلى محروسة الموصل ، وأعطاه ابن
أخيه تقي الدين ، ورحل عنها إلى نصيبين .

ذكر قصة شاه أرمن صاحب خلاط

وذلك أن أصحاب الموصل أنفذوا إليه واستنجدوا به وطرحوا
أنفسهم عليه ، فخرج من خلاط لنصرتهم ونزل بحرزم ، وسير إلى
عز الدين صاحب الموصل أعلمه ، فخرج إليه وذلك في الخامس عشر
من شوال ، فسار حتى اجتمع به صاحب ماربين ، ووصل جماعة
من عسكر حلب كل ذلك للقاء السلطان ، وأرسل شاه أرمن بكتمر
إلى السلطان يخاطبه في الصلح بتوسط شيخ الشيوخ ، فلم ينتظم
بينهم حال ، ورحل السلطان إلى عسكر شاه أرمن ، فلما سمع شاه
أرمن بوصول السلطان ولى راجعا إلى بلاده ، وعاد عز الدين إلى
بلاده وتفرقا وسار السلطان يطلب بلد آمد ، فنزل عليها وقاقلها
وأخذها في ثمانية أيام ، وذلك في أول محرم سنة تسع
وسبعين ، وأعطاه نور الدين بن قرا أرسلان ، ومن على ابن
نيسان بجميع ما كان فيها من الأموال وغيرها ، ثم سار يطلب
الشام لقصد حلب ، وفي هذه المدة خرج عماد الدين وخرب قلعة
أعزاز ، وخرب حصن كفر لاثا وأخذها من بكتمش ، فإنه كان قد

- ٦٦٩٣ -

صار مع السلطان في الثاني والعشرين من جمادي الأولى من السنة المذكورة ، وقاتل تل باشر وكان صاحبها دلدردم الياروقي قد صار مع السلطان ، فلم يقدر عليها وجرت غارات من الأفرنج في البلاد بحكم اختلاف العساكر ودفعهم الله تعالى ، وتسلم الكرزيين (٢١) ثم عاد إلى حلب .

ذكر عود السلطان إلى الشام

ولما عاد إلى الشام بدأ بتل خالد فنزل عليها وقاتلها وأخذها في الثاني والعشرين من محرم سنة تسع وسبعين ، ثم سار طالبا حلب فنزل في السادس والعشرين من محرم سنة تسع وسبعين وخمسمائة وكان أول نزوله بالميدان الأخضر ، وسير المقاتلة يقاتلون فيباسطون عسكر حلب ببناقوسا وباب الجنان غدوة وعشية ، وفي يوم نزوله جرح أخوه تاج الملوك رحمه الله .

ذكر أخذه حلب قدس الله روحه

ولما نزل على حلب استدعى العساكر من الجوانب واجتمع خلق عظيم ، وقاتلها قتالا شديدا ، وتحقق عماد الدين أنه ليس له قبل ، وكان قد خرس من اقتراح الأمراء وجبههم ، فأشار إلى حسام الدين طمان أن يسافر مع السلطان في إعادة بلاده وتسليم حلب إليه واستقرت القاعدة ولم يشعر أحد من الرعية ولا من العساكر حتى تم الأمر واستحكمت القاعدة واستفاض ذلك ، واستعلم العسكر منه فأعلمهم ، وأنن في تدبير أنفسهم ، وأنفذوا عنهم وعن الرعية عز الدين جريك النوري وزين الدين ففقدوا عنده إلى الليل واستحلفوه على العسكر وعلى أهل البلد وذلك في السابع عشر من صفر .

وخرجت العساكر إلى خدمته إلى الميدان الأخضر ومقدموا حلب ، وخلع عليهم وطيب قلوبهم ، وأقام عماد الدين بالقلعة يقضي أشغاله وينقل أقمشته وخزائنه ، والسلطان مقيم بالميدان الأخضر إلى السادس والعشرين من صفر .

وفيه توفي تاج الملوك أخوه من جرح كان أصابه ، وشق عليه أمر موته ، وجلس للعزاء .

وفي ذلك اليوم نزل عماد الدين إلى خدمته وعزاه ، وتقررت بينهما قواعد وأنزله السلطان عنده في الخيمة وقدم له تقدمه سنه وخيلا جميلة ، وخلع على جماعة من أصحابه .

وصار عماد الدين من يومه إلى قرا حصار سائرا إلى سنجار ، وأقام السلطان بالمخيم بعد سير عماد الدين غير مكترث بأمرها ، ولم يستعظم شأنها إلى يوم الاثنين سابع عشرين صفر ، ثم في ذلك اليوم صعد السلطان قلعة حلب مسرورا منصورا ، وعمل له حسام الدين طمان دعوة سنه ، وكان قد تخلف لآخذ ماتخلف لعماد الدين من قماش وغيره .

ذكر أخذه حارم

وكان قد أنفذ إلى حارم من يتسلمها ودا فعم الوالي وأنفذ الأجناد الذين بها يستحلفونه ، فحلف لهم ، وسار من وقته إلى حارم ، فوصلها في التاسع والعشرين من صفر وتسلمها ، وبات بها ليلتين ، وقرر قواعدها ، وولى فيها إبراهيم بن شروه ، وعاد إلى حلب وبخلها في ثالث ربيع الأول ، ثم أعطى العساكر دستورا وسار كل منهم إلى بلاده ، وأقام يقرر قواعد حلب ، ويدير أمورها .

ذكر غزاة عين جالوت

ولم يقيم في حلب إلا إلى الثاني والعشرين من ربيع الآخر ، وأنشأ عزمًا على الغزاة فخرج في ذلك اليوم مبرزا نحو دمشق ، واستنهض العساكر ، فخرجوا يتبعونه ، ولم يزل يواصل بين المنازل حتى دخل دمشق في ثالث جمادى الأولى ، فأقام بها متأهبًا إلى السابع والعشرين منه ، ثم برز في ذلك اليوم ونزل على جسر الخشب وتبعته العساكر مبرزة ، فأقام به تسعة أيام ، ثم رحل في ثامن جمادى الآخرة ، وسار حتى أتى الفوار (٢٢) وتعبى فيه للحرب ، وسار حتى نزل القصير فبات به ، وأصبح على المخاض وعبر وسار حتى أتى بيسان ، فوجد أهلها قد رحلوا عنها وتركوا مآكان من ثقل الأقمشة والغلال والأمتعة بها ، فنهبا العسكر وغنموا وحرقوا ما لم يمكن أخذه ، وسار حتى أتى الجالوت وهي قرية عامرة وعندها عين جارية فخيم بها ، وكان قد قدم عز الدين جريك وجماعة من المماليك الذورية وجاولي مملوك أسد الدين حتى يكشفوا خبر الأفرنج ، فاتفق أنهم صادفوا عسكر الكرك والشوبك سائرين نجدة للأفرنج فوقع أصحابنا عليهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأسروا منهم زهاء مائة وعادوا ولم يفقد من المسلمين سوى شخص واحد يدعى بهرام الشاووش ، فوصل إليه في بقية الكسرة وهو العاشر من جمادى الآخرة ، فاستبشر المسلمون بالنصر والظفر ، ولما كان السبت حادي عشر وصل الخبر إليه أن الأفرنج قد اجتمعوا في صفورية ، فرحلوا إلى القولة وهي قرية معروفة ، وكان غرضه المصاف ، فلما سمع بذلك تعبى للقاء ، ورتب الأطلاب يمنة ويسرة وقلبا ، وسار للقاء العدو ، وسار الأفرنج طالبين المسلمين ، ووقعت العين في العين ، وأخرج السلطان الجاليش خمسمائة رجل معروفة ، فواقعوا الأفرنج وجرى قتال عظيم ، وقتل العدو جماعة ، وهم ينضم بعضهم إلى بعض ، يحمي راجلهم فارسهم ، ولم يخرجوا للمصاف ، ولم يزالوا سائرين حتى أتوا العين ، ونزلوا

عليها ، ونزل السلطان حولهم والقتل والجرح يعمل فيهم ليخرجوا إلى المصاف وهم لا يخرجون لخوفهم من المسلمين ، فإنهم كانوا في كثرة عظيمة ولما رأى أنهم لا يخرجوا رأى الانتزاح عنهم لعلهم يرحلون فيضرب معهم مصاف ، فرحل نحو الطور ، وذلك في السابع عشر من هذا الشهر ، فنزل تحت الجبل مترقبا رحيلهم ليأخذ منهم فرصة ، وأصبح الأفرنج في الثامن عشر راحلين راجعين على أعقابهم ناكسين ، فرحل رحمه الله نحوهم ، وجرى من رمي الذشاب واستنهاضهم للمصاف أمور عظيمة ، فلم يخرجوا ، ولم يزل المسلمون حولهم حتى نزلوا القولة المقدم ذكرها راجعين إلى بلادهم ، فلما رأى المسلمون ذلك اجتمعوا على السلطان وأشاروا بالعود لفراغ زادهم ، وكان قد نال منهم بالقتل والأسر ، وتضريب عفر بلا وقلعة بيسان وزرعين ، وهي من حصونهم المذكورة ، وخربت عليهم قرى عينية ، فعاد منصورا مظفرا مسرورا حتى نزل الفوار ، وأعطى الناس دستورا من أثر المسير ، ثم سار هو حتى أتى دمشق ، فدخلها فرحا مسرورا في يوم الخميس الرابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة تسع وسبعين وخمسائة . فانظر إلى هذه الهمة التي لم يشغلها عن الغزاة أخذ حلب ولا الظفر بها بل كان غرضه الاستعانة بالبلاد على الجهاد ، فإله يحسن جزاءه في الآخرة كما وفقه للأعمال المرضية في الدنيا .

ذكر غزاة أنشأها إلى الكرك

ثم أنه أقام بدمشق إلى ثالث رجب سنة تسع وسبعين ، وخرج مرارا نحو الكرك ، وكان قد سير إلى الملك العادل ، وهو بمصر ، يتقدم إليه بالاجتماع به على الكرك ، فبلغه خبر حركته من مصر ، فخرج للقاءه وسار حتى أتى الكرك ، ووافاه الملك العادل عليها ، وقد خرج معه خلق عظيم من تاجر وغير تاجر ، وذلك رابع شعبان من هذه السنة ، وكان قد بلغ الأفرنج خبر

خروجه ، فساروا براجلهم وفارسهم نحو الكرك للدفع عنه ، ولما انتهى ذلك إليه سير الملك المظفر تقي الدين إلى مصر ، وذلك في خامس عشر شعبان ، وفي صبيحة السادس عشر منه نزلت الأفرنج على الكرك ، وتزخزح السلطان عنه بعد أن قاتله قتالا عظيما ، وعليه قتل شرف الدين برغش الذوري شهيدا رحمه الله في ثامن عشرين رجب .

ذكر إعطائه أخاه الملك العادل حلب

ثم رحل السلطان مستصحباً أخاه الملك العادل معه إلى دمشق ليأسه عن الكرك بعد نزول الأفرنج عليها ، فدخل دمشق في الرابع والعشرين من شعبان وأعطى أخاه الملك العادل حلب بعد مقامه بدمشق إلى ثاني يوم شهر رمضان ، وكان بها ولده الملك الظاهر ومعه سيف الدين يازكج يدبر أمره ، وابن العميد في البلد .

وكان الملك الظاهر من أحب الأولاد إلى قلبه لما قد خصه الله به من الشهامة والفطنة والعقل وحسن السمات والشغف بالملك وظهور ذلك عليه ، وكان أبر الناس بوالده وأطوعهم له ، ولكن أخذ منه حلب لمصلحة رآها ، فخرج من حلب لما نزل الملك العادل هو ويازكج سائرين إلى خدمة السلطان ، فدخل دمشق يوم الاثنين الثامن عشر من شوال ، فاقام في خدمة أبيه لا يظهر له إلا الطاعة والانقياد ، مع إنكسار في باطنه لا يخفى عن نظر والده ، وفي ذلك الشهر وربنا على السلطان رسلا من جانب الموصل ، وكنا قد توصلنا إلى الخليفة الناصر لدين الله في إنفاذ شيخ الشيوخ بدر الدين رسولا وشفيعا إلى السلطان ، فسيره معنا من بغداد ، وكان عزيز المروءة ، عظيم الحرمة في دولة الخليفة وفي سائر البلاد ، وكانت مكانته عند السلطان بحيث يتردد إليه إذا كان عنده في معظم الأيام .

ذكر وصولنا إلى خدمة رسلا

وكان الشيخ قد وصل إلى محروسة الموصل رسولا وسار منها في صحبة القاضي محيي الدين بن كمال الدين ، وكان بينهم صحبة من الصبا ، وكنت مع القوم وسرنا حتى أتينا دمشق ، وخرج السلطان إلى لقاء الشيخ ، ونحن في خدمته ، فلقينه عن بعد ، وكان بخولنا إلى دمشق يوم السبت حادي عشر ذي القعدة من هذه السنة ، وأقمنا من السلطان كل جميل فيما يرجع إلى الاكرام والاحترام ، وأقمنا أياما نراجع في فصل حال فلم يتفق صلح في الوقعة ، وخرجنا راجعين إلى الموصل ، وخرج السلطان الى وداع الشيخ إلى القصير ، واجتهدوا في ذلك اليوم أن ينقضي شغل فلم يتفق ، وكان الوقوف من جانب محيي الدين ، فإن السلطان اشترط أن يكون صاحبا إربل والجزيرة على خيرتهما في الانتماء إليه أو إلى الموصل ، فقال محيي الدين لا بد من ذكرهما في النسخة فدوقف الحال ، وكان مسيرنا سابع ذي الحجة سنة تسع وسبعين وفي تلك الدفعة عرض على السلطان وضع البهاء الدمشقي بمصر على لسان الشيخ ، فاعتذرت ولم أفعل خوفا من أن يحال بوقف الحال علي ، ومن تلك الدفعة ثبت في نفسه الشريفة مني أمر لم أعرفه إلا بعد خدمتي له وأقام السلطان بدمشق ترد عليه الرسل من الجوانب ، فوصل رسول سنجر شاه صاحب الجزيرة ، فاستحلفه لنفسه في الانتماء إليه ، ورسول إربل وحلف لهما وسارا ، ووصل إليه أخوه الملك العادل يوم الاثنين رابع ذي الحجة ، فأقام عنده وعيد وتوجه إلى حلب المحروسة .

ذكر غزاة أخرى إلى الكرك

وسير السلطان - قدس الله روحه - إلى العساكر يطلبها ، فوصل ابن قرا أرسلان نور الدين إلى حلب ثامن عشر صفر سنة ثمانين فأكرمه الملك العادل إكراما عظيما ، وأصعده إلى القلعة وبأسطه ورحل معه طالبا دمشق في السادس والعشرين منه ، وكان السلطان قد مرض أياما ثم شفاه الله .

ولما بلغه وصول قرا أرسلان خرج إلى لقائه ، وكان السلطان يكارم الناس مكارمة عظيمة ، فالتقاه على عين الجر (٢٢) بالبقيع وذلك في تاسع ربيع الأول سنة ثمانين ، ثم عاد إلى دمشق وخلف نور الدين واصلا مع الملك العادل ، فتأهب للغزاة وخرج مبرزاً إلى جسر الخشب في منتصف ربيع الأول ، وفي الرابع والعشرين منه وصل الملك العادل ومعه ابن قرا أرسلان إلى دمشق ، فأقاما بها أياما ، ثم رحلا يلتحقان بالسلطان : ولما كان ثاني ربيع الآخر من السنة المذكورة ، رحل السلطان الملك الناصر من رأس الماء طالبا للكرك فأقام قريبا منها أياما ينتظر وصول الملك المظفر من مصر إلى تاسع عشر ربيع الآخر ، فوصل إلى خدمته ومعه بيت الملك العادل وخزائنه ، فسيرهم إلى الملك العادل ، وتقدم إليه وإلى بقية العساكر بالوصول إليه إلى الكرك فتتابعت العساكر إلى خدمته حتى أحرقوا بالكرك ، وذلك في رابع جمادى الأولى ، وركب المناجيق على المكان ، وقد التقت العساكر المصرية والشامية والجزرية أيضا مع ابن قرا أرسلان .

ولما بلغ الأفرنج ذلك خرجوا براجلهم وفارسهم إلى الذب عن الكرك ، وكان على المسلمين منه ضرر عظيم ، فإنه كان يقطع عن قصد مصر ، بحيث كانت القوافل لا يمكنها الخروج إلا مع العساكر الجمة الغفيرة ، فاهتم السلطان بأمره ليكون الطريق سابلة إلى مصر .

ولما بلغ السلطان خروج الأفرنج تبعاً للقاء ، وأمر العساكر أن خرجت إلى ظاهر الكرك ، وسير الثقل نحو البلاد ، وبقي العسكر جريئة ، ثم سار السلطان يقصد العدو ، وكان الأفرنج قد نزلوا بموضع يقال له الواله ، وسار حتى نزل على قرية يقال لها حسبان قبالة الأفرنج ، ورحل منها إلى موضع يقال له ماء عين والأفرنج مقيمون بالواله إلى السادس والعشرين من جمادى الأولى ، ثم رحلوا قاصدين الكرك ، فسار بعض العساكر وراءهم فقاتلهم إلى آخر النهار ، ولما رأى قدس الله روحه تصميم الأفرنج على الكرك أمر العساكر أن دخلوا الساحل لخلوه عن العساكر ، فهجموا نابلس ونهبوها وغنموا ما فيها ، ولم يبق فيها إلا حصنها ، وأخذوا جينين ، والتحقوا بالسلطان برأس الماء ، وقد نهبوا وأسروا وأحرقوا وخرّبوا ، واتفق دخول السلطان دمشق يوم السبت سابع جمادى الآخرة ومعه الملك العادل ونور الدين بن قرا أرسلان فرحا مسرورا ، وأكرمه واحترمه وأحسن إليه .

وفي هذا الشهر وصل رسول الخليفة ومعه الخلع ، فلبسها السلطان ، واللبس أخاه الملك العادل وابن أسد الدين خلعاً جاءت لهم ، وفي الرابع عشر من هذا الشهر خلع السلطان خلع الخليفة على ابن قرا أرسلان ، وأعطاه دستورا ، وأعطى العساكر دستورا ، وسار ابن قرا أرسلان في تاسع عشر جمادى الآخرة طالبا بلاه .

وفي ذلك التاريخ وصلت رسل ابن زين الدين مستصرخا إلى السلطان يخبر أن عسكر الموصل وعسكر قزل نزلوا مع مجاهد الدين قايماز على إربل ، وأنهم نهبوا وأحرقوا وأنه نصر عليهم وكسرهم .

ذكر خروج السلطان إلى جهة الموصل في الدفعة الثانية

ولما سمع السلطان ذلك رحل من دمشق يطلب البلاد ، وتقدم إلى العساكر فتبعته ، وسار حتى أتى حران على طريق البيرة والتقى مع مظفر الدين بالبيرة في الثاني عشر من محرم سنة إحدى وثمانين ، وتقدم السلطان إلى سيف الدين المشطوب أن يسير في مقدمة العساكر إلى رأس العين ، ووصل السلطان حران الثاني والعشرين من صفر ، وفي السادس والعشرين منه قبض على مظفر الدين بن زين الدين لشيء كان قد جرى منه وحديث كان بلغه عنه رسوله ، ولم يقف عليه وأنكره ، فأخذ منه قلعة حران والرها ، ثم أقام في الاعتقال تأنيبا إلى مستهل ربيع الأول ، ثم خلع عليه وطيب قلبه وأعاد إليه قلعة حران وبلاده التي كانت بيده وإعادة إلى قاذونه في الاكرام والاحترام ، ولم يتخلف له سوى قلعة الرها ووعد به ، ثم رحل السلطان ثاني ربيع الأول إلى رأس العين ، ووصله في ذلك رسول قليج أرسلان يخبره أن ملوك الشرق بأسرهم قد اتفقت كالمتهم على قصد السلطان إن لم يعد عن الموصل وماربين ، وأنهم على ضرب المصاف معه إن أصر على ذلك ، فرحل السلطان يطلب نيسر ، فوصله ثامن ربيع الأول عماد الدين بن قرا أرسلان ، ومعه عسكر نور الدين صاحب ماربين ، فالتقاهم واحترمهم ، ثم رحل من نيسر حادي عشر نحو الموصل حتى نزل موضعا يعرف بالاسماعيلات قريب الموصل ، بحيث يصل من العسكر كل يوم نوبة جريفة تحاصر الموصل ، فبلغ عماد الدين بن قرا أرسلان موت أخيه نور الدين ، فطلب من السلطان دستورا طمعا في ملك أخيه فأعطاه دستورا .

ذكر موت شاه أرمن صاحب خلاط

ولما كان ربيع الآخر سنة إحدى وثمانين توفي شاه أرمن صاحب خلاط ، وولي بعده غلام له يدعى بكتمر ، وهو الذي وصل رسولا إلى خدمة السلطان بسنجان ، فعدل وأحسن إلى أهل خلاط ، وكان متصونا في طريقته ، فأطاعه الناس ومالوا إليه ، ولما ملك خلاط امتدت نحوه الأطماع لموت شاه أرمن فسار نحوه بهلوان بن الدكز ، فلما بلغه ذلك سير إلى خدمة السلطان من يقرر معه تسليم خلاط إليه واندراجه في جملة إعطائه ما يرضيه ، فطمع السلطان في خلاط ، وارتحل عن الموصل متسوجها نحوه وسير إلى بكتمر الفقيه عيسى وغرس الدين قليج لتقرير القاعدة وتحريرها ، فوصلت الرسل وبهلوان قد قارب البلاد جدا ، فتخوف بهلوان من السلطان فطلب بهلوان إصلاحه وزوجه ابنة له ، وولاه وأعاد البلاد إليه ، واعتذر إلى رسل السلطان وعادوا من غير زينة ، وكان السلطان قد نزل على ميافارقين فحاصرها وقَاتَلَهَا قتالا شديدا ، ونصب عليها مجانيق ، وكان بها رجل يقال له الأسد وما قصر في حفظها لكن الأقدار لا تغلب ، فملكها السلطان في التاسع والعشرين من جمادى ، ولما آيس من أمر خلاط عاد إلى الموصل فنزل بعيدا عنها وهي الدفعة الثالثة بموضع يقال له كفر زمار ، وكان الحر شديدا ، فأقام مدة .

وفي هذه المنزلة أتاه سنجر شاه من الجزيرة ، واجتمع به فأعاده إلى بلده ، ومرض رحمه الله بكفر زمار مرضا شديدا خاف من غائلقته ، فرحل طالبا حران وهو مريض ، وكان يتجدد ، ولا يركب محفة ، فوصل وهو شديد المرض وبلغ إلى غاية الضعف ، وآيس منه وأرجف بموته ، فوصل إليه أخوه من حلب ومعه أطباؤها .

ذكر صلح المواصلة معه

وكان سبب ذلك أن عز الدين أتابك ، صاحب الموصل ، سيرني إلى الخليفة يستنجد ، فلم يحصل منه زبدة ، وسير إلى العجم ، فلم يحصل منهم زبدة ، فلما وصلت من بغداد وأبيت جواب الرسالة آيس من نجدة ، فلما بلغهم مرض السلطان رأوا ذلك فرصة ، وعلموا سرعة إنقياده و رقعة قلبه في ذلك الوقت ، فندبوني لهذا الأمر وبهاء الدين الربيب ، وفوض إلي أمر النسخة التي حلف بها ، وقالوا أمضيا ما يصل إليه جهدكما وطاقتكما ، فسرنا حتى أتينا العسكر والناس كلهم آيسون من السلطان ، وكان وصولنا في أوائل ذي الحجة ، فاحترمنا احتراما عظيما ، وجلس لنا ، وكان أول جلوسه من مرضه ، وحلف في يوم عرفة وأخذنا منه بين النهرين ، وكان أخذها من سنجر شاه ، فأعطاها المواصلة ، وحلفته يمينا تامة ، وحلفت أخاه الملك العادل - ومات قدس الله روحه - وهو على ذلك الصلح لم يتغير عنه ، وسرنا وهو بحران وقد تماثل ، ووصله خبر موت ابن أسد الدين صاحب حمص ، وكانت وفاته يوم عرفة ، وجلس الملك العادل للعزاء ، وفي تلك الايام كانت وقعة التركمان مع الأكراد وقتل بينهم خلق عظيم ، وفي هذا الشهر وصل خبر وفاة بهلوان بن الذكر ، وكانت وفاته في سلخ ذي الحجة .

ذكر عود السلطان إلى الشام

ولما وجد السلطان نشاطا من مرضه رحل يطلب جهة حلب ، وكان وصوله إليها رابع عشر محرم سنة اثنتين وثمانين ، وكانت يوما مشهودا لشدة فرح الناس بعافيته وإقائه ، فأقام بها أربعة أيام ، ثم رحل نحو دمشق ولقيه أسد الدين شيركوه بن محمد بن

شيركوه بطل السلطان ، ومعه أخوته ، وقد صحبه خدمة عظيمة ، فمن عليه بجمع وأقام أياما يعتبر تركة أبيه ، ثم سار يطلب جهة دمشق ، وكان دخوله إليها في ثاني ربيع الأول ، وكان يوما لم ير مثله فرحا وسرورا ، ووقعت في هذا الشهر وقعات كثيرة بين الترك والاكراذ بأرض نصيبين وغيرها ، وقتل من المفتين خلق عظيم ، وبلغ السلطان أن معين الدين قد عصا بالراوند ، فكتب إلى عسكر حلب أن حاصروه ، وفي ثاني جمادى الأولى وصل معين الدين من الراوند وقد سلمها إلى علم الدين سليمان ، ثم مضى إلى خدمة السلطان ، وفي سابع عشر وصل الملك الأفضل إلى دمشق ، ولم يكن قد رأى قبل ذلك الشام .

ذكر مسير الملك العادل إلى مصر ووصول الملك الظاهر إلى حلب

وذلك أن السلطان رأى ذهاب الملك العادل إلى مصر ، فإنه كان اندس بأحوالها من الملك المظفر ، فما زال يفاوضه بذلك وهو على حران مريض ، وقد حصل ذلك في نفس الملك العادل ، فإنه كان يحب الديار المصرية ، فلما عاد السلطان إلى دمشق ، ومن الله بعافيته ، سير يطلب الملك العادل إلى دمشق ، فخرج من حلب جريدة في الرابع والعشرين من ربيع الأول ، وسار حتى أتى دمشق ، فأقام بها في خدمة السلطان فجرت بينهما أحاديث ومراجعات في قواعد تقرير إلى جمادى الآخرة واستقرت القاعدة على عود الملك العادل إلى مصر وتسليم حلب ، وسير الصنيعة لاحتضار أهله من حلب ، وكان الملك الظاهر أيده الله ، والملك العزيز بدمشق في خدمة والدهما ، فلما استقرت القاعدة على عود الملك العادل إلى مصر ، استقرت على أن يكون أتابك الملك العزيز وسلمه ولده إليه يربي أمره ، وسلم الملك العادل حلب إلى الملك الظاهر .

ولقد سال لي الملك العادل : أنه لما استقرت عليه هذه القاعدة ، واجتمعت بخدمة الملك العزيز والظاهر وجاسست بينهما ، وقلت للملك العزيز : يامولاي إن السلطان قد أمرني أن أسير في خدمتك إلى مصر ، وأنا أعلم أن المفسدين كثير ، وغدا لا يخلون ممن يقول عني مالا يجوز ويخوفونك مني ، فإن كان لك أن تسمع فقل لي حتى لا أجيء ؟ فقال : لا اسمع ، وكيف يكون ذلك ، ثم التفت وقلت للملك الظاهر : أنا أعرف أن أخاك ربما يسمع في أقوال المفسدين ، وأنا فمالي إلا أنت وقد قنعت منك بمنهج متى ضاق صدري من جانبه ، فقال : مبارك ، وذكر كل خير ، ثم إن الملك الظاهر سيره والده إلى حلب وأعادها عليه ليعلمه أن حلب هي أصل الملك وجرثومته وقاعدته ، ولهذا دأبت في طلبها ذلك الداب ، ولذا جعلت أعرض عما غيرها من بلاد المشرق ، وأقنع منهم بالطاعة والمعونة على الجهاد ، فسلمها إليه علما منه بحذاقته وحزمه وحفظه وثباته وعلو همته ، فسار إليها حتى العين المباركة ، وسير في خدمته الشحنة حسام الدين بشارة ، وواليا عيسى بن بلاشوا ، فنزل بعين المباركة ، وخرج الناس إلى لقائه في بكرة تاسع جمادى الأخرى ، وصعد القلعة ضحوة نهار ، وفرح الناس به فرحا شديدا ، ومد على الناس من جناح عدله ، وأفاض عليهم وأبل فضله .

وأما الملك العزيز والملك العادل فإن السلطان قرر حالتها ، وكتب إلى الملك المظفر يخبره بمسير الملك العزيز ، وهو وصحية عمه ، ويأمره بالوصول إلى الشام ، وشرق ذلك عليه حتى أظهر للناس ، وعزم على المسير إلى نيار الغرب إلى برقة ، فقبح ذلك عليه جماعة من أكابر الدولة وعرفوه أن عمه السلطان يخرج من يده في الحال ، والله أعلم بما يكون منه بعد ذلك ، فرأى الحق بعين البصيرة وأجاب بالسمع والطاعة ، وسلم البلاد ، ورحل وأصلا إلى خدمة السلطان ، فسار السلطان إلى لقائه وفرح بـوصوله فرحا شديدا ، وذلك في الثالث والعشرين من شعبان ، وأعطاه حماء وسار

إليها ، وكان قد عقد بين الملك الظاهر وبعض بنات الملك العادل عقد
نكاح فتم ذلك ، وبخل بها في السادس والعشرين من شهر
رمضان ، وبخل الملك الأفضل على زوجته بنت ناصر الدين بن أسد
الدين في شوال من السنة المذكورة المباركة .

ذكر غزاة أنشأها إلى الكرك

ولما كان محرم سنة ثلاث وثمانين عزم على قصد الكرك فسير
إلى حلب من يستحضر العسكر ، وبرز من دمشق في منتصف
محرم ، فسار حتى نزل برأس الماء منتظرا اجتماع العساكر
المصرية والشامية ، وأمر العساكر المتواصلة إليه بشن الغارات
على ما في طريقهم من البلاد الساحلية ، ففعلوا ذلك وأقام بأرض
الكرك حتى وصل الحاج الشامي إلى الشام ، وأمنوا غائلة
العدو ، ووصل قفل مصر الشتوي ، ووصل معه بيت الملك
المظفر ، وما كان له بالديار المصرية ، وتأخرت عنه العساكر الحلبية
بسبب اشتغالها بالأفرنج بأرض الأرمن من بلاد ابن لاون ، وذلك
أنه قد مات ملك الأفرنج ووصى لابن أخيه بالملك ، وكان الملك المظفر
بحماه وبلغ السلطان الخبر فأمرهم بالدخول إلى بلاد العدو وإخماد
ثأثرته ، وكان وصول تقي الدين إلى محروسة حلب في سابع عشر
المحرم سنة ثلاث وثمانين ، فنزل في دار عفيف الدين بن زريق
فأقام بها إلى ثالث صفر وانتقل إلى دار طمان .

وفي تاسع صفر سار الملك المظفر إلى محروسة حارم ، فأقام بها
ليعلم العدو أن هذا الجانب ليس بمهمل ، فعاد السلطان إلى
الشام ، ونزل بعثترا في السابع عشر من ربيع الأول ، ولقبه ولده
الملك الأفضل ، ومظفر الدين بن زين الدين ، وجميع العساكر .

وكان قد تقدم إلى الملك المظفر بمصالحة الجانب الحلبي مع الأفرنج

ليتفرغ البال مع العدو في جانب واحد ، فصالحهم في العشر الاواخر من ربيع الاول ، وتوجه إلى حماه يطلب خدمة السلطان للغزاة التي عزم عليها ، فسار ومن اجتمع به من العساكر الشرقية في خدمته وهم عسكر الموصل مقدمهم مسعود بن الزعفراني ، وعسكر ماربين ، فلقبهم السلطان في العشر الاوسط من ربيع الآخر فأقرهم وأكرمهم ، وفي منتصف هذا الشهر عرض السلطان العسكر لأمر قد عزم عليه على تل يعرف بتل تسييل ، وتقدم إلى أصحاب الميمنة بحفظ موضعهم وإلى أصحاب الميسرة بذلك وإلى القلب بمثله - قدس الله روحه - فما كان أحرصه على نصر الاسلام .

ذكر وقعة حطين المباركة على المؤمنين

وكانت في يوم السبت رابع وعشرين ربيع الآخر من شهور سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة .

وذلك ان السلطان رأى ان نعمة الله عليه باستقرار قدمه في الملك ، وتمسكين الله إياه في البلاد ، وانقياد الناس لطاعته ، ولزومهم قانون خدمته ، ليس لها شكر سوى الاشتغال ببذل الجهد والاجتهاد إلى إقامة قانون الجهاد ، فسير إلى سائر العساكر واستحضرها ، واجتمعوا إليه بعشترا في التاريخ المذكور ، وعرضهم ورتبهم واندفع قاصدا نحو بلاد العدو المخدول في نهار الجمعة سابع عشر ربيع الآخر ، وكان أبدا يقصد بوقعاته الجمع ، سيما أوقات صلاة الجمعة ، تبركا بدعاء الخطباء على المنابر فربما كانت أقرب إلى الاجابة ، فسار في ذلك الوقت على تعبئة الحرب ، وكان بلغه أن العدو لما بلغهم أنه قد جمع العساكر اجتمعوا بأسرهم في مرج صفرورية بأرض عكا وقصدوا نحو المصاف معهم ، فسار ونزل من يومه على بحيرة طبرية عند قرية تسمى الصنبرة ، ورحل من هناك ونزل غربي طبرية على سطح الجبل بتعبئة الحرب منتظرا أن الأفرنج إذا بلغهم ذلك قصدوه ، فلم يتحركوا من منزلهم ، وكان نزوله في هذه المنزلة يوم الأربعاء الحادي والعشرين ، فلما رأهم لايتحركون نزل جريئة على طبرية ، وترك الأطلاب بحالها قبالة وجه العدو ، ونازل طبرية ، وزحف عليها ، فهجمها وأخذها في ساعة من نهار ، وامتدت الأيدي إليها بالنهب والأسر والحريق والقتل واحتمت القلعة وحدها ، ولما بلغ العدو ماجرى على طبرية ، لم يأخذهم الصبر دون إجابة الحمية ، فرحلوا من وقتهم وساعتهم ، وقصدوا طبرية للدفع عنها ، فأخبرت الطلائع الاسلامية الأمراء بحركة الأفرنج ، فسيروا إلى السلطان من عرفه ذلك ، فتارك على طبرية

من يحفظ قلعتها ، ولحق العسكر هو ومن معه ، فالتقى العسكران على سطح جبل طبرية الغربي منها ، وذلك في أواخر الخميس الثاني والعشرين ، وحال الليل بين الفئتين فتبايتا على مصاف شاكي السلاح إلى صبيحة الجمعة في الثالث والعشرين ، فركب العسكران وتصادما وعملت الجاليشية ، وتحركت الاطلاب ، والتحم القتال ، واشتد الأمر ، وذلك بأرض قرية تسمى اللوبيا ، وضاق الخناق بالقوم ، هذا وهم سائرون كأنما يساقون إلى الموت ، وهم ينظرون ، وقد أيقنوا بالويل والثبور ، وأحست أنفسهم في غد زوار القبور ، ولم يزل الحرب يلتحم ، والفارس مع قرنه يصطدم ، حتى لم يبق إلا الظفر ، ووقع الوبال على من كفر ، فحال بينهما الليل وظلامه ، وجرى في ذلك اليوم من الوقائع العظيمة ، والامور الجسيمة ، ما لم يحك عن تقدم ، وبات كل فريق في سلاحه ينتظر خصمه في كل ساعة ، وقد أقعده التعب عن النهوض ، وشغله النصب عن الحبو فضلا عن الركوض ، حتى كان صباح السبت الذي بورك فيه ، فطلب كل من الفريقين مقامه ، وعلمت كل طائفة أن المكسورة بينهما مدحورة الجذس معدومة النفس ، وتحقق المسلمون أن من ورائهم الاربن ، ومن بين أيبيهم بلاد القوم ، وأن لا ينجيهم إلا الله تعالى .

وكان الله قد قدر نصر المؤمنين ويسره ، وأجراه على وفق ما قدره ، فحملت الاطلاب الاسلامية من الجوانب ، وحمل القلب وصاحوا صيحة الرجل الواحد ، فألقى الله الرعب في قلوب الكافرين (٢٤) ، (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) (٢٥) وكان القوم ذكي القوم ، وأطغاهم فرأى أمارات الخذلان قد نزلت بأهل بيته ، ولم يشغله ظن محاسنة جذسه عن نفسه ، فهرب في أوائل الأمر قبل اشتدائه ، وأخذ طريقه نحو صور وتبعه جماعة من المسلمين فنجا وحده ، وأمن الاسلام كيده واحتاط أهل الاسلام بأهل الكفر والطغيان من كل جانب ، وأطلقوا عليهم السهام ، وعاملوهم بالصفاح ، وانهزمت منهم طائفة فتبعها أبطال

المسلمين فلم ينج منها واحد ، واعتصمت الطائفة الأخرى بتل يقال له تل حطين ، وهي قرية عنده وعندها قبر شعيب عليه الصلاة والسلام ، وعلى سائر الأنبياء ، فضايقهم المسلمون على التل وأشعلوا حوا اليهم النيران ، وقتلهم العطش ، وضاق بهم الأمر حتى كانوا يستسلمون للأسر خوفا من القتل ، فأسر مقدموهم ، وقتل الباقون وأسروا وكان فيمن سلم وأسر من مقدميهم : الملك كي ، والبرزنس أرناط وأخو الملك جفري ، والبرزنس هو صاحب الشوبك ، وابن الهذفري ، وابن صاحب طبرية ، ومقدم الداوية ، وصاحب جبيل ومقدم الاسبتار ، وأما الباقون من المتقدمين فإنهم قتلوا ، وأما الأدوان فإنهم قسموا إلى قتل وأسير ، ولم يسلم منهم إلا من أسر ، وكان الواحد العظيم منهم يخلد إلى الأسر خوفا على نفسه .

ولقد حكى لي من أثق به أنه لقي بحوران شخصا واحدا معه طناب خيمة فيه نيف وثلاثون أسيرا أخذهم وحده لخلان وقع عليهم .

فأما الذين بقوا من مقدميهم فنذكر حديثهم ، أما القومص الذي هرب فإنه وصل إلى طرابلس ، وأصابته ذات الجنب فأهلكه الله بها ، وأما مقدم الاسبتار والداوية فإن السلطان اختار قتلهم فقتلوا عن بكرة أبيهم ، وأما البرزنس أرناط فكان السلطان قد نذر أنه إذا ظفر به قتله ، وذلك أنه كان عبر به بالشوبك قافلة من الديار المصرية في حالة الصلح ، فنزلوا عنده بالأمان ، فغدر بهم ، وقتلهم فناشدوه الله والصلح الذي بينه وبين المسلمين ، فقال ما يتضمن الاستخفاف بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وبلغ ذلك السلطان فحملة الدين والحمية على أنه نذر إن ظفر به قتله .

ولما فتح الله بالنصر والظفر جالس السلطان في دهليز الخيمة ، فإنها لم تكن نصبت ، والناس يتقربون إليه بالأسرى ، ومن وجدوه من المتقدمين ، ونصبت الخيمة وجلس فرحا مسرورا لما أنعم الله به عليه ، ثم استحضر الملك كي ، وأخاه جفري والبرزنس

أرناط ، وناول الملك كي شربة من جلاب بثلج فشرب منها ، وكان على أشد حال من العطش ، ثم ناول بعضها البرنس أرناط ، فقال السلطان للترجمان : قل للملك : أنت الذي سقيته ، وأما أنا فما سقيته ، وكان على جميل عادة العرب وكريم اخلاقهم ، أن الأسير إذا أكل أو شرب من ماء لمن أسره أمن بذلك ، جريا على مكارم الأخلاق ، ثم أمرهم بمسيرهم إلى موضع عين لنزولهم ، فمضوا وأكلوا شيئا ، ثم عادوا فاستحضرهم ، ولم يبق عنده سوى بعض الخدم وأقعد الملك في الدهليز ، واستحضر البرنس أرناط ، وأوقفه على ما قال ، وقال له ها أنا أنتصر لمحمد عليه الصلاة والسلام ، ثم عرض عليه الاسلام فلم يفعل ثم سل النمجة (٢٦) وضربه بها فحل كتفه ، وطمع عليه من حضر ، وعجل الله بروحه إلى النار ، فأخذ ورمي على باب الخيمة ، فلما رآه الملك قد خرج به على تلك الصورة لم يشك أنه يثني به ، فاستحضره وطيب قلبه ، وقال : لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك ، وأما هذا فإنه تجاوز حده فجري ما جرى .

وبات الناس في تلك الليلة على أتم سرور ، وأكمل حبور ، تزدفع أصواتهم بالحمد لله والشكر له ، والتكبير والتهليل حتى طلع الصبح في يوم الأحد ، وتسلم قدس الله روحه في بقية ذلك اليوم قلعة طبرية وأقام بها إلى يوم الثلاثاء .

ثم رحل طالبا عكا وكان نزوله عليها يوم الأربعاء سلخ ربيع الآخر ، وقا تلها يوم الخميس مستهل جمادى الأولى فأخذها واستنقذ من كان فيها من الاسارى ، وكانوا زهاء أربعة الاف نفر ، واستولى على ما فيها من الأموال والنخائر ، والبضائع والتجائر ، فإنها كانت مظنة التجار ، وتفرقت العساكر في بلاد الساحل يأخذون الحصون والقلاع والأماكن المنيعه ، وأخذوا نابلس ، وحيفا وقيسارية ، وصفورية ، والناصره ، وكان ذلك لخلوها عن الرجال بالفتك والأسر .

ولما استقرت قـواعد عكا واقتسم الغـسانمون أمـوالها وأسارها ، سار يطلب تبين فنزل عليها يوم الأحد ثاني عشر جمادى الأولى وهي قلعة منيعة ، فنصب عليها المناجيق ، وضيق عليها بالزحف الخناق ، وكان بها رجال أبطال شـديدون في بينهم ، فاحتاجوا إلى معانة شديدة ونصره الله عليهم ، وتسلمها ثامن عشر عذوة وأسر من بقي بها بعد القتل ، ثم رحل منها إلى صيدا ، فنزل عليها ، ومن الغد تسلمها وأقام عليها بحيث قرر قاعدتها .

ثم سار حتى أتى بيروت ، فنازلها في الثاني والعشرين ، وتسلم أصحابه جيلا ، وهو على بيروت .

ولما أفرغ باله من هذا الجانب رأى قصد عسقلان ، ولم ير الاشتغال بصور بعد أن نزل عليها ومارسها ، لأن العسكر كان قد تفرق في الساحل ، ونهب كل إنسان يأخذ لنفسه شيئا ، وكانوا قد ضرسوا من القتال ، وملازمة الحرب ، وكان قد اجتمع في صور كل أفرنجي بقي في الساحل ، فرأى قصد عسقلان لأن أمرها كان أيسر ، ونازلها في السادس والعشرين من جمادى الآخرة ، وتسلم في طريقه مواضع كثيرة : كالرملة ، وبينا ، والدارون ، وأقام عليها المنجنقيات وقاتلها قتالا شديدا ، وتسلمها سلخ هذا الشهر ، وأقام عليها إلى أن تسلم أصحابه : غزة وبيت جبرين ، والنطرون ، بغير قتال وكان بين فتوح عسقلان ، وأخذ الأفرنج لها من المسلمين خمسة وثلاثون سنة ، فإن العدو ملكها في سبعة وعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة .

ذكر فتوح القدس الشريف حرسها الله تعالى

ولما تسلم عسقلان والأماكن المحيطة بالقدس شمر عن ساق الجد والاجتهاد في قصده ، واجتمعت عليه العساكر التي كانت متفرقة في الساحل بعد انقضاء لبانتها من النهب والغارة ، فسار نحوه معتمدا على الله مفوضا أمره إليه ، منتهزا فرصة فتح باب الخير الذي حدث عليه صلى الله عليه وسلم بقوله : « من فتح باب خير فلينتهزه فإنه لا يدري متى يغلق دونه » (٢٧) وكان نزوله عليها في الخامس عشر من رجب سنة ثلاث وثمانين المباركة ، فنزل بالجانب الغربي ، وكان مشحونا بالمقاتلة والخيالة والرجالة ، ولقد تجاوز أهل الخبرة عدة من كان فيه من المقاتلة بما يزيد على ستين ألفا ما عدا النساء والصبيان ، ثم انتقل رحمه الله لمصلحة رها إلى الجانب الشمالي ونصب عليه المجانيق ، وضايقه بالزحف للاقتال ، وكثرة الرماة حتى أخذ النقب في السور ممالي وادي جهنم في قرنة شمالية .

ولما رأى أعداء الله ما نزل بهم من الأمر الذي لا يندفع عنهم ، وظهرت لهم أمارات نصرة الحق على الباطل ، وكان قد ألقى في قلوبهم الرعب مما جرى على أبطالهم ورجالهم من السبي والقتل والأسر ، وما جرى على حصونهم من الاستيلاء والأخذ ، علموا أنهم إلى ما صاروا إليه صائرون ، وبالسيف الذي قتل به إخوانهم ، مقتولون ، فاستكانوا وأخذوا إلى طلب الأمان ، واستقرت القاعدة بالمراسلة بين الطائفتين

وكان تسلمه القدس قدس الله روحه في يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب ، وليلة كانت ليلة المعراج المنصوص عليها في القرآن المجيد ، فانظر إلى هذا الاتفاق العجيب كيف يسر الله عوده إلى أيدي المسلمين في مثل زمان الاسراء بنييهم صلى الله عليه

وسلم ، وهذه علامة قبول هذه الطاعة من الله تعالى ، وكان فتوحا عظيما ، شاهده من أهل العلم خلق عظيم ، ومن أرباب الحرف والطرق ، وذلك أن الناس لما بلغهم مايسر الله على يده من فتوح الساحل ، وشاع قصده القدس قصده العلماء من مصر ومن الشام بحيث لم يتخلف معروف من الحضور ، وارتفعت الأصوات بالضجيج والدعاء والتهليل والتكبير ، وخطب فيه وصليت فيه الجمعة يوم فتحه ، وحط الصليب الذي كان على قبسة الصخرة ، وكان شكلا عظيما ، ونصر الله الاسلام نصر عزيز مقتدر .

وكانت قاعدة الصلح أنهم قطعوا على أنفسهم عن كل رجل عشرة بنانير ، وعن كل امرأة خمسة بنانير صورية ، وعن كل صغير ذكر أو أنثى ديناراً واحداً ، فمن أحضر القطيعة سلم نفسه ، وإلا أخذ أسيرا ، وفرج الله عن من كان أسيرا من المسلمين ، وكان خلقا عظيما زهاء ثلاثة آلاف أسير ، وأقام رحمه الله يجمع الأموال ويفرقها على الأمراء والعلماء ، وإيصال من دفع قطيعته منهم إلى مأمنه وهو صور ، ولقد بلغني أنه رحل عن القدس ولم يبق له من ذلك المال شيء ، وكان مئتي ألف دينار وعشرين ألف دينار ، وكان رحيله يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة

ذكر قصده صور يسر الله فتحها

ولما ثبت قدم السلطان بملك القدس والساحل قوييت نفسه على قصد صور ، وعلم أنه إن أخر أمرها ربما اشتد ، فرحل سائرا إليها حتى أتى عكا فنزل عليها ونظر في أحوالها ، ثم رحل متوجها إلى صور يوم الجمعة خامس شهر رمضان ، وسار حتى أشرف عليها ونزل قريبا منها ينتظر وصول آلات القتال .

وكان لما تحرر عزمه على قصد صور سير إلى ولده الملك الظاهر يستحضره ، وكان قد تركه بحلب ليسد ذلك الجانب لا شتغاله هو بأمر الساحل ، فقدم عليه في الثامن عشر من شهر رمضان على تلك المنزلة ، وسر بوضوله سرورا عظيما .

ولما تكاملت عنده آلات القتال من المناجيق والدبابات والستائر وغير ذلك ، نزل عليها في الثامن والعشرين ، وضايقها وقاذلها قتالا عظيما ، واستدعى أسطول مصر ، وكان يحاصرها من البحر ، والعسكر من البر ، وكان قد خاف أخاه الملك العادل بالقدس يقر قواعده ، فاستدعاه فوصل إليه في خامس شوال ، وسير من حاصر هونين فسلمت في الثالث والعشرين من شوال .

ذكر كسرة الأسطول

وذلك أنه قدم على الأسطول إنسان يقال له الفارس بدران ، وكان ناهضا جلدا في البحر ، وكان رئيس البحريين يقال له عبد المحسن ، وكان قد أكد عليهم الوصية في أخذ حذرهم وتيقظهم لئلا تنتهز منهم فرصة ، فخالفوه وغفلوا عن أنفسهم في الليل ، فخرج أسطول الكفار من صور ، وكبسوهم ، وأخذوا المقدمين مع خمس قطع وقتلوا خلقا عظيما من الأسطول الاسلامي ، وذلك في السابع والعشرين من شوال ، فلما علم السلطان ماتم على المسلمين ضاق عطنه ، وكان قد هجم الشتاء وتراكت الأمطار ، وامتنع الناس من القتال من شدة المطر ، فجمع الأمراء واستشارهم فيما يفعل ، فأشاروا عليه بالرحيل ليأخذ العسكر جزءا من الراحة ، ويستعدوا لهذا الأمر استعدادا جيدا ، فرأى ذلك رأيا ورجل عنها بعد أن رمى المنجنيات وسيرها وأحرق ما لا يمكن نقله ، وكان رحيله ثاني ذي القعدة من هذه السنة ففرق العساكر ، وأعطاهم دستورا ، وسار

كل قوم إلى بلادهم ، وأقام هو مع جماعة من خواصه بعكا حتى دخلت سنة أربع وثمانين .

ذكر نزوله على كوكب

ولما دخلت عليه السنة المباركة رأى الاشتغال بالحصون الباقية لهم ، مما يضعف قلوب من في صور ، وينهي أمرها به ، فاشتغل بذلك ، ونزل على كوكب في أوائل محرم ، وكان سبب بداءته بكوكب أنه قد جعل حولها جماعة يحفظونها من أن تدخل إليهم قوة ، فخرج الافرنج ليلا وأخذوا غرتهم وكبسوهم بعفر بلا ، وقتلوا مقدمهم ، وكان من الأمراء يعرف بسيف الدين أخي الجاولي ، وأخذوا أسلحتهم ، فسار رحمه الله من عكا ونزل عليها بمن معه من خواصه ، فإنه كان قد أعطى العساكر دستوراً وعاد أخوه إلى مصر وولده إلى حلب ، ولقى في طريقه شدة من الثلج والبرد ، فحملته مع ذلك الحمية على النزول عليها ، وأقام يقاتلها مدة .

وفي تلك المنزلة وصلت إلى خدمته فإني كنت قد حججت سنة ثلاث وثمانين ، وكانت وقعة ابن المقدم وجرح يوم عرفة على عرفة لخلف جرى بينه وبين أمير الحاج كمششـتـكين على ضرب الكوس والدبـدبة ، فإن أمير الحاج نهـاه عن ذلك ، فلم ينته ابن المقدم ، وكان من أكبر أمراء الشام ، وكان كثير الغزاة ، فقدر الله أن جرح بعرفة يوم عرفة ، ثم حمل إلى منى مجروحاً ، ومات بمنى يوم الخميس يوم عيد الله الأكبر ، وصلى عليه في مسجد الخيف في بقية ذلك اليوم ، ودفن بالمعلا ، وهذا من أتم السعادات ، وبلغ ذلك السلطان فشق عليه .

ثم اتفق لي العود من الحج على الشام لقصد القدس وزيارته ،

والجمع بين زيارة النبي صلى الله عليه وسلم وزيارة ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، فوصلت إلى دمشق ، ثم خرجت إلى القدس ، فبلغه خبر وصولي ، فظن أنني وصلت من جانب الموصل في حديث ، فاستحضرني عنده وبالغ في الاكرام والاحترام ، ولما ودعته ناهباً إلى القدس خرج لي بعض خواصه وأبلغني تقدمه إلي بأن أعود أمثل في خدمته عند العود من القدس ، فظننت أنه يوصيني بهمهم إلى الموصل ، وانصرفت إلى القدس يوم رحيله عن كوكب ، ورحل لأنه علم أن هذا الحصن لا يؤخذ إلا بجمع العساكر عليه ، وكان حصناً قوياً وفيه رجال شداد من بقايا السيف ، وميرة عظيمة ، فرحل إلى دمشق ، وكان دخوله إليها في سادس ربيع الاول .

وفي ذلك اليوم اتفق دخولي إليها عائداً من القدس ، وأقام بها خمسة أيام ، فكان له عنها ستة عشر شهراً .

وفي اليوم الخامس بلغه خبر الأفرنج أنهم قصدوا جيبلاً واغتالوها ، فخرج مسرعاً ساعة بلوغ الخبر ، وكان قد سير إلى العساكر يستدعيها من سائر الجوانب ، وسار يطلب جيبلاً ، فلما عرف الأفرنج بخروجه كفوا عن ذلك ، وكان بلغه وصول عماد الدين وعسكر الموصل ، ومظفر الدين إلى حلب قاصدين الخدمة للفرقة ، فسار نحو حصن الأكراد في طلب الساحل الفوقاني

ذكر دخوله الساحل الأعلى وأخذه اللاذقية وجبله وغيرهما

ولما كان مستهل ربيع الآخر نزل على تل قبالة حصن الأكراد ، ثم سير إلى الملك الظاهر ، والملك المظفر أن يجتمعا وينزلا بقرين قبالة أنطاكية ليحفظا ذلك الجانب ، وسارت عساكر الشرق حتى اجتمعت لخدمة السلطان في هذه المنزلة ، ووصلت إليه بها على عزم المسير

إلى الموصل متجهزاً لذلك ، فلما حضرت عنده فرح بي وكرمني ، وكنت قد جمعت له كتاباً في الجهاد بدمشق مدة مقامي فيها يجمع أحكامه وأدابه ، فقدمته بين يديه فأعجبه ، وكان يلزم مطالعته ، ومازلت أطلب دستوراً في كل وقت وهو يذافعني عن ذلك ويستدعيني للحضور في خدمته في كل وقت ، ويبلغني على السنة الحاضرين ثناءه علي وذكره إياي بالجميل ، فأقام في منزلته ربيعاً الآخر جميعه ، وصعد في أثنائه إلى حصن الأكراد ، وحاصره يوم مجيئه بها ، فما رأى الوقت يحتمل حصاره ، واجتمعت العساكر من الجوانب وأغار على بلد طرابلس في الشهر دفتين ، وبخل البلاد مغيراً ومختبراً لمن بها من العساكر ، وتقوية العساكر بالغنائم، ثم نادى في الناس في أواخر الشهر ، إنا داخلون الساحل ، وهو قليل الأزواد ، والعدو يحيط بنا في بلاده من سائر الجوانب ، فاحملوا زاد شهر ، ثم سير إلي مع الفقيه عيسى ، وكشف إلي أنه ليس في عزمه أن يمكنني من العود إلى بلادي ، وكان الله قد أوقع في قلبي محبته منذ رأيت حبه الجهاد فأحبيته لذلك ، وخدمته من تاريخ مستهل جمادى الأولى سنة أربع وثمانين ، وهو يوم دخوله الساحل ، وجميع ما حكيت قبل إنما هو روايتي عن أثق به ممن شاهده .

ومن هذا التاريخ ما سطرت إلا ما شاهدته ، وأخبرني به من أثق به خبراً يقارب العيان والله الموفق .

ولما كان يوم الجمعة رابع جمادى الأولى رحل السلطان على تعبئة لقاء العدو ، ورتب الأطلاب ، وسارت الميمنة أولاً ومقدمها عماد الدين زنكي ، والقلب في الوسط والميسرة في الآخر ، ومقدمها مظفر الدين ، وسار الثقل في وسط العسكر حتى أتى المنزل ، فبتنا تلك الليلة في بلد العدو ، ثم رحل ونزل على العريمة ، فلم يقاتلها ، ولم يتعرض لها ، ولكن أقام عليها بقية يوم السبت ، ورحل عنها يوم الأحد .

ذكر فتح أنطربوس

وكان وصوله - رحمه الله إلى أنطربوس ضاحي نهار الأحد سادس جمادى الأولى سنة أربع وثمانين ، فوقف قبالتها ينظر إليها ، وكان في عزمه الاجتياز ، فإنه كان له عمل بجيلة فاستهان بأمرها ، فعزم على قتالها ، فسير من رد الميمنة ، وأمرها بالنزول على جانب البحر ، وأمر الميسرة بالنزول على البحر من الجانب الآخر ونزل هو في موضعه وصارت العسكر محدقة بها من البحر إلى البحر ، وهي مدينة راكبة على البحر ولها برجان كالقلعتين حصينان ، وركب هو وقارب البلد ، وأمر الناس بالزحف والقتال ، فلبسوا الامة الحرب والقتال والزحف وضايقهم فما استتم نصب الخيم حتى صعد الناس السور ، وأخذوها بالسيف ، وغنم العسكر جميع من بها ، وخرج الناس والابري واموالهم بأنبيهم ، وترك الغلمان نصب الخيم واشتغلوا بالنهب والكسب ، ووفى بقوله نتغدى بأنطربوس إن شاء الله ، وعاد الي خيمته فرحا مسرورا .

وحضرنا عنده للهناء بما جرى ، ومد الطعام ، وحضر الناس ، وأكلوا على عادتهم ، ورتب على البرجين الباقيين الحصار ، فسلم أحدهما إلى مظفر الدين فما زال يحاصره حتى أخربه ، وأخذ من كان فيه ، وأمر السلطان بإخرا ب سور البلد وقسمه على الأمراء ، وشرعوا في إخرا به وأخذوا يحاصرون الآخر ، وكان حصنا منيعا مبني بالحجر النحيت ، وقد اجتمع من كان فيها من الخيالة والبطارقة والمقاتلة فيه ، وخندقه يدور فيه الماء وفيه جروح كثيرة يجرح الناس منها عن بعد ، وليس له قدر يخرج عليه مسلم ، فرأى السلطان تأخير أمره ، والاشتغال بما هو أهم منه ، فاشتد في إخرا ب السور حتى أتى عليه ، وخرب البيعة ، وهي بيعة عظيمة عندهم محجوج إليها من أقطار بلادهم ، وأمر بوضع النار في البلد ، فأحرق جميعه حتى كان تتأجج النار في أدره وبيوته

والأصوات مرتفعة بالتهليل والتكبير ، فاقام عليها يخربها إلى الرابع عشر وسار يريد جبلة ، وكان عرض له ولده الملك الظاهر في أثناء طريق جبلة ، فإنه طلبه وأمره أن يحضر معه جميع العساكر التي كانت بتيزين فحضر وهم بالخدمة .

ذكر فتوحه جبلة واللاذقية

ووصل إلى جبلة في الثامن عشر ، وما استتم نزول العساكر حتى أخذ البلد ، وكان فيه مسلمون مقيمون فيه ، وقاض يحكم بينهم ، وكان قد عمل على البلد فلم يمتنع ، وبقيت القلعة ممتنعة ، فاشتغل بقتالها فقاتلت قتالا يقيم عذرا لمن كان فيها ، وسلمت بالأمان في التاسع عشر ، وأقام عليها إلى الثالث والعشرين ، وسار عنها يطلب اللاذقية .

وكان نزوله عليها في الرابع والعشرين ، وهي بلد مليح خفيف على القلب غير مستور ، وله ميناء مشهورة وله قلعتان متصلتان على تل مشرف على البلد ، فنزل محققا بالبلد ، وأخذ العسكر منازلهم مستديرين على القلعتين من جميع نواحيهما إلا من ناحية البلد ، واشتد القتال ، وعظم الزحف ، وارتفعت الأصوات ، وقوي الضجيج إلى آخر اليوم المذكور ، وأخذ البلد دون القلعتين ، وغنم الناس منه غنيمة عظيمة ، فإنه كان بلد التجار ، ففرق بين الناس الليل وهجومه .

وأصبح يوم الجمعة مقاتلا مجتهدا في أخذ الذقوب ، وأخذت الذقوب من شمالي القلاع ، وتمكن منها النقب حتى بلغ طوله على ما حكى لي من زرعه ستين ذراعا ، وعرضه أربعة أذرع ، واشتد الزحف عليهم حتى صعد الناس الجبل ، وقاربوا السور وتواصل القتال حتى صاروا يتحاذفون بالحجارة باليد ، فلما رأى عدوا لله ما حل

بهم من الصغار والبوار استغاثوا بطلب الأمان عشية الجمعة
الخامس والعشرين من الشهر ، وطلبوا قاضي جبلة يدخل إليهم
ليقرر لهم الأمان ، فاجيبوا إلى ذلك .

وكان رحمه الله متى طلب منه الأمان لا يبخل به رفقا ، فعاد الناس
عنهم إلى خيامهم ، وقد أخذ منهم التعب ، فباتوا إلى صبيحة
السبت ، وبخل قاضي جبلة إليهم واستقر الحال معهم على أنهم
يطلقون بذفوسهم وذرايرهم وأموالهم ، خلا الغلال والنخائر ، وآلات
السلاح ، والدواب ، وأطلق لهم دواب يركبونها إلى ما منهم ، ورقى
عليها العلم الاسلامي المنصور في بقية ذلك اليوم ، وأقمنا عليها إلى
يوم الأحد السابع والعشرين من جمادى الأولى .

ذكر فتوح صهيون

ورحل عن اللاذقية طالبا صهيون ، واستدارت العساكر بها من
سائر نواحيها في التاسع والعشرين ، ونصب عليها ستة
مناجيق ، وهي قلعة حصينة منيعة في طرف جبل ، خنادقها أودية
هائلة واسعة عظيمة ، وليس لها خندق محفور إلا من جانب واحد
مقدار طوله ستون ذراعا أو أكثر ، وهو نقر في حجر ، ولها ثلاثة
أسوار سور دون ربضها وسور دون القلعة وسور القلعة ، وكان
على قلعتها علم طويل منصوب ، فحين أقبل العسكر الاسلامي
شاهدته قد وقع ، فاستبشر المسلمون بذلك ، وعلموا أنه النصر
والفتح ، واشتد القتال عليها من سائر الجوانب فضربها بمنجنيق
الملك الظاهر صاحب حلب ، وكان نصب منجنيقا قريبا من سورها
فقطع الوادي ، وكان صائب الحجر ، فلم يزل يضربها حتى هدم من
السور قطعة عظيمة يمكن الصاعد في السور الترقى إليه منها ، ولما
كان بكرة الجمعة ثاني جمادى الآخرة عزم السلطان وتقدم وأمر
المنجنوقات أن تتوالى بالضرب ، وارتفعت الأصوات ، وعظم

الضجيج بالتكبير والتهليل وما كان إلا ساعة حتى رقي المسلمون على الأسوار التي للربض ، واشتد الزحف وعظم الأمر ، وهجم المسلمون الربض ، ولقد كنت أشاهد الناس وهم يأخذون القدور وقد استوى فيها الطعام فيأكلونها ، وهم يقاتلون ، وانضم من كان في الربض إلى القلعة وهم يحملون ما أمكنهم أن يحملوا من أموالهم ، ونهب الباقي ، واستدارت المقاتلة حول أسوار القلعة ، ولما عاينوا الهلاك استغاثوا بطلب الأمان ، ووصل خبرهم إلى السلطان فبذل الأمان وأنعم عليهم ، على أن يسلموا بأنفسهم وأموالهم ، ويؤخذ من الرجل منهم عشرة بنانير ، ومن المرأة خمسة ، وعن الصغير ديناران ، وسلمت القلعة ، وأقام السلطان عليها حتى تسلم عدة قلاع كالعيد وقلعة الجماهريين وبلاطنس وغيرها من القلاع والحصون تسلمها النواب ، فإنها كانت تتعلق بصهيون .

ذكر فتوح بكاس

ثم رحل وسرنا حتى أثينا سادس جمادى الأخرى بكاس وهي قلعة حصينة على جانب العاصي ، ولها نهر يخرج من تحتها ، وكان المنزل على شاطئ العاصي ، وصعد السلطان جريدة إلى القلعة وهي على جبل يطل على العاصي ، فأحرق بها من كل جانب وقاتلها قتالا شديدا بالمنجنيقات والزحف المضايق إلى تاسع الشهر ، ودرسه الله فتحها عذوة ، وأسر من فيها بعد قتل من قتل منهم ، وغنم جميع ما كان فيها ، وكان لها قلعة تسمى الشغرة وهي في غاية المنعة ليس إليها طريق ، فسلطت عليها المنجنيقات من الجوانب ، ورأوا أنهم لا ناصر لهم فطلبوا الأمان في الثالث عشر ، وسألوا أن يؤخروا ثلاثة أيام لاستئذان من بأنطاكية ، فأذن في ذلك ، وكان تمام فتحها وصعود العلم السلطاني عليها يوم الجمعة سادس عشر ، ثم عاد السلطان إلى الثقل ، وسير ولده الملك الظاهر إلى قلعة سرمانية ، فقاتلها قتالا شديدا وضايقها مضايقة

عظيمة ، وتسلمها يوم الجمعة الثالث والعشرين من الشهر ، فاتفتت فتوحات الساحل على جيلة الى سمرانية في أيام الجمع ، وهي علامة قبول دعاء الخطباء المسلمين ، وسعادة السلطان حيث يسر الله لنا الفتوح في اليوم الذي يضاعف فيه ثواب الحسنات ، وهذا من نواذر الفتوحات في الجمع المتوالية ، ولم يتفق مثله في تاريخ .

ذكر فتوح برزبة

ثم سير السلطان جريدة الى قلعة برزبة ، وهي قلعة حصينة في غاية القوة والمنعة على سن جبل شاهق يضرب بها المثل في جميع بلاد الافرنج والمسلمين ، تحيط بها أولية من سائر جوانبها ، وذرع علوها كان خمسمائة ذراع ونيفا وسبعين ذراعا ، ثم جدد عزمه على حصارها بعد رؤيتها ، واستدعى الثقل ، وكان نزول الثقل وبقية العسكر تحت جبلها في الرابع والعشرين من الشهر .

وفي بكرة الخامس والعشرين منه صعد السلطان جريدة مع المقاتلة والمنجنوقات وآلات الحصار إلى الجبل ، فأحرق بالقلعة من سائر نواحيها وركب القتال من كل جانب ، وضرب أسوارها بالمنجنوقات المتواترة الضرب ليلا ونهارا ، وفي السابع والعشرين قسم العساكر ثلاثة أقسام ، ورتب كل قسم يقاتل شطرا من النهار ثم يستريح ويسلم القتال للقسم الآخر ، بحيث لا يفتقر القتال عنها أصلا وكان صاحب النوبة الأولى عماد الدين صاحب سنجار ، فقاتلها قتالا شديدا حتى استوفى نوبته ، وضرر الناس من القتال وتراجعوا واستلم النوبة الثانية السلطان بنفسه وركب وتحرك خطوات عدة وصاح في الناس ، فحملوا عليها حملة الرجل الواحد ، وصاحوا صيحة الرجل الواحد وقصدوا السور من كل جانب ، فلم يكن إلا بعض ساعة حتى رقي الناس على الأسوار ، وهجموا القلعة

وأخذت القلعة عذوة ، فاستغاثوا الأمان وقد تمكنت الأيدي منهم (فلم يك يذفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا) (٢٨) ونهب جميع ما فيها ، وأسر جميع من كان فيها ، وكان قد أوى إليها خلاق عظيم ، وكانت من قلاعهم المذكورة ، وكان يومها عظيما ، وعاد الناس إلى خيامهم غانمين ، وعاد السلطان إلى الثقل فرحا مسرورا ، وأحضر بين يديه صاحب القلعة ، وكان رجلا كبيرا منهم ، وكان هو ومن أخذ من أهله سبعة عشر نفسا ، فمن عليهم ورق لهم وأنفذهم إلى صاحب أنطاكية استمالة فانهم يتعلقون به ومن أهله .

ذكر فتوح دريساك

ثم رحل حتى أتى جسر الحديد ، وأقام عليه أياما ، وسار حتى نزل على دريساك يوم الجمعة ثامن عشر رجب ، وهي قلعة منيعة قريبة من انطاكية ، فنزل عليها وقاتلها قتالا شديدا بالمنجنيات ، وضايقها مضايقة عظيمة ، وأخذ النقب تحت برج منها ، وتمكن النقب منه حتى وقع ، وحموه بالرجال والمقاتلة ووقف في الثغرة رجال يحمونها ممن يصعد فيها ولقد شاهدتهم وكلما قتل منهم رجل قام غيره مقامه وهم قيام في عرض الجدار مكشوفون ، فاشتد بهم الأمر حتى طلبوا الأمان ، واشترطوا مراجعة انطاكية ، وكانت القاعدة أن ينزلوا بأنفسهم وثياب أبدانهم لاغير ، ورقي عليها العلم الاسلامي في الثاني والعشرين من رجب وأعطاهم علم الدين سليمان بن جندر ، وسار عنها في الثالث والعشرين منه .

ذكر فتوح بغراس

وهي قلعة منيعة أقرب الى انطاكية من دربساك ، وكانت كثيرة العدة والرجال ، فنزل العسكر في مرج لها ، وأحدق العسكر بها جريدة مع أنا احتجنا إلى يزك في تلك المنزلة يحفظ جانب انطاكية لئلا يخرج منها من يهاجم العسكر ، فضرب يزك الاسلام على باب انطاكية بحيث لا يشذ عنه من يخرج منها ، وأنا ممن كان في اليزك في بعض الايام لرؤية البلد ، وزيارة حبيب النجار المدفون فيها ، ولم يزل يقاتل بغراس مقاتلة شديدة حتى طلبوا الامان على استئذان انطاكية ، ورقى العلم الاسلامي عليها في ثاني شعبان من شهور سنة أربع وثمانين ، وفي بقية ذلك اليوم عاد رحمه الله الى المخيم الأكبر ورأسه أهل انطاكية في طلب الصلح فصالحهم لشدة ضجر العسكر ، وقوة قلق عماد الدين صاحب سنجار في طلب الدستور ، وعقد الصلح بيننا وبين انطاكية من بلاد الأفرنج لا غير على ان يطلقوا جميع أسارى المسلمين الذين عندهم ، وكان إلى سبعة أشهر ، فإن جاءهم من ينصرهم والا سلموا البلد الى السلطان ، ورحل يطلب دمشق فسأله ولده الملك الظاهر أن يجتاز به فأجابه ، وسار حتى أتى حلب حادي عشر شعبان وأقام بقلعتها ثلاثة أيام ، وولده يقوم بالضيافة حق القيام ، ولم يبق من العسكر الا من ناله من نعمته منال ، وأكثر ظني أنه اشفق عليه والده ، وسار من حلب يريد دمشق فاعترضه ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين ، واصعده الى قلعة حماه ، واصطنع له طعاما حسنا ، وأحضر له سماع الصوفية ، وبات فيها ليلة واحدة ، وأعطاه جبلة واللاذقية ، وسار على طريق بعلبك حتى أتاه وأقام بمرجها ودخل الى حمامها ، وسار منها حتى دخل رمضان ، وما كان يرى تخلية وقته عن الجهاد مهما أمكنه ، وكان قد بقي له القلاع القريبة من حوران التي يخاف عليها من جانبها : كصفد ، وكوكب ، فرأى أن يشغل الوقت بفتح المكانين في الصوم .

ذكر فتح صفد

ثم سار في أوائل رمضان من دمشق يريد صفد ، ولم يلتفت الى مفارقة الاهل والاولاد والوطن في هذا الشهر الذي يسافر الانسان أين كان فيجتمع فيه بأهله ، « اللهم إنه احتمل ذلك ابتغاء مرضاةك فآته اجرا عظيما » .

فسار حتى أتى صفد وهي قلعة منيعة قد تقاطعت حولها أوبية من سائر جوانبها ، فأحرق العسكر بها ونصب عليها المناجيق في أثناء شهر رمضان المبارك ، وكانت الأمطار شديدة ، والوحول عظيمة ، ولم يمنع ذلك عن جده ، ولقد كنت عنده في خدمته ليلة ، وقد عين مواضع خمس مناجيق ، فقال ما ننام حتى تنصب الخمسة ، وسلم كل منجنيق الى قوم ورسله تتوالت اليهم يعرفونهم كيف يصنعون حتى أظله الصبح ، وقد فرغت المنجنيقات ، ولم يبق الا تركيب خنازيرها فيها ، فرويت له الحديث المشهور في الصحاح وبشرته بمقتضاه ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « عيانان لآتمسهما النار عين باتت تحرس في سبيل الله ، وعين بكى من خشية الله » وفي أثناء شهر رمضان سلمت الكرك من جانب نواب صاحبها ، وخلصوه بها من الأسر ، وكان قد أسر في وقعة حطين المباركة ، ثم لم يزل القتال على صفد متواصلا بالذوب مع الصوم حتى سلمت بالأمان في رابع عشر شوال .

ذكر فتوح كوكب

ثم سار يريد كوكب فنزل على الجبل ، وجرد العسكر ، وأحرق بالقلعة وضايقها بالكلية بحيث اتخذ له موضعا يتجاوزه نشاب

العدو ، وبني له حائطا من حجر وطنين يستتر وراءه حتى لا يقدر أحد يقف على باب خيمة الا إن كان ملبسا ، وكانت الأمطار متواترة ، والوحول عظيمة ، وعانى شدائد وأهوالا من شدة الرياح وتراكم الأمطار ، وكون العدو مسلطا عليهم بعلو مكانه ، وقتل وجرح جماعة ، ولم يزل راكبا مركب الجد حتى تمكن النقب من سورها .

ولما أحس العدو الخذلان أنه مأخوذ طلب الأمان فأجابهم إلى ذلك ، وأمنهم ، وتسلمها في منتصف ذي القعدة ، ونزل على الفور إلى الذقل ، وكان قد أنزله من شدة الوحل والريح في سطح الجبل ، فأقام بقية الشهر يراجع أخوه الملك العادل في أشغال شخصية حتى هل هلال ذي الحجة ، وأعطى دستوراً وسار مع أخيه يريد القدس لزيارته ووداع أخيه فإنه كان عائدا إلى مصر ، فوصل إليه يوم الجمعة ثامن ذي الحجة ، وصلينا الجمعة في قبة الصخرة الشريفة ، وصلينا صلاة العيد الأعظم بها أيضا يوم الأحد ، وسار حادي عشر طالبا عسقلان لينظر في حالها ، فأقام بها أياما يلم شعنها ويصلح أحوالها ، فودع أخاه ، وأعطاه الكرك ، وأخذ منه عسقلان ، وعاد يطلب عكا على طريق الساحل ، ويمر على البلاد يتفقد أحوالها ويودعها الرجال والعدد حتى أتى عكا فأقام بها معظم محرم سنة خمس وثمانين ورتب بها بهاء الدين قراقوش واليا وأمره بعمارة السور والاطناب فيه ، ومعه حسام الدين بشارة وسار يريد دمشق بعد وصول طائفة من عسكر مصر أودعهم في عكا بصدد حفظها ، وسار حتى دخل محروسة دمشق مستهل صفر سنة خمس وثمانين وخمسائة .

ذكر توجهه الى شقيف أردون وهي السفارة المتصلة بواقعة عكا

وأقام بدمشق حتى دخل في ربيع الأول ثلاثة أيام ، ووصله في أثناء ربيع الأول رسل الخليفة الناصر لدين الله يأمره بالخطبة لولده ولي العهد ، فخطب له .

وجدد عزمه على قصد شقيف أردون ، وهو موضع حصين قريب من بانياس ، وكان تبريزه في الثالث ، فسار حتى نزل في مرج فلوس ، وأصبح يوم السبت راحلا حتى أتى مرج برغوت فنزل به ينتظر العساكر ، وأقام به والعساكر تتابع الى حادي عشر ، ورحل حتى أتى بانياس ، ثم رحل منها حتى أتى مرج عيون في السابع عشر فخيم به ، وهو قريب من شقيف أردون ، بحيث يركب كل يوم يشارفه والعساكر تجتمع وتطلبه من كل صوب وأوب ، فأقمنا أياما نشرف كل يوم على الشقيف والعساكر الاسلامية في كل يوم تصبح متزايدة العدد والعدد ، وصاحب الشقيف يرى ما يتيقن معه عدم السلامة ، فرأى إن اصلاح حاله معه قد تعين طريقا الى سلامته ، فنزل بنفسه وما أحسنا به الا وهو قائم على باب خيمة السلطان ، فأذن له فدخل فاحترمه وأكرمه ، وكان من كبار الأفرنجية وعقلائها ، وكان يعرف العربية وعنده اطلاع على كل شيء من التواريخ ، وبلغني أنه كان عنده مسلم يقرأ له ويفهمه ، وكان عنده ثان ، فحضر بين يدي السلطان وأكل معه الطعام ، ثم خلا به وذكر له أنه مملوكه وأنه تحت طاعته ، وأنه يسلم المكان اليه من غير تعب ، واشترط أن يعطى موضعا يسكنه بدمشق ، فإنه بعد ذلك لا يقدر على مساكنة الأفرنج ، واقطاعا بدمشق يقوم به وبأهله ، وأن يمكن من الإقامة بموضعه وهو يتردد الى الخدمة ثلاثة أشهر من تاريخ اليوم الذي كان فيه حتى يتمكن من تخليص أهله وجماعته من صور ، فأجيب الى ذلك كله ، وأقام يتردد الى خدمة السلطان في كل

- ٦٧٣٠ -

وقت ، ويناظرنا في بيته وتناظره في بطلانه ، وكان حسن المحاورة
ومتادبا في كلامه ، وفي أثناء ربيع الأول وصل الخبر بتسليم
الشوبك ، وكان قد أقام السلطان عليه جمعا عظيما يحاصرونه مدة
سنة حتى فرغ زادهم وسلموه بالامان .

ذكر اجتماع الأفرنج لقصد عكا

وكان السلطان اشترط على نفسه حين تسلم عسقلان أنه إن أمر الملك من بها بتسليمها أطلقه ، فأمرهم بتسليمها وسلموها ، فطالبه الملك بإطلاقه فأطلقه وفاء بالشرط ونحن على حصن الأكراد من أنطربوس ، واشترط عليه أن لا يشهر في وجهه سيفاً أبداً ، ويكون غلامه ومملوكه وطليقه أبداً ، فذكت لعنه الله ، فجمع جموعاً وأتى صور يطلب الدخول إليها ، فخيم على بابها يراجع المركيس الذي كان بها في ذلك الوقت ، وكان المركيس اللعين رجلاً عظيماً ذا رأي وبأس شديد في بيته ، وصرامة عظيمة ، فقال : إنني نائب للملوك الذين وراء البحر ، وما أنذوا لي في تسليمها اليك ، وطالت المراجعة ، واستقرت القاعدة بينهما على أن يتدفقوا جميعاً على المسلمين ، وتجمع العساكر بصور وغيرها من الأفرنجية على المسلمين وعسكروا على باب صور .

ذكر الواقعة التي استشهد فيها أيبك الأخرس

وذلك أنه لما كان يوم الاثنين سابع عشر جمادى الأولى من السنة المذكورة ، بلغ السلطان من اليك أن الأفرنج قد قطعوا الجسر الفاصل بين أرض صور وأرض صيدا ، وبقيت الأرض التي نحن عليها ، فركب السلطان ، وصاح الجاوش فركب العسكر يريدون نحو اليك ، فوصل العسكر وقد انفصلت الواقعة ، وذلك أن الأفرنج عبر منهم جماعة الجسر ، فنهض لهم اليك الاسلامي ، وكانوا في قوة وعدة فقاتلوهم قتالاً شديداً ، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، وجرحوا أضعاف ما قتلوا ورموا في النهر جماعة فغرقوا ونصر الله الاسلام ، وأهله ولم يقتل من المسلمين الا مملوك للسلطان يعرف بأيبك الأخرس ، فإنه استشهد في ذلك اليوم ، وكان شجاعاً بأسلاً مجرباً

في الحرب فارسا ، تقنطربه فرسه فلجا الى صخرة فقاتل بالذشاب حتى قني ، ثم بالسيف حتى قتل جماعة ، ثم تكاثروا عليه فقتلوه ووجد السلطان عليه لكان شجاعته ، وعاد السلطان الى خيم كانت قد ضربت له قريب المكان جريدة .

ذكر وقعة ثانية استشهد فيها جمع من رجاله المسلمين

وأقام في تلك الخيم الى عشر من جمادى المذكور ، وركب يشرف على القوم على عادته فتبع العسكر خلق عظيم من الرجال والغزاة والسوقة ، وحرص في ردهم ، فلم يفعلوا ولقد أمر من ضربهم ، فلم يفعلوا وخاف عليهم فإن المكان كان حرجا ليس للراجل فيه ملجأ ، ثم هجم الرجال الى الجسر وناوشوا العدو ، وعبر منهم جماعة إليهم ، وجرى بينهم قتال شديد ، واجتمع لهم من الأفرنج خلق عظيم وهم لا يشعرون وكشفوهم بحيث علموا أن ليس وراءهم كمين ، فحملوا عليهم حملة واحدة على غرة من السلطان ، فإنه كان بعيدا عنهم ، ولم يكن معه عسكر ، فإنه لم يخرج بتعبية قتال ، وإنما ركب مستشرفا عليهم على العانة من كل يوم ، ولما بان له الوقعة وظهر له غبارها بعث اليهم من كان معه ليردوهم فوجدوا الأمر قد فرط ، والأفرنج قد تكاثروا حتى خافت منهم السرية التي بعثها السلطان ، وظفروا بالرجال ظفيرة عظيمة ، وجرى بينهم وبين السرية قتال شديد ، وأسروا جماعة من الرجال وقتلوا جماعة ، وكان عدد الشهداء مائة وثمانين ذفرا ، وقتل أيضا من الأفرنج عدة عظيمة ، وغرق أيضا منهم عدة ، وكان ممن قتل منهم مقدم الألمانية ، وكان عندهم عظيما محترما ، واستشهد من المعروفين من المسلمين ابن البصار وكان شابا حسنا شجاعا واحتسبه والده في سبيل الله ، ولم تقطر من عينه عليه دمعته على ما ذكر جماعة لازموا ، وهذه الوقعة لم يتفق للأفرنج مثلها في هذه الوقائع التي

حضرتها وشاهدها ، ولم ينالوا من المسلمين مثل هذه العدة في هذه المدة .

ذكر مسيره جريدة الى عكا وسبب ذلك

ولما رأى السلطان ما حل بالمسلمين في ذلك الوقعة النادرة جمع أصحابه وشاورهم ، وقدر معهم أنه يهجم على الأفرنج ، ويعبر الجسر ويقتلهم ، ويستاصل شافتهم ، وكان الأفرنج قد رحلوا من صور ونزلوا قريب الجسر ، وبين الجسر وصور مقدار فرسخ وزائد على فرسخ ، فلما صمم العزم على ذلك ، أصبح يوم الخميس سابع عشر ، وركب وسار وتبعه الناس والمقاتلة والعساكر ، ولما وصل أواخر الناس إلى أوائلهم وجدوا اليك عائداً وخيامهم قد قلعت ، فسئلوا عن سبب ذلك فذكروا أن الأفرنج رحلوا راجعين إلى صور ملتجئين إلى سورها معتصمين بقربها ، وأنهم لما بلغهم ذلك عادوا ، ولما رأى السلطان ذلك منهم رأى أن يسير إلى عكا ليلحظ ما بني من سورها ويحث على الباقي ، فمضى إلى عكا ورتب أحوالها ، وأمر بتتمة عمارة سورها وإتقانه وإحكامه ، وأمرهم بالاحتياط والاحتراز ، وعاد إلى العسكر المنصور إلى مرج عيون منتظرا مهلة صاحب الشقيف لعنه الله .

ذكر وقعة أخرى

ولما كان يوم السبت سادس جمادى الآخرة بلغه أن جماعة من رجاله العدو يسطون ويصلون إلى جبل تبين يحتطبون ، وفي قلبه من رجاله المسلمين وما جرى عليهم أمر عظيم ، فرأى أن يقرر قاعدة وكمينا يرتبه لهم وياخذهم فيه ، وبلغه أنه يخرج وراءهم أيضا خيلا تحفظهم ، فعمل كمينا يصلح للقاء الجميع ، ثم أنفذ إلى

عسكر تبنين وتقدم اليهم أن يخرجوا في زفر يسير غائرين على تلك
الرجالة ، وأن خيل العدو إذا تبعتهم ينهزمون إلى جهة عينها لهم ،
وأن يكون ذلك صبيحة الاثنين ثامن جمادى الآخرة ، وأرسل إلى
عسكر عكا أن يسير حتى يكون وراء عسكر العدو ، حتى إذا
تحركوا في نصرة أصحابهم قصدوا خيمهم ، وركب هو وجذله
سحر يوم الاثنين شاكي السلاح متجردين ليس معهم خيمة الى
الجهة التي عينها لهزيمة عسكر تبنين ، ورتب العسكر ثمانية
أطلاب ، واستخرج من كل طلب عشرين فارسا من الشجعان الجياد
الخيال وأمرهم أن يتراءوا للعدو حتى يظهرُوا إليهم ويناشوهم
وينهزموا بين أيديهم حتى يصلوا إلى الكمين ، ففعلوا ذلك وظهر لهم
من الأفرنج معظم عسكرهم يقدمهم الملك ، وكان قد بلغهم الخبر ،
وتعبوا تعبىة القتال ، وجرى بينهم وبين هذه السرية اليسيرة قتال
شديد ، والتزمت السرية القتال وأنفوا عن الانهزام بين أيديهم
وحملتهم الحمية على مخالفة السلطان ولقائهم العدو الكثير بذلك
الجمع اليسير ، واتصل الحرب بينهم إلى أواخر نهار الاثنين ، ولم
يرجع منهم أحد الى العسكر ليخبرهم بما جرى ، واتصل الخبر
بالسلطان في أواخر الأمر وقد هجم الليل فبعث إليهم بعوثا كثيرة
حين علم ضيق الوقت عن المصاف وفوات الأمر ، ولما بصر الأفرنج
بأواذل المدد قد لحق السرية عادوا منهزمين ناكسين على أعقابهم
بعد أن جرت مقتلة عظيمة من الجانبين ، وكانت القتلى من الأفرنج
على ما ذكر من حضر - فإني لم أكن حاضرها - زهاء عشرة
أندلس ، ومن المسلمين ستة أنفار ، إثنان من اليزك وأربعة من
العرب منهم الأمير زامل ، وكان شابا تاما حسن الشباب مقدم
عشيرته ، وكان سبب قتله أنه تقنطرت به فرسه فقده ابن عمه
بفرسه ، فتقنطرت به أيضا واسر هو وثلاثة من أهله ، ولما بصر
الأفرنج بالمدد للعسكر قتلوهم خشية الاستنقاذ وجرح خلق كثير من
الطائفين وخیل كثيرة ، ومن نوادر هذه الواقعة أن مملوكا من
مماليك السلطان اثنان بالجراح حتى وقع بين القتلى وجراحاته
تشخبّ دما ، وبات ليلته أجمع على تلك الحالة ، الى صبيحة يوم
الثلاثاء ، ففقد أصحابه فلم يجدوه فعرفوا السلطان فقده فأندف من

يكشف خبره فوجدوه بين القتلى على مثال هذه الحالة ، فحملوه ونقلوه إلى المخيم على ذلك الحال وعافاه الله ، وعاد السلطان إلى المخيم يوم الأربعاء عاشر الشهر منصورا ، فرحا مسرورا .

ذكر أخذ صاحب الشقيف وسبب ذلك

ثم استفاض بين الناس أن صاحب الشقيف فعل ما فعله من المهلة غيلة لا أنه صادق في ذلك ، وإنما قصد فيه تدفع الزمان ، وظهر لذلك مخائل كثيرة من الحرص في تحصيل الميرة وإتقان الأبواب ، وغير ذلك ، فرأى السلطان أن يصعد إلى سطح الجبل ليقرب من المكان ويرسل سرا من يمنع من دخول النجدة والميرة إليه ، وأظهر أن سبب ذلك شدة حر الزمان والفرار من وخم المرج ، وكان انتقله الى سطح الجبل ليلة الثاني عشر من الشهر ، وقد مضى من الليل ربعة ، فما أصبح صاحب الشقيف إلا والخيمة مضروبة وبقي بعض العسكر بالمرج على حاله ، فلما رأى صاحب الشقيف قرب العسكر منه وعلم أنه بقي من المدة بقية جمادى الآخرة ، حدثته نفسه أنه ينزل إلى خدمة السلطان ويستعطفه ويستزيده في المدة ، وتخيل له بما رأى من أخلاق السلطان ولطافته أن ذلك يتم ، فنزل إلى الخدمة ، وعرض المكان ، وقال : المدة لم يبق منها إلا اليسير وأي فرق بين التسليم اليوم أو غدا ، وأظهر أنه بقي من أهله جماعة بصور ، وأنهم على الخروج منها في هذه الأيام ، وأقام في الخدمة ذلك اليوم إلى الليل ، وصعد القلعة ولم يظهر له السلطان شيئا ، وأجراه على عادته ومقتضى مدته ، ثم عاد ونزل بعد أيام وقد قرب انتهاء المدة والفرار منها وطلب الخلوة بالسلطان ، وسال منه أن يمهلته تمام السنة تسعة أشهر ، فأحس السلطان منه الغدر فمأطله وما أيسه ، وقال نتفكر في ذلك ونجمع الجماعة ونأخذ رأيهم ، وما ينفصل الحال عليه نعرفك ، وضرب له خيمة قريبة من خيمته ، وأقام عليه حرسا لا يشعر بهم ، وهو على غاية من الاكرام والاحترام له والمراجعة

والمراسلة بينهم في ذلك الفن مستمرة حتى انقضت الايام ، وطولب بتسليم المكان فكشف له إنك أضمرت الغدر ، وجدت في المكان عمائر ، وحملت اليه ذخائر ، فأذكر ذلك ، واستقرت القاعدة على أن ينفذ من عنده ثقته ، وينفذ السلطان ثقة يتسلم المكان وينظر هل تجدد فيه شيء من البناء أم لا ، فمضوا إليه فلم يلتفت أصحابه المقيمون فيه إليهم ، ووجدوه قد جدد بابا للسور لم يكن ، فأقيم الحرس الشديد عليه وأظهر ذلك ومنع الدخول الى الخدمة ، وقيل له قد انقضت المدة ولا بد من التسليم وهو يغالط عن ذلك ، ويدافع عن الجواب عنه .

ولما كان الثامن عشر من جمادى الآخرة ، وفيه اعترف بانتهاء المدة ، قال : أنا أمضي وأسلم المكان ، وسار معه جمع كثير من الأمراء والأجناد حتى أتى الشقيف ، وأمرهم بالتسليم فأبوا ، فخرج إليه قسيس وحدثه بإسائه ، ثم عاد واشتد امتناعهم بعد عود القسيس إليهم فظن أنه أكد الوصية على القسيس في الامتناع ، وأقام ذلك اليوم والحديث يتردد فلم يلتفتوا وأعيد إلى المخيم المنصور وسير من ليلته إلى بانياس وأحيط عليه بقلعتها ، فأحرق العسكر بالشقيف مقاتلين ومحاصرين ، وأقام صاحب الشقيف ببانياس إلى سادس رجب ، واشتد حنق السلطان على صاحب الشقيف بسبب تضييع ثلاثة أشهر عليه وعلى عسكره ، ولم يعملوا فيها شيئا ، فاحضر إلى المخيم وهدده ليلة وصوله بأمور عظيمة ، فلم يفعل ، وأصبح السلطان ثامن رجب ورقى إلى سنام الجبل بخيمه ، وهو موضع مشرف على الشقيف من المكان الذي كان فيه أولى وأبعد من الوخم ، وكان قد تغير مزاجه .

ثم بلغنا بعد ذلك إن الأفرنج بصور ومن كان مع الملك قد ساروا نحو النواقر يريدون جهة عكا ، وأن بعضهم نزل بالاسكندرونة ، وجرى بينهم وبين رجال المسلمين مناوشة ، وقتل منهم المسلمون ذفرا يسيرا وأقاموا هناك .

ذكر واقعة عكا

وذلك انه لما بلغ السلطان حركة الافرنج إلى تلك الجهة عظم عليه ، ولم ير المسارعة خوفا من أن يكون قصدهم ترحيله عن الشقيف ، لا قصد المكان ، فأقام مستكشفا للحال إلى ثاني عشر رجب ، فوصل قاصده وأخبر إن الافرنج في بقية ذلك اليوم رحلوا ونزلوا عين بصة ووصل أوائلهم الى الزيب فعظم ذلك عنده ، وكتب إلى سائر أرباب الأطراف يتقدم الى العساكر الاسلامية بالمسير إلى المخيم المحروس ، وعاد فجدد الكتب والحث وتقدم إلى الذقل أن سار بالليل وأصبح هو صبيحة الثالث عشر سائرا إلى عكا على طريق طبرية إذ لم يكن ثم طريق يسع العسكر إلا هو ، وسير جماعة على طريق تبنين يستطلعون العدو ، ويواصلون باخباره ، وسرنا حتى أتينا الدولة منتصف النهار فنزل بها ساعة ثم رحل ، وسار طول الليل حتى أتى موضعا يقال له المنية صباح الرابع عشر ، وفيه بلغنا نزول الافرنج على عكا يوم الاثنين الثالث عشر ، وسير صاحب الشقيف إلى دمشق بعد الاهانة الشديدة على سوء صنيعه .

وسار هو جريدة من المنية حتى اجتمع ببقية العسكر الذي كان أنفذه على طريق تبنين بمرج صفورية ، فإنه كان وأعدهم إليه ، وتقدم إلى الذقل أن يلحقه إلى مرج صفورية ، ولم يزل حتى شارف العدو من الخروبة وبعث بعض العسكر ودخل عكا على غرة من العدو تقوية لمن فيها ، ولم يزل يبعث إليها بعثا بعد بعث حتى حصل فيها خلق كثير ، وعدد وافر ، ورتب العسكر ميمنة وميسرة وقلبا وسار من الخروبة ، وكان قد نزل عليها خامس عشر الشهر فسار منها حتى أتى تل كيسان في أوائل مرج عكا ، وأمر الناس أن ينزلوا به على تلك التعبية ، وكان آخر الميسرة على طرف النهر الحلو ، وآخر الميمنة مقارب تل العياضية ، فاحتاط العسكر الاسلامي المنصور بالعدو المخدول ، وأخذ عليهم الطرق من الجوانب ، وتلاحقت

العساكر ، لسلامية ، واجتمعت ، ورتب اليذك الدائم والجاليش في كل يوم مع العدو ، وحصر العدو في خيامه من كل جانب بحيث لا يقدر أن يخرج منها واحد الا ويجرح أو يقتل .

وكان معسكر العدو المخدول على شطر من عكا ، وخيمة ملكهم على تل المصلبين قريبا من باب البلد ، وكان عدد رايكهم ألفي فارس ، وعدد راجلهم ثلاثين ألفا ، ومارأيت من أنقضهم عن ذلك ، ورأيت من حذرهم بزيادة على ذلك ، ومددهم من البحر لا ينقطع ، وجرى بينهم وبين اليذك مقاتلات عظيمة متواترة ، والمسلمون يتهافتون على قتالهم ، والسلطان يمنعهم من ذلك إلى وقته ، والبعوث من العساكر الاسلامية تتواصل ، والملوك والأمراء من الاقطار تتتابع ، فاول من وصل الامير الكبير مظفر الدين بن زين الدين ، ثم قدم بعده الملك المظفر صاحب حماه ، وفي أثناء هذا الحال توفي حسام الدين سنقر الاخلاطي ، وأسف المسلمون عليه أسفا شديدا فإنه كان شجاعا نبيا .

ثم إن الأفرنج لما تكاثروا واستفحل أمرهم استداروا بعكا بحيث منعوا من الدخول والخروج وذلك في يوم الخميس سلخ رجب ، ولما رأى السلطان ذلك عظم لديه وضاق صدره وثارته همته العلية وفتح الطريق الى عكا لتستمر السابلة إليها بالميرة والنجدة وغير ذلك ، فأحضر أمراءه وأصحاب الرأي من دولته وشاورهم في مضايقة القوم ، وانفصل الحال على أنه يضايقهم مضايقة شديدة بحيث ينفصل أمرهم بالكلية ويفتح الباب والطريق الى عكا ، فباكرهم صبيحة الجمعة مستهل شعبان ، وسار مع العسكر وقد رتبته للاقتال ميمنة وميسرة وقلبا ، وضايقهم مضايقة شديدة ، وكانت الحملة بعد صلاة الجمعة اغتناما لدعاء الخطباء على المنابر ، وجرت حملات عظيمة وقلبات كثيرة ، واتصل الحرب الى إن حال بين الفئتين هجوم الليل .

وبات الناس على حالهم من الجانبين شاكي السلاح ، تحرس كل

طائفة نفوسها من الطائفة الأخرى إلى أن أصبح صباح السبت ثاني شعبان

ذكر فتح الطريق إلى عكا

ولما كانت صبيحة السبت أصبح الناس على القتال ، وانفذ السلطان طائفة من شجعان المسلمين إلى البحر من شمالي عكا ، ولم يكن هناك للعدو خيم ، لكن العسكر كان قد امتد جريئة إلى البحر ، فحملوا عليهم فاذاكسروا بين أيديهم كسرة عظيمة ، وقتلوا منهم جمعا كثيرا ، واذكف السالمون منهم إلى خيامهم ، وهجم المسلمون خلفهم إلى أوائل خيامهم ، ووقف اليذك الاسلامي مانعا من أن يخرج من عسكرهم خارج أو يدخل إليه داخل ، واذفتح الطريق الى عكا من باب القلعة المسماة بقلعة الملك إلى باب قراقوش ، الذي جدد ، وصار الطريق مهيعا يمر فيه السوقي ومعه الحوائج ، ويمر به الرجل الواحد والمرأة واليذك بين الطريق وبين العدو مانعا من يخرج من عسكرهم أو يدخل ، وبخل السلطان في ذلك اليوم إلى عكا ورقى على السور ، ونظر إلى عسكر العدو تحت السور ، وفرح المسلمون بنصر الله ، وخرج العسكر الذي كان بها في خدمة السلطان ، واستدار العسكر الاسلامي حول العسكر الأفرنجي وأحذقوا بهم من كل جانب .

ولما استقر به ذلك تراجع عن القتال وذلك بعد الظهر اسقي الدواب وأخذ الراحة ، وكان نزولهم على أنهم إذا أخذوا حظا من الراحة عادوا الى القتال المناجزة القوم ، وضاق الوقت وأخذ الضجر والتعب من الناس فلم يرجعوا الى القتال في ذلك اليوم ، وبيت الناس على أنهم يصبحونهم بكرة الأحد إلى القتال رجاء المناجزة بالكلية واختفى العدو في خيامهم بحيث لم يظهر منهم أحد .

ولما كانت بكرة الأحد ثالث شعبان تعجى الناس للاقتال وأحدقوا بالعدو وعزموا على مهاجمة القوم وعلى أن يترجل الأمراء ومعظم العسكر ويقاتلوا العدو في خيامه ، فلما تهيأوا لذلك رأى بعض الأمراء تأخير ذلك إلى بكرة الاثنين رابع شعبان ، وأن يدخل الراجل كله إلى داخل عكا ويخرجوا مع العسكر المقيم بالبلد من أبواب البلد على العدو ومن ورائه ، وتركب العساكر الإسلامية من خارج من سائر الجوانب ، ويحملوا حملة الرجل الواحد ، والسلطان يوالي هذه الأمور بنفسه ويكافحها بذاته لا يتخلف عن مقام من هذه المقامات.. وهو من شدة حرصه ووفور همته كالوالدة الثكلى .

ولقد أخبرني بعض أطبائه أنه بقي من يوم الجمعة إلى يوم الأحد لم يتناول من الغذاء إلا شيئاً يسيراً لفرط اهتمامه ، وفعلوا ما كان عزم عليه واشتدت منعة العدو ، وحمى نفسه في خيامه ، ولم تزل سوق الحرب قائمة تباع فيها الذفوس والذفائس ، وتمطر سماء حربها الرؤوس من كل رئيس ومترانس حتى كان يوم الجمعة ثامن شعبان .

ذكر تأخر الناس عن تل العياضية

ولما كان الثامن عزم العدو على الخروج بجموعهم ، فخرج راجلهم وفارسهم وامتدوا على التل ، وساروا الهويينا غير مفرطين في أنفسهم ولا خارجين من راجلهم ، حيث كانت الرجالة حولهم كالسور المبني يتلو بعضهم بعضاً ، حتى قاربوا خيام اليزك ، ولما رأى المسلمون ذلك وإقدام العدو عليهم ، شددوا وتنازعت الشجعان ، وتنازلت الكمأة إلى الأقران ، وصاح السلطان بالعساكر الإسلامية : يا لاسلام ، فركب الناس بأجمعهم ووافق فارسهم راجلهم وشابهم شيخهم ، وحملوا حملة الرجل الواحد على

العدو المخذول ، فعاد ناكصا على عقبيه والسيف يعمل فيهم والسالم منهم جريح ، والعاطب طريح مشددون هزيمة يعبر جريحهم بقتيلهم ، ولا تلوي الجماعة منهم على قبيلهم حتى لحق الخيام من سلم منهم وانكفوا عن القتال أياما ، وكان رأيهم أن يحفظوا نفوسهم ، ويحرسوا رؤوسهم ، واستقر فتح طريق عكا ، والمسلمون يترددون إليها ، وكنت ممن دخل ورقسي على السور ، ورمى العدو بما يسر الله تعالى من فوق السور ، ودام القتال بين الفتتين متصلا الليل والنهار حتى كان الحادي عشر من شعبان ، ورأى السلطان توسيع الدائرة عليهم لعلهم يخرجون الى مصارعهم ، فنقل الثقل إلى تل العياضية ، وهو تل قبالة تل المصليين مشرف على عكا وخيام العدو ، وفي هذه المنزلة توفي حسام الدين طمان ، وكان من الشجعان ، ودفن في سدفح هذا التل ، وصليت عليه مع جماعة من الفقهاء ليلة نصف شعبان ، وقد مضى من الليل هزيع ، رحمه الله .

ذكر وقعة جرت للعرب مع العدو

وكان سبب ذلك أنه بلغنا أن جمعا من العدو يخرجون للاحتشاش من طرف النهر مما ينبت عليه ، فأمكن السلطان لهم جماعة من العرب ، وقصد العرب لختهم على خيلهم ، وأمنه عليهم ، فخرجوا ولم يشعروا بهم فهجموا عليهم وقتلوا منهم خلقا عظيما ، وأسروا جماعة ، وأحضروا رؤوسا عديدة بين يديه ، فخلع عليهم وأحسن اليهم ، وكان ذلك في يوم السبت السادس عشر من شعبان ، وفي عشية ذلك اليوم وقع بين العدو وبين أهل البلد حرب عظيم ، قتل فيه جمع عظيم من الطائفتين ، فطال الأمر بين الفتتين ، وما يخلو يوم من قتل وجرح وسبي ونهب ، وأذس البعض بالبعض بحيث أن كان الطائفتين تتحدثان وتتركان القتال وربما غنى البعض ورقص

البعض لطول المعاشرة ، ثم يرجعون إلى القتال بعد ساعة ، وكان الرجال يوما من الطائفتين قد سئموا من القتال فقالوا : إلى كم تقاتل الكبار ، وليس للصغار حظ نريد أن يتصارع صبيان منا ومذكم ، فأخرج صبيان من البلد ، إلى صبيين من الأفرنج ، واشتد الحرب بينهم ، فوثب أحد الصبيين المسلمين إلى أحد الكافرين فاخطفه وضرب به الأرض وقبضه أسيرا ، فاشتراه بعض الأفرنج بدينارين وقالوا : هو أسيرك حقا ، فأخذ الدينارين وأطلقه ، وهذه نادرة غريبة ، ووصل للأفرنج مركب فيه خيل فهرب منها فرس ، ووقع في البحر ومازال يسبح ، وهم حوله يردونه حتى دخل ميناء عكا وأخذه المسلمون .

ذكر المصاف الأعظم على عكا

وذلك أنه لما كان يوم الأربعاء الحادي والعشرين من شعبان تحركت عساكر الأفرنج حركة لم يكن لهم بمثلها عادة : فارسلهم وراجلهم وكبيرهم وصغيرهم ، فاصطفوا خارج خيمهم قلبا وميمنة وميسرة وفي القلب الملك ، وبين يديه الأنجيل محمولا مستورا بثوب أطلس مغطى يمسكه أربعة أنفس بأربعة أطراف ، وهم يسرون بين يدي الملك ، وامتدت الميمنة في مقابلة الميسرة التي لعسكر الإسلام من أولها إلى آخرها ، وكذلك ميسرة العدو في مقابلة ميمنتنا إلى آخرها وملكوا رؤوس التلال ، وكان طرف ميمنتهم إلى النهر وطرف ميسرتهم إلى البحر .

وأما العسكر الإسلامي المنصور فإن السلطان أمر الجاويش أن نادى في الناس : يا للإسلام ، وعساكر الموحدين ، فركب الناس وقد باعوا أنفسهم بالجنة ، ووقفوا بين أيدي خيامهم ، وامتدت الميمنة إلى البحر والميسرة إلى النهر كذلك أيضا ، وكان رحمه الله قد أنزل

الناس في الخيم ميمنة وميسرة وقلبا ، تعبئة الحرب ، حتى إذا وقعت صيحة لايحتاجون إلى تجنيد ترتيب ، وكان هــو في القلب ، وفي ميمنة القلب ولده الملك الأفضل ، ثم عسكر المواصلة يقدمهم ظهير الدين بن البلنكري ، ثم عسكر بيار بكر في خدمة قطب الدين بن نور الدين صاحب الحصن ، ثم حسام الدين ابن لاجين صاحب نابلس ، ثم الطواشي قايمان النجمي ، وجموع عظيمة متصلين بطرف الميمنة ، وكان في طرفها الملك المظفر تقي الدين بجحمله وعسكره ، وهو مظل على البحر ، وأما أوائل الميسرة فكان مماليي القلب سيف الدين علي بن أحمد المشطوب من كبار ملوك الأكراد ومقدميهم ، والأمير مجلي وجماعة المهرانية والهكارية ، ومجاهد الدين يرذقش مقدم عسكر سننجان ، وجماعة من المماليك ، ثم مظفر الدين بن زين الدين بجحمله وعسكره ، وأواخر الميسرة كبار المماليك الأسدية كسيف الدين يازكج ، ورسلان بغا ، وجماعة الأسدية الذين يضرب بهم المثل ، ومقدم القلب الفقيه عيسى وجمعه ، هذا والسلطان يطوف على الأطلاب بنفسه يحدثهم على القتال ، ويدعوهم إلى النزال ، ويرغبهم في نصر دين الله .

ولم يزل القوم يتقدمون والمسلمون يقدمون حتى علا النهار ، ومضى فيه مقدار أربع ساعات ، وعند ذلك تحركت ميسرة العدو على ميمنة المسلمين فأخرج لهم الملك المظفر الجاليش ، وجرى بينهم قلات كثيرة ، وتكاثروا على الملك المظفر ، وكان في طرف الميمنة على البحر ، فتراجع عنهم شيئا إطماعا لهم لعلهم يبعدون عن أصحابهم فينال منهم غرضا ، فلما رأى السلطان ذلك ظن به ضعفا ، وأمدّه بأطلاب عدة من القلب حتى قوي جانبه ، وتراجعت ميسرة العدو ، واجتمعت على تل مشرف على البحر ، ولما رأى الذين في مقابلة القلب ضعف القلب ومن خرج منه من الأطلاب داخلهم الطمع ، وتحركوا نحو ميمنة القلب وحملوا حملة الرجل الواحد راجلهم وفارسهم ، ولقد رأيت الرجالة تسير سير الخيالة ، وهم يسبقون حيناً ، وجاءت الحملة على الديار البكرية ، كما شاء الله تعالى ، وكان بهم غرة عن الحرب فتحركوا بين يدي

العدو وانكسروا كسرة عظيمة ، وسرى الأمر حتى انكسر معظم الميمنة ، واتبع العدو المنهزمين إلى العياضية فأنهم استداروا حول التل وصعد طائفة من العدو إلى خيمة السلطان فقتلوا طشت دار كان هناك ، وفي ذلك اليوم استشهد اسماعيل المكبس وابن رواحة رحمهما الله.

وأما الميسرة فإنها ثبتت لأن الحملة لم تصادفها ، وأما السلطان فأخذ يطوف على الأطلاب فينهضهم ويعدم الوعود الجميلة ويحثهم على الجهاد ، وينادي فيهم : بالاسلام ، ولم يبق معه إلا خمسة أنفس وهو يطوف على الأطلاب ، ويخرق الصفوف ويأوي إلى تحت التل الذي كان عليه الخيام .

وأما المنهزمون من العسكر فإنهم بلغت هزيمتهم إلى الاقحوانة قاطع جسر طبرية ، وأم منهم قوم محروسة دمشق ، فأما المتبعون لهم فإنهم اتبعوهم إلى العياضية ، فلما رأوهم قد صعدوا إلى الجبل رجعوا عنهم وجاءوا عائدين إلى عسكرهم ، فلقبهم جماعة من الغلمان والخربندية والساسة منهزمين على بغال الحمل فقتلوا منهم جماعة ، ثم جاؤوا على رأس السوق فقتلوا جماعة وقتل منهم جماعة فإن السوق كان عظيما ولهم سلاح .

وأما الذين صعدوا إلى الخيام السلطانية فإنهم لم يلتمسوا فيها شيئا أصلا سوى أنهم قتلوا من ذكرنا ، وهم ثلاثة نفر ، ثم رأوا ميسرة الاسلام ثابتة فعلموا أن الكسرة لا تتم فعادوا منحدرين من التل يطلبون عسكرهم .

وأما السلطان فإنه كان واقفا تحت التل ، ومعه نفر يسير ، وهو يجمع الناس ليعودوا إلى الحملة على العدو ، فلما رأوا الأفرنج نازلين من التل أرادوا لقاءهم فامرهم بالصبر إلى أن ولوا ظهورهم واشتدوا يطلبون أصحابهم فصاح في الناس ، فحملوا عليهم

فطرحوا منهم جماعة ، فاشتد الطمع فيهم وتكاثر الناس وراءهم حتى لحدقوا أصحابهم ، والطرده وراءهم ، فلما رأوهم منهزمين والمسلمين وراءهم في عدد كثير ، ظنوا أن من حمل منهم قد قتل وأنهم إنما نجا منهم هذا الذفر فقط ، وأن الهزيمة قد عادت عليهم ، فاشتدوا في الهرب والهزيمة ، وتحركت الميسرة عليهم ، وعاد الملك المظفر بجمعه من الميمنة وتجمعت الرجال ، وتداعت ، وتراجع الناس من كل جانب ، وكذب الله الشيطان ونصر الإيمان ، وظل الناس في قتل وطرح وضرب وجرح إلى أن اتصل المنهزمون المسلمون إلى عسكريهم فهجم المسلمون عليهم في الخيام ، فخرج منهم أطلاب ، كانوا أعدوها خشية من مثل هذا الأمر مستريحة فردوا المسلمين ، وكان التعب قد أخذ من الناس والعرق قد أجمعهم ، فرجع الناس عنهم بعد صلاة العصر يخوضون في القتلى ، ودمائهم إلى خيامهم فرحين مسرورين ، وعاد السلطان في ذلك اليوم إلى خيمته فرحا مسرورا ، وجلسوا في خيمته يتداركون من فقد من الغلمان ، وكان مقدار من فقد من الغلمان المجهولين مائة وخمسين نفرا ، ومن المعروفين استشهد ظهير الدين أخو الفقيه عيسى ، ولقد رأيته وهو جالس يضحك ، والناس يعزونه وهو يذكر عليهم ، ويقول هذا يوم الهناء لا يوم العزاء ، وكان قد وقع عن فرسه وأركبه فرأيته وقتل عليه جماعة من أقاربه ، وقتل في ذلك اليوم الأمير مجلي ، هذا الذي قتل من المسلمين .

وأما من العدو المخذول فحزر قتلاهم بسبعة آلاف نفر ، ورأيتهم وقد حملوهم إلى شاطيء النهر ليلقوا فيه فحزرتهم بدون سبعة آلاف .

ولما تم على المسلمين من الهزيمة ما تم ، ورأى الغلمان خلوا الخيام ممن يعترض عليهم ، فان العسكري انقسم إلى قسمين منهزمين ومقاتلين فلم يبق في الخيم أحد وراءنا ، فظنوا أن الكسرة تتم ، وأن العدو ينهب جميع ما في الخيام ، فوضعوا أيديهم في

الخيـام ونهبوا جميع ما كان فيها ، وذهب من الناس أموال عظيمة ، وكان ذلك أعظم من الكسرة وقعا .

ولما عاد السلطان إلى الخيم ورأى ما قد تم على الناس من نهب الأموال والهزيمة ، سارع إلى الكتب والرسـل في رد المنهزمين ، وتتبع من شذ من العسكر ، والرسـل تتابع في هذا المعنى حتى بلغت عقبة فيق ، وأخذوهم بالكرة إلى عسكر المسلمين ، فعادوا وأمر بجمع الأقمشة من أكف الغلمان إلى خيمته حتى جلا لات الخيل والمخالي بين يديه في خيمته وهو جالس ونحن حوله ، وهو يتقدم إلى كل من عرف شيئا ، وحلف عليه يسلم إليه ، وهو يلقى هذه الأحوال بقلب صلب ، وصدر رحب ، ووجه منبسط ، ورأي مستقيم غير مختبط ، واحتساب لله تعالى وقوة عزم في نصره بين الله .

وأما العدو المخذول فإنه عاد إلى خيمته وقد قتلت شجعانهم ، وطرحت مقدموهم ، وفقدت ملوكهم ، فأمر السلطان أن خرج من عكا عجل يسحبون عليه القتلـى منهم إلى طرف النهر ليلقوا فيه .

ولقد حكى لي بعض من ولي أمر العجل أنه أخذ خيطا ، وكان كلما أخذ قتيلا عقد عقدة ، فبلغ عدد قتلى الميسرة أربعة آلاف ومائة وكسور ، وبقي قتلى الميمنة وقتلى القلب لم يعددهم ، فإنه ولي أمرهم غيره ، وبقي من العدو بعد ذلك من حمى نفسه وأقاموا في مخيمهم لم يكثرثوا بجحافل المسلمين وعساكرهم ، ودشنت من عساكر المسلمين خلق كثير بسبب الهزيمة فإنه ما رجع منها إلا رجل معروف يخاف على نفسه ، والباقون هربوا في حال سييلهم ، وأخذ السلطان في جمع الأموال المنهوبة ، وأعادها إلى أصحابها ، وأقام المناداة في العساكر ، وقرن النداء بالوعيد والتهديد وهو يتولى تفرقتها بنفسه بين يديه ، واجتمع من الأقمشة عدد كثير في خيمته حتى أن الجالس في أحد الطرفين لا يرى الجالس في الطرف

الآخر ، وأقام من ينادي على من ضاع منه شيء ، فحضر الخلق ، وصار من عرف شيئاً وأعطى علامته حلف وأخذه من الحبل والمخلات إلى الهميان والجوهر ، ولقي من ذلك مشقة عظيمة ، ولا يرى ذلك إلا نعمة من الله تعالى يشكر عليها ، ويسابق بيد القبول إليها .

ولقد حضرت يوم تفرقة الأقمشة على أربابها فرأيت سوقاً للعدل قائمة لم ير في الدنيا أعظم منها ، وكان ذلك في يوم الجمعة الثالث والعشرين من شعبان ، وعند انقضاء هذه الواقعة وسكون ثائرتها ، أمر السلطان بالثقل حتى تراجع إلى موضع يقال له الخروبة ، خشية على العسكر من روائح القتلى ، وأثار الوخم من الوقعة وهو موضع قريب من مكان الوقعة إلا أنه أبعد عنها من المكان الذي كان نازلاً فيه بقليل ، وذلك في التماسع والعشرين ، واستحضر الأمراء وأرباب المشورة في سلخ الشهر ، ثم أمرهم بالاصغاء إلى كلامه ، وكنت من جملة الحاضرين ، ثم قال بسم الله ، والحمد لله والصلاة على رسول الله ، اعلموا أن هذا عدو الله وعدونا قد نزل في بلادنا ، وقد وطىء أرض الاسلام ، وقد لاحت لوائح النصر عليه إن شاء الله تعالى ، وقد بقي في هذا الجمع اليسير ، ولا بد من الاهتمام بقلعه ، والله قد أوجب علينا ذلك ، وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا ليس وراءنا نجدة ننتظرها سوى الملك العادل ، وهو واصل ، وهذا العدو إن بقي وطال أمره إلى أن يفتح البحر جاءه مدد عظيم ، والرأي كل الرأي عندي مناجزتهم ، فليخبرنا كل منكم ما عنده في ذلك ، وكان ذلك في ثالث تشرين من الشهور الشمسية ، وامتخضت الآراء ، وجرى تجاذب في أطراف الكلام ، وانفصلت آراؤهم على أن المصلحة تأخير العسكر إلى الخروبة ، وأن يبقى العسكر أياماً حتى يستجم من حمل السلاح ، وترجع الذفوس إليهم ، فقد أخذ التعب منهم ، واستولى على ذفوسهم الضجر وتكليفهم أمراً على خلاف ما تحمله القوى لا تؤمن غائلته ، والناس لهم خمسون يوماً تحت السلاح وفوق الخيل ، والخيل قد ضجرت من عرك اللجم ، وسئمت ذفوسها

ذلك ، وعند أخذ حظ من الراحة ترجع نفوسها إليها ، ويصل الملك العادل ويشاركنا في الرأي والعمل ، وسنعيد من شذ من العساكر ، ونجمع الرجالة ليقفوا في مقابلة الرجالة ، وكان بالسلطان التياث مزاجي قد عراه من كثرة ما حمل على قلبه وما عاناه من التعب بحمل السلاح والفكر في تلك الأيام فوقع به ما قالوه ورأوه من مصلحة ، وكان انتقال العسكر الى الثقل ثالث رمضان ، وانتقال السلطان ذلك الليلة ، وأقام يصلح مزاجه ، ويجمع العساكر وينتظر أخاه الى عاشر رمضان .

ذكر وصول خبر الألمان

ولما دخل رمضان من شهور سنة خمس وثمانين وخمسمائة ، وصل من جانب حلب كتب من ولده الملك الظاهر ، عز نصره ، يخبر فيها أنه قد صبح أن ملك الألمان قد خرج إلى القسطنطينية في عدة عظيمة ، قيل مائتا ألف ، وقيل مائتان وستون ألفا يريد البلاد الإسلامية ، فاشتد ذلك على السلطان ، وعظم عليه ورأى استدعاء الناس للجهاد وأعلام خليفة الوقت بهذه الحادثة ، فاستدعاني لذلك ، وأمرني بالمسير إلى صاحب سنجار وصاحب الجزيرة ، وصاحب الموصل ، وصاحب إربل ، واستدعاهم إلى الجهاد بأنفسهم وعساكرهم ، وأمرني بالمسير إلى بغداد لأعلام خليفة الزمان بذلك وتحريك عزمه على المعاونة ، وكان الخليفة إذ ذاك الناصر لدين الله أبا العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله ، وكان مسيري في ذلك المعنى في حادي عشر رمضان ، ويسر الله تعالى الوصول إلى الجماعة وبلاغ الرسالة إليهم ، فأجابوا بنفوسهم ، وسار عماد الدين زكي صاحب سنجار بعسكره وجمعه في تلك السنة ، وسار ابن أخيه صاحب الجزيرة سنجر شاه بنفسه يجر عسكره ، وسير صاحب الموصل ابنه علاء الدين خرم شاه بمعظم عسكره ، وسار صاحب إربل بنفسه وعسكره ، وحضرت الديوان السعيد ببغداد ، وأنهت الحال كما رسم ، ووعد بكل جميل ، وعنت إلى خدمته رحمة الله عليه ، وكان وصولي إليه في يوم الخميس خامس ربيع الأول من شهور سنة ست وثمانين ، وكنت قد سبقت العساكر وأخبرته بإجابتهم بالسمع والطاعة ، وباهتمامهم بالمسير ، فسر بذلك وفرح فرحا شديدا .

ذكر وقعة الرمل التي على جانب نهر عكا

ولما كان صفر من تلك السنة خرج السلطان يتصيد مطمئن النفس
ببعد المنزلة عن العدو ، فأوغل في الصيد ، وبلغ ذلك العدو ، فأخذوا
غرة العسكر ، واجتمعوا وخرجوا يريدون الهجوم على العسكر
الاسلامي ، فأحس بهم الملك العادل فصاح بالناس وركبت العساكر
من كل جانب ، وحمل على القوم وجرت مقتلة عظيمة ، قتل وجرح
بينهما منهم خلق عظيم ، ولم يقتل من معروفي المسلمين إلا مملوك
للسلطان يقال له أرغش ، وكان رجلا صالحا استشهد في ذلك
اليوم ، وبلغ الخبر إلى السلطان فعاد منزعا فوجد الحرب قد
انفصل ، وعاد كل فريق إلى حربه ، وعاد العدو خائبا خاسرا والله
الحمد والمنة ، وهذه الوقعة لم أحضرها فإني كنت مسافرا ، وما
مضى من هذه الوقعات شأهت منها ما يشاهده مثلي ، وعرفت
الباقى معرفة خاصة في هذه الأمور .

ومن نوادر هذه الواقعة أن مملوكا كان للسلطان يدعي قره سنقر ،
وكان شجاعا قد قتل من أعداء الله خلقا عظيما ، وفتك فيهم ،
فأخذوا قلوبهم من نكايته فيهم وتجمعوا له وكمذوا له ، وخرج إليه
بعضهم وتراءوا له ، فحمل عليهم حتى صار بينهم ، فوثبوا عليه من
سائر جوانبه ، فأمسك واحد منهم بشعره وضرب الآخر رقبتة
بسيفه فإنه كان قتل له أقرباء ، فوقع الضربة في يد الممسك
بشعره ، فقطعت يده وخلي سبيله فاشتد هاربا حتى عاد إلى
أصحابه ، وأعداء الله يشتدون عدوا خلفه لم يلحقه منهم احد ، وعاد
سالما (ورد الله النين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا) (٢٩)

ذكر وفاة الفقيه عيسى

وهي مما بلغني ولم أكن حاضرها ، وذلك أنه مرض مرضا كان يتعاهده وهو ضعيف النفس ، وعرض له إسهال أضعفه ، فلم يقطع صلاته ، ولم يغب ذهنه عنه إلى أن مات ، وكان رحمه الله كريما شجاعا ، حسن المقصد كبير الغرام بقضاء حوائج المسلمين ، توفي رحمه الله طلوع فجر الثلاثاء تاسع ذي القعدة ، من شهر سنة خمس وثمانين .

ذكر تسليم الشقيف سنة ست وثمانين

ولما كان يوم الأحد خامس عشر ربيع الأول علم الأفـرنج المستحفظون بالشقيف إنهم لا عاصم لهم من أمر الله ، وأنهم إن أخذوا عذوة ضربت رقابهم ، فطلبوا الأمان ، وجرت مراجعات كثيرة في قاعدة الأمان ، وكانوا قد علموا من حال صاحبهم أنه قد عذب أشد العذاب ، فاستقرت القاعدة على أن الشقيف يسلم ويطلق صاحبه وجميع من فيه من الأفرنج ، ويترك ما فيه من أنواع الأموال والنخائر ، فتسلم في التاريخ المذكور ، وكان الحديث قد جرى مرارا حتى استقرت القاعدة في التاريخ المتقدم ، وعاد صاحب صيدا والأفرنج الذين كانوا بالشقيف إلى صور ، ولما رأى السلطان من اهتمام الأفرنج من أقطار بلادهم بالمكان وتصويب عزائهم نحوه ، اغتتم الشتاء وانقطاع البحر ، وجعل في عكا من الميرة والنخائر والعدد والرجال ما أمن معه عليها مع تقدير الله تعالى ، وتقدم إلى النواب بمصر أن عمروا لها اسطولا عظيما يحمل خلقا كثيرا ، وسار حتى دخل عكا مكابرة العدو ومراغمه له ، وأعطى العساكر دستوراً طول الشتاء يستجمون ويستريحون ، وأقام هو

مع نفر يسير قبالة العدو ، وقد حال بين العسكرين شدة الوحول
وتعذر بذلك وصول بعضهم إلى بعض .

طريقة

كان لما بلغ خبر العدو ، وقصده عكا ، جمع الأمراء وأصحاب
الرأي بمرج عيون وشاورهم فيما يصنع ، وكان رأيهم أن
قال : المصلحة مناجزة القوم ومنعهم من النزول إلى البلد ، وإلا
فإن نزلوا جعلوا الرجالة سورا لهم ، وحفروا الخنادق وصعب علينا
الوصول إليهم ، وخيف على البلد منهم ، وكانت إشارة الجماعة
أنهم إذا نزلوا واجتمعت العساكر قلعتهم في يوم واحد ، وكان
الأمر كما قال السلطان ، والله لقد سمعت هذا القول ، وشاهدت
الفعل كما قال السلطان ، وهو يوافق معنى قوله صلى الله عليه
وسلم : « إن من أمتي لحدثين ومكلمين وإن عمر لمنهم » .

ذكر وصول رسول الخليفة

ولم يزل السلطان مجدا في الانفاذ إلى عكا بالميرة والعد والاسلحة
والرجال ، حتى انقضى الشتاء وانفتح البحر وحصان زمان
القتال ، فكتب إلى العساكر يستدعيها من الأطراف ، ولما تواصل
أوائل العساكر ، وقوي جيش الاسلام رحل السلطان نحو
العدو ، ونزل على تل كيسان ، وذلك في ثامن عشر شهر ربيع الأول
سنة ست وثمانين ، ورتب العسكر قلبا وميمينه وميسرة ، وأخذت
العساكر في التواصل والنجدة في التواتر ، فوصل رسول الخليفة
وهو شاب شريف ، ووصل معه حملان من النقط ، وجماعة من
النفاطين والزراقين ، ووصل معه من الديوان العزيز النبوي مجده

الله تعالى رقعة تتضمن الآن للسلطان أن يقترض عشرين ألف دينار من التجار يذققها في الجهاد ، ويحيل بها على الديوان العزيز ، فقبل جميع ما وصل مع الرسول واستغنى عن الرقعة والتذليل بها .

وفي ذلك اليوم بلغ السلطان إن الأفرنج قد زحفوا على البلد وضايقوه ، فركب إليهم لشغلهم بالقتال عن البلد ، وقاتلهم قتالا شديدا الى أن فصل بين الطائفتين الليل وعاد كل فريق الى أصحابه ، ورأى السلطان قوة العساكر الإسلامية ، وبعد المكان عن العدو ، فخاف أن يهجم البلد ويتم عليه أمر ، فرأى الانتقال الى تل العجول بالكلية ، فانتقل بالعسكر والثقيل في الخامس والعشرين ، وفي صبيحة هذا اليوم وصل من البلد عوام معه كتب تتضمن أنه قد طم العدو بعض الخندق ، وقوي عزمه على منازلة البلد ومضايقته ، فجدد الكتب الى العساكر بالحث على الوصول ، وعبى العسكر تعبئة القتال ، وزحف الى العدو ليشغله عن ذلك.

ولما كان سحر ليلة الجمعة السابع والعشرين وصل ولده الملك الظاهر غياث الدين غازي صاحب حلب جريئة الى خدمته معاجلة للبر ، وترك عسكره في المنزلة وخدم والده وبل شوقه منه ، وعاد الى عسكره في الثامن والعشرين ، وسار حتى وصل في ذلك اليوم بجحفة ، وقد اظهروا الزينة ، ولبسوا لامة الحرب ونشرت الاعلام والبيارق ، وضربت الكوسات ، ونعتت البوقات ، وعرض بين يدي والده ، وكان قد ركب الى لقائه في المرح ، وسار بهم حتى وقف بهم على العدو ، وشاهدوا من جند الله ما أزعجهم وأقلقهم ، وفي أواخر ذلك اليوم قدم مظفر الدين بن زين الدين جريئة أيضا مسارعة للخدمة ، ثم عاد الى عسكره في لامة الحرب ، فعرضهم السلطان حتي وقف بهم على العدو ، وكان ما يقدم عسكر الا يعرضهم ويسيرهم الى العدو ، وينزل بهم في خيمته يمد لهم الطعام وينعم

عليهم بما يطيب به قلوبهم إذا كانوا أجنب ، ثم تضرب خيامهم
حيث يأمر ، وينزلون بها مكرمين .

لطيفة تدل على سعادة ولده الملك الظاهر عز نصره

وذلك ان العدو كان قد اصطنع ثلاثة أبراج من خشب
وحديد ، وألبسها الجلود المسقاة بالخل على ما ذكر ، بحيث لا تنفذ
فيها النيران ، وكانت هذه الأبراج كأنها الجبال نشاهدها من
مواضعنا عالية على سور البلد ، وهي مركبة على عجل يسع الواحد
منها من المقاتلة ما يزيد على خمسمائة نفر على ماقيل ، ويتسع
سطحها لأن ينصب عليه منجنيق ، وكان ذلك قد عمل في قلوب
المسلمين ، وأودعها من الخوف مالا يمكن شرحه ، وأيس الناس
من البلد بالكلية وتقطعت قلوب المقاتلة فيه ، وكان فرغ من عملها
ولم يبق الا جرّها الى قريب للسور ، وكان السلطان قد أعمل فكره
في إحراقها واهلاكها ، وجمع الصناع من الزراقيين والنقاطين
وحثهم على الاجتهاد في إحراقها ، ووعدهم عليه بالأموال الطائلة
والعطايا الجزيلة ، وضائق حيلهم عن ذلك ، وكان من جملة من
حضر شاب نحاس دمشقي ذكر بين يديه أن له صناعة في إحراقها
وأنة إن مكن من الدخول الى عكا وحصلت له الأدوية التي يعرفها
أحرقها ، فحصل له جميع ما طلبه ، وبخل إلى عكا وطبخ الأدوية مع
الزفت في قدور نحاس حتى صار الجميع كأنه جمره نار ، ولما كان
يوم وصول الملك الظاهر ضرب واحدا بقدر ، فلم يكن إلا أن وقعت
فيه فاشتعل من ساعته ووقته وصار كالجبل العظيم من
النار ، طالعة ذؤابته نحو السماء ، واستغاث المسلمون
بالتهليل ، وعلاهم الفرح حتى كانت عقولهم تنهب ، وبينما الناس
ينظرون ويتعجبون إذ رمى البرج الثاني بالقدر الثانية ، فما كان الا
أن وصلت اليه واشتغلت كالتي قبلها ، فاشتد ضجيج الفئتين

وانعقدت الأصوات إلى السماء ، وما كان إلا ساعة حتى ضرب الثالث ، فالتهب ، وغشى الناس من الفرح والسرور ما حرك ذوي الأحلام والنهى منهم حركة الشباب الرعناء ، وركبت العساكر ميمنة وميسرة وقلبا ، وكان أواخر النهار وسار حتى أتى عسكر القوم وانتظر أن يخرجوا فيناجزهم عملا بقوله صلى الله عليه وسلم : « من فتح له بابا من الخير فلينتهزه » ، فلم يظهر العدو من خيامهم ، وحال بين الطائفتين الليل ، وعاد كل فريق إلى حربه ، ورأى الناس ذلك ببركة قدوم الملك الظاهر ، واستبشر والده بغرته ، وعلم أن ذلك بيمين صلاح سريرته ، واستمر ركوب السلطان إليهم في كل يوم ، وطلب نزالهم وقتالهم وهم لا يخرجون من خيامهم لعلمهم ببشائر النصر والظفر بهم ، والعساكر الإسلامية تتواتر وتتواصل

ذكر وصول عماد الدين زنكي صاحب سنجار وغيره

ولما كان الثاني والعشرون من ربيع الآخر وصل عماد الدين زنكي ابن مودود صاحب سنجار ، يجر عسكره ، ووصل بتجمل حسن وعسكر تام ، ولقيه السلطان بالاحترام والتعظيم ، ورتب له العسكر في لقائه ، وكان أول من لقيه من العسكر المنصور قضاته وكتابه ، ثم لقيه أولاده بعد ذلك ، ثم لقيه السلطان ، ثم صار به حتى أوقفه على العدو ، وعاد معه إلى خيمته وأنزله عنده ، وكان صنع له طعاما لاثقا بذلك اليوم ، فحضر هو وجميع أصحابه ، وقدم له من التحف واللطائف ما لا يقدر غيره عليه ، وكان قد أكرمه بحيث طرح له طراحة مستقلة إلى جانبه ، وبسط له ثوب أطلس عند دخوله ، وضرب له خيمة على طرف الميسرة على جانب النهر ، ولما كان سابع جمادى الأولى من هذه السنة وصل سنجرشاه ابن سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي صاحب الجزيرة ، ووصل في عسكر

حسن ، فلقية السلطان واحترمه وأكرمه وأنزله في خيمته وأمر أن تضرب خيمته إلى جانب عماد الدين ، وفي تاسع الشهر وصل علاء الدين بن مسعود صاحب الموصل مقدما على أسكره ففرح السلطان بقدومه فرحا شديدا ، وتلقاه عن بعد هو وأهله ، واستحسن أدبه وأنزله عنده في الخيمة ، وكارمه مكارمة عظيمة ، وقدم له تحفا حسنة ، وأمر بضرب خيمته بين ولديه الملك الأفضل والملك الظاهر ، وما من أهله إلا من بسط له من ضيافته وجها مضيئا

ولما كانت ظهيرة ذلك اليوم ظهرت في البحر قلوب كثيرة ، وكان رحمه الله في نظره وصول الأسطول من مصر ، فإنه كان قد أمر بتعميره ووصوله ، فعلم أنه هو ، فركب السلطان وركب الناس في خدمته ، وتعبى تعبىة القتال وقصد مضايقة العدو ليشغله عن قصد الأسطول ، ولما علم العدو وصول الأسطول استعدوا له وعمروا أسطولا لقتاله ومنعه من دخول عكا ، وخرج أسطول العدو واشتد السلطان في قتاله من خارج ، وسار الناس على جانب البحر تقوية للأسطول وایناسا لرجاله ، والتقوى الأسطولان في البحر ، والعسكران في البر ، واضطربت نيران الحرب ، واستعرت وباع كل فريق روحه براحتة الأخرى ، ورجع حياته الأبدية على حياته الدنيوية .

وجرى بين الأسطولين قتال شديد انقشع عن نصره الأسطول الاسلامي ، وأخذ من العدو شيني وقتل من به ونهب جميع ما فيه ، وظفر من العدو بمركب أيضا واصلا من قسطنطينية ، وبخل الأسطول المنصور الى عكا ، وكان قد صحبه مراكب من الساحل فيها مير ونخائر ، وطابت قلوب أهل البلد وانشرح صدورهم ، فإن الضائقة كانت قد أخذت منهم ، واتصل القتال بين العسكرين من خارج البلد الى أن فصل بينهما الليل ، وعاد كل فريق الى خيامه ، وقد قتل من عدو الله وجرح خلق كثير عظيم ، فإنهم قاتلوا في ثلاثة مواضع ، فإن أهل البلد اشتدوا في قتالهم ليشغلهم

عن الأسطول أيضا ، والأسطولان يتقاتلان ، والعسكر يقاتلهم من البر ، وكان النصر للمسلمين في الأماكن كلها .

ثم كان وصول زين الدين صاحب إربل في العشر الآخر من جمادى الأولى ، وهو زين الدين يوسف بن علي بن بكركين ، قدم بعسكر حسن ، وتجميل جميل ، فاحترمه السلطان ، وأكرمه وأنزله في خيمته ، وأكرم ضيافته ، وأمر بضرب خيمته إلى جانب أخيه مظفر الدين .

ذكر خبر ملك الألمان

ثم تواترت الأخبار بوصول ملك الألمان إلى بلاد قليج أرسلان ، وأنه نهض للقائه جمع عظيم من التركمان ، وقصدوا منعه من عبور النهر ، وأنه أعجزهم لكثرة خلقه ، وعدم مقدم لهم يجمع كلمتهم ، وكان قليج أرسلان أظهر شقاؤه وهو في الباطن قد أضمر وفاقه ، ثم لما عبر إلى البلاد أظهر ما كان أضمر ووافقه وأعطاه رهائن منه على أن ينفذ معه من يوصله إلى بلاد ابن لاون ، وأنفذ معه أدلاء ، واعتراهم في الطريق جوع عظيم حتى ألقوا بعض أقمشتهم ، ولقد بلغنا والله أعلم أنهم جمعوا عددا كثيرة من زربيات وخوذ وآلات سلاح عجزوا عن حملها ، وجعلوها بيدرا واحدا ، وأضرموا فيها النار لقتلهم ، ولا ينتفع بها أحد ، وأنها بقيت بعد ذلك تలా من حديد ، وساروا على هذا الحال حتى أتوا إلى بلد يقال لها طرسوس فأقاموا على نهر ليعبروه ، وأما ملكهم فعن له أن يسبح فيه وكان ماؤه شديد البرد ، وكان ذلك عقيب ما ناله من التعب والنصب والمشقة والخوف ، وأنه عرض له بسبب ذلك مرض عظيم اشتد به إلى أن قتله .

ولما رأى ما حل به أوصى إلى ابنه الذي كان في صحبته ، ولما مات

أجمعوا رأيهم على أنهم سلقوه في خل ، وجمعوا عظامه في كيس على أن يحملوه إلى القديس الشريف حرسه الله ، ويدفونه في القديس ، وترتب ابنه مكانه على خلاف من أصحابه ، فان ولده الأكبر كان قد خلفه في بلاده ، وكان جماعة من أصحابه يميلون إليه ، واستقر قدم ولده الحاضر في مقدمة العسكر .

ولما أحس ابن لاون بما جرى عليهم من الخلل ، وما حل بهم من الجوع والموت والضعف بسبب موت ملكهم ، رأى أن لا يلقي بنفسه بينهم فإنه لا يعلم كيف يكون الأمر ، وهم أفرنج وهو أرمني ، فاعتصم هو عنهم في بعض قلاعه المنيعة .

صورة كتاب الكاغيكوس الأرمني

ولقد وصل إلى السلطان كتاب من الكاغيكوس ، وهو مقدم الأرمن ، وهو صاحب قلعة الروم التي على طرف الفرات ، نسخة هذه ترجمتها : كتاب الداعي المخلص الكاغيكوس ما أطلع به علم مولانا ، ومالكنا السلطان الناصر ، جامع كلمة الايمان ، رافع علم العدل والاحسان ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الاسلام والمسلمين ، ادام الله إقباله ، وضاعف إجلاله ، وصان مهجته وكمل نهاية أماله ، بعظمته وجلاله : من أمر ملك الألمان وما جرى له عند ظهوره ، وذلك أنه أول ما خرج من بياره وبخل بلاد الهنكر غصبا ، غصب ملك الهنكر بالاذعان والدخول تحت طاعته ، وأخذ من ماله ورجاله ما اختار ، ثم أنه بخل أرض مقدم الروم وفتح البلاد ونهبها وأقام بها وأحوج ملك الروم الى أن أطاعه وأخذ رهائنه ولده وأخاه وأربعين ذفرا من خالصاته ، وأخذ منه خمسين قنطارا ذهباً ، وخمسين قنطارا فضة ، وثياب أطلس بمبلغ عظيم ، واغتصب المراكب ، وعدى بها الى هذا الجانب وصحبته الرهائن

إلى أن دخل حدود بلاد الملك قليج أرسلان ، ورد الرهائن وبقي سائرا ثلاثة أيام وتركمان الأوج (٢٠) يلقونه بالأغنام والبقر والخيول والبضائع ، فدخلهم الطمع ، وجمعوا جموعا من جميع البلاد ووقع القتل بين التركمان وبينه ، وضايقوه ثلاثة وثلاثين يوما وهو سائر ، ولما قرب من قونية جمع قطب الدين ولد قليج أرسلان العساكر ، وقصده وضرب معه مصافا عظيما ، فظفر به ملك الألمان ، وكسره كسرة عظيمة ، وسار حتى أشرف على قونية ، فخرج إليه جموع عظيمة من المسلمين فردهم مكسورين ، وهجم على قونية بالسيف ، وقتل منهم عالما عظيما من المسلمين والفرس ، وأقام بها خمسة أيام ، فطلب قليج أرسلان منه الأمان ، فأمنه الملك واستقر بينهم قاعدة أكيدة ، وأخذ الملك منه رهائن عشرين من أكابر دولته ، وأشار على الملك أن يجعل طريقه على طرسوس والمصيصة ففعل ، وقبل منه ، وقبل وصوله الى هذه الديار نفذ كتابه ورسوله يشرح حاله وأين قصده ، وما لقيه في طريقه ، وأنه لا بد يجتاز هذه الديار اختيارا أو كرها ، فاقضى الحال إنفاذ المملوك حاتم (٢١) وصحبته ما سأل ، ومعه من الخواص جماعة للقاء الملك وجواب كتابه ، وكانت الوصية أن يمروا به على بلاد قليج أرسلان إن أمكن ، فلما اجتمعوا بالملك الكبير ، وأعادوا عليه الجواب عرفوه الأحوال بالانحراف ، ثم كثرت عليه العساكر والجموع ، ونزل على شط بعض الأنهار وأكل خبزا ، ونام وانتبه فتأقت نفسه إلى الاستحمام في الماء البارد ، ففعل ذلك ، وخرج ، وكان أمر الله أن تحرك عليه مرض عظيم من الماء البارد ، فمكث أياما قلائل ومات ، أما ابن لاون فإنه كان سائرا يلقي الملك ، فلما جرى هذا لجرى ، هرب الرسل من العسكر وتقدموا إليه وأخبروه في الحال ، فدخل في بعض حصونه واحتوى هناك ، وأما ابن الملك فكان أبوه منذ توجه إلى قصد هذه الديار نصب ولده الذي معه عوضه ، واستقرت القاعدة ، وبلغه هرب رسل ابن لاون ، فأنفذ واستعطفهم وأحضرهم وقال أن أبي كان شيخا كبيرا وما قصد هذه الديار إلا لأجل حج بيت المقدس ، وأنا الذي دبرت الملك وعانيت المشاق في هذه الطريق فمن أطاعني وإلا بددت قصدي

دياره ، واستعطف ابن لاون واقتضى الحال الاجتماع
ضرورة ، وبالجمله فهو في عدد كثير .

ولقد عرض عسكريه فكان اثنين وأربعين مجفجا (٢٢) ، وأما
الرجالة فما يحصى عددهم ، وهم أجناس متفاوتة وخلق
غريبة ، وهم على قصد عظيم وجد في أمرهم ، وسياسة هائلة حتى
أن من جنى منهم جناية فليس له جزاء إلا أن يذبح مثل الشاه .

ولقد بلغهم عن بعض أكابرهم أنه جنى على غلام له ، وجاوز
الحد في ضربه ، فاجتمعت القسوس للحكم فاقتضى الحال والحكم
العام ذبحه ، وشفع إلى الملك منهم خلق عظيم فلم يلتفت إلى ذلك
وذبحه ، وقد حرموا الملاذ على أنفسهم حتى أن من بلغهم عنه بلوغ
لذة هجره وعزروه ، كل ذلك كان حزنا على البيت المقدس ، ولقد
صح عن جمع منهم أنهم هجروا الثياب مدة طويلة ، وحرّموا ما
حل ، ولم يلبسوا إلا الحديد حتى أنكر عليهم الأكابر ذلك ، وهم من
الصبر على الشقاء ، والذل والتعب في حال عظيم .

طالع المملوك بالحال وما يتجدد بعد ذلك يطالع به إن شاء الله
تعالى ، هذا كتاب الكاغيكوس ، ومعنى هذا اللفظ الخليفة ، واسمه
بركري كوربن باسيل .

ذكر مسير العساكر إلى أطراف البلاد في

طريق ملك الألمان

ولما تحقق السلطان وصول ملك الألمان إلى بلاد ابن لاون ، وقربه
إلى البلاد الإسلامية جمع أمراء دولته ، وأرباب الآراء وشاورهم
فيما يصنع ، فاتفق الرأي على أن العسكر بعضه يسير إلى البلاد

المتاخمة لطريق عسكر العدو الواصل ، وأن يقيم على منازل العدو
بباقى العسكر المنصور ، وكان أول من سار صاحب منبج وهو
ناصر الدين بن تقي الدين ، ثم عز الدين بن المقدم صاحب كفر طاب
وبارين وغيرهما ، ثم مجد الدين صاحب بعلبك ، ثم صاحب شيزر
سابق الدين ، ثم الياروقية من جملة عسكر حلب ، ثم عسكر
حماء ، وسار ولده الملك الأفضل مع مرض عرض له ، ثم بدر الدين
شحنة دمشق مع مرض عرض له أيضا ، وسار بعد ذلك ولده الملك
الظاهر إلى حلب لابانة الطريق وكشفا لأخباره ، وحفظا لما يليه من
البلاد ، وسار بعده الملك المظفر لحفظ ما يليه من البلاد ، وتدير أمر
العدو المجتاز ، وكان آخر من سافر في ليلة السبت التاسع من
جمادى من شهور سنة ست وثمانين وخمسمائة .

ولما سارت هذه العساكر خفت الميمنة فإن معظم من سار منها ،
فأمر رحمه الله الملك العادل أن ينتقل إلى منزلة تقي الدين في طرف
الميمنة ، وكان عماد الدين زنكي في طرف الميسرة ، ووقع في العسكر
مرض عظيم فمرض مظفر الدين صاحب حران وشفى ، ومرض بعده
الملك الظافر ، وشفى ومرض خلق كثير من الأكابر وغيرهم ، إلا أن
المرض كان سليما بحمد الله ، وكان المرض عند العدو أكثر وأعظم ،
وكان مقرونا بموتان عظيم ، وأقام السلطان مصابرا على ذلك
مرابطا للعدو .

ذكر تمام خبر ملك الألمان

وذلك أن ولده الذي قام مقامه مرض مرضا عظيما ، أقام بسببه
بموضع من بلاد ابن لاون ، وأقام معه خمسة وعشرون فارسا
وأربعون داويا ، وجهاز عسكره نحو إنطاكية حتى يقطعوا الطريق ،
ورتبهم ثلاث فرق لكثرتهم ، ثم إن الفرقة الأولى اجتازت تحت قلعة
بغراس يقدمها كند عظيم عندهم ، وأن عسكر بغراس مع قلته أخذ

منهم منتهي رجل قهرا ونهبا وكتبوا يخبرون عنهم بالضعف العظيم والمرضى الشديد وقلة الخيل والظهر والعدد والآلات ، ولما اتصل هذا الخبر بالنواب في البلاد الشامية ، أنفذوا إليهم عسكرا يكشف أخبارهم ، فوقع العسكر على جمع عظيم قد خرجوا لطلب العلوفة ، فأغاروا عليهم غارة عظيمة وقتلوا وأسروا ، وكان مقدار ما أخذوه وقتلوه على ما ذكره المخبرون في الكتب زهاء خمسمائة نفس ، ولقد حضرت رسالة رسول ثان من كاغيكوس بين يدي السلطان ، وهو يذكر خبرهم ، ويقول : هم عدد كثير لكنهم ضعاف قليلو الخيل والعدة ، وأكثر ثقلهم على حمر وخيل ضعيفة ، قال : ولقد وقفت على جسر يعبرون عليه لأعبرهم ، فعبر منهم جمع عظيم ما وجدت مع واحد منهم طارقة ولا رمحا إلا النادر ، فسألتهم عن ذلك ، فقالوا : أقمنا بمرج وخم اياما فقل زائنا واحطابنا ، وأوقدنا معظم عدونا ، ومات منا خلق عظيم ، واحتجنا إلى الخيل فذبحنها وأكلناها ، وأوقدنا الرماح والعدد لاعواز الحطب ، وأما الكند الذي وصل إلى أنطاكية في مقدمة العسكر ، فإنه مات ، وذكر أن ابن لاون لما أحس منهم بذلك الضعف طمع فيهم حتى أنه عزم على أخذ مال الملك لمرضه وضعفه وقلة جمعه الذي تخلف معه ، وأن البرنس صاحب أنطاكية لما أحس منهم بذلك أرسل إلى ملك الأمان التقطه إلى أنطاكية طمعا في أن يموت عنده ، ويأخذ ماله ، ولم تزل أخبارهم تتواتر بالضعف والمرضى إلى أن وقعت وقعة العادل على طرف البحر .

ذكر الوقعة العادلية

ولما كان يوم الأربعاء العشرين من جمادى الآخرة علم عدو الله أن العساكر قد تفرقت ، وأن الميمنة قد خفت لأن معظم من سافر كان منها بحكم قرب بلادهم من طريق العدو ، فأجمعوا رأيهم ، واتفقت كلمتهم على أنهم يخرجون بغتة ويهجمون على طرف الميمنة فجأة ،

وتلاعبت بهم آمالهم فخرجوا ظهيرة النهار وامتدوا الميمنة وميسرة وقلبا وانبتوا في الأرض ، وكانوا عددا عظيما ، واستخفوا طرف الميمنة ، وكان فيها مخيم الملك العادل ، فلما بصر الناس بهم قد خرجوا في تعبئة القتال ، صاح صائحهم ، وخرجوا من خيامهم كأَسود من أجسامها ، وركب الأسـلطان ، وناـدى مناديه : يا لاسلام ، وركبت الجيوش وطلبت الأطلاب ، وكان رحمة الله عليه ، أول راكب ، ولقد رأيته رحمه الله قد ركب من خيمته وحوله نفر يسير من خواصه والناس لم يستتم ركوبهم وهو كالفاقة ولدها ، الثاكلة واحدها ، ثم ضرب الكوس واجابته كوسات الامراء من أماكنها ، وركب الناس .

وأما الأفرنج فإنهم سارعوا في القصد إلى الميمنة حتى وصلوا الى خيمة الملك العادل ، ودخلوا في طاقه وامتدت أيديهم في السوق ، وأطراف الخيم بالنهب والغارة ، وقيل وصلوا الى خيمة الخاص ، وأخذوا من شراب خاناتها شيئا .

وأما الملك العادل فانه لما علم بذلك ركب وخرج من خيمته ، واستركب من يليه من الميمنة كالطواشي قايماز النجمي ، ومن يجري مجراه من أسود الاسلام ، ووقف وقوف مخادع حتى يوغل بهم طمعهم في الخيم ، ويشغلوا في النهب وكان كما ظن فإنهم عاثت أيديهم في الخيام والأقمشة والفواكه والمطاعم ، فلما علم اشتغالهم بذلك صاح بالناس ، وحمل بذفسه يقدمه ولده الكبير شمس الدين ، وحمل بحملته من كان يليه من الميمنة واتصل الأمر بجميع الميمنة حتى وصل الصائح الى عسكر الموصل ، وهجموا على العدو هجمة الأسود على قريستها ، وأمكنهم الله منهم ، ووقعت الكسرة فعادوا يشدون نحو خيامهم هاربين ، وعلى أعقابهم ناكسين ، وسيف الله فيهم يلتقط الأرواح من الأشباح ، ويفصل بين الأجساد والرؤوس ، ويفرق بين الأبدان والنفوس .

ولما بصر السلطان باصطلاء الحرب قد ارتفع ممايلي خيام

أخيه ، ثارت في قلبه نار الاشفاق ، وحركت الحمية إخوته ،
وأنهضت الرغبة في نصره بين الله والخوف على أوليائه عزيزته ،
وصاح صائحه في الناس : يا لاسلام وإبطال الموحدين ، هذا عدو
الله قد أمكن الله منه ، وقد داخله الطمع حتى غشي خيامكم بنفسه ،
فكان من المبادرين الى اجابة دعوته جماعة من مماليكه وخاصته
وحاقلته ، ثم طلب عسكر الموصل يقدمهم علاء الدين ، ثم عسكر
مصر يقدمهم سنقر الحلبي ، وتتابع العساكر ، وتجاوبت
الابطال ، ووقف هو رحمه الله في القلب خشية أن يستضعف العدو
القلب بحكم ما أنفذ منه من العساكر فينال غرضاً ، فتواصلت
العساكر ، واتصل الضرب ، وقامت سوق الحرب ، فلم يكن الا
ساعة حتى رايت القوم (صرعى كأنهم أعجاز نخل
خاوية) (٢٢) وامتدوا مطروحين من خيام الملك العادل الى
خيامهم ، أولهم في الخيم الاسلامية ، وآخرهم في خيم العدو ،
وصرعى على التلول والوهاد ، وشربت السيوف من دمائهم حتى
رويت ، وأكلت أسد الوغى بأسنان الظفر منهم حتى شبت ، وأظهر
الله كلمته ، وحقق لعبده نصرته ، وكان مقدار ما امتد فيه القتلى
فيما بين الخيامين فرسخاً وربما زاد على ذلك ، ولم ينج من القوم
الا النادر ، ولقد خضت في تلك الدماء بدايتي واجتهدت في أن اعدم
فما قدرت على ذلك لكثرتهم وتفرقهم ، وشاهدت فيهم امرأتين
مقتولتين ، وحكى لي من شاهد أربعة نسوة يقاتلن وأسر منهن
اثنتان ، وأسر من الرجال في ذلك اليوم نفر يسير ، فإن السلطان
كان أمر الناس أن لا يستبقوا أحداً ، هذا كله في الميمنة ، وبعض
القلب ، وأما الميسرة فما اتصل الصائح بهم الا وقد نجز
الأمر ، وقضى القضاء على العدو ما بين الظهر والعصر ، فإن العدو
ظهر في قائم الظهيرة ، وانفصلت الحرب بعد صلاة
العصر ، وانكسر القوم حتى دخلت معهم طائفة من المسلمين
وراءهم إلى مخيمهم على ما قيل ، ثم إنه - رحمة الله عليه - أمر
الناس بالتراجع لما ظهر له وجه الريح ، حيث قتل من العدو ، ما قتل
من هذا الخلق العظيم ، ولم يفقد من المسلمين أحد في ذلك اليوم
سوى عشرة أنفس غير معروفين .

ولما أحس جند الله بعكا بما جرى من الواقعة ، فإنهم كانوا يشاهدون الواقعة من أعالي السور ، خرجوا إلى مخيم العدو المخدول من البلد ، وجرت بينهم مقتلة عظيمة ، وكانت النصره للمسلمين ، بحيث هجموا خيام العدو ، ونهبوا منها جمعا من الذسوان والأقمشة حتى القدور فيها الطعام ، ووصل كتاب من المدينة يخبر بذلك ، (وكان يوما على الكافرين عسيرا) (٢٢) ، واختلف الناس في عدد القتلى منهم فذكر قوم أنهم ثمانية آلاف ، وقال آخرون : سبعة آلاف ، ولم ينقصهم حازر بأقل من خمسة آلاف ، ولقد شاهدت منهم خمسة صفوف أولها في خيم العادل وآخرها في خيم العدو ، ولقد لقيت إنسانا جنيا عاقلا يسعى بين صفوف القتلى ويعددهم فقلت له : كم عدت ؟ فقال لي : هاهنا أربعة آلاف ونيف وستون قتيلا ، وكان قد عد صفين وهو في الصف الثالث ، لكن ما مضى من الصفوف كان أكثر عددا من الباقي ، وانجلى يوم الاربعاء المذكور بأحسن ما ينجلي عنه الاسلام .

ولما كان يوم الخميس الحادي والعشرون من جمادى المذكور ، ورد في عصره نجاب من حلب له خمسة أيام يتضمن كتابه أن جماعة عظيمة من العدو الشمالي خرجوا لنهب أطراف البلاد الاسلامية ، ونهض العسكر الاسلامي من حلب إليهم ، وأخذ عليهم الطريق ، ولم ينج منهم إلا من شاء الله ، وكان وقع هذا الخبر عقيب هذه الواقعة المباركة وقعا عظيما ، وضربت البشائر ، ولم ير صبيحة لتلك العروس أحسن من هذه الصبيحة ، وجاءنا بقية ذلك اليوم من اليذك قايمان الحراني ، وذكر أن العدو قد سأل من جانب السلطان من يصل إليهم ليسمع حديثا في سؤال الصلح لضعف حل بهم ، ولم يزل عدو الله في حينه مكسور الجناح من الجانبين ، حتى وصلهم كند يقال له كند هري .

ذكر وصول الكند هري

وهذا المذكور من ملوكهم وأعيانهم ، وصل في البحر في مراكب عدة ، ومعه من الأموال والنخائر والميرة والأسلحة والرجال عدد عظيم ، فقوي بوصوله عزمهم واشتد أزهرهم ، وحدتتهم نفوسهم بطلب العسكر الاسلامي المنصور ليلا ، وكثر ذلك الحديث على السنة المستامين والجواسيس ، فجمع السلطان الأمراء وأرباب الرأي واستشارهم فيما يفعل ، فكان آخر الرأي أنهم يوسعون الحلقة ويتأخرون عن العدو رجاء أن يخرج العدو ويبعد عن خيمه ، فيمكن الله منهم ، ووافقهم السلطان على ذلك وأوقعه الله في قلبه ، فرحل الى جبل الخروبة بالعساكر بأسرها وذلك في السابع والعشرين من جمادى الآخرة ، وترك بقية من العسكر في تلك المنزلة كاليزك مقدار ألف فارس يتناوبون لحفظ النوبة ، هذا والكتب متواصلة من عكا ومنا إليها على أجنحة الطيور ، وأيدي السباح والمراكب اللطاف تخرج ليلا وتدخل سرقة من العدو .

هذا وأخبار العدو الواصل من الشمال متواصلة بقلّة خيله وعدده ، وما قد عراهم من الموت والمرض ، وأنهم قد اجتمعوا بأنطاكية ، وأنهم قد بقوا رجالة ، وأن أصحابنا عسكر حلب يتخطفون حشاشتهم وعلاقتهم ، ومن يخرج منهم .

ذكر كتاب وصل من قسطنطينية يسر الله فتحها

وكان بين السلطان وبين ملك القسطنطينية مراسلة ومكاتبة ، وكان وصل منه رسول إلى الباب السلطاني بمرج عيون في رجب سنة خمس وثمانين وخمس مائة في جواب رسول كان أنفذه السلطان إليه ، بعد تقرير القواعد وإقامة قانون الخطبة في جامع قسطنطينية ، فمضى الرسول والقي الخطبة ولقى احتراما عظيما

وأكراما زائدا ، وكان قد أنفذ معه في المراكب الخطيب والمذبر وجمعا من المؤننين والقراء ، وكان يوم دخولهم القسطنطينية يوما عظيما من أيام الاسلام شاهده جمع كثير من التجار ، ورقى الخطيب المذبر ، واجتمع اليه المسلمون المقيمون بها والتجار ، وأقام الدعوة الاسلامية العباسية ، ثم عاد فعاد معه هذا الرسول يخبرنا بانتظام الحال في ذلك ، فأقام مدة ، ولقد شاهدته يبلغ الرسالة ومعه ترجمان عنه ، وهو شيخ أحسن ما يفرض أن يكون من صور المشايخ ، وعليه زيهم الذي يختص بهم ، ومعه كتاب وتذكره والكتاب مختوم بنهب ، ولما مات وصل الى ملك قسطنطينية خبر وفاته ، فأنفذ هذا الرسول في تنمة ذلك ، ووصل معه الكتاب في جواب ذلك ، وصورة ما فسر من الكتاب الواصل معه ، ووصفه أنه كان كتابا مدرجا عرضا ، وهو دون عرض كتاب بغداد مترجما ظاهره وباطنه بسطرين ، بينهما فرجة ، وضع فيها الختم ، والختم من ذهب مطبوع كما يطبع الخاتم في الشمع ، على ختمه صورة ملك ، وزن الذهب خمسة عشر دينارا ، مضمون السطرين المكتوبين ما هذا صورته :

من إيساكْيوس الملك المؤمن بالمسيح الاله ، المتوج من الله المنصور العالي أبدا ، أففقوس المدبر من الله القاهر الذي لا يغلب ، ضابط الروم بذاته أنكلوس ، الى النسيب سلطان مصر صلاح الدين ، فهذا : صورة ماكتب عليه من الترجمة باطنا وظاهرا ، وأما ما فسر من الكتاب فهذا : المحبة والمودة ، قد وصل حظ نسبتيك الذي انقذت إلى ملكي ، وقرأناه وعلمنا منه أن رسولنا توفي ، وحزننا عليه حيث أنه توفي في بلد غريب وما قدر أن يتم كل ما رسم له ملكي وأمره أن يتحدث به مع نسبتيك ، ويقول في حضرتك ، ولا بد لنسبتك أن تهتم بإنفاذ رسول إلى ملكي مع رسولي المتوفي والقماش الذي خلفه ويوجد بعد موته نعطيهِ أولاده وأقاربه ، وما أظن أنه سمع من نسبتيك أخبارا رنية ، وأنه قد سافر في بلادِي الألمان ، ولا عجب فإن الأعداء يرجفون بأشياء مكذوبة على قدر أغراضهم ، ولو تشتهي أن تسمع الحق فإنهم قد تأذوا وتعبوا كثيرا

أكثر مما أوزي فلاحوا بلادك ، وقد خسروا كثيرا من المال والدواب والرجل والرجال ، ومات منهم كثير وقتلوا وتلفوا وبالشدة قد تخلصوا من أيدي أجناد بلادك ، وقد ضعفوا بحيث إنهم لا يصلون إلى بلادك ، وإن وصلوا ، كانوا ضعافا بعد شدة كبيرة ، لا يقدرّون يدفعون جندهم ولا يضرّون نسبك ، وبعد ذلك كيف نسيت الذي بيني وبينك ، وكيف ما عرفت لماكي شيئا من المقاصد والمهمات ؟

ماربح ملكي من محبتك إلا عداوة الأفرنج وجندهم ، ولا بد لنسبتك كما قد كتبت لماكي في كتابك الذي نفذت إلينا من إنفاذ رسول حتى يعرفني جميع ما قد كتبت اليك في القديم من الحديث ، ويكون ذلك بأسرع ما يمكن ولا تحمل على قلبك من مجيء الأعداء الذين قد سمعت بهم ، فإن أديارهم على قدر نيتهم وآرائهم ، وكتب في أيام سنة الف وواحد وخمسمائة .

فوقف - رحمة الله عليه - وكرم الرسول ، وأحسن مثواه ، وكان شيخا حسن الخلق مهيبا ، عارفا بالعربية والرومية والأفرنجية .

ثم أن الأفرنج اشتدوا في حصار البلد وضايقوه ، لما قد حدث لهم من القوة بوصول الكندھري ، فإنه وصل على ما ذكر والله أعلم في عشرة آلاف مقاتل ، ووصلتهم نجدة أخرى في البحر قويت بها قلوبهم ، ونازلوا البلد بالقتال

ذكر حريق المنجنقات

وذلك أن العدو لما أحس في نفسه بقوته بسبب توالي النجادات عليهم اشتد طمعهم في البلد ، وركبوا عليه المنجنقات من كل جانب ، وتناوبوا عليها بحيث لا يتعطل رميها ليلا ولا نهارا ، وذلك في أثناء رجب .

ولما رأى أهل البلد ما نزل بهم من مضايقة العدو ، وتعلق طمعهم بهم ، وحركتهم النخوة الاسلامية وكان مقدموه حينئذ : أما والي البلد وحارسه فالأمير الكبير بهاء الدين قراقوش ، وأما مقدم العسكر فالأمير الكبير الاسفهلار حسام الدين أبو الهيجاء ، وكان رجلا ذا كرم وشجاعة وتقدم في عشيرته ، ومضاء في عزمته ، فاجتمع رأيهم على أنهم يخرجون إلى العدو فارسهم وراجلهم على غرة وغفلة منهم ، ففعلوا ذلك وفتحت الأبواب وخرجوا دفعة واحدة من كل جانب ، ولم يشعر العدو إلا والسيوف فيهم حاكم عادل ، وسهم قدر الله وقضائه فيهم نافذ نازل ، وهجم الاسلام على الكفر في منازلهم ، وأخذ بناصية مناضله ورأس مقاتله ، ولما ولج المسلمون لخيام العدو نهلوا عن المنجنوقات وحياطتها وحراستها ، وحفظها وسياستها ، فوصلت شهب الزراقين المقدوفة ، وجاءت عوائد الله في نصرة بينه المألوفة ، فلم تكن إلا ساعة حتى اضطمرت فيها النيران ، وتحترقت منها بيدها ماشيده الأعداء في المدة الطويلة في أقرب أن ، وقتل من العدو سبعون فارسا ، وأسر خلق عظيم ، وكان من جملة الأسرى رجل مذكور منهم ظفر به واحد من أحاد الناس ولم يعلم بمكانته ، ولما انفصل الحرب سأل الأفرنج عنه هل هو حي أم لا ، فعرف الذي هو عنده عند سؤالهم أنه رجل كبير فيهم ، وخاف أن يغلب عليه ويرد عليهم بذوع مصانعة أو على وجه من الوجوه فسارع وقتله ، وبذل الأفرنج فيه أموالا كثيرة ، ولم يزالوا يشتدون في طلبه ويحرصون عليه حتى رميت اليهم جثته ، فضربوا بذفوسهم الأرض ، وحذوا على رؤوسهم التراب ، ووقعت عليهم بسبب ذلك خدمة عظيمة ، وكنتموا أمره ، ولم يظهروا من كان ، واستصغر المسلمون بعد ذلك أمرهم ، وهجم عليهم العرب من كل جانب يسرقون وينهبون ويقتلون ويأسرون إلى ليلة نصف شعبان ، وكان الكندي قد انفق على منجنيق كبير عظيم الشكل على ما نقل الجواسيس والمستامدون ألفا وخمسمائة دينار ، وأعد له ليقدمه إلى البلد ، ومنع من حريقه في ذلك اليوم كونه بعيدا عن البلد لم يقدم بعد إليه ، ولما كانت الليلة المباركة المذكورة خرج الزراقون والمقاتلة تحفظهم من كل جانب ، والله يكلؤهم ، فساروا من تحت ستر الليل

حتى أتوا المنجنيق المذكور ، وأضرمو فيه النار فاحترق من ساعته ، ووقع الصياح من الطائفتين ، ونهل العدو فإنه كان بعيدا من البلد ، وخافوا أن يكونوا قد أحيط بهم من الجوانب ، وكان نصرا من عند الله ، وأحرق بلهيبه منجنيقا لطيفا إلى جانبه .

ذكر الحيلة في إدخال بطسه بيروت إلى البلد

وذلك أنه - رحمة الله عليه - كان قد أعد ببيروت بطسه ، وعمرها ، وأودعها أربعمئة غرارة من القمح ، ووضع فيها من الجبن والميرة والبصل والغنم وغير ذلك من الميرة .

وكان الأفرنج خذلهم الله قد أداروا مراكبهم حول عكا حراسة لها من أن تدخلها مراكب المسلمين ، وكانت قد اشتدت حاجة من فيها إلى الطعام والميرة ، فركب في بطسة بيروت جماعة من المسلمين ، وتزيوا بزي الأفرنج ، حتى حلّقوا لحاهم ، ووضعوا الخنازير على سطح البطسة بحيث ترى من بعد ، وعلقوا الصلابان وجاؤوا قاصدين البلد من البعد حتى خالطوا مراكب العدو ، فخرجوا إليهم واعترضوهم في الحراقات والشواني وقالوا لهم : نراكم قاصدين البلد ، واعتقدوا أنهم منهم ، فقالوا : أو لم تكونوا قد أخذتم البلد ؟

فقالوا : لم نأخذ البلد بعد ، فقالوا : نحن نرد القلوع إلى العسكر ووراءنا بطسة أخرى في هوائنا فأنذروهم حتى لا يدخلوا البلد وكان وراءهم بطسة أفرنجية قد اتفقت معهم في البحر قاصدة العسكر ، فنظروا فراوها ، فقصدوها ينذرونها ، فاشتدت البطسة الإسلامية في المسير ، واستقامت لها الريح حتى دخلت ميناء البلد وسلمت ولله الحمد ، وكان فرحا عظيما ، فإن الحاجة كانت قد أخذت من أهل البلد ، وكان ذلك في العشر الأواخر من رجب .

ذكر قصة العوام عيسى

ومن نوادر هذه الواقعة ومحاسنها ، أن عواما مسلما يقال له عيسى ، وصل الى البلد بالكتب والنفقات على وسطه ليلا على غرة من العدو ، وكان يغوص ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدو ، وكان ذات ليلة شد على وسطه ثلاثة أكياس فيها ألف دينار ، وكتب للعسكر ، وعام في البحر ، فجرى عليه أمر أهلكه وأبطأ خبره عنا ، وكانت عادته إذا دخل البلد أطار طيرا عرفنا بوصوله ، فأبطأ الطير فاستشعرنا هلاكه ، ولما كان بعد أيام بعد بينا الناس على طرف البحر في البلد إذا هو قذف شيئا غريقا ، فتدفدوه فوجدوه عيسى العوام ، ووجدوا على وسطه الذهب ، وشمع الكتب ، وكان الذهب نفقة للمجاهدين ، فما رؤي من أدنى الأمانة في حال حياته ، وقد ردها في مماته إلا هذا الرجل ، وكان ذلك في العشر الآخر من رجب أيضا .

ذكر حريق المنجنيقات

وذلك أن العدو كان نصب على البلد منجنيقات هائلة ، حاكمة على السور ، وأن حجارتها تواترت حتى أثرت في السور أثرا بينا ، وخيف من غائلاتها ، فأخذ سهمان من سهام الجرح العظيم ، فأحرق نصلهما حتى بقيا كالشعلة من النار ، ثم رميا في المنجنيق الواحد فعلقا فيه ، واجتهد العدو في إطفائهما فلم يقدر على ذلك ، وهبت ريح شديدة فاشتعل اشتعالا عظيما ، واتصلت لهبته بالآخر فأحرقتة ، واشتد ناراهما بحيث لم يقدر احد أن يقرب من مكانهما ليحتال في إطفائهما ، وكان يوما عظيما اشتد فيه فرح المسلمين ، وساءت عاقبة الكافرين .

ذكر تمام حديث ملك الألمان والحيلة التي عملها الماركيس

وكان من حديثه أنه بعد أن استقر قدمه في أنطاكية - يسر الله فتحها - أخذها من صاحبها وحكم فيها ، وكان بين يديه فيها ينفذ أوامره ، فأخذ قلعتها منه غيلة وخديعة ، وأودعها خزائنه ، وسار عنها في الخامس والعشرين من رجب متوجها نحو عكا في جيوشه وجموعه على طريق اللاذقية ، حتى أتى طرابلس ، وكان قد سار إليه من معسكر الأفرنج يلتقيه الماركيس صاحب صور ، وكان من أعظمهم حيلة وأشدهم بأسا وهو الأصل في تهيج الجموع من وراء البحر

وذلك أنه صور القدس في ورقة ، وصور فيه صورة القمامة التي يحجون إليها ويعظمون شأنها ، وفيه قبة قبر المسيح الذي دفن فيه بعد صلبه بزعهم ، وذلك القبر هو أصل حجهم ، وهو الذي يعتقدون نزول الذور عليه في كل سنة في عيد من أعيادهم ، وصور على القبر فرسا عليه فارس مسلم راكب عليه ، وقد وطىء قبر المسيح ، وبالفرس على القبر وأبدى هذه الصورة وراء البحر في الأسواق والمجامع ، والقسوس يحملونها ورؤوسهم مكشوفة ، وعليهم المسوح ، وينادون بالويل والثبور ، وللصور عمل في قلوبهم فإنها أصل بينهم ، فهاج بذلك خلق لا يحصى عددهم إلا الله ، وكان من جملتهم ملك الألمان وجنوده ، فلقبهم الماركيس لكونه أصلا في استدعائهم إلى هذه الواقعة ، فلما اتصل به قوى قلبه ونصره بالطرق ، وسلك به الساحل خوفا من أنه إذا أتى على بلاد حلب وحماة ثار بهم المسلمون من كل جانب ، وقامت عليهم كلمة الحق من كل صوب ، ومع ذلك لم يسلموا من شن الغارات عليهم فإن الملك المظفر قصدهم بعساكره ، وجمع لهم جموعا ، وهجم عليهم هجوما عظيما أخذ فيه من أطراف عساكره ، وكان قد لدقهم بأوائل

عسكره ، ولو لحقهم الملك الظاهر بعساكره لقضى عليهم ، ولكن (لكل أجل كتاب) (٢٤) واختلف حزر الناس لهم ، ولقد وقفت على كتب بعض المخبرين بالحرب ، فقد حزر فارسهم وراجلهم بخمسة آلاف ، بعد أن كانوا قد خرجوا على ما ذكر ، فانظر إلى صنع الله مع أعدائه ، ولقد وقفت على بعض الكتب فذكر فيه أنهم لما ساروا من اللاذقية يريدون جبلة وجدوا في أعقابهم نيفا وستين فرسا قد عطبت ، وانتزع لحمها ولم يبق فيها إلا العظام من شدة الجوع ، ولم يزالوا سائرين وأيدي المسلمين تخطفهم من حولهم نهبا وقتلا واسرا حتى أتوا طرابلس ، ووصل خبر وصوله بكرة الثلاثاء ثامن شعبان سنة ست وثمانين وخمسمائة ، هذا والسلطان ثابت الجاش راسخ القدم لا يردده ذلك عن حراسة عكا ، والحماية لها ، ومراصدة العسكر النازل بها ، وشن الغارات عليها ، والهجوم عليهم في كل وقت ، مفوضا أمره إلى الله معتمدا عليه منبسط الوجه لقضاء حوائج الناس ، مواصلا ببره من يقد إليه من الفقراء والفقهاء والمشايخ والأدباء ، ولقد كنت إذا بلغني هذا الخبر تأثرت حتى دخلت عليه وأجد منه من قوة النفس وشدة البأس ما يشرح صدري ، وأتيقن معه نصره الاسلام وأهله .

ذكر وصول البطس من مصر

ولما كان العشر الاوسط من شعبان كتب بهاء الدين قراقوش وهو والي البلد والمقدم على الاسطول والحاجب لؤلؤ يذكران السلطان انه لم يبق بالبلد ميرة الا قدر يكفي الى ليلة النصف من شعبان لا غير (فاسرها يوسف في نفسه ولم يبيدها) (٢٥) لخاص ولا لعام ، خشية الشيوع والبلوغ إلى العدو ، فتضعف به قلوب المسلمين ، وكان قد كتب إلى مصر بتجهيز ثلاث بطس مشحونة بالاقوات والادم والمير وجميع ما يحتاج اليه في الحصار ، بحيث يكفيهم ذلك طول الشتاء ، وأقلعت البطس الثلاث من الديار المصرية ، ولججت في

البحر تتوخى الذوتية بها الريح ، حتى ساروا بالريح التي تحملها الى نحو عكا ، ولم يزالوا كذلك حتى وصلوا الى عكا ليلة النصف من شعبان المذكور ، وقد فني الزاد ولم يبق عندهم ما يطعمون الناس في ذلك اليوم ، وخرج عليها أسطول العدو يقاتلها والعساكر الاسلامية تشهد ذلك من الساحل ، والناس في تهليل وتكبير ، وقد كشف المسلمون رؤوسهم يبتهلون الى الله تعالى في القضاء بتسليمها الى البلد والسلطان على الساحل كالوالدة الذكلى يشاهد القتال ، ويدعو ربه بنصره ، وقد علم من شدة القوم ما لم يعلمه غيره ، ما في قلبه ، والله يثبتته ، ولم يزل القتال يعمل حول البطس من كل جانب ، والله يدفع عنها ، والريح يشتد والأصوات قد ارتفعت من الطائفتين ، والدعاء يخرق الحجب ، حتى وصلوا سالمين الى ميناء البلد ، وتلقاهم أهل عكا ، تلقى الأمطار عن جذب ، وامتاروا ما فيها وكانت ليلة بليال ، وكان دخولها عصر يوم الاثنين رابع عشر شعبان المذكور ، من السنة المذكورة .

ذكر محاصرة برج الذبان

ما كان الثاني والعشرون من شعبان جهز العدو بطسا متعددة لمحاصرة برج الذبان ، وهو برج في وسط البحر مبني على الصخر ، على باب ميناء عكا ، يحرس به الميناء ، ومتى عبره المركب أمن غائلة العدو ، فأراد العدو أخذه ليبقى الميناء بحكمه ويمنع الدخول اليه بشيء .

من البطس ، فتقطع الميرة عن البلد ، فجعلوا على صواري البطس برجا وملأوه حطبا على أنهم يسIRON البطس ، فإذا قاربت برج الذبان ولاصقته ، أحرقوا البرج الذي على الصاري والصقوه ببرج الذبان ليلاقوه على سطحه ، ويقتل من عليه من المقاتلة ويأخذوه ، وجعلوا في البطسه وقودا كثيرا حتى يلقى في البرج إذا اشتعلت النار فيه ، وعبروا بطسه ثانية وملأوها حطبا ووقود على

أنهم يدفعون بها الى أن تدخل بين البطس الاسلامية ، ثم يلهبونها فتحرق البطس الاسلامية ، ويهلك ما فيها من الميرة ، وجعلوا في بطسة ثالثة مقاتلة تحت قبو بحيث لا يحصل لهم نشاب ولا شيء من آلات السلاح ، حتى إذا أحرقوا ما أرادوا إحراقه دخلوا تحت ذلك القبو فأمنوا وقدموا البطس نحو البرج المذكور ، وكان طمعهم يشتد حيث كان الهواء مصعدا لهم ، فلما أحرقوا البطسة التي أرادوا أن يحرقوا بها من على برج الذبان ، فأوقدوا النار وضربوا فيها النفط انعكس الهواء عليهم كما شاء الله تعالى وأرادوا اشتعلت البطسة التي كان بها بأسرها واجتهدوا في إطفائها فما قدروا وهناك من كان فيها من المقاتلة إلا من شاء الله ، واحتترقت البطسة التي كانت معدة لإحراق بطسنا ووثب أصحابنا عليها فأخذوها اليهم ، وأما البطسة التي كانت فيها القبو فإنهم انزعجوا وخافوا وهموا بالرجوع ، واختلّفوا واضطربوا اضطرابا عظيما ، فانقلبت وهناك جميع من كان بها لأنهم كانوا في قبو لم يستطيعوا الخروج منها ، وكان ذلك من أعظم آيات الله ، وأندر العجائب في نصره بين الله ، وكان يوما مشهودا

ذكر وصول الألمان الى عسكرهم المخذول

عدنا الى حديث ملك الألمان ، وذلك أنه أقام بطرابلس حتى استجم عسكره ، وأرسل الى النازلين على عكا يخبرهم بقدومه اليهم ، وقد حموا من ذلك لأن المركيس صاحب صور هو رب مشورته وصاحب دولته ، وكان الملك كي وهو ملك الساحل بالعسكر وهو الذي يرجع اليه في الأمور فعلم أنه مع قدوم الألماني لا يبقى له حكم ، ولما كان العشر الآخر من شعبان أزمع رأيته على المسير في البحر لعلمه أنه إن لم يركب البحر نكب ، وأخذت عليه الطريق ، والمضايق ، فأعدوا المراكب وأنفنت إليه من كل جانب ونزل فيها هو وعسكره وخيلهم وعدتهم ، وساروا يريدون العسكر

فلم تمض إلا ساعة من النهار حتي قامت عليهم ريح عاصف ، وثار عليهم الموج من كل مكان ، وأشرفوا على الهلاك ، وهلك منهم ثلاثة مراكب حمالة ، وعاد الباقيون يرصدون هواء طيبا فأقاموا أياما حتي طابت لهم الريح ، وصاروا حتي أتوا صور ، فأقام المراكيس والالمانى بها وأنفذوا بقية العساكر الى المعسكر النازل في عكا ، وأقاما بصور الى ليلة السادس من رمضان ، وسار الالمانى وحده في البحر حتي وصل معسكرهم غروب الشمس من ذلك اليوم في نفر يسير ، هكذا أخبر الجواسيس والمستأمنون عنهم ، واقد كان لقدمه وقع عظيم من الطائفتين ، وأقام أياما ، وأراد أن يظهر لمجيئه أثر فوبخ القوم على طول مقامهم ، وحسن في رأيه أن يضرب مصاف مع المسلمين ، فخوفوه من الاقدام على هذا الامر وعاقبته ، فقال لابد من الخروج على اليك ليذوق قتال القوم ، ويعرف مراسهم ، ويتبصر بامرهم فليس الخبر كالعيان ، فخرج على اليك الاسلامي ، واتبعه معظم الافرنج راجلهم وفارسهم وخرجوا حتي قطعوا الوطأة التي بين تلهم وتل العياضية ، وعلى تل العياضية خيم اليك ، وهي نوبة الحفلة السلطانية المنصورة في ذلك اليوم ، فوقفوا في وجوههم وقاتلوهم واذاقوهم طعم الموت ، وعرف السلطان ذلك ، فركب من خيمه بجدفلة وسار حتي أتى تل كيسان ، فلما رأى العدو العساكر الاسلامية صوبت نحوه سهام قصدها ، وأتته من كل جانب كقطع من الليل المظلم ، عاد ناكصا على عقبه ، وقتل منهم وجرح خلق كثير والسيف يعمل فيهم من أقفيتهم ، وهم هاربون حتي وصلوا المخيم غروب الشمس وهو لا يعتقد سلامة نفسه من شدة خوفه ، وفصل الليل بين الطائفتين ، وقتل من المسلمين اثنان ، وجرح جماعة كثيرة ، وكانت الكسرة على اعداء الله ، ولما عرف ملك الالمان ما جرى عليه وعلى أصحابه من اليك الذي هو شرذمة من العسكر ، وهو جزؤ من كل رأى أن يرجع الى قتال البلد ، ويشغل بمضايقته ، فاتخذ من الآلات العجيبة والصنائع الغريبة ما هال الناظر إليه من شدة الخوف على البلد ، واستشعر أخذ البلد من تلك الآلات وخيف منها عليه ، فأحدثوا آلة عظيمة

تسمى دبابة يدخل تحتها من المقاتلة خلق عظيم ملبسة بصفائح الحديد ، ولها من تحتها عجل تحرك به من داخل وفيها من المقاتلة حتى ينطح بها السور ، ولها رأس عظيم برقبة شديدة من حديد ، وهي تسمى كبشا ينطح بها السور بشدة عظيمة لأنه يجرها خلق عظيم فتهدمه بتكرار نطحها ، وآلة أخرى وهي قبو فيه رجال يسحب كذلك ، إلا أن رأسها محدد على شكل السكة التي يحرث بها ، ورأس البرج مدور وهذا يهدم بثقله وتلك تهدم بحدتها وثقلها ، وهي تسمى سنورا ، ومن الستائر والسلالم الكبار الهائلة ، وأعدوا في البحر بطسة هائلة وضربوا فيها بـرجا بخرطوم ، إذا أرادوا قلبه على السور انقلب بالحركات ويبقى طريقا إلى المكان الذي ينقلب عليه ، تمشي عليه المقاتلة ، وعزموا على تقريبه إلى برج الذبان ليأخذه به .

ذكر حريق برج الكبش وغيره من آلات

وذلك أن العدو لما رأى آلاته قد تمت واستكملت ، شرع في الزحف على البلد ومقاتلته من كل جانب ، وأهل البلد كلما رأوا ذلك اشتدت عزائمهم في نصره بين الله وقويت قلوبهم على المصابرة ، ولما كان يوم الاثنين ثالث شهر رمضان من السنة المذكورة ، وهو الذي قدمت فيه عساكر الشام .

ذكر قدوم الملك الظاهر

فقدم الملك الظاهر ولده -صاحب حلب المحروسة - بجحفه وعسكره ، وهو من كبار أولاده ومقدميهم ومهذبيهم ، وهو يعتمد عليه في كثير من أموره ، قدم في عشية ذلك اليوم وحده مثابرة على خدمة والده ومعاجل في أمره ، ثم كر عاد حتى لقي عسكره ، وقدم

معهم بكرة الثلاثاء يرتب أطلابه ويهذبها ، ففرح بمقدمه وسر به سرورا عظيما ، رضاء عنه بما رتب وجمع من العساكر والجحافل ، وقدم في ذلك اليوم سابق الدين - صاحب شيزر - وعز الدين بن المقدم ، ومجد الدين - صاحب بعلبك - وخلق عظيم من عساكر المسلمين ، قدموا في أحسن زي وأجمل ترتيب ، وأكمل عدة في ذلك اليوم .

وكان السلطان الثالث مزاجه الكريم بحمى صفراوية فركب في ذلك اليوم ، وكان عيدا من وجوه متعددة ، وفي ذلك اليوم زحف العدو على البلد في خالق لا يحصى عندهم إلا الله ، فأهملمهم أهل البلد وشجعان المقاتلة الذين فيه وذووا الآراء المثقفة من مقدمي المسلمين حتى نشبت مخالب أطماعهم في البلد ، وسحبوا الاتهم المذكورة حتى قاربوا أن يلصقوها بالسور ، وتحصن منهم في الخندق جماعة عظيمة وأطلقوا عليهم سهام الجروح وأحجار المنجنيق وأقواس الرمي والنيران ، وصاحوا عليهم صيحة الرجل الواحد ، وفتحوا الأبواب وباعوا نفوسهم لخالقها وبارئها ، ورضوا بالصفقة الموعود بها ، وهجموا على العدو من كل جانب ، وكبسوهم في الخنادق وأوقع الله الرعب في قلب العدو ، وأعطى ظهره للهزيمة وأخذوا مشتين هارين ، على أعقابهم ناكسين ، يطلبون خيامهم والاحتماء بأسوارهم لكثرة ما شاهدوا وذاقوا من الجرح والقتل ، وبقي في الخندق خلق عظيم وقع فيه السيف وعجل الله بأرواحهم إلى النار .

ولما رأى المسلمون ما نزل بالعدو من الخذلان والهزيمة ، هجموا على كبشهم فألقوا فيه النار والذفط ، وتمكنوا من حريقه فأحرقوه حريقا شنيعا ، وظهرت له لهبة عظيمة نحو السماء وارتفعت الأصوات بالتكبير والتهليل والشكر للقوي الجليل ، وسرت نار الكبش بقوتها إلى السذور فاحترق ، وعلق المسلمون في الكبش الكلاب الحديبية المصنوعة في السلاسل فسحبوه وهويشتعل حتى حصلوه عندهم في البلد ، وكان مركبا من آلات هائلة عظيمة ألقى

الماء عليه حتى برد حديدته بعد أيام ، وبلغنا من اليزك أن وزن ما كان عليه من الحديد يبلغ مائة قنطار بالشامي ، والقنطار مائة رطل والرطل الشامي بالبغدادي أربعة أرطال وربيع رطل ، ولقد أنفذ رأسه الى السلطان ومثل بين يديه وشاهدته وقلبتة ، وشكله على مثل السفود الذي يكون بحجر المدار قيل إنه ينطح به فيهدم ما يلاقه ، وكان ذلك من أحسن أيام الاسلام ، ووقع على العدو خذلان عظيم ، ورفعوا ما سلم من آلاتهم ، وسكنت حركاتهم التي ضيعوا فيها نفقاتهم ، وتحيرت أبصار حيلهم ، واستبشر السلطان بغرة ولده واستبرك بها حيث وجد النصر مقرونا بقدمه مرة أخرى ، وثانية بعد أولى

ولما كان يوم الأربعاء الخامس عشر رمضان خرج أصحابنا من الثغر المحروس في شوان على بغتة من العدو ، وضربوا البطسة المعدة لأخذ برج الذبان بقوارير نبط فاحتترقت ، وارتفع لهيبها في البحر ارتفاعا عظيما ، واشتبكت الأصوات بالتهليل والتكبير وكف الله شرمها (ورد الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا) (٣٦) وحن الألمان كذلك حزنا شديدا ، وغشيتهم كآبة عظيمة ، ووقع عليهم خذلان عميم .

ولما كان يوم الخميس السادس عشر الشهر وصل كتاب طائر في طي كتاب وصل من حماه ، قد طاربه الطائر من حلب يذكر فيه أن البرنس صاحب أنطاكية خرج بعسكره نحو القرى الاسلامية التي تليه لشن الغارات عليها ، فبصرت به العساكر ، ونواب الملك الظاهر ، فكمننت له الكمينات فلم يشعر بهم إلا والسيف قد وقع فيهم ، فقتل منهم خمسة وسبعون نفرا ، وأسر خلق عظيم ، واستعصم بنفسه في موضع يسمى شيحا ، حتى اندفعوا وسار الى بلده .

وفي أثناء العشر الاوسط ألقت الريح بطستين فيهما رجال وصبيان ونساء وميرة عظيمة وغنم كثيرة ، قاصدين نحو العدو

فغزها المسلمون ، وكان العدو قد ظفر منا بزورق فيه نفقة ورجال أرادوا الدخول الى البلد ، فأخذوه فوق الظفر بهاتين البطستين ماحيا لذلك وجابرا لها ، ولم تزل الأخبار بعد تتواصل على السنة الجواسيس والمستأمنين أن العدو قد عزم على الخروج الى العسكر الاسلامي خروج مصاف ومنافسة ، والثالث مزاج السلطان بحمى صفراوية ، فاقضى الحال تأخر العسكر الى جبل شفرعم ، وكان انتقاله التاسع عشر رمضان ، فنزل السلطان على أعلى الجبل ، ونزل الناس على رؤوس التلال للاستعداد للاشتاء والاستراحة من الوحل ، وفي ذلك اليوم مرض زين الدين يوسف بن زين الدين صاحب إربل مرضا شديدا بحميتين مختلفتي الأوقات ، واستأنن في الرواج ، فلم يؤنن له ، فاستأنن في الانتقال الى الناصرة ، فأنن له في ذلك اليوم وأقام بالناصرة أياما عديدة يمرض نفسه فاشتد به المرض الى ليلة الثلاثاء ثامن عشرين رمضان وتوفي رحمه الله ، وعنده أخوه مظفر الدين يشاهده ، وحزن الناس عليه لما كان شبابه وغربته ، وأنعم السلطان على أخيه مظفر الدين ببلده ، واستنزله عن بلاده التي كانت في يده ، وهي حران والرها وما يتبعهما من البلاد والأعمال وضم اليه بلد شهر زور أيضا واستدعى الملك المظفر تقي الدين عمر ابن أخيه شاهنشاه ليكون نازلا مكانه ، جابرا لخلل غيبته ، وأقام مظفر الدين في نظرة قدوم تقي الدين ، ولما كان ضحاء نهار ثالث شوال قدم وقد عاد صحبة معز الدين .

ذكر قصة معز الدين

وهذا معز الدين هو سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود ابن زنكي ، وهو صاحب الجزيرة اذ ذاك ، وكان من قصته أنه حضر للجهاد ، وقد ذكرت تاريخ وصوله ، وأنه أخذ منه الضجر والسامة والقلق بحيث ترددت رساله ورقاعه الى السلطان في طلب الدستور ، والسلطان يعتذر اليه بأن رسل العدو متكررة في معنى

الصلح ، ولا يجوز أن تذفض العساكر حتى تتميز على ماذا ينفصل الحال من سلم أو حرب ، وهو لا يألوا جهدا في طلب الدستور الى أن كان يوم عيد الفطر من سنة ست وثمانين ، وحضر سحر ذلك اليوم في باب الخيمة السلطانية ، فاستأنن في الدخول ، فاعتذر اليه بالتيات كان قد عرى مزاج السلطان ، فلم يقبل العذر ، وكرر الاستئذان ، فأنن له في الدخول ، فلما مثل بالخدمة استأنن في الرواح شفاها ، فذكر له السلطان العذر بذلك ، وقال بهذا وقت تقدم العساكر وتجمعها لا وقت تفرقها ، فانكب على يده وقبلها كالودع له ونهض من ساعته وسار وأمر أصحابه أن ألقوا القدرور فيها الطعام ، وقلعوا الخيم وتبعوه ، فلما بلغ السلطان صنيعة أمر بإنشاء مكاتبة إليه يقول فيها: « إنك أنت قصدت الانتماء إلي ابتداء ، وراجعتني في ذلك مرارا ، وأظهرت الخيفة على نفسك وقلبك وبلدك من أهلك ، فقبلتك وأويتك ونصرتك ، وبسطت يدك في أموال الناس ودمائهم وأعراضهم ، فأنفذت اليك ونهيتك عن ذلك مرارا فلم تنته ، واتفق وقوع هذه الواقعة للإسلام فدعوناك فأتييت بعسكر قد عرفته وعرفه الناس، وأقمت هذه المدة المديدة ، وقلقت هذا القلق فانظر لنفسك وإبصر من تنتمي اليه غيري ، واحفظ نفسك ممن يقصدك فمالي الى جانبك التفات » وسلم الكتاب الى نجاب ، فلحقه قريبا من طبرية ، فقرأ الكتاب ولم يلتفت وسار على وجهه ، وكان الملك المظفر تقي الدين قد استدعي الى الغزاة بسبب حركة مظفر الدين ، على ما سبق شرحه ، فلقيه في الطريق في موضع يسمى عقبة فيق ، فراه محثا ولم ير عليه امارات حسنة ، وسأله عن حاله فأخبره بأمره وتعتب على السلطان كيف لم يخلع عليه، ولم يأنن له ، ففهم الملك المظفر انفصاله من غير دستور من السلطان وأنه على خلاف اختياره ، فقال له المصلحة لك أن ترجع الى الخدمة وتسلزم الى أن يأنن لك ، وأنت صبي ولم تعلم غائلة هذا الأمر ، فقال : ما يمكنني الرجوع ، فقال : ترجع عن غير يد فليس في الرواح على هذا الوجه لك راحة أصلا ، فأصر على الرواح فخشي عليه ، وقال : ترجع من غير اختيارك ، وكان تقي الدين شديد البأس مقداما على الأمور ليس في عينه من أحد شيء ، فلما علم أنه

قابضه إن لم يرجع باختياره رجع معه حتى أتى العسكر ، وخرج الملك العادل ونحن في خدمته الى لقاء الملك المظفر ، فوجدناه معه فدخلا به على السلطان وسألاه الصفح عنه ، وطلب أن يقيم في جوار تقي الدين خشية على نفسه ، فأذن له فأقام في جواره الى حين نهايه .

ذكر طلب عماد الدين الدستور

وذلك أن عماد الدين زكي عم المذكور ألح في طلب الدستور ، وشكا هجـوم الشتاء عليه مع عدم الاستعداد له ، والسلطان يعتذر اليه بأن الرسل متواترة بيننا وبين العدو في الصلح ، وربما انتظم فينبغي أن يكون انتظامه بحضوركم ، فالرأي مشـترك ، وأسـتأذن في أن يحمل اليه خيام الشتاء فلم يفعل ، وتكررت منه الرسل الى السلطان في المعنى ، والسلطان يكرر الاعتذار ، ولقد كنت بينهم في شيء من ذلك ، وكان عند عماد الدين من العزم على الرواح ما يجاوز كل وصف ، وعند السلطان من إمساكه الى أن يفصل أمر بيننا وبينهم مالا يحد ، وآل الأمر الى أن يكتب عماد الدين بخطه ، ويطلب فيه الآن في الرواح وتلين فيها وتخشن ، فأخذها السلطان وكتب في ظهرها بيده الكريمة : من ضيع مثلي من يده ، فليت شعري ما استفاد ، فوقف عماد الدين عليها وانقطعت مراجعته بالكلية .

ذكر خروج العدو الى رأس الماء

وتواترت الأخبار بضعف العدو ، ووقوع الغلاء في بلادهم وعسكرهم حتى أن الفرارة من القمح بلغت في أنطاكية ستة وتسعين دينار صورية ، ولا يزددهم ذلك الا صبرا وإصرارا وعنادا ، ولما

ضاق بهم الأمر وعظم الغلاء وخرج منهم خلق عظيم مستأمنين من شدة الجوع ، عزموا على الخروج إلينا ، وكان طمعهم بسبب مرض السلطان ، فظنوا أنه لا يستطيع النهوض ، وكان خروجهم يوم الاثنين حادي عشر شوال بخيلهم ورجلهم حاملين أزوادا وخياما إلى الآبار التي استحدثها المسلمون تحت تل الحجل لما كانوا نزولا عليه وأخذوا عليق أربعة أيام ، فأخبر رحمه الله بخروجهم على هذا الوجه ، فأمر اليزك أن يتراجع من بين أيديهم إلى تل كيسان ، وكان اليزك على العياضية وكان نزول العدو على الآبار بعد صلاة العصر من اليوم المذكور ، وباتوا تلك الليلة واليزك حولهم جميع الليل ، فلما طلع الصبح جاء من اليزك من أخبره بأنهم قد تحركوا للركوب ، وكان قد أمر الثقيل في أول الليل أن يسيروا إلى الناصرة والقيمون ، فرحل الثقيل ، وبقي الناس ، وكنت في جملة من أقام في خدمته ، وأمر العسكر أن يركب ميمنة وميسرة وقلبا تعبئة القتال ، وركب هو وصاح الجاويش بالناس فركبوا ، وسار حتى وقف على تل من جبال الخروبة ، وابتدأت الميمنة بالأسير فسارت حتى بلغ آخرها الجبل وسارت الميسرة حتى بلغ آخرها النهر بقرب البحر ، فكان في الميمنة ولده الملك الأفضل صاحب دمشق ، وولده الملك الظاهر صاحب حلب ، وولده الظافر صاحب بصرى ، وولد عز الدين صاحب الموصل ، والطواشي قايماز النجمي ، وعز الدين جريدك النوري ، وحسام الدين بشاره صاحب بانياس ، وبدر الدين دلدرد ، وجمع كثير من الأمراء ، وكان في الميسرة عماد الدين زنكي صاحب سنجار ، وابن أخيه معز الدين صاحب الجزيرة ، وفي طرفها الملك المظفر تقى الدين ابن أخيه ، وكان عماد الدين زنكي غائبا مع الثقيل لمرض كان ألم به ، وبقي عسكره ، وكان في الميسرة سيف الدين على المشطوب ، وجميع المهرانية والهكارية ، وخشترين وغيرهم من الأمراء الأكراد ، وفي القلب الحاقة السلطانية ، وتقدم السلطان أن يخرج من كل عسكر جمع من الجاليش ، وأن يدوروا حول العسكر واليزك معهم ، وأخفى بعض الأطلاب وراء التل ، عساهم أن يجدوا غرة من العدو ، ولم يزل عدو الله يسير ، والناس من جميع

جوانيه ، وهو سائر على شاطئ النهر من الجانب الشرقي حتي رأس العين ، وداروا حوله ، حتى عبروا الجانب الغربي ، ونزلوا والقتال يتلقف منهم الأبطال ، ويصرع منهم الرجال ، وكان نزولهم على تل هناك وضربوا خيامهم هناك ممتدة منه الى النهر ، وجرح منهم في ذلك اليوم خلق عظيم ، وقتل منهم أيضا جماعة ، وكانوا إذا جرح واحد منهم حملوه أو قتل دفنوه ، وهم سائرون حتي لا يبين قتيل ولا جريح وكان نزولهم يوم الثلاثاء بعد الظهر ، وتراجعت العساكر الى مواطن المصابرة ، ومواقف الحراسة ، وتقدم السلطان الى الميسرة أن تستدير بهم بحيث يقع آخرها على البحر واليمين تستدير بالنهر من الجانب الشرقي ، والجاليش يقاتلهم بقربهم ويرميهم بالذشاب بحيث لا يذقطع الذشاب عنهم أصلا ، وبات الناس تلك الليلة على هذا المثال ، وسار هو ورحمه الله ونحن في خدمته الى رأس جبل الخروبة ، فنزل في خيمة لطيفة ، والناس حوله في خيم لطاف بمراى من العدو ، واخبار العدو تتواصل اليه ساعة فساعة الى الصبح ، ولما كان الصبح في يوم الأربعاء ثالث عشر شوال ، وصل من أخبر أنهم تحركوا للركوب فركب هو ورتب الأطلاب ، وسار حتى أتى أقرب جبال الخروبة إليهم بحيث يشاهد أحوالهم ، وكان رحمه الله ملثا المزاج ضعيف القوى ، وأمر الأطلاب أن تحيط بهم بحيث لا تكون قريبة ولا بعيدة لتكون وراء المقاتلة الى أن تضاحى النهار ، وسار العدو إلى شاطئ النهر من الجانب الغربي يطلب جهة خيمه ، والقتال يشتد عليهم من كل جانب إلا من جانب النهر ، والتحم القتال فصرع منهم خلق عظيم ، وهم يدفنون قتلاهم ، ويحملون جرحاهم ، وقد جعلوا رجالتهم سورا لهم تضرب الناس بالزنبورك والذشاب حتى لا يترك أحد يصل إليهم إلا بالذشاب فإنه كان يطير إليهم كالجراد ، وخیالتهم يسيرون في وسطهم ، بحيث لم يظهر منهم أحد في ذلك اليوم أصلا ، والكوسات تخفق والبوقات تنعر ، والأصوات بالتهليل والتكبير تعلو ، هذا والسلطان يمد الجاليش بالأطلاب ، والعساكر التي عنده حتى لم يبق معه إلا نفر يسير ، ونحن نشاهد الأحوال ، وعلم العدو مرتفع

على عجلة هو مغروس فيها وهي تسحب بالبغال ، وهم يذبون عن العلم ، وهو عال جدا كالمنارة خرقة بياض ملمع بأحمر على شكل الصليبان ، ولم يزالوا سائرين على هذا الوجه حتى وصلوا وقت الظهر قبالة جسر دعوق ، وقد أجمعهم العطش ، وأخذ منهم التعب ، وأثخنهم الجراح ، واشتد الأمر بهم من شدة الحر ، ولقد قاتل المسلمون في ذلك اليوم قتالا شديدا ، وأعطوا الجهاد حقه ، وهجموا عليهم هجوما عظيما واستداروا بهم كالحلقة ، وهم لا يظهرون من رجالتهم ولا يحملون وكان الفعل معظمه للحقلة في ذلك اليوم ، فإنهم أذاقوهم طعم الموت ، وجرح منهم جماعة كاياز الطويل فإنه قام في تلك الحرب العظيمة اعظم مقام ، وجرح جراحات متعددة ، وهو مستمر على القتال ، وجرح سيف الدين يازكوج جراحات متعددة ، وهو من فرسان الاسلام وشجاعته ، وله مقامات متعددة وجرح خلق كثير ، ولم تزل الناس حولهم حتى نزلوا ظهر نهار ذلك اليوم عند جسر دعوق ، وقطعوا الجسر ، وأخربوه خوفا من عبور الناس إليهم ، ورجع السلطان الى تل الخروبة وأقام عليهم يزكا يحرسهم ، وأخبارهم تتواتر حتى الصباح ، وعزم في تلك الليلة على كبس بقيتهم وكتب الى البلد يعرفهم ذلك حتى يخرجوا هم من ذلك الجانب فلم يصل من أهل البلد كتاب ، فرجع عن ذلك العزم بسبب تأخر الكتاب ، ولما كان صباح الخميس رابع عشر الشهر وصل من أخبر أن العدو على حركة الرحيل ، فركب السلطان ورتب الأطلاب ، وكف الناس عن القتال خشية أن يفتالوا فان العدو كان قد قرب من خيمه وأداروا الأطلاب في الجانب الشرقي من النهر تسير قبالة العدو حتى وصل الى خيمه ، وكان ممن خرج من مقدميهم في هذه السرية الكندهري والمركيس وتخلف ابن ملك الألمان في الخيم مع جمع كثير منهم .

ولما دخل العدو الى خيمهم كان لهم فيها أطلاب ، مستريحة ، فخرجت الى اليك الاسلامي وحملت عليه ونشب القتال بين اليك وبينهم ، وجرى قتال عظيم قتل فيه من العدو وجرح خلق عظيم ، وقتل من المسلمين ثلاثة نفر ، وقتل من

العدو شخص كبير فيهم مقدم عليهم ، وكان على حصان عظيم
ملبس بالزرد الى حافره ، وكان عليه لباس لم ير مثله وطلبوه من
السلطان بعد انفصال الحرب فدفع اليهم جنته ، وطلب رأسه فلم
يوجد ، وعاد السلطان الى مخيمه ، وأعاد الذقل إلى مكانه وعاد كل
قوم إلى منزلتهم ، وعاد عماد الدين ، وقد أقلعت حماه ، وبقي
التياب مزاج السلطان ، وقد كان سبب سلامة هذه الطائفة مع كونه
لا يقدر على مباشرة الامر بنفسه ، ولقد رأيت وهو يبكي في حال
الحرب كيف لم يقدر على مخالطته ، ورأيت وهو يأمر أولاده واحدا
بعد واحد بمكافحة الامر ، ومخالطة الحرب ، ولقد سمعت منه
وقائل يقول : إن الوخم قد عظم في مرج عكا بحيث أن الموت قد كثر
في الطائفتين ، يذشد متمثلا .

أقتلاني وما لك

واقطلا مالكا معي

يريد بذلك أنني قد رضيت أن أتلف إذا تلف أعداء الله ، وحدث بذلك
قوة عظيمة في نفوس العسكر الاسلامي

ذكر وقعة الكمين

وفي الثاني والعشرين من شوال رأى السلطان أن يضع للعدو
كمينا ، وقوي عزمه على ذلك ، فأخرج جمعا من كمأة العساكر
وشجعانه وأبطاله وفرسانه ، وانتخبهم من خلق كثير ، وأمرهم أن
يسيروا في الليل ويكمنوا في سفح تل هو شمالي عكا بعيد من عسكر
العدو ، وعنده كانت منزلة الملك العادل حين وقعت الواقعة المذسوبة
إليه ، وأن يظهر منهم للعدو نفر يسير ، وأن يقصدوه في خيمه
ويحركوه حتى إذا خرج انهزموا بين يديه نحو المسلمين ، ففعلوا

ذلك وساروا حتى أتوا القل المذكور ليلا فكمضوا فيه ، ولما تجلى نهار الثالث والعشرين خرج منهم نفر يسير على جياد من الخيل ، وساروا حتى أتوا مخيم العدو ورموهم بالذشاب وحركوا حميتهم بالضرب المتواتر فانتخى لهم مقدار مائتي فارس ، وخرجوا إليهم شاكي السلاح على خيل جياد بعدة تامة وأسلحة كاملة وقصدوهم وليس معهم أحد راجل ، وداخلهم الطمع فيهم لقلّة عدتهم ، فانهزموا بين أيديهم وهم يقاتلونهم ويقتلون حتى أتوا الكمين فثارت عند وصولهم الأبطال وصاحوا صيحة الرجل الواحد ، وهجموا عليهم هجمة الأسود على فرائسها ، فثبّتوا وصبروا بالسيف حتى أفنوا منهم جمعا عظيما واستسلم الباقون للأسر ، فأسروهم وأخذوا خيلهم وعندهم ، وجاء البشير الى العسكر الاسلامي ، فارتفعت الاصوات بالتهليل والتكبير ، وركب السلطان يتلقى المجاهدين وسار وكنت في خدمته حتى أتى تل كيسان ، فلقينا أوائل القوم ، فوقف هناك يتلقى العائنين من المجاهدين ، والناس يتبركون بهم ويشكرونهم على حسن صنيعهم ، وهو يعتبر الأسرى ويتصفح أحوالهم ، وكان ممن أسر مقدم عسكر الأفرنسييس ، فإنه كان قد أنفذ نجدة قبل وصوله ، وأسر خازن الملك أيضا ، وعاد السلطان بعد تكامل الجماعة الى مخيمه فرحا مسرورا ، وأحضر الأسرى عنده ، وأمر منابيا ينادي من أسر أسيرا فليحضره ، فأحضر الناس أسراهم ، وكنت حاضرا ذلك المجلس ، ولقد أكرم المقدمين منهم وخلع عليهم وعلى مقدم عسكر الأفرنسييس فروة خاص ، وأمر لكل واحد من الباقين بفروة خرجية ، فإن البرد كان شديدا وكان قد أخذ منهم وأحضر لهم طعاما أكلوه ، وأمر لهم بخيمة تضرب قريبا من خيمته وكان يكارمهم في كل وقت ، ويحضر المقدم على الخوان في بعض الاوقات ، وأمر بتقييدهم وحملهم الى دمشق فحملوا مكرمين ، وأنن لهم في أن يراسلوا صاحبهم وأن يحضروا لهم من عسكرهم ما يحتاجون اليه من الثياب وغيرها ، ففعلوا ذلك ، وساروا الى دمشق .

ذكر عود العساكر عن الجهاد

ولما هجم الشتاء ، وهاج البحر ، وأمن العدو أن يضرب مصاف وأن يبالغ في طلب البلد وحصاره من شدة الأمطار وتواترها ، أنن السلطان للعساكر في العود الى بلادهم ليأخذوا نصيبا من الراحة ، وتجم خيولهم الى وقت العمل ، وكان أول من سار عماد الدين صاحب سنجار لما كان عنده من القلق في طلب الدستور ، وكان مسيره خامس عشري شوال ، وسار عقبه في ذلك اليوم ابن أخيه سنجر شاه صاحب الجزيرة ، هذا بعد أن أفيض عليهما من التشريف والانعام والتحف ما لم ينعم به على غيرهما ، وسار علاء الدين ابن صاحب الموصل في مستهل ذي القعدة مشرفا مكرما معه التحف والطرائف ، وتأخر الملك المظفر الى أن دخلت سنة سبع وثمانين ، وتأخر أيضا الملك الظاهر ، وسارتاسع المحرم سنة سبع وثمانين ، وسار الملك المظفر في ثالث صفر ، ولم يبق عند السلطان إلا نفر يسير من الأمراء والحلقة الخاصة .

وفي أثناء ذي القعدة سنة ست وثمانين وقد عليه زلقندار فتلقاه وأكرم مثواه ، ووضع له طعاما يوم قدومه وبأسطه مباسطة عظيمة وكانت حاجته أن يوقع له بإعادة أملاك كانت في يده ثم انتزعت من أعمال نصيبين والخابور ، فوقع بإعادتها الى يده وأجراء الأمر فيها بعد ذلك على وفق الشريعة المطهرة ، وخلع عليه وشرفه ، وسار فرحا مسرورا شاكرا لأيايه

ذكر ارتحال السلطان لإخخال البديل الى البلد

ولما هاج البحر وأمنت غائلة مراكب العدو ، ورفع ما كان له من الشواني في البحر الى البر اشتغل السلطان في إخخال البديل الى عكا وحمل البر والنخائر والنفقات والعدد إليها وإخراج من كان بها من

الأمراء لعظم شكايتهم من طول المقام بها ، ومعاناة التعب والسهر ، وملازمة القتال ليلا ونهارا وكان مقدم البديل الداخل من الأمراء الأمير سيف الدين على المشطوب دخل سادس عشر المحرم

سنة سبع وثمانين وفي ذلك اليوم خرج المقدم الذي كان بها وهو الأمير حسام الدين أبو الهيجاء وأصحابه ومن كان بها من الأمراء وأعيان من الخلق ، وتقدم الى كل من دخل أن يصحب ميرة لسنة ، وانتقل الملك العادل بعسكره الى حيفا على شاطئ النهر ، وهو الموضع الذي تحمل منه المراكب فتدخل الى البلد ، وإذا خرجت تخرج اليه ، فأقام ثم يحدث الناس على الدخول ويحرس المير والنخائر لئلا يتطرق إليها من العدو من يعترضها ، وكان مما دخل إليها سبع بطس مملوءة ميرة ونخائر ونفقات كانت وصلت من مصر محملة ، وتقدم السلطان بتعبيتها من مدة مديدة ، وكان دخولها ثاني ذي الحجة من السنة الخالية ، فاندكسر منها مركب على الصخر الذي هو قريب من الميناء ، فاندقلب كل من البلد من المقاتلة لتلقي البطس ، ولما علم العدو ذلك أخذوا غرتهم وزحفوا الى البلد في جانب البر زحفة عظيمة ، وقاربوا الاسوار وصعدوا في سلم واحد فاندق بهم السلم كما شاء الله تعالى ، وتداركهم أهل البلد فقتلوا منهم خلقا عظيما ، وعادوا خائبين خاسرين ، وأما البطس فإن البحر هاج هياجا عظيما وضرب بعضها على الصخر فهلكت وهلك جميع من كان فيها ، قيل كان عددهم ستين نفرا ، وكان فيها ميرة عظيمة لو سلمت كفت البلد سنة كاملة ، وذلك بتقدير العزيز العليم ، وبذل على المسلمين بذلك وهن عظيم وأخرج السلطان بذلك حرجا عظيما ، فاستخلف ذلك في سبيل الله تعالى (وما عند الله خير وأبقى) (٢٨) وكان ذلك أول علامات أخذ البلد والظفر به .

ولما كانت ليلة السبت سابع ذي الحجة من السنة الخالية قضى الله وقدر أن وقع من السور قطعة عظيمة فوقعت بثقلها على الباشورة فهدمت أيضا منها قطعة عظيمة ، وهي العلامة الثانية ، وقد أخذ العدو الطمع وهاج الزحف هياجا عظيما وجاءوا

الى البلد كقطع الليل المدلهم من كل جانب ، فتحايا الناس في البلد وثارت همهم ، فقتلوا من العدو وجرحوا خلقا عظيما وقتلواهم قتالا شديدا حتى ضرسوا وأيسوا من أن ينالوا خيرا ، فوقفوا كالسد في موضع القطعة الواقعة ، وجمعوا جميع من في البلد من البنائين والصناع ، ووضعوهم في ذلك الموضع ، وحموهم بالنشاب والجروح والمناجيق ، فما مرت إلا ليال يسيرة حتى انتظمت ، وعاد بناؤها أحسن مما كان وأقوى وأتقن ، والحمد لله .

ذكر الظفر بمراكب العدو

وكان قد استأمن من الفرنج خلق عظيم ، أخرجهم الجوع إلينا وقالوا للسلطان : نحن نخوض البحر في براكيس وبطس الى العدو ويكون الكسب بيننا وبين المسلمين ، فأذن لهم في ذلك وأعطاهم بركوسا ، وهو المركب الصغير ، فركبوا فيه وظفروا بمراكب للتجار من العدو ، وهي قاصدة الى عسكرهم وبضائعهم معظمها فضة مصوغة وغير مصوغة ، فوقع عليها البركوس وقتلواهم حتى أخذوهم واكتسبوا منهم مالا عظيما وأسروهم ، وأحضروهم بين يدي السلطان ، وذلك في ثالث عشر ذي الحجة من السنة المذكورة ، ولقد كنت حاضرا ذلك المجلس وكان من جملة ما أحضره مائدة فضة وعليها مكبة مخرمة من فضة ، فأعطاهم السلطان الجميع ، ولم يأخذ منهم شيئا ، وفرح المسلمون بنصر الله عليهم بأيديهم .

ذكر موت ابن ملك الألمان

وذلك أن العدو لما دخل الشتاء عليهم ، وتواترت الأنداء ، واحتالفت الأهواء وخم المرج وخما عظيما ، وقع فيهم

بسبب ذلك موتان عظيم ، وانضم الى ذلك الغلاء الزائد ، وانسد عليهم البحر الذي كان يجيئهم منه المير من كل جانب وكان يموت منهم كل يوم المائة والمائتان على ما قيل وقيل أكثر من ذلك ، ومرض ابن ملك الألمان مرضاً عظيماً ، وعرض له مع ذلك مرض الجوف ، فهلك به في الثاني والعشرين من ذي الحجة سنة ست وثمانين ، وحزن الأفرنج عليه حزناً عظيماً ، وأشعلت له نيران هائلة بحيث لم يبق له خيمة إلا وأشعلت فيها الناران والثلاثة بحيث بقي عسكريهم كله نار ، وفرح المسلمون بذلك بمثل ما حزن الكفار بفقده ، وهلك منهم كبير يقال له الكند بالياط ، ومرض الكندي وأشرف على الهلاك ، وفي الرابع والعشرين منه أخذ منهم بركوسان فيهما نيف وخمسون نفراً ، وفي الخامس والعشرين منه أخذ منهم أيضاً بركوس وجميع ما فيه ، وكان من جملة ما فيه ملوطة مكاللة بالؤلؤ وهي من تفاصيل الملك ، وقيل كان في البركوس ابن أخته وأخذ أيضاً .

ذكر غارة أسد الدين

وهذا أسد الدين ، هو شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه الكبير ، وهو صاحب حمص ، وكان من حديثه أن السلطان كان قد رسم له أن يأخذ حذره من الأفرنج بطرابلس ، ويأخذ نفسه بحراسة المسلمين والفلحين في تلك الناحية ، وأنه قيل له إن أفرنج طرابلس قد أخرجوا جشارهم وخيلهم الى مرج هناك وأبقارهم ودوابهم ، وأنه قد قرر مع عسكريهم قصدهم ، فخرج على غرة منهم وهجم على جشارهم فأخذ منهم من الخيل أربعمئة رأس ومئة من البقر ، فهلك من الخيل أربعون ، وسلم الباقي ، وعاد الى البلد ، ولم يفقد من أصحابه أحد ، ووصل الكتاب بذلك في رابع صفر من سنة سبع وثمانين .

وفي ليلة هذا اليوم ألقى الريح مركبا للعدو على النيب فكسرتة ، وكان فيه خلق عظيم فبصر بهم أصحابنا ، فوثبوا عليهم ، وأخذوهم عن آخرهم ، ولقد حضرت ، وقد عرض منهم على السلطان رحمة الله عليه ، خمسة عشر ذفرا ، وليلة هلال ربيع الأول من هذه السنة خرج أصحابنا من البلد ، وهجموا على العدو ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وأخذوا منهم من خيمهم جمعا عظيما ، منهم اثنتا عشرة امرأة على ما قيل .

ذكر وقائع عدة في هذه السنة

وفي ثالث ربيع الأول كان اليك للحلقة السلطانية ، وخرج من العدو اليهم خلق عظيم ، وجرى بينهم وقعة شنيعة ، قتل فيها من العدو جماعة وقتل منهم رجل كبير على ما قيل ، ولم يفقد من المسلمين الا خادم للسلطان يسمى قراقوش ، وكان شجاعا عظيما له وقعات عظيمة كثيرة استشهد في ذلك اليوم ، وفي تاسع الشهر بلغ السلطان إن العدو يخرج منه طائفة يتفقدون لبعثنا عنهم ، فاقضى رأيهم أن أنفذ أخاه الملك العادل ، وفي خدمته خلق عظيم ، من العساكر الاسلامية ، وأمره أن يكمن للعدو وراء التل الذي كانت فيه الواقعة المعروفة به ، فسار هو وجمع كان من كبار أهله وأصحابه ، فكمن وراء تل العياضية ، وكان ممن كان معه من كبار أهله الملك المظفر تقى الدين ، وابنه ناصر الدين محمد ، والملك الأفضل ولده ، ومعه صغار أولاده الملك الأشرف محمد ، والملك المعظم تورانشاه والملك الصالح اسماعيل ، وكان من المعتمدين القاضي القاضل والديوان ، وكنت في الصحبة في ذلك اليوم ، وركب جماعة من الشجعان على الخيول الجياد ، وناوشوا العدو ، فلم يخرج في ذلك اليوم ، وكان قد وشي اليهم بجلية الأمر إلا أن ذلك اليوم لم يذفك إلا بذوع نصر ، فإنه وصل في أثنائه خمسة وأربعون ذفرا من الأفرنج ، كانوا قد أخذوا في بيروت وسيروا الى السلطان ، ووصلوا في ذلك اليوم الى ذلك المكان ، ولقد شاهدت منه

رقة قلب لم ير أعظم منها وذلك أنه كان فيهم شيخ كبير طاعن في السن لم يبق في فمه ضرس ، ولم يبق له قوة الا مقدار تحرك لا غير ، فقال للترجمان اقل له : ما الذي حملك على المجيء ، وأنت في هذا السن ، وكم من ههنا الى بلادك ؟ فقال : بلادي بيني وبينها عدة أشهر ، وأما مجيئي فإنما كان للحج الى القمامة ، ففرق له السلطان ، ومن عليه ، وأطلقه وأعادته راكبا على فرس الى عسكر العدو ، ولقد طلب أولاده الصغار أن يأتوا لهم في قتل أسير فلم يفعله فسأله عن سبب المنع ، وكنت حاجبهم بما طلبوه ، فقال : لئلا يعتقدوا من الصغر على سفك الدماء ، ويهون عليهم ذلك ، وهم الآن لا يفرقون بين المسلم والكافر ولا يخفي ما في طي ذلك من الرافة والرحمة للمسلمين - راف الله به ورحمه - ولما أيس من خروج العدو عاد الى المخيم في عشية ذلك اليوم ، وهو الأحد عاشر ربيع الأول سنة سبع ، فرحا مسرورا .

ذكر وصول العساكر الاسلامية والملك افرنسيديس

ومن ذلك الوقت انفتح البحر ، وطاب الزمان وجاء اوان عود العساكر الى الجهاد من الطائفتين ، فكان أول من قدم علم الدين سليمان بن جندر ، من أمراء الملك الظاهر ، وكان شيخا كبيرا مذكورا له وقائع ، ذا رأي حسن ، والسلطان يحترمه ويكرمه ، وله قدم صحبة ، ثم قدم بعده مجد الدين بن عز الدين فروخ شاه وهو صاحب بعلبك ، وتتابع بعد ذلك العساكر الاسلامية من كل صوب ، وأما عسكر العدو فإنهم كانوا يتدواعدون اليك ومن يقاربهم من عساكر المسلمين بقدوم الملك افرنسيديس ، وكان عظيما عندهم ، مقدما محترما من كبار ملوكهم ، تنقاد إليه العساكر بأسرها بحيث إذا حضر حكم على الجميع ، ولم يزالوا يتدواعدون بقدومه حتى قدم في ست بطس تحمله تحمل ميرته وما يحتاج إليه من الخيل وخواص أصحابه ، وكان قدومه يوم السبت الثالث والعشرين من ربيع الأول من هذه السنة .

نادرة وبشارة

وكان صاحبه من بلاده باز عظيم هائل الخلق ، أبيض اللون ، نادر الجذس ما رأيت بازا أحسن منه ، وكان يعزه ويحبه حبا عظيما ، فشد الباز من يده وطار وهو يستجيبه ولا يجيبه ، حتى سقط على سور عكا ، فاصطاده أصحابنا وأنفذوه إلى السلطان ، وقد كان لقدمه روعة عظيمة واستبشار عظيم بالظفر به ، فتفاعل المسلمون بذلك وبذل الأفرنج فيه ألف دينار ، فلم يجابوا ، وقدم بعد ذلك كند فرند ، وكان مقدما عظيما عندهم مذكورا ، فذكروا أنه حاصر حماه وحارم في عام الرملة ، ولما كان الثاني عشر من ربيع الآخر وصل كتاب من اللاذقية أن كان جماعة من المتسائمين قد أعطوا براكيس ليكسبوا عليها في البحر من العدو فأخذوها ونزلوا في جزيرة قبرص في عيد لهم ، وقد اجتمع جمع كثير من أهل الجزيرة في بيعة قريبة من البحر ، وأنهم صلوا معهم صلاة العيد وأنهم لما فرغوا من الصلاة ضربوا على كل من في البيعة من الرجال والنساء وأخذوهم عن آخرهم حتى القس ، وحملوهم وألقوهم في مراكبهم وساروا بهم حتى أتوا اللاذقية ، وكان من جملة ما كان فيها سبعة وعشرون امرأة ، وأموال عظيمة فتقسموها فوصل إلى كل واحد على ما قيل أربعة آلاف درهم من الفضة الذقرة ، وقدم بعد ذلك بدر الدين شحنة دمشق في سابع عشر ربيع الآخر ، وهجم أصحابنا على غنم العدو ، فأخذوها وكان عددها مائة وعشرين رأسا فركب في طلبها الراجل والفراس فلم يظفروا منها بشيء .

ذكر ملك الانكتار

وهذا ملك الانكتار شديد الباس بينهم عظيم الشجاعة ، قوي الهمة ، له وقعات عظيمة ، وله جسارة على الحرب ، وهو ودون

الفرنسييس عندهم في الملك والمنزلة لكنه أكثر مالا منه وأشهر في الحرب والشجاعة ، وكان من خبره أنه وصل الى جزيرة قبرص ولم ير أن يتجاوزها إلا وأن تكون له ، وفي حكمه ، فنازلها وقاتلها ، فخرج إليه صاحبها وجمع له خلقا عظيما وقاتلهم قتالا شديدا ، فأنفذ الانكثار الى عكا يستنجد منهم الجماعة ، ليعيذوه على مقصوده ، فأنفذ إليه الملك كي أخاه ومعه مائة وستون فارسا ليعيذوه على مقصوده ، وبقيت الأفرنج على عكا ينتظرون ما يكون من الطائفتين ، وفي سلخ ربيع الآخر وصلت كتب من بيروت أنه قد أخذ من مراكب الانكثار القاصدة نحو عسكر العدو خمس مراكب وطراة ، فيها خلق عظيم رجال ونساء وميرة وأخشاب وآلات وغير ذلك ، وفيها أربعون فارسا ، وكان ذلك فتحا عظيما استبشر به المسلمون ، وفي رابع جمادى الأولى زحف العدو الى البلد ، ونصبوا عليه مناجيق سبعة ، ووصلت كتب عكا بالاستنفار العظيم والتماس شغل العدو وعنهم ، فأعلم السلطان العساكر بالعزم على الرحيل الى مضايقة العدو ومقاربته ، وأصبح على أهبة المسير الى العدو ، ورتب العساكر ، ثم أنفذ من كشف حال العدو ، وحال خنادقهم هل فيها كمين أم لا ، فعادوا وأخبروا بخلوها عن الكمين فسار بنفسه في نفر يسير من مماليكه الى خنادقهم ، وصعد جبلا يعرف بتل الفضول قريبا من العدو مشرفا على خيمهم ، وشاهد المنجنقات ، وما يعمل منها وما هو بطل ، ثم عاد الى مخيمه وأنا في خدمته ، وفي صبيحة هذه الليلة أتاه اللصوص برضيع له ثلاثة أشهر قد أخذ من أمه سرقة .

ذكر قصة الرضيع

وذلك أنه كان للمسلمين لصوص يدخلون الى خيام العدو فيسرقون منهم حتى الرجال ويخرجون ، وكان من قصتهم أنهم أخذوا ذات ليلة طفلا رضيعا له ثلاثة أشهر ، وساروا به حتى أتوا الى خيمة السلطان ، وعرضوه عليه ، وكان كل ما يأخذونه

يعرضونه عليه فيخلع عليهم ويعطيهم ماأخذوه ، ولما فقدته أمه باتت مستغيثه بالويل والنبور طول الليل ، وحتى وصل خبرها الى ملوكهم فقالوا : انه رحيم القلب ، وقد أننا لك بالخروج فاخرجي ، واطليبيه منه ، فإنه يرده عليك ، فخرجت تستغيث إلى اليذك ، فأخبرتهم بواقعها فأطلقوها وأنفذوها إلى السلطان فلقيته وهو راكب وأنا في خدمته ، وفي خدمته خلق عظيم فبكت بكاء شديدا ، ومرغت وجهها في التراب ، فسأل عن قصتها فأخبروه ، فرق لها ودمعت عينه ، وأمر بإحضار الرضيع فوجدوه قد بيع في السوق ، فارتده وأمر بدفع ثمنه الى المشتري وأخذنه منه ، ولم يزل واقفا حتى أحضر الطفل ، وسلم إليها ، فأخذته وبكت بكاء شديدا وضمته إلى صدرها والناس ينظرون إليها ويبكون ، وأنا واقف في جملتهم فأرضعته ساعة ، ثم أمر بها فحملت على فرس وألحقت بعسكرهم مع طفلها ، فانظر الى هذه الرحمة الشاملة لجنس البشر ، اللهم أنك خلقتة رحيمًا فارحمه رحمة واسعة من عندك يا ذا الجلال والاكرام ، وانظر إلى شهادة الأعداء له بالرافة والكرم شعر :

ومليحة شهدت لها ضراتها
والحسن ليس لحقه من مذكر

وفي ذلك اليوم وصل ظهير الدين بن البلكري ، وكان مقدما عظيما من أمراء الموصل وصل مفارقا لهم يطلب خدمة السلطان ، ولما عاد السلطان الى مخيمه لم يلبث إلا ساعة حتى وصله الخبر بتجديد الزحف فعاد وركب من ساعته نحو البلد ، وقد انفصل الحرب بدخول الليل من الطائفتين .

ذكر انتقال السلطان إلى تل العياضية

ولما كانت صبيحة الثلاثاء تاسع جمادى الاولى بلغ السلطان ان

الأفرنج قد مضايقوا البلد ، وركبوا المناجيق ، فأمر الجاويش أن صاح بالناس ، وركب لركوبه العسكر : راجلهم وفارسهم ، حتى أتى الخروبة ، وقوى اليذك بتسير جماعة من العسكر إليه ، فلم يخرج العدو ، واشتد زحفهم على البلد ، فضايقهم رحمه الله مضايقة عظيمة ، وهجم عليهم في خنادقهم ، ولم يزل كذلك حتى عادوا عن الزحف ظهر نهار الثلاثاء المذكور ، وعاد العدو إلى خيمه وقد آيس من أمر البلد وعاد السلطان إلى خيمة لطيفة ضربت له هناك ، يستظل فيها من الشمس فنزل لها لصلاة الظهر ، والاستراحة ساعة ، وقوى اليذك ، وأمر الناس بالعود إلى المخيم ، لأخذ جزء من الراحة ، وكنت في خدمته ، فبينما هو كذلك إذ وصل من اليذك من أخبر أن القوم قد عادوا إلى الزحف لما أحسوا بانصرافه عنهم ، أشد ما كانوا أولا ، فأمر من نبه الناس ، وأمر بالعود فتراجعت العساكر إلى جهة العدو أطلابا أطلابا ، وأمر بالمبيت على أخذ لامة الحرب ، وأقام هو هناك على عزم المبيت ، وفارقت خدمته آخر نهار الثلاثاء ، وعدت إلى الخيم ، وبات هو وجميع العسكر على تعبئة القتال طول الليل ، وأصر طائفة منهم بمضايقة العدو ، ثم سار العسكر وأخبر ليلة الأربعاء عاشر الشهر إلى تل العياضية قبالة العدو ، وضربت له عليه خيمة لطيفة ، وأمر الناس أن ينزلوا على التل حوله على العادة في منازلهم العام الماضي لكن جراند ، مع بقاء الثقل على الخروبة ، ونازل العدو في ذلك اليوم أجمع بالقتال الشديد ، والضرب المبرح المتواتر الذي لا يفتقر شغلا لهم عن الزحف على البلد من جميع جوانبهم ، وهو بنفسه - رحمه الله - يدور بين الأطلاب ويحثهم على الجهاد ويرغبهم فيه ، كل ذلك لشغل العدو عن مضايقة البلد ، ولما رأى العدو تلك المنازلة العظيمة ، والملازمة الهائلة خافوا من الهجوم عليهم في خيمهم ، فرجعوا عن الزحف واشتغلوا بحفظ الخنادق وحراسة الخيم ، ولما رأى فتورهم عن الزحف عاد إلى العياضية ، ورتب على خنادقهم من يخبره بحالهم ساعة فساعة إذا رجعوا إلى الزحف ، كل ذلك والعدو على إصراره في مضايقة البلد والزحف عليه .

ذكر الشروع في مضايقة البلد

ولقد بلغ من مضايقتهم البلد ومبالغتهم في طم خندقه أنهم كانوا يلقون فيه موتى دوابهم بأسرها وآل الأمر الى أن كانوا يلقون فيه موتاهم ، وكانوا إذا جرح منهم أحد جراحة مؤلمة مثخنة القوه فيه ، بهذا جميعه تواصلت كتب أصحابنا من البلد ، وأما أهل البلد فإنهم انقسموا أقساما ، قسم ينزلون في الخندق يقطعون الموتى والدواب التي يلقونها فيه قطعاً ليسهل نقلها ، وقسم ينقلون ما يقطعه ذلك القسم ويلقونه في البحر ، وقسم يذبون عنهم ويدافعون حتى يتمكنوا من ذلك ، وقسم في المنجنيقات وحراسة الأسوار ، وأخذ منهم التعب والنصب ، وتواترت شكايتهم من ذلك ، وهذا ابتلاء لم يبلى بمثله أحد ، ولا يصبر عليه جلد ، وكانوا يصبرون (والله مع الصابرين) (٢٩) هذا والسلطان لا يقطع الزحف عنهم والمضايقة على خنادقهم بنفسه وخواصه وأولاده ليلاً ونهاراً ، حتى يشغلهم عن البلد ، وصوبوا منجنيقاتهم إلى برج عين البقر ، وتواترت عليه أحجار المنجنيقات ليلاً ونهاراً ، حتى أثرت فيه الأثر البين ، وكلما ازدادوا في قتال البلد ازداد هوى في قتالهم ، وكبس خنادقهم والهجوم عليهم ، حتى خرج منهم شخص يطلب من يتحدث معه ، فلما أخبر السلطان بذلك قال : إن كان لكم حاجة فليخرج منكم واحد يحدثنا فأما نحن فليس لنا إليكم حاجة ولا شغل ، ودام ذلك متصلاً الليل مع النهار حتى وصل الانكثار .

ذكر وصول الانكثار

ولما كان يوم السبت ثالث عشر الشهر ، قدم ملك الانكثار بعد مصالحته لصاحب جزيرة قبرص ، والاستيلاء عليها ، وكان لقدمه روعة عظيمة ، ووصل في خمس وعشرين شانية مملوءة بالأنفال

والسلاح والعهد ، واظهر الافرنج سرورا عظيما حتى أنهم أوقدوا تلك الليلة نيرانا عظيمة في خيامهم ، ولقد كانت مهولة عظيمة تدل على عدة عظيمة كبيرة ، وكان ملوكهم يتواعدونا به ، فكان المستأمنون منهم يخبروننا عنهم أنهم متوقفون فيما يريدون أن يفعلوه من مضايقة البلد حتى قدومه ، فانه ذو رأي في الحرب مجرب ، وأثر قدومه في قلوب المسلمين خشية ورهبة ، هذا والسلطان يتلقى ذلك كله بالصبر والاحتساب والاتكال على الله (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) (٤٠) .

ذكر غرق البطسة الاسلامية وهي العلامة الثالثة على أخذ البلد

ولما كان السادس عشر وصلت بطسة من بيروت عظيمة هائلة مشحونة بالآلات والأسلحة والمير والرجال والأبطال المقاتلة ، وكان السلطان قد أمر بتعيينها وتسييرها من بيروت ، ووضع فيها من المقاتلة خلقا عظيما حتى تسفل البلد مراغمة للعدو ، وكان عدة رجالها المقاتلة ستمائة وخمسين رجلا ، فأغرقها الانكسار في عدة شوان قيل كان فيها أربعون قلعا ، فاحتاطوا بها من جميع جوانبها ، واشتدوا في قتالها وجرى القضاء بأن وقف الهوا ، فقاتلوا قتالا عظيما وقتل من العدو عليها خلق عظيم ، وأغرقوا العدو شانيا كبيرا فيه خلق عظيم فهلكوا عن آخرهم ، وتكاثروا على أهل البطسة وكان مقدمهم رجلا جيدا شجاعا مجربا في الحرب ، فلما رأى أمارات الغلبة عليهم ، وأنهم لا بد وأن يقتلوا قال والله لا نقتل إلا عن عز ولا نسلم اليهم من هذه البطسة شيئا ، فوقعوا في البطسة من جوانبها بالمعاول فهدموها ولم يزالوا كذلك حتى فتحوها من كل جانب أبوابا فامتلات ماء ، ففرق جميع من فيها وما فيها من الآلات والمير وغير ذلك ، ولم يظفر العدو منها بشيء ، وكان اسم المقدم المذكور يعقوب ، من رجال

حلب ، وتلقف العدو بعض من كان فيها فأخذوه الى الشوانى من البحر ، وخلصوه من الفرق ، وأنفذوه الى البلد ليخبرهم بالواقعة ، وحزن الناس لذلك حزنا شديدا ، والسلطان يتلقى ذلك بيد الاحتساب في سبيل الله ، والصبر على بلائه و (الله لا يضيع أجر المحسنين) (٤١) .

ذكر حريق الدبابة

وذلك أن العدو كان قد اصطنع دبابة عظيمة هائلة ، أربع طبقات : الطبقة الاولى من الخشب ، والثانية من الرصاص ، والثالثة من الحديد ، والرابعة من النحاس ، وكانت تعلو على السور ، وكان يركب فيها المقاتلة ، وخاف أهل البلد منها خوفا عظيما ، وحدثتهم نفوسهم بطلب الأمان من العدو ، وكانوا قد قربوها من السور بحيث لم يبق بينها وبين السور الا مقدار خمسة أذرع على ما يشاهد برأى العين ، وأخذ أهل البلد في تولية ضربها بالنفط ليلا ونهارا حتى قدر الله تعالى حرقها واشتعال النار فيها ، وظهر لها ذؤابة نار نحو السماء ، فاشتدت الأصوات بالتهليل والتكبير ورأى الناس فيها لما ظهرت لها تلك النيران جبرا من ذلك الوهن ، ومحروا لذلك الأثر ، ونعمة بعد ذمة وإيناسا بعد يأس ، وكان ذلك في يوم غرق البطسة ، فوقع من المسلمين موقعا عظيما ، وكان مسليا لحزنهم وكآبتهم .

ذكر وقعات عدة

ولما كان يوم الجمعة تاسع عشر الشهر ، زحف العدو على البلد زحفا عظيما وضايقوه مضايقة شنيعة ، وكان قد استقر بيننا وبينهم أنهم متى زحف العدو عليهم دقوا كوسهم ، فضربوا بكوسهم

فأجابت كوس السلطان ، وركبت العساكر ، وضايقهم السلطان من خارج ، وزحف عليهم حتى هجم المسلمون عليهم في خيامهم ، فجاوزوا خنادقهم ، وأخذوا القدور وما فيها ، وحضر من الغنيمة المأخوذة من خيامهم شيء عند السلطان ، وأنا حاضر ولم يزل القتل يعمل حتى أيقن العدو أنه قد هجم عليه وأخذ فتراجعوا عن قتال البلد وشرعوا في قتال العساكر وانتشب الحرب بينهم ، ولم تزل ناشبة حتى قام قائم الظهيرة ، وغشي الناس من الحر أمر عظيم من الجانبين ، وتراجعت الطائفتان إلى خيامهم وقد أخذ منهم التعب والحر وانفض القتال في ذلك اليوم.

ولما كان يوم الاثنين الثالث والعشرين دق كوس البلد فجأوبه كوس السلطان وثار القتال بين الطائفتين ، ولج العدو في مضايقة البلد ظنا منه أن الناس لا يهجمون على خيمهم وأنهم يهابونها ، فكذب العسكر ظنونهم وهجموا على الخيام أيضا ونهبوا منها ، فتراجع العدو الى قتالهم ، ووقع الصباح فيهم فلحقوا من المسلمين جماعة عظيمة داخل خنادقهم وأسوارهم ، وجرى بينهم وقعة عظيمة قتل فيها اثنان من المسلمين ، وجرح جماعة ، وقتل جماعة من العدو ، وأعجب ما في هذه الواقعة أنه كان وصل في هذا اليوم رجل كبير مذكور من أهل مازندران يريد الغزاة ، فوصل والحرب قائمة فلقى السلطان ، فاستأنه في الجهاد ، وحمل حملة شديدة واستشهد في تلك الساعة ، ولما رأى العدو دخول المسلمين الى خنادقهم ، وتوغلهم الى داخل أسوارهم ، داخلتهم الحمية ، وبعثتهم النخوة ، فركب فارسهم صحبة راجلهم ، وخرجوا الى ظاهر أسوارهم ، وحملوا على المسلمين حملة الرجل الواحد ، فثبت المسلمون لهم ثبوتا عظيما لم يتحركوا من أماكنهم ، والتحم القتال من الجانبين ، واشتد الضرب من الطائفتين ، وصبر المسلمون صبر الكرام ، وبخلوا في الحرب بالتحام ، فلما رأى العدو ذلك الصبر المعجب ، والاقدام المزعج أنفذوا رسولا في غضون ذلك ، يستأنذون بالرسول في الوصل ، فأنن له فوصل الرسول أولا الى الملك

العادل ، فاستصحبه ووصل به إلى الخدمة السلطانية ، ومعه أيضا الملك الأفضل فأدى الرسالة ، وكان حاصلا أن ملك الانكشار يطلب الاجتماع بالسلطان ، فلما سمع السلطان الرسالة أجاب عنها في الحال من غير تفكير ولا ترو بأن قال : إن الملوك لا يجتمعون إلا عن قاعدة ، ولا يحسن منهم الحرب بعد الاجتماع والمؤاكلة ، وإذا أراد ذلك فلا بد من تقرير قاعدة قبل هذه الحالة ، ولا بد من ترجمان ذئق به في الوسط يفهم كل واحد منا ما يقول الآخر ، فليكن بيننا ذلك الترجمان ، فإذا استقرت القاعدة وقع الاجتماع بعد ذلك إن شاء الله تعالى

ولما كان يوم السبت الثامن والعشرون خرج العدو راجلهم وفارسهم من جانب البحر شمالي البلد ، وعلم السلطان ذلك فركب وركب العسكر ، وانتشب القتال بين الطائفتين ، وقتل من المسلمين بدوي وكردى ، وقتل من العدو جماعة وأسروا واحدا بسلاحه وفرسه ، ومثل بين يدي السلطان ، ولم يزل القتال يعمل حتى طال الليل بين الطائفتين

ولما كان الأحد التاسع والعشرون خرج العدو برجلة كثيرة على شاطئ النهر الدلو فلقبهم طائفة من اليزك وجرى بينهم قتال عظيم ، ووصلت رجالة من المسلمين إلى الحرب فأسروا مسلما وقتلوه وأحرقوه ، وأسر المسلمون منهم واحدا فقتلوه وأحرقوه ولقد رأيت النارين تشتعلان في زمان واحد ، ولم تزل الأخبار تتواصل من أهل البلد بالاحتفال بأمر العدو والشكوى من ملازمته قتالهم ليلا ونهارا ، وذكر ما ينالهم من التعب العظيم من تواتر الأعمال المختلفة عليهم من جريرة قدوم الانكشار ، ثم مرض مرضا شديدا أشفى فيه على الهلاك ، وجرح الفرندسيس ولم يزداهم ذلك إلا إصرارا وعدوا .

وكان لاخت ملك الانكشار خادمان مسلمان في الباطن ، كانا في خدمتها في صدقيه ، وكانت هي زوجة صاحب صدقية ، فلما مات

ومر أخوها بالبلد أخذها وأصحابها معه إلى العسكر ولما وصل الخادمان إلى العسكر ، وقارب المسلمين ، هربا إلى العسكر الاسلامي ، فقبلهما السلطان ، وأنعم عليهما إنعاما عظيما .

ذكر هرب المركيس الى صور

ولما كان يوم الاثنين سلخ جمادى الأولى قوي استشعار المركيس أنه إن أقام قبضوا عليه ، وأعطوا صور الملك القديم الذي كان قد أسره السلطان لما عاناه من الأسر في نصرة بين المسيح ، ولما صح ذلك عنده هرب إلى صور ، فأنفذوا خلفه قسوسا ليردوه فلم يفعل ، وسار في البحر حتى أتى صور، وشق ذلك عليهم وعظم لبيهم فإنه كان ذا رأي وشجاعة وخبرة .

ذكر وصول بقية عساكر الاسلام

ولما كان يوم الثلاثاء سلخ جمادى الأولى قدم فيه عسكر سنجار يقدمه مجاهد الدين يرزقش ، فلقية السلطان واحترمه ، وكان دينا عاقلا محبا للغزو ، فأنزله السلطان في الميسرة بعد أن أكرمه وأنزله في خيمته ، وفرح بقدومه فرحا شديدا في ذلك الوقت ، ثم قدم بعد ذلك قطعة عظيمة من عسكر مصر ، كعلم الدين كرجي ، وسيف الدين سزقر الدودار وجماعة كثيرة ، ثم قدم بعد ذلك علاء الدين ابن صاحب الموصل وعسكره ، فلقية السلطان بالخروبة ونزلوا هناك الى بكرة اليوم الثاني من جمادى الآخرة ، وأصبح سائرا حتى أتى بجحفله قبالة العدو ، وعرض عسكره هناك ، وأنزله السلطان في خيمته ، وحمل له من التحف ، وقدم له من اللطائف ما يليق بكرمه ، وأنزله في الميمنة ، وفي يوم الجمعة الثالث قدمت طائفة من عسكر مصر أيضا ، واشتد مرض الانكثار بحيث شغل الأفرنج شدته عن الزحف ، وكان ذلك خيرة عظيمة من الله تعالى ، فإن

البلد كان قد ضعف ضعفا عظيما ، وضاق بهم الخناق ، وهدمت المنجنيقات من السور مقدار قامة الرجل ، هذا واللصوص يدخلون الى خيامهم ويسرقون أقمشتهم ، ويأخذون الرجال في غفلة بأن يجيئوا الى الواحد وهو نائم فيضربوه على حلقه السكين ويوقظوه ، ويقولوا له بالاشارة إن تكلمت ذبحناك ، ويحملوه ويخرجوا به إلى العسكر ، وجرى ذلك مرارا ، وعساكر المسلمين تجتمع ويتواتر وصولها من كل جانب حتى تكامل وصولها

ذكر وصول رسولهم الى السلطان

كنت ذكرت وصول رسول منهم يلتمس من جانب الانكسار أن يجتمع بالسلطان وذكرت عذر السلطان ، وانقطع الرسول ، وعاد معاودا في المعنى ، وكان حديثه مع الملك العادل ، ثم هو يليه الى السلطان ، واستقر أنه رأى أن يأنن له في الخروج ويكون الاجتماع في المرج والعساكر محيطة بهما ومعهما ترجمان ، فلما أنن في ذلك تأخر الرسول أياما عنده بسبب مرضه ، واستفاض أن ملوكهم اجتمعوا عليه وأنكروا عليه ذلك ، وقالوا هذه مخاطرة بسين النصرانية ، ثم بعد ذلك وصل رسوله يقول لا تظن تأخري بسبب ما قيل فإن زمام قيادي مفوض الي ، وأنا أحكم ولا يحكم علي ، غير أنني في هذه الأيام اعتري مزاجي التيات منعني من الحركة فهذا كان العذر في التأخير لا غير ، وعادة الملوك إذا تقاربت منازلهم ان يتهادوا ، وعندى ما يصلح للسلطان ، وأنا استخرج الآنن في إيصاله إليه ، فقال له الملك العادل ، قد انن لك في ذلك بشرط قبول المجازاة على الهدية ، فرضي الرسول بذلك ، وقال الهدية شيء من الجوارح قد جلب من وراء البحر ، وقد ضعف فيحسن أن يحمل إلينا طير وبجاج حتى نطعمها لتقوى ونحملها فداعبه الملك العادل ، وكان فقيها فيما يحدثهم به فقال الملك قد احتاج إلى فراريج وبجاج ويريد أن يأخذها منا بهذه الحجة ثم انفصل حديث

الرسالة في الآخر على ان قال الرسول : من الذي أردتم منا إن كان لكم حديث ، فتحدثوا به حتى نسمع ، فقل له عن ذلك نحن ما طلبناكم أنتم طلبتمونا فإن كان لكم حديث فتحدثوا به حتى نسمع ، وانقطع حديث الرسالة إلى سادس جمادى الآخرة ، فخرج رسول الانكتار إلى السلطان ومعه إنسان مغربي قد أسروه من مدة طويلة ، وهو مسلم قد أهدها إلى السلطان ، فقبله وأحسن إليه وأعاده مشرفا مكرما إلى صاحبه ، وكان غرضه بتكرار الرسائل تعرف قوة النفس وضعفها ، وكان غرضنا بقبول الرسائل تعرف ما عندهم من ذلك أيضا .

ذكر قوة زحفهم على البلد ومضايقته

ولم يزالوا يوالون على الأسوار بالمناجيق المتواصلة والضرب وتنقلوا أحجارها حتى خلخلوا سور البلد ، وأضعفوا بنيانه ، وأنهك التعب والسهر أهل البلد لقلة عددهم ، وكثرة الأعمال ، حتى أن جماعة منهم بقوا ليالي عدة لا ينامون أصلا لا ليلا ولا نهارا ، والخلق الذين عليهم عدد كثير يتناوبون على قتالهم ، وهم نفر يسير قد تقسموا على الأسوار والخنادق والمنجنقيات والسفن ، ولما أحس العدو بذلك ، وظهر لهم تداخل السور وتقلقل بنيانه ، شرعوا في الزحف من كل جانب وانقسموا أقساما ، وتناوبوا فرقا ، كلما تعب قسم استراح ، وقام غيره مقامه ، وشرعوا في ذلك شروعا عظيما براجلهم وفارسهم سابع الشهر ، هذا مع عمارتهم أسوارهم الدائرة على خنادقهم بالرجال والمقاتلة ليلا ونهارا .

ولما علم السلطان ذلك بإخبار من يشاهده ، وإظهار العلامة التي بيننا وبينهم وهي دق الكوس ركب وركب العسكر إليهم ، وجرى في ذلك اليوم قتال عظيم من الجانبين ، وهو كالوالدة الثكلي يجول بفرسه من طلب إلى طلب ، ويحدث الناس على الجهاد ، ولقد بلغنا

أن الملك العادل حمل بنفسه في ذلك اليوم مرتين ، والسلطان يطوف بين الاطلاب بنفسه وينادي : يا للاسلام ، وعيناه تذرفان بالدموع ، وكلما نظر الى عكا وما حل بها من البلاء وما يجري على ساكنيها من المصاب العظيم اشدت في الزحف والحث على القتال ، ولم يطعم في ذلك اليوم طعاما البته ، وإنما شرب أقذاح مشروب كان يشير بها الطبيب ، وتأخرت عن حضور هذا الزحف لانام مرض شوش مزاجي لما عراني ، فكننت في الخيمة في تل العياضية ، وأنا اشاهد الجميع ، ولما هجم الليل عاد رحمه الله الى الخيم بعد العشاء الآخرة وقد أخذ منه التعب والكآبة والحزن فنام لا عن غفو .

ولما كان سحر تلك الليلة أمر الكوس أن دقت ، وركب العساكر من كل جانب ، وأصبحوا على ما أمسوا عليه ، وفي ذلك اليوم وصلت مطالعة من البلد يقولون فيها : إنا قد بلغ منا العجز الى غاية ما بعدها إلا التسليم ، ونحن في الغد ثامن الشهر إن لم تعملوا معنا شيئاً نطلب الأمان ، ونسلم البلد ، ونشتري مجرد رقابنا ، وكان هذا أعظم خبر ورد على المسلمين ، وأذكى في قلوبهم ، فإن عكا كانت قد احتوت على جميع سلاح الساحل والقدس ودمشق وحلب ومصر ، وجميع البلاد الاسلامية ، واحتوت على كبار من أمراء العسكر وشجعان الاسلام ، كسيف الدين المشطوب ، وبهاء الدين قراقوش ، وغيرهما ، وكان قراقوش ملتزماً بحراستها منذ نزل العدو عليها ، وأصاب السلطان ما لم يصبه شيء مثله ، وخيف على مزاجه التشويش ، وهو لا يقطع ذكر الله ، والرجوع إليه في جميع ذلك صابراً ، محتسباً ملازماً مجتهداً ، و (الله لا يضيع أجر المحسنين) فرأى الدخول على القوم ومهاجمتهم ، فصاح في العساكر الصائح ، وركبت الأبطال فاجتمع الراجل والفارس واشتد الزحف ولم يساعده العسكر في ذلك اليوم على الهجوم على العدو ، فإن رجالته وقفوا كالسور المحكم البناء بالسلاح والزنبورك والنشاب ، من وراء أسوارهم ، وهجم عليهم بعض الناس من بعض أطرافهم فثبتوا وذبوا غاية الذب ، ولقد حكى بعض من دخل

عليهم أسوارهم أنه كان هناك راجل واحد أفرنجي صعد سور خندقهم ، واستدبر المسلمين ، وإلى جانبه جماعة يناولونه الحجارة ، وهو يرميها على المسلمين الذين يلاصقون سور الخندق ، وقال: إنه وقع فيه زهاء خمسين سهما وحجرا ، ولا يمنعه ذلك عما هو يصده من الذب والقتال حتى ضربه زراق مسلم بقارورة فأحرقه ، ولقد حكى لي شيخ عاقل جندي أنه كان من جملة من نخل ، قال: وكان داخل سورهم امرأة عظيمة عليها ملوطة خضراء فما زالت ترمينا بقوس من خشب حتى جرحنا منا جماعة ، وتكاثرنا عليها وقتلناها وأخذنا قوسها وحملناها إلى السلطان فعجب من ذلك عجبا عظيما ، ولم يزل يعمل بين الطايفتين بالقتل والجرح ، حتى فصل بينهما الليل .

ذكر ما آل إليه أمر البلد من الضعف ووقوع المراسلة بين أهل البلد والأفرنج

ولما اشتد زحفهم على البلد ، وتكاثروا عليها من كل جانب ، وتناوب ضعف أهل البلد لما رأوه من عين الهلاك واستشعروا العجز عن الدفع ، وتمكن العدو من الخنادق فملكوها ، وتمكذوا من سور الباشورة فنقبوه وأشعلوا فيه النار بعد حشو الذقب ، ووقعت بدنة من الباشورة ، وبخل العدو الباشورة وقتل منهم فيها مائة وخمسون ذفرا وصاعدا ، وكان فيهم ستة من كبارهم فقال لهم واحد منهم لا تقتلوني حتى أرحل الأفرنج عنكم بالكلية ، فبادر رجل من الأكراد فقتله وقتل الخمسة الأخرى ، وفي الغد نادى الأفرنج احفظوا الستة فإننا نطلقكم كلكم بهم فقالوا قد قتلناهم فحزن الأفرنج لذلك حزنا عظيما وأبطلوا الزحف بعد ذلك أياما ثلاثة .

وبلغنا أن سيف الدين المشطوب خرج بذفسه إلى ملك الفرنسيس

بالأمان وقال له قد أخذنا منكم بلادا عدة وكنا نهجم البلد وندخل فيه ، ومع هذا سألونا الأمان فأعطيناهم وحملناهم الى مأماتهم وأكرمناهم ، ونحن نسلم البلد وتعطينا الأمان على أنفسنا ، فأجابه بأن هؤلاء الملوك الذين أخذتوهم منا ، وأنتم أيضا ممالئكي وعبيدي فأرى فيكم رأيي ، وبلغنا أن المشطوب بعد ذلك أغلظ له في القول ، وقال أقاويل كغيره في ذلك المقام منها : إنا لانسلم البلد حتى نقتل بأجمعنا ، ولا يقتل منا واحدا حتى يقتل خمسون نفسا من كباركم وانصرف عنه .

ولما دخل المشطوب البلد بهذا الخبر خاف جماعة ممن كانوا في البلد ، فأخذوا بركوسا وركبوا فيه ليلا خارجين الى العسكر الاسلامي منهم أرسك وابن الجاولي وسنقر الوشاقى ، فاما أرسك وسنقر فأنهما تغيبا في العسكر ولم يعلم لهما مكان خشية من نقمة السلطان ، وأما ابن الجاولي فظفر به ورمي في الزرديانة .

وفي سحر تلك الليلة ركب السلطان مشعرا أنه يواصل كبس القوم ومعه المساحي وآلات طم الخنادق ، فما ساعده العسكر على ذلك ، وتخاذلوا عن ذلك ، وقالوا : نخاطر بالاسلام كله ولا مصلحة في ذلك .

وفي ذلك اليوم خرج من الانكسار رسل ثلاثة طلبوا فاكهة ، وذلجا ، وذكروا أن مقدم الاسبتار يخرج في الغد يتحدث في معنى الصلح ، غير أن السلطان أكرمهم وبخلوا سوق العسكر وتفرجوا فيه وعادوا تلك الليلة إلى عسكرهم .

وفي ذلك اليوم تقدم الى صارم الدين قايماز النجمي حتى يدخل هو وأصحابه الى أسوارهم ، وترجل جماعة من أمراء الأكراد كالجناح وأصحابه وهو أخو المشطوب ، وزحفوا حتى وصلوا أسوار الأفرنج ، ونصب قايماز بنفسه علمه على سورهم ، وقاتل عن العلم قطعة من النهار ، ووصل في ذلك اليوم عز الدين جريدك

الذوري ، وسوق الزحف قائم ، فترجل هو وجماعته وقاتل قتالا شديدا ، واجتهد الناس اجتهادا عظيما .

وفي العاشر أصبح القوم ساكتين عن الزحف والعساكر الاسلامية محدقة بهم ، وقد باتوا ليلتهم شاكي السلاح راكبي ظهور خيلهم منتظرين عسى أن يمكنهم مساعدة إخوانهم المقيمين بعكا ويهجموا على طرف من الافرنج فيكسروهم ، ويخرجوا يحمي بعضهم بعضا ، ويخرج العساكر يجاريهم من هذا الجانب فيسلم من يسلم ويؤخذ من يؤخذ ، فلم يقدروا على الخروج وكان قد ثبت ذلك معهم ، فلم يتهيا لهم في تلك الليلة خروج بسبب أنه كان هرب منهم بعض الغلمان ، فأخبروا العدو بذلك ، فاحتاطوا بهم وحرسوهم حراسة عظيمة .

ولما كان يوم الجمعة العاشر خرج منهم رسل ثلاثة واجتمعوا بالملك وتحادثوا معه ساعة زمانية ، وعادوا ولم ينفصل الحال ، وانقضى النهار على مقام المسلمين بالمرج في مقابلة العدو ، وباتوا على مثل ذلك .

ولما كان السبت الحادي عشر لبست الافرنج بأسرها لباس الحرب ، وتحركوا حركة عظيمة بحيث أنهم اعتقدوا ربما كان مصاف ، واصطفوا ، وخرج من الباب الذي تحت القبة زهاء أربعين نفسا ، واستدعوا جماعة من المماليك ، وطلبوا منهم العدل الزيداني وذكروا أنه صاحب صيدا ، طليق السلطان ، فحضر العدل وجرى مبادي أحاديث في معنى إطلاق العسكر الذي بعكا ، واشتطوا في ذلك اشتطاطا عظيما ، وتصرم نهار السبت ولم ينفصل حال .

ذكر كتب وصلت من البلد

ولما كان يوم الأحد ثاني عشر وصلت كتب يقولون فيها : إنا قد

تبايعنا على الموت ونحن لا نزال نقاتل حتى نقتل ، ولا نسلم هذا البلد ، ونحن أحياء ، فانظروا أنتم كيف تعملون في شغل العدو عنا ودفعه عن قتالنا ، فهذه عزائمتنا ، وإياكم أن تخضعوا لهذا العدو وتليذوا لهم ، فإننا نحن قد فات أمرنا ، وذكر العوام الواصل بهذه الكتب أنه لما وقع بالليل الصوت ظن الأفرنج أن عسكريا عظيما عبر إلى عكا وسلم ، وصار فيها ، قال : وجاء إنسان أفرنجي فوقف تحت السور وصاح إلى بعض من على السور ، وقال له بحق بينك ألا ما أخبرني كم عدد العسكري الذي دخل إليكم البارحة ، يعني ليلة السبت ، وكان قد وقع بالليل صوت وانزعج الطائفتان ، ولم يكن له حقيقة ، فقال له ألف فارس ، فقال لا ، لكنه دون ذلك ، أنا رأيتهم لابسين ثيابا خضرا .

ثم تتابعت العساكر الإسلامية واندفع كيد العدو عن القوم في ذلك الأيام بعد أن كان قد أشرف البلد على الأخذ ، فقدم يوم الثلاثاء رابع عشرة سابق الدين صاحب شيزر ، ويوم الأربعاء خامس عشرة بدر الدين دلدزم ، ومعه تركمان كثير ، وكان قد أنفذ إليه السلطان رحمه الله - نهباً أنفق فيهم ، ويوم الخميس سادس عشرة أسد الدين ، واشتد ضعف البلد وكثرت ثغر سوره ، وجاهد المقيمون فيه ، وبذوا عوض الثلم سورا من داخلها حتى إذا تم بناؤه اقتتلوا عليه ، واشتد ثبات الأفرنج على أنهم لا يصلحون ، ولا يعطون النين في البلد أماناً حتى يطلق جميع الأسارى النين في أيدي المسلمين ، وتعاد البلاد الساحلية إليهم ، وبذل لهم تسليماً البلد ، وما فيه دون من فيه فلم يفعلوا ، وبذل لهم أيضاً مع ذلك صليب الصليبوت ، فلم يفعلوا ، واشتد عتوهم ، واستفحل أمرهم وضائق الحيل عنهم (وماكروا ومكر الله والله خير الماكرين) . (٤٢)

ذكر مصالحة أهل البلد ومصانعتهم على نفوسهم

ولما كان يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة ، خرج العوام

من الثغر ، ونطقت الكتب عنهم أن أهل البلد ضاق بهم الأمر ، وكثرت الصعوبات وعجزوا عن الحفظ والدفع ، ورأوا عين الهلاك ، وتيقنوا أنه متى أخذت البلدة عذوة ضربت أعناقهم عن آخرهم ، وأخذ جميع ما فيه من العدد والأسلحة والمراكب وغير ذلك ، فصالحوهم على أنهم يسلمون إليهم البلد ، وجميع ما فيه من الآلات والعدد والمراكب ، ومئتي ألف دينار ، وألف وخمسمائة فارس أسير مجاهيل الأحوال ، ومائة فارس معينين من جانبهم يختارون وصليب الصليبوت ، ويخرجون بأنفسهم سالمين ، ومامعهم من الأقمشة المختصة بهم وذرايرهم ونسائهم ، وضمنوا للمركيس عشرة آلاف دينار لأنه كان واسطة ولأصحابه أربعة آلاف دينار ، واستقرت القاعدة على ذلك .

ذكر استيلاء العدو على عكا

ولما وقف السلطان على كتبهم وعلى مضمونها ، أنكر ذلك إنكارا عظيما ، وعظم عليه هذا الأمر وجمع أرباب المشورة ، وشاورهم فيما يصنع ، واضطرب الأمراء وتقسم فكره وتشوش ، وعزم على أن يكتب في الليلة مع العوام وينكر عليهم المصالحة على هذا الوجه ، وهو في مثل هذا الحال فما أحس المسلمون إلا وقد ارتفعت أعلام الكفر وصلبانه وشعاره وناره على أسوار البلد ، وذلك في ظهر نهار الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، وصاح الأفرنج صيحة واحدة ، وعظمت المصيبة على المسلمين ، واشتد حزن الموحدين ، وانحصر كلام العقلاء من الناس في تلاوة (إنا لله وإنا إليه راجعون) (٤٣) وغشي الناس بغيته عظيمة ، وحيرة شديدة ، ووقع في العسكر الصياح والعدويل والبكاء والنحيب ، وكان لكل قلب حظ في ذلك قدر إيمانه ، ولكل إنسان نصيب من هذا الخطب على مقدار بيانه ونخوته ، وانقضت الحال على أنه قد استقرت القاعدة بين أهل البلد وبين الأفرنج على ذلك الحال المتقدم ، وأن المركيس دخل البلد ومعه أعلام الملوك

فنصب علما على القلعة ، وعلما على مائدة الجامع في يوم الجمعة ، وعلما على برج القتال ، عوضا عن علم الاسلام ، وحيز المسلمون الى بعض أطراف البلد ، وجرى على أهل الاسلام المشاهدين لذلك الحال ما كثر التعجب من الحياة معه ، ومثلت في خدمة السلطان ، وهو اشد حالة من الوالدة الثكلى ، والمولمة الحراء ، فسليته بما تيسر من التسلية ، وأذكرته في الفكر فيما يستقبله من الأمر في معنى البلاد الساحلية ، والقديس الشريف ، وكيفية الحال في ذلك ، وأعمال الفكر في خلاص المسلمين المأسورين في البلد ، وذلك ليلة السبت الثامن عشر ، وانفصل الحال على أن رأى التأخير عن تلك المنزلة مصلحة ، فإنه لم يبق في المضايقة معنى ، فتقدم بنقل الأثقال ليلا إلى المنزل التي كان عليها أولا بشفر عم ، وأقام هو جريدة في مكانه لينظر ماذا يكون من أمر العدو ، وحال أهل البلد ، وأقام هو راضيا راجيا من الله تعالى أنه ربما حملهم غرورهم بالخروج اليه والهجوم عليه ، فينال منهم غرضا ويلقي نفسه عليهم ويعطي الله النصر لمن يشاء ، فلم يفعل العدو شيئا من ذلك ، واشتغلوا بالاستيلاء على البلد ، والتمكن منه ، فأقام الى بكرة التاسع عشر من الشهر ، وانتقل الى الأثقال ، وفي ذلك اليوم خرج منهم ثلاثة نفر مع الحاجب قوس صاحب بهاء الدين قراقوش ، وكان رجلا عاقلا ، مستخبرين ما وقع عقد الضلع عليه من المال والأسرى ، فأقاموا ليلة مكرمين ، وساروا الى دمشق يبصرون الأسارى في الحادي والعشرين ، وأنفذ السلطان رسولا الى الفرنج يسألهم كيف جرت الحال ، ويستعلم كم مدة تحصيل ما وقعت عليه المصالحة واستقرت عليه المهادنة .

ذكر وقعة جرت في أثناء ذلك

ولما كان سلخ الشهر خرج الافرنج من جانب البحر ، شمالي البلد ، وانتشروا انتشارا عظيما راجلهم وفارسهم ، وضربوا أطلابا للقتال ، فأخبر اليك بذلك السلطان ، فسدق الكؤوس

وركب ، وأنفذ إلى اليزك وقواه ، برجال كثيرة ، وتوقف حتى ركبت العساكر الاسلامية واجتمعوا ، فوقع بين اليزك وبين العدو وقعة عظيمة وقتال شديد قبل اتصال العساكر باليزك ، وكان اليزك قد قوي بما أنفذ إليه ، فحملوا على العدو حملة عظيمة فانكسر العدو من بين أيديهم ، وانهزمت الخيالة ، وسلمت الرجالة ، وظنوا أن وراء اليزك كمينا فارتدوا نحو خيامهم ، ووقع اليزك في الرجالة فقتل منهم زهاء خمسين ذفرا ، ولم يزل السيف يعمل فيهم حتى دخلوا خنادقهم

وفي ذلك اليوم وصل الافرنج الذين ساروا الى دمشق ليترفقوا حال أسراهم ، ووصل معهم من مميزي أسراهم أربعة ذفر ، ووصل في عشيته أيضا رسل السلطان في تحرير أمر الأسارى المسلمين الذين كانوا بعكا ، ولم تزل الرسل تتردد بين الطائفتين حتى كان تاسع رجب

خروج ابن باريك

وفي ذلك اليوم خرج حسام الدين حسين بن باريك المهراني ، ومعه اثنان من اصحاب الانكثار ، فأخبر أن الملك افرنسيس سار إلى صور ، وذكروا في تحرير أمر الأسارى ، وطلبوا أن يشاهدوا صليب الصليب وأنه في العسكر أو حمل إلى بغداد ، فأحضر صليب الصليب وشاهدوه وعظموه ورموا نفوسهم إلى الأرض ، ومرغوا وجوههم على التراب ، وخضعوا خضوعا عظيما لم ير مثله ، وذكروا أن الملوكة قد أجابوا السلطان أن يكون ما وقع عليه القرار تروم ثلاثة كل شهر ترم ، ثم أرسل السلطان رسولا الى افرنسيس سار إليه إلى صور بهدايا سنية ، وطيب كثير وثياب جميلة .

وفي صبيحة العاشر من رجب انتقل السلطان بحلقته وخواصه

إلى تل ملاصق لشهزعم ، ونزلت العساكر في منازلها على حالهم قريبا من منزلته الأولى ليس بينهما إلا الوادي ، ولم تزل الرسل تتواتر في تحرير القاعة وتنجزها حتى حصل لهم ما كانوا التمسوه من الأسرى و المال المختص بذلك الترم ، وهو الصليب ومائة ألف دينار وستمائة أسير وأنفذوا ثقلهم وشاهدوا الجميع ما عدا الأسارى المعينين من جانبهم فإنهم لم يكونوا فرغوا من تعيينهم ، ولم يكملوهم ، حتى يحصلوا ، ولم يزالوا يطاولون ويقصرون الزمان حتى انقضى الترم الأول في ثامن عشر رجب ، ثم أنفذوا في ذلك اليوم يطلبون ذلك فقال لهم السلطان إما أن تنفذوا إلينا أصحابنا وتستلموا الذي عين لكم من هذا الترم ونعطيك رهائن على الباقي تصل إليكم في ترومكم الباقية ، وأما أن تعطونا رهائن على ما نسلم إليكم إلى أن يخرج إلينا أصحابنا ؟ فقالوا لا نفعل شيئا من ذلك ، بل تسلمون إلينا ما يقتضيه هذا الترم وتقتنعون بأيماننا حتى نسلم إليكم أصحابكم ، فأبى السلطان ذلك لعلمه أنهم إن تسلموا المال والصليب والأسرى وأصحابنا عندهم لا يؤمن غدرهم ، ويكون وهن الاسلام عند ذلك وهنا عظيما لا يكاد ينجبر .

ذكر قتل المسلمين الذين كانوا بعكا رحمهم الله

ولما رأى الانكثار الملعون توقف السلطان ببذل المال والأسرى والصليب غدر بآسرى المسلمين ، وكان قد صالحهم ، وتسلم البلد منهم على أن يكونوا أمنين على نفوسهم على كل حال ، وأنه إن دفع السلطان إليهم ما استقر اطلاقهم بأموالهم ونسائهم وإن امتنع من ذلك ضرب عليهم الرق وأخذهم أسرى ، فغدرهم الملعون ، وأظهر ما كان أبطن ، وفعل ما أراد أن يفعله بعد أخذ المال والأسرى على ما أخبر به عنه أهل ملته فيما بعد ، وركب هو وجميع العساكر الأفرنجية راجلهم وفارسهم والتراكبلي في وقت العصر من يوم الثلاثاء السابع والعشرين من رجب ، وساروا حتى الأبار التي تحت تل العياضية ، وقدموا خيامهم إليها ، وساروا حتى توسطوا

المرج بين تل كيسان وبين العياضية ، ثم أحضروا من أسارى المسلمين من كتب الله شهادته في ذلك اليوم وكانوا زهاء ثلاثة آلاف في الحبال ، وحملوا عليهم حملة الرجل الواحد ، فقتلوهـم ضربا وطعنا بالسيف واليزك الاسلامي يشاهدون ولا يعلمون ماذا يصنعون لبعدهم عنهم ، وكان اليزك قد أُنْفِذَ إلى السلطان وأعلموه بركوب القوم ووقوفهم ، فأُنْفِذَ إلى اليزك من قواه وبعد ان فرغوا منهم حمل المسلمون عليهم ، وجرت بينهم حرب قتل فيها وجرح من الجانبين ، ودام القتال إلى أن فصل الليل بين الفريقين ، وأصبح المسلمون يكشفون الحال فوجدوا الشهداء في مصارعهم ، وعرفوا من عرفوه منهم ، فغشي المسلمين من ذلك حزن عظيم وكآبة شديدة ، ولم يبقوا الا رجلا معروفا مقداما أو قـوي يد لعماثرهم ، وذكر لقتلهم أسباب منها انهم قتلوهـم في مقابلة من قتل منهم ، وقيل إن الانكثار كان قد عزم على السير إلى عسقلان للاستيلاء عليها ، فما رأى أن يخلف تلك العدة في البلد وراءه والله أعلم

ذكر مسير العدو الى عسقلان وانتقاله الى طرف البحر من جانب الغرب

ولما كان التاسع والعشرون من رجب ركب الأفـرنج بأسرهم ، وقلعوا خيامهم وحملوها على دوابهم ، وساروا حتى قطعوا النهر إلى الجانب الغربي ، وضربوا الخيام على طريق عسقلان ، وأظهروا العزم على المسير على شاطئ البحر ، وأمر الانكثار باقي الناس أن يدخلوا إلى البلد ، وكانوا قد سدوا ثغره وثلّمه ، وأصلحوا ما انهدم منه ، وكان مقدم العسكر الخارج السائر الانكثار ، وجمع عظيم من الرجال والخيالة .

ولما كان مستهل شعبان اشتعلت نيران العدو في سحر ذلك

اليوم ، وعادتهم أنهم إذا أرادوا الرحيل اشعلوا نيرانهم ، وأخبر اليذك بحركتهم ، فأمر السلطان الثقل أن يرفع حتى يبقى الناس على ظهر ، ففعل الناس ذلك ، وهلك من الناس قماش كثير وحوائج كثيرة من السوق ، ولم يكن معهم خيل ولا ظهر يحمل جميع ما عندهم ، لأن كل انسان كان يحصل ما يحتاج إليه في أشهر ، وكل واحد من السوق عنده ما ينفد من منزل الى منزل في مزار متعبد ، لكن هذا المنزل لم يمكن أن يتخلف فيه أحد اقربه من الأفرنج الذين بعكا والخوف منهم .

ولما أن علا النهار شرع العدو في السير على جانب البحر ، وتفرقوا قطعاً كثيرة كل قطعة تحمي عن نفسها ، وقوى السلطان اليذك وأنفذ معظم العساكر قبالتهم ، فمضوا وقاتلوهم قتالاً شديداً ، وأنفذ ولده الملك الأفضل يخبر أنه قطع طائفة منهم عن الموافقة ، ولقد نازلناهم بالقتال ، ولو قويننا لأخـنناهم ، فسير السلطان خلقاً عظيماً من العسكر ، وسار هو بنفسه ، وأنا في خدمته حتى أتى أوائل الرمل ، فلقينا الملك العادل ، فأخبر أخاه أن تلك الطائفة قد التجأت بالطائفة الأولى ، ومعظم القوم عبروا نهر حيفا ، وقد نزلوا والباقيون قد لحقوا بهم ، وليس للمسير وراءهم حاصل إلا إتعاب العسكر ، وضياح النشاب لا غير ، فتراجع السلطان عن القوم لما تحقق ذلك ، وأمر طائفة من العسكر أن تسير وراء الثقل تلحق ضعيفهم بقويهم ، ويكف عنهم من يلحق بهم من العدو والطماعة ، وسار هو حتى وصل الى القيمون عصر ذلك النهار فنزل ، وضرب له الدهليز وشقة دائرة حوله لا غير واستحضر الجماعة فأكلوا شيئاً واستشارهم فيما يفعل .

المنزل الثاني : اتفق رأي جماعة على أنهم يرحلون بكرة غد ، هذا وقد رتب حول الأفرنج يزكا يبيتون حوله يرقبون أمره ، ولما كان صبح ثاني شعبان رحل السلطان الثقل ، وأقام هو بترصد أخبار العدو ، فلم يصله منهم شيء إلى أن علا النهار ، فسار في أثر الثقل حتى أتى قرية يقال لها

الصباغين ، فجلس ساعة يتقرب أخبار العدو ، وكان قد خلف جريك قريب العدو ، وبعث خلقا عظيما باتوا قريب العدو ، فلم يصله خبر أصلا ، فسار حتى أتى الذقل في منزلة يقال لها عيون الأساود ، ولما بلغنا المنزل رأى خياما فسأل عنها ، فقيل أنها خيام الملك العادل ، فعدل لينزل عنده ، فأقام عنده ساعة ، ثم أتى خيمته ، وفقد الخبز في هذه المنزلة بالكلية ، وغلا الشعير حتى بلغ درهما ، وبلغ رطل البقسماط درهمين ، ثم أقام السلطان حتى عبر وقت الظهر وركب وسار إلى موضع يسمى الملاحه ، يكون منزلا للعدو إذا رحلوا من حيفا ، وكان قد سبق ليدفد المكان هل يصلح للمصاف أم لا ، ويتفق اراضي قيسارية بأسرها الى الشعراء وعاد إلى المنزل بعد دخول وقت العشاء الآخرة وقد أخذ منه التعب ، وسألته عما بلغه من خبر العدو ، فقال وصل إلينا من أخبرنا أنه مارحل من حيفا إلى عصر يومنا هذا ، يعني ثاني شعبان ، وها نحن مقيمون مرتقبون أخبارهم ، ويكون العمل بمقتضاها ، وبات تلك الليلة ، وأصبح مقيما بتل الزلزلة ينتظر العدو ، ونادى الجاويش بالعسكر للعرض ، فركب الناس على ترتيب المصاف وأهبطه ، ولما علا النهار نزل السلطان في خيمته وأخذ نصيبا من الراحة بعد الغداء ، ومثول جماعة من الأمراء إلى خدمته ، وأخذ رأيهم فيما يصنعون ، ثم صلى الظهر وجلس يطلق أثمان الخيول المجروحة وغيرها إلى العشاء الآخرة ، من مائة دينار إلى مائة وخمسين دينارا وزائد وناقص ، فما رأيت أفسح صبرا منه ، ولا أبسط وجهها في العطاء ، واتفق الرأي على رحيل الذقل في عصر ذلك اليوم إلى مجدل يابا .

المنزل الثالث : وأقام هو جريدة بالمنزل إلى الصباح رابع الشهر ، وركب وسار في رأس الشهر الجاري إلى قيسارية ونزل هناك وبلغ رطل البقسماط أربع دراهم وربع الشعير درهمين ونصفا ، والخبز لم يوجد أصلا ، ونزل في خيمته وأكل خبزا وصلى الظهر وركب إلى طريق العدو لتجديد ارتياده في ضرب المصاف ، ولم يعد إلى أن دخل وقت العصر ، فجلس ساعة ، وأخذ جزءا من

الراحة ، ثم عاد وركب ، وأمر الناس بالرحيل ، ورمى خيمته ، ورمى الناس خيامهم في أواخر النهار .

المنزل الرابع : وكان الرحيل إلى رابية متأخرة عن تلك الرابية لكنها في المنزل أيضا ، فنزل هناك الذقل وعاد هو من ركوبه بعيد المغرب ، وفي ذلك المنزل أتى باثنين من الأفرنج قد تخطفهم اليك فأمر بضرب رقابهم فقتلا ، وتكاثر الناس عليهما بالسيف تشفيا ، ثم بات هناك وأصبح مقيما بالمنزلة لأنه لم يصح عن العدو رحيل ، وأنفذ إلى الذقل حتى يعود إليه في تلك الليلة ، مما طرأ على الناس من الضيق في المأكول والقضم ، وركب في وقت عادته إلى جهة العدو ، وأشرف على قيسارية وعاد إلى الذقل قريب الظهر ، وقد وصل الخبر أن العدو لم يرحل بعد من الملاحه ، وأحضر عنده اثنان أيضا قد أخذوا من أطراف العدو فقتلا شر قتلة ، وكان في حدة الغيظة لما جرى على أسرى عكا ، ثم أخذ جزءا من الراحة ، وجلس بعد صلاة الظهر ، وحضرت عنده وقد أحضر بين يديه من العدو فارس مذكور قد أخذ وهيئته تخبر عن أنه متقدم فيهم ، فأحضر ترجمانا وبحث عن أحوال القوم وسأله كيف يسوى الطعام عندهم ؟ فقال : أول يوم رحلنا من عكا كان الإنسان يشبع بستة قراطيس ، فلم يزل السعر يغلو حتى صار يشبع بثمانيه قراطيس ، وسأل عن سبب تأخرهم في المنازل؟ فقال : لانتظار المراكب بالرجال والميرة ، فسأل عن القتلى والجرحى في رحيلهم ، فقال : كثير فسأل عن الخيل التي هلكت في ذلك اليوم ، فقال مقدار أربعمئة فرس ، فأمر بضرب عنقه ، ونهى عن التمثيل به ، فسأل الترجمان عما قال السلطان ، فأخبره بما قال ، فتغير تغيرا عظيما وقال : أنا أخلص لكم أسيرا من عكا ، فقال رحمه الله بل أميرا ؟ فقال : لا أقدر على خلاص أمير فشفع الطمع فيه وحسن خلقه ، فلني مارأيت أتم خلقا منه مع ترف في الأطراف ورفاهية ، فأمر أن يترك الآن ويؤخر أمره فصافه وعاتبه على ما بدا منهم من الغدر وقتل الأسرى ، فاعترف بأنه قبيح وأنه لم يجر إلا برضا الملك وحده ، وركب السلطان بعد صلاة

العصر على عادته وبعد أن نزل أمر بقتل الفارس المذكور ، وأتى بعده بإثنين فأمر بقتلهما وبات في ذلك المنزل المذكور ، وذكر له في السحر أن العدو قد تحرك نحو قيسارية وقارب أوائلهم ، فرأى أن يتأخر من طريق العدو منزلا آخر .

المنزل الخامس : فرحل ورحل الناس إلى قريب التل الذي كنا عليه ، فنزل الناس ، وضربت الخيام ، ومضى هو يرتاد الأراضي الكائنة في طريق العدو ، ولينظر أيها أصلح للمصاف ، ونزل قريب الظهر ، واستدعى أخاه الملك العادل ، وعلم الدين سليمان ، وأخذ رأيهما فيما يصنع ، وأخذ جزءا من الراحة ، وأذن الظهر فصلى وركب ليشرف وليكشف عن العدو ويتتسم أخباره ، وأتاه اثنان من الأفرنج قد نهبا ، فأمر بقتلهما فقتلا ، ثم أتى باثنين آخرين فقتلا أيضا ، وجيء في أواخر النهار باثنين فقتلا أيضا ، وعاد من الركوب وصلى صلاة المغرب وجلس على عادته ، واستدعى أخاه وصرف الناس وخلي به إلى هزيع من الليل ، ثم بات وأصبح ونادى الجاويش لعرض الحلقة لاغير ، وركب إلى جهة العدو ووقف على تلؤل مشرفة على قيسارية ، وكان العدو قد وصل إليها نهار الجمعة سادس شعبان ، ولم يزل يعرض هناك إلى أن علا النهار ، ثم نزل وأكل الطعام ، وركب إلى أخيه ، وعاد بعد صلاة الظهر ، وأخذ جزءا من الراحة ، وجلس وأتى بأربعة عشر من الأفرنج وامرأة أفرنجية بينهم أسيرة ، وهي بنت الفارس المذكور ومعها أسيرة مسلمة قد أخذتها ، فأطلقت المسلمة ، ورفع الباقون إلى الزرد خانة ، وهؤلاء أتى بهم من بيروت أخذوا في مركب من جملة عدة كثيرة ، فقتلوا كل ذلك في نهار السبت سابع الشهر ، وهو في المنزلة ينتظر رحيل العدو مجمعا على لقائه إذا رحل .

المنزل السادس : ولما كان صبيحة يوم الأحد الثامن ركب السلطان على عادته ، ثم نزل ووصله من أخيه أن العدو على حركة ، وكانت الأطلاب قد باتت حول قيسارية في مواضعها ، فأمر بمد الطعام ، وأطعم الناس ، فوصل ثان وأخبر أن القوم قد ساروا

فأمر بالكؤوس فدقت وركب وركب الناس معه ، وسار وسرت في خدمته حتى أتى العدو، وصاف الأطلاب حوله وأمرهم بقتالهم ، وأخرج الجاليش فكان الذشاب بينهم كالطر ، وكان عسكر العدو قد تب فكانت الرجالة حوله كالسور ، وعليهم اللبود الثخينة والزربيات السابغة المحكمة ، بحيث يقع فيهم الذشاب ولايتأثرون ، وهم يرموننا بالزنبورك ، فيجرح خيل المسلمين وخيالهم ، ولقد شاهدتهم وينغرز في ظهر الواحد منهم الذشاب والعشر ، وهو يسير على هيئة من غير انزعاج ، وثم قسم آخر من الرجالة مستريح يمشون على جانب البحر ولا قتال عليهم ، فإذا تعبت هذه المقاتلة أو أثخنهم الجراح قام مقامهم المستريح ، واستراح القسم المقاتل ، هذا والخيالة في وسطهم لا يخرجون عن الرجالة إلا في وقت الحملة لا غير ، وقد انقسموا أيضا ثلاثة أقسام ، القسم الأول الملك العتيق كي وجماعة الساحلية معه في المقدمة ، والاندكتار والفرنسيس معه في الوسط ، وأولاد الست أصحاب طبرية ، وطائفة أخرى في الساقة ، وفي وسط القوم برج على عجلة وعلمهم على ما وصفته من قبل أيضا كالمنارة العظيمة .

هذا ترتيب القوم على ما شاهدته وأخبر به من خرج منهم من الأسرى والمستأمنين وساروا على هذا المثل وسوق الحرب قائمة بين الطائفتين والمسلمون يرمونهم بالذشاب من جوانبهم ، ويحركون عزائمهم حتى يخرجوا وهم يحفظون نفوسهم حفظا عظيما ، ويقطعون الطريق على هذا الوضع ، ويسرون سيرا رفيقا ، ومراكبهم تسير في مقابلتهم في البحر إلى أن أتوا منازلهم ، وكانت منازلهم قريبة لأجل الرجالة فإن المستريحين كانوا يحملون أثقالهم وخيمهم لقلة الظهر عندهم ، فانظر إلى صبر هؤلاء القوم على الأعمال الشاقة عن غير لين ولا نفد ، وكانت منزلهم قاطع نهر قيسارية يسر الله فتحها .

المنزل السابع : ولما كانت صبيحة التاسع وصل من أخبر أن

العدو قد ركب سائرا فركب السلطان أول الصبح ، وطلب الأطلاب ، واخرج من كل جانب جاليشا ، فسار يطلب القوم فأتاهم وهم سائرون على عادتهم ثلاثة أقسام ، وطاف الجاليش حولهم من كل جانب ، ورموهم بالذشاب وهم سائرون ثلاثة أقسام على المثال الذي حكيت ، وكلما ضعف قسم عاونه الذي يليه ، وهم يحفظ بعضهم بعضا ، والمسلمون محدقون بهم من ثلاثة جوانب ، والقتال بينهم شديد ، والسلطان يقرب الأطلاب ، ورأيت وهو يسير بنفسه بين الجاليش وذشاب القوم يجاوزه ، وليس معه إلا صبيان بجنيبه لا غير ، وهو يسير من طلب إلى طلب يحثهم على التقدم ويأمرهم بمضايقة القوم ومقاتلتهم ، والكوس تدق والبوقات تنعر والصياح بالتهليل والتكبير يعلو ، هذا والقوم على أتم ثبات على ترتيبهم ولا يتغيرون ولا ينزعجون ، وجرت حالات كثيرة ، ورجالهم تجرح المسلمون وخيولهم بالزنبورك والذشاب ، ولم نزل حوالهم نقاتلهم ونحمل عليهم وهم يكررون بين أيدينا ويفرون إلى أن أتوا نهرا يقال له نهر القصب ونزلوا عليه ، وقد قامت الظهيرة ، وضربوا خيامهم ، وتراجع الناس عنهم ، فإنهم كانوا إذا نزلوا أيس الناس منهم ورجعوا عن قتالهم .

وفي ذلك اليوم قتل من فرسان الاسلام وشجعانه أياز الطويل بعض ممالك السلطان ، وكان قد فتك فيهم ، وقتل خاقا من خيالتهم وشجعانهم ، وكانت قد فاضت شجاعته بين العسكرين بحيث أنه جرت له وقعات كثيرة صدقت أخبار الأوائل وصار بحيث إذا عرفه الأفرنج في موضع يخافونه ، تقنطرت به فرسه واستشهد ، وحزن المسلمون عليه حزنا عظيما ، ودفن على تل مشرف على البركة وقتل عليه مملوك له ونزل السلطان بالثقل على البركة وهي موضع تجتمع فيه مياه كثيرة ، وأقام في تلك المنزلة إلى ما بعد صلاة العصر وأطعم الناس خبزا واستراحوا ساعة ، وثم رحل وأتى نهر القصب ونزل عليه أيضا ، فشرب منه قليلا من أعلاه والعدو يشرب من أسفله ليس بيننا إلا مسافة يسيرة ، وبلغ ربع الشعير أربعة دراهم ، والخبز موجود كثيرا ، وسعره بالرطل

بنصف درهم وأقام ينتظر رحيل الأفرنج حتى يرحل في مقابلتهم، فباتوا وبتنا أيضا .

ذكر وقعة جرت

وذلك أن جماعة من العسكر الاسلامي كانوا يتشوفون على العدو ، فصادفوا جماعة منهم يتشوفون أيضا على العسكر الاسلامي ، فظفروا بهم وهجموا عليهم وجرى بينهم قتال عظيم ، فقتل من العدو جماعة ، وأحس بهم عسكر العدو فثار إليهم منهم جماعة ، واتصل الحرب وقتل أيضا من المسلمين نفران ، وأسر من العدو ثلاثة ، ومثلوا بخدمة السلطان فسألهم عن الأحوال فأخبروا أن ملك الانكتار كان قد حضر عنده بعدا اثنان بدويان ، وأنهما أخبرا بقلّة العسكر الاسلامي ، وذلك الذي أطمعه حتى خرج ، وأنه لما كان بالأمس - يعني يوم الاثنين - رأى من المسلمين قتالا عظيما واستكثر الاطلاب وأنه جرح زهاء ألف نفر ، وقتل جماعة وأن ذلك هو الذي أوجب اقامته اليوم حتى يستريح عسكره ، وأنه لما رأى ما أصابهم من القتال العظيم وكثرة المسلمين أحضر البدويين عنده وأوقفهما وضرب أعناقهما ، وأقمنا في ذلك اليوم في تلك المنزلة لقامة العدو بها وهو الثلاثاء العاشر من شعبان .

المنزل الثامن : ولما كان ظهر اليوم المذكور رأى السلطان الرحيل والتقدم إلى قدام العدو ، فدق الكوس ورحل الناس ، ودخل في شعراء أرسوف حتى توصلها إلى تل عند قرية تسمى دير الراهب ، فنزل هناك ودهم الناس الليل فتقطعوا في الشعراء وأصبح مقيما ينتظر بقية العساكر إلى صباح الأربعاء الحادي عشر من شعبان المذكور وتلاحقت العساكر وركب يرتاد موضعا يصلح للقتال وإلقاء العدو ، وأقام ذلك اليوم أجمع هناك .

ومن إخبار العدو في تلك المنزلة أنه أقام على نهر القصب ذلك

اليوم أيضا ، وأنه لحقته نجدة من عكا في ثمان بطس كبار ، واليزك الاسلامي حوله يواصلون الاخبار المستجدة بهم ، وجرى بين اليزك وبين حشاشة العدو قتال وجرح من الطائفتين .

ذكر مراسلة جرت في ذلك اليوم

وذلك أن العدو طلب من اليزك من يتحدث معه ، وكان مقدم اليزك علم الدين سليمان فإنها كانت ذوبته ، فلما مضى إليهم من سمع كلامهم ، وكان كلامهم طلب الملك العادل حتى يتحدثوا معه ، فاستأنن ومضى وبات تلك الليلة في اليزك وتحدثوا معه ، وكان حاصل حديثهم أنه قد طال بيننا القتال ، وقد قتل من الجانبين الرجال الأبطال ، وأنا نحن جئنا في نصره أفرنج الساحل فاصطلدوا أنتم وهم ، وكل منا يرجع الى مكانه ، وكتب السلطان إلى أخيه في صبيحة يوم الخميس الثاني والعشرين رقعة يقول له فيها : « إن قدرت أن تطاول الأفرنج فلعلهم يقيمون اليوم حتى يلحقنا التركمان فإنهم قد قربوا منا » .

ذكر اجتماع الملك العادل والانكثار

ولما علم الانكثار وصول الملك العادل إلى اليزك طلب الاجتماع به ، فأجابه إلى ذلك ، فاجتمعا بفرقة من أصحابهما ، وكان يترجم بينهم ابن الهذري ، وهو من أفرنج الساحل من كبارهم ، ورأيت يوم الصلح وهو شاب حسن إلا أنه محروق الحية على ما هو شعارهم .

وكان الحديث بينهما أن الانكثار شرع في ذكر الصلح ، وأن الملك العادل قال له : أنتم تطلبون الصلح ، ولاتذكرون مطالبكم

فيه ، حتى أتوسط أنا الحال مع السلطان ، فقال له الانكثار:
القاعدة أن تعود البلاد كلها إلينا ، وتنصرفوا إلى بلادكم فأخشن له
الجواب وجرت منافرة اقتضت أنهم رحلوا بعد انفصالهم .

ولما أحس السلطان برحيلهم أمر الذقل بالرحيل ، ووقف هو
وعبي الناس تعبئة القتال ، ووقف يتدسم مايرد إليه من أخبار
العدو ، وسار الذقل الصغير أيضا حتى قارب الذقل الكبير ، ثم ورد
أمر السلطان بعودهم إليه فعادوا ووصلوا وقد دخل الليل ، وتخبط
الناس تلك الليلة تخبطا عظيما واستدعى أخاه ليعرفه ماجرى بينه
وبين الملك ، وخلا به لذلك ، وذلك في ليلة الجمعة ليلة الثالث عشر .

وأما العدو فانه سار ونزل على موضع يسمى البركة
أيضا ، يشرف على البحر ، وأصبح السلطان في يوم الجمعة متطلعا
إلى أخبار العدو ، فأحضر عنده اثنان من الأفرنج قد تضطفهما
اليزك ، فأمر بضرب أعناقهما ، ووصل من أخبر أن العدو لم يرحل
اليوم من منزلته ذلك ، فنزل السلطان واجتمع بأخيه يتحدثان في هذا
الامر ، ومايصنع مع العدو ، وبات تلك الليلة في تلك المنزلة

ذكر وقعة أرسوف وهي أنكت في قلوب المسلمين

ولما كان يوم السبت الرابع عشر بلغ السلطان أن العدو حرك
الرحيل نحو أرسوف ، فركب ورتب الأطلاب للقتال ، وعزم على
مضايقتهم في ذلك اليوم ومصادمتهم ، وأخرج الجاليش من كل
طلب ، وسار العدو حتى قارب شعراء أرسوف وبساتينها فأطلق
عليهم الجاليش النشاب ولزمهم الأطلاب من كل جانب والسلطان
يقرب بعضها ويوقف بعضها ليكون رداً ، ويضايق العدو مضايقة
عظيمة ، والتحم القتال واضطربت ناره من الجاليش ، وقتل منهم
وجرح ، فاشتدوا في السير عساهم يبلغون المنزلة فينزلوا ، واشتد
بهم الامر ، وضاق بهم الخناق ، والسلطان يطوف من الميمنة إلى

الميسرة يحدث الناس على الجهاد ، ولقيته مرارا ليس معه إلا صبيان بجنييه لا غير ، ولقيت أخاه وهو على مثل هذه الحال والنشاب يتجاوزهما ولم يزل الأمر يشتد بالطمع بالعدو ، وطمع المسلمون فيهم طمعا عظيما حتى وصل أوائل راجلهم إلى بساطتين أرسوف ، ثم اجتمعت الخيالة وتواصلوا على الحملة خشية على القوم ورأوا أنهم لا ينجيهم إلا الحملة .

ولقد رأيتهم وقد اجتمعوا في وسط الرجالة وأخذوا رماحهم وصاحوا صيحة الرجل الواحد ، وفرج لهم رجالتهم ، وحملوا حملة واحدة من الجوانب كلها ، فحملت طائفة على الميمنة وطائفة على الميسرة وطائفة على القلب ، فاندفع الناس بين أيديهم ، واتفق أني كنت في القلب ففر القلب فرارا عظيما ، فنويت التحيز إلى الميسرة ، وكانت أقرب إلي ووصلتها وقد انكسرت كسرة عظيمة ، وفرت أشد فرارا من الكل ، فنويت التحيز إلى طلب السلطان وكان ردا الأطلاب كلها كما جرت العادة ، ولم يبق للسلطان فيه إلا سبعة عشر مقاتلا لا غير ، وأخذ الباقون إلى القتال ، لكن الأعلام كلها باقية ثابتة والكوس تدق لا تقرر ، وأما السلطان فإنه لما رأى منازل بالمسلمين من هذه النازلة سار حتى أتى إلى طلبه ، فوجد فيه هذا الذفر القليل ، فوقف فيه والناس يذفرون من الجوانب وهو يأمر أصحاب الكوس بالدق بحيث لا يفترون ، وكلما رأى قارا يأمر من يحضره عنده ، وفي الجملة ما قصر الناس بفرارهم فإن العدو حمل حملة ففروا ، ثم وقف خوفا من الكمين ، فوقفوا وقاتلوا ، ثم حمل حملة ثانية ففروا وهم يقاتلون في فرارهم ، ثم وقف فوقفوا ، ثم حمل حملة ثالثة حتى بلغ إلى رؤوس رواب هناك ، وأعالى تلؤل ، ففروا إلى أن وقف العدو فوقفوا ، وكان كل من رأى طلب السلطان واقفا والكوس تدق يستحي أن يجاوزه ، ويخاف غائلة ذلك فيعود إلى الطلب فاجتمع في القلب خلق عظيم ووقف العدو قبالتهم على رؤوس التلؤل والروابي ، والسلطان واقف في طلبه والناس يجتمعون عليه حتى أتت العساكر بأسرها ، وخاف العدو أن يكون في الشعراء

كـمـين فـتـراجـعـوا يـطـلـبـون المـنـزلة ، وعاـد السـلـطـان إـلى تـل فـي أوائل
الشـعـراء ونـزل عـلـيـه فـي خـيـمـته ، ولـقـد كـنـت فـي خـدـمـته أسـلـيـه وهـو لا يـقـبـل
الـسـلـو وظـل عـلـيـه بـمـنـدـيل ، وسـألـنـاه أن يـطـعـم شـيئـا ، فأحـضـر لـه شـيء
لـطـيـف ، فـتـناوـل شـيئـا يـسـيـرا وبعـث النـاس لـلـسـقـي فإن المـكـان كان
بـعـيـدا ، وجـلس يـنـتـظـر النـاس مـن العـود مـن السـقـي ، والجـرحـى
يـحـضـرون بـيـن يـدـيـه ، وهـو يـتـقـدم بـمـدا واطـهم ، وحـمـلـهم وقـتـل فـي ذلـك
الـيـوم رـجـالـة كـثـيـرة وجـرح جـمـاعـة مـن الطـائـفـتـين ، وكان مـمـن ثـبـت
الـمـلـك العـادـل والطـواشـي أـيـمـاز النـجـمـي والمـلـك الـافـضـل ولـده ، وصـدم فـي
ذلـك الـيـوم واذفـتـح دـمـل كان فـي وـجـهـه وسـال مـنـه دـم كـثـيـر عـلى وـجـهـه
وهـو صـابـر مـحـتـسـب فـي ذلـك كـلـه ، وثـبـت أـيـضـا طـلـب المـوـصـل ومـقـدـمه
عـلـاء اللـيـن ، وشـكـره السـلـطـان عـلى ذلـك ، وتـفـقـد النـاس بـعـضـهم
بـعـضـا فـوجـدوا أن قـد اسـتـشـهـد جـمـاعـة مـن العـسـكـر عـرف مـنـهم
شـخـصـان أـمـير كـبـيـر مـمـلوك وكان شـجـاعـا مـعـروفا ، وقـايـمـاز
العـادـلي ، وكان مـذـكـورا ، واقـوش وكان شـجـاعـا وجـرح خـلـق كـثـيـر
وخـيـول كـثـيـرة ، وقـتـل مـن العـدو جـمـاعـة ، وأسـر واطـد وأحـضـر فـأمر
بـضـرب عـنـقـه ، وأخـذت مـنـهم خـيـول أربـعة ، وكان قـد تـقـدم رـحـمـه اللـه
إـلى الـثـقـل أن يـسـيـر إـلى العـوـجـاء ، وذـكـر إن المـنـزل يـكـون عـلى
العـوـجـاء ، فاسـتـأنـتـه وتـقـدمت إـلى المـنـزل ، وجـلس هـو يـنـتـظـر اجـتـمـاع
العـسـاكـر وما يـرد مـن أخـبار العـدو ، وكان العـدو قـد نـزل عـلى أرسـوف
قـبـلـيـها .

الـمـنـزل التـاسـع : وسـرت بـعد صـلاة الظـهر حـتى أتـيت الـثـقـل ، وقـد
نـزل قاطـع النـهر المـعـروف بـالعـوـجـاء فـي مـنـزلة خـضـراء طـيـبة عـلى جانـب
النـهر ، ووـصـل السـلـطـان قاطـع المـنـزلة وأخـر النـهار ، وازدحـم
النـاس عـلى القـنـطـرة فنـزل عـلى تـل مشـرف عـلى النـهر ولم يـعـد إـلى
الخـيـمة ، وأمر الجـاويـش أن يـنادي فـي العـسـكـر بـالـعـبـور إـليـه ، وكان
فـي قـلـبـه مـن الـوـقـعة أمر لا يـعـلمـه إلا اللـه تـعـالـى ، والنـاس بـيـن جـريـح
الجـسـد ، وجـريـح القـلب ، وأقام السـلـطـان إـلى سـحـر الخـامـس عـشر
ودق الكـوس وركـب وركـب النـاس ، وسار راجـعا إـلى جـهة العـدو حـتى
وـصـل إـلى قـريـب أرسـوف وصدف الاطـلاب لـلقـتـال رجـاء خـروج العـدو

ومسيره حتى يضاف ، فلم يرحل العدو في ذلك اليوم لما نالهم من التعب والجراح ، وأقام قبالتهم إلى آخر النهار وعاد إلى منزلته التي بات فيها .

ولما كانت صبيحة السادس عشر دق الكوس وركب وركب الناس وسار نحوهم ، ووصل خبر العدو أنه قد رحل طالبا جهة يافا فقاربهم مقاربة عظيمة ورتب الأطلاب ترتيب القتال ، وأخرج الجاليش ، وأحذق العسكر الاسلامي بالقوم ، وألقوا عليهم من الذشاب ماكاد يسد الأفق وقاتلت قلوبهم قتال الحنق ، وقصد رحمه الله تحريك عزائمهم على الحملة حتى إذا حملوا ألقى الناس عليهم وقصدوهم ، ويعطي الله النصر لمن يشاء ، فلم يحملوا وحفظوا نفوسهم وساروا مصطفين على عادتهم حتى أتوا نهر العوجاء ، وهو النهر الذي منزلتنا أعلاه ، فنزل في أسفله وعبر بعضهم إلى غربي النهر ، وأقام الباقون من الجانب الشرقي ، فلما علم الناس بنزولهم تراجع الناس عنهم ، وعاد السلطان إلى الذقل ونزل في خيمته ، وأطعم الطعام وأتى بأربعة من الأفرنج قد أخذتهم العرب ، ومعهم امرأة فرفعوا إلى الزربخانات ، وأقام بقية ذلك اليوم يكتب الكتب إلى الأطراف باستحضار بقية العساكر ، وحضر من أخبر أنه قتل من العدو يوم أرسوف خيول كثيرة ، وأنه تتبعتها العرب وعدوها فزادت على مائة وأمر السلطان أن رحلت الجمال ، وتقدمت إلى الرملة وبات هو بتلك المنزلة .

المنزل العاشر : ولما كان سابع عشر صلى الصبح ورحل ورحل معه الذقل الصغير ، وسار يريد الرملة ، وأتى باثنين من الأفرنج فضرب أعناقهم ، ووصل من اليك من أخبر أن العدو رحل من يافا ، وسار السلطان إلى أن أتى الرملة ، وأتى باثنين من الأفرنج أيضا فسألهم عن أحوالهم فذكروا أنهم ربما أقاموا بيافا أياما ، وفي أنفسهم عمارتها ، وشحنها بالرجال والعدد ، فأحضر السلطان أرباب مشورته وشاورهم في أمر عسقلان ، وأنها هل تخرب أو تبقى ، واتفق الرأي على أن يتخلف الملك العادل ومعه

طائفة من العسكر مقارب العدو ليعرف أحوالهم وإيصالها وأن يسير هو ويخرب عسقلان خشية أن يستولي عليها الأفرنج ، وهي عامرة ، فيقتلوا من بها من المسلمين ، ويأخذوا بها القدس الشريف ، ويقطعوا بها طريق مصر ، وخشي السلطان من ذلك ، وعلم عجز المسلمين عن حفظها لقرب عهدهم من عكا ، وما جرى على من كان مقيما بها ، ويخيفوا الناس عن الدخول إلى عسقلان ، فانخرت القوة في عسكر الاسلام لحفظ القدس المحروس فتعين لذلك خراب عسقلان ، فسار الذقل والجمال من أول الليل ، وتقدم إلى ولده الملك الأفضل ، أن سار عقيب نصف الليل ، وسار هو وأنا في خدمته سحر الأربعاء .

المنزل الحادي عشر : وهو على عسقلان ، ولما كان يوم الأربعاء ثامن عشر الشهر وصل السلطان إلى يينا ، فنزل بها ضحى ، وأخذ الناس راحة ، وسار حتى أتى أرض عسقلان وقد ضربت خيمته بعيدا منها فبات هناك مهموما بسبب الخراب ، وما نام الا قليلا ، ولقد دعاني في خدمته سحرا ، وكنت فارقت خدمته بعد مضي نصف الليل ، فحضرت وبدأ بالحديث في معنى خرابها ، وأحضر ولده الملك الأفضل وشاوره في ذلك وطال الحديث في المعنى ، ولقد قال لي : والله لأن أفقد أولادي بأسرهم أحب الي من أن أهدم منها حجرا واحدا ، ولكن إذا قضى الله ذلك لحفظ مصلحة المسلمين كان ، ثم استخار الله تعالى ، فأوقع الله في نفسه أن المصلحة في خرابها لعجز المسلمين عن حفظها ، فاستحضر الوالي قيصر بها ، وهو من كبار مماليكه ، وذوي الآراء منهم فأمره بجمع المال فيها ، ولقد رأيت وقد اجتاز بالسوق والوطاق بنفسه يستنفر الناس للخراب ، وقسم السور على الناس ، وجعل لكل أمير وطائفة من الناس والعسكر بدنة معلومة وبرجا معلوما ، يخربونه ، وبخل الناس البلد ووقع الضجيج والبكاء ، وكان بلدا نضرا خفيفا على القلب محكم الاسوار عظيم البناء مرغوبا في سكناه ، فلحق الناس عليه حزن عظيم ، وعظم عويل أهله على مفارقة أوطانهم ، وشرعوا في بيع مالا يمكن حملة ، فبيع مايساوي عشرة دراهم بدرهم

واحد ، واختبئوا بالبلد ، وخرج أهله إلى العسكر بذرايعهم وذسائهم خشية أن يهجم الأفرنج ، وبذلوا في الكراء أضعاف مايساوي ، قوم إلى مصر ، وقوم إلى الشام وقوم يمشون إذ لم يقع لهم كراء ، وجرت أمور عظيمة ، وفتنة هائلة لعلها لم تختص بالذين ظلموا ، وكان هو بنفسه وولده الملك الأفضل يستعملان الناس في الخراب والحث عليه خشية أن يسمع العدو فيحضر ولا يمكن خرابها ، وبات الناس في الخيام على أتم حال من التعب والنصب ، وفي تلك الليلة وصل من جانب الملك العادل أن الأفرنج تحدثوا معه في الصلح وأنه خرج إليه ابن الهذلي وتحدث معه وأنه طلب جميع البلاد الساحلية ، فرأى السلطان أن ذلك مصلحة ، لما رأى في أنفس الناس من الضجر والسأمة من القتال والمصاهرة ، وكثرة ما علاهم من الديون ، وكتب إليه يسمح في الحديث في ذلك وفوض أمر ذلك إلى رايه ، وأصبح في العشرين على الإصرار على الخراب واستعمل الناس فيه وحثهم عليه ، وأباحهم الهري الذي كان نخيرة في البلد للعجز عن نقله وضيق الوقت والخوف من هجوم الأفرنج ، وأمر بحريق البلد فأضرمت النار في بيوته ودوره ورفض أهله بواقي الأقمشة للعجز عن نقلها ، والأخبار تتواتر من جانب العدو بعمارة يافا ، وكتب الملك العادل يخبر أن القوم لم يعلموا بخراب البلد ، وأنه سوف يقوم ، وطول الحديث ، لعلنا نتمكن من الخراب ، وأمر بدشو أبراج البلد بالأحطاب وأن تحرق وأصبح الحادي والعشرون فركب يحد الناس ، ودام يسـتـعملهم على التـخـريب

ويطوف عليهم بنفسه حتى التاثر مزاجه التياثا قويا امتنع بسببه من الركوب والغذاء يومين ، وأخبار العدو تتواصل إليه في كل وقت ، ويجري بينهم وبين اليك والعسكر وقعات وقلبات ، وهو يواظب على الحث على الخراب ، ونقل الثقل إلى قريب البلد ليعاونوا الغلمان والحمالين وغيرهم في ذلك ، فحرب من السور معظمه ، وكان عظيم البناء بحيث أنه كان عرضه في مواضع تسعة أذرع وفي مواضع عشرة أذرع ، وذكر بعض الحجارين للسلطان وأنا حاضر أن عرض السور الذي ينقبون فيه مقدار رمح ، ولم يزل

التخريب والحريق في البلد وأسواره إلى سلخ شعبان ، وعند ذلك وصل من جريدك كتاب يذكر فيه أن القوم يتفلسفون وصاروا يخرجون من يافا يغيرون على البلاد القريبة منها ، فتحرك السلطان لعله يبلغ منهم غرضاً في غرتهم ، فعزم على الرحيل ، وعلى أن يخلف في عسقلان حجارين ومعهم خيل تحميهم ويستنهضونهم في الخراب ، ثم رأى أن يتأخر بحيث يحرق البرج المعروف بالاسبتار ، وكان برجا عظيما مشرفا على البحر كالقلعة المنيعة ، ولقد بخلته وطفته فرأيت بناءه أحكم بناء يقرب من لا تعمل فيه المعاول ، وإنما أراد أن يحرقه حتى يبقى بالحريق قابلا للخراب ويعمل الهدم فيه ، وأصبح مستهل رمضان فأمر ولده الملك الأفضل أن يباشر ذلك بنفسه وخواصه ، ولقد رأيته يحمل الخشب هو وخواصه لحريق البرج ، ولم يزل الناس ينقلون الخشب ويحشونه في البرج حتى امتلأ ، ثم أطلقت فيه النار فاشتعل الخشب وبقيت النار تشتعل فيه يومين بلياليهما ، ولم يركب السلطان في ذلك اليوم تسكينا لمزاجه وعرض لي أيضا تشوش مزاج اقتضى انقطاعي عنه في ذلك اليوم ، ولقد تردد إلى من سأل عن مزاجي من عنده ثلاث مرات مع اشتغال قلبه بذلك المهم ، فالله تعالى يرحمه لقد ماتت محاسن الأخلاق بموته .

ذكر رحيله إلى الرملة

ثم رحل السلطان ثاني رمضان نصف الليل خشية على مزاجه من الحر ، ووصل بينا ضحوة النهار ونزل خيمة أخيه ، واستعلم منه أخبارهم ساعة ، ثم ركب ونزل في خيمته وبات في تلك المنزلة وأصبح ثالث الشهر راحلا إلى جهة الرملة فسار حتى أتاه ضحوة النهار ، ونزل بالثقل الكبير نزول إقامة ورتب العسكر ميمنة وميسرة وقلبا ، وأطعم الناس الطعام وأخذ جزءا من الراحة ، وركب بين صلاتي الظهر والعصر وسار إلى لد ورآها

ورأى بيعتها وعظم بنائها ، فأمر بخرابها وخراب قلعة الرملة فوقع الخراب في الموضعين في ذلك اليوم ، وفرق الناس فرقا لتخريب المكانين ، وأباح ما فيها من التبن والشعير في الأهراء السلطانية ، وأصر من كان فيها من المقيمين بالانتقال إلى الموضع العامة وما كان بقي في المكانين إلا نفر يسير ، وظل الناس يخربون إلى أن أمسى المساء ثم عاد إلى خيمته وأصبح رابع رمضان فأقام الحجارين في المكانين ورتب عليهم من يستتجزهم في ذلك ، وهو يتردد عليهم في الأصائل حتى جاء وقت المغرب فمد الطعام ، وأفطر الناس وانفصلوا إلى خيمتهم ، ووقع له أن يسير خفية في نفر يسير يشاهد أحوال القدس ، فسار من أول الليل حتى أتى بيت نوبة فبات فيها حتى أتى الصباح وصلى ، ثم سار حتى أتى القدس في خامس الشهر وخلف أخاه في العسكر يحث الناس على الخراب ، وأقام ذلك اليوم يتصفح أحوال القدس في عمارته وميرته وعدته ورجاله وغير ذلك ، وظفر في ذلك غلمان الطواشي قايماز بنفـر مـن النصرى ، ومعهم كتب قد كتبها الوالى إلى السلطان قريبة التاريخ يذكر فيها أعواز البلد الغلة والعدة والرجال ، فوقف على الكتب وضربت رقاب كل من كان معهم ، وما زال يتصفح أحوال المكان ، ويأمر بسد خلله إلى الثامن ، وخرج سائرا إلى العسكر بعد صلاة الظهر فبات في بيت نوبة ، وفي هذا اليوم وصل عز الدين قيصر شاه صاحب ملطية ابن قليج أرسلان وأفدا عليه مستنصرا به على أخوته وأبيه فإنهم كانوا يقصدون أخذ بلده منه ، فلقى الملك العادل قاطع لد فاحترمه وأكرمه ، ثم لقيه الملك الأفضل ، وضربت خيمته قريبا من لد .

وفي ذلك اليوم خرج من العدو الحشاشة فحمل عليهم اليك ، ووصل الخبر إلى معسكرهم فخرج إلى نصرتهم خيالة ، وجرى بينهم وبين اليك قتال ، وذكر بعض الأسرى أنه كان معهم الانكثار وإن مسلما قصد طعنه فحال بينه وبينه أفرنجي فقتل الأفرنجي وجرح هو ، هكذاذكروا والله أعلم .

ولما كان التاسع وصل رحمه الله إلى المعسكر ، ولقيه الناس مستبشرين بقدومه ولقيه ابن قليج أرسلان فنزل له واحترمه وأكرمه ، ونزل في خيمته ، وأقام يحث الناس على التخريب وتتواصل أخبار العدو إليه ، ويقع بينهم وبين اليزك وقعات ، ويسرق العرب من خيولهم وبغالهم ورجالهم .

ذكر وصول رسول المراكيس

وفي غضون ذلك وصل رسول يذكر أنه يصلح الاسلام بشرط أن يعطى صيدا وبيروت ، وعلى أن يجاهر الأفرنج بالعداوة ، ويقصد عكا ويحاصرها ، ويأخذها منهم واشتراط أن يبذل للسلطان اليمين على ذلك ابتداء فسير العدل النجيب ، وحمله الاجابة إلى ملتسمه لقصد فصله عن الأفرنج فانه كان خبيثا ملعونا ، وكان قد استشعر منهم أخذ بلده وهي صور ، فأنحاز عنهم ، واستعصم بصور ، وهي منيعة ، فقال ذلك القول لهذا السبب .

وسار النجيب العدل مع رسوله في الثاني عشر ، واشتراط عليه أن يبدأ بمجاهرة القوم وحصار عكا وأخذها وإطلاق من بها وبصور من الأسرى ، وعند ذلك يسلم إليه الموضعان .

وفي عشية ذلك اليوم خرج رسل ملك الانكثار إلى الملك العادل في تحريك سلسلة الحديث في الصلح .

ولما كان الثالث عشر من رمضان رأى السلطان أن يتأخر العسكر إلى الجبل ليتمكن الناس من إنفاذ دوابهم إلى العلوفة ، فإنا كنا على الرملة قريبين من العدو ، ولا يمكن التفريط في الدواب خشية المهاجمة ، فرحل ونزل على جبل متصل بجبل النطرون بالثقل الكبير ، وجميع العساكر ما عدا اليزك على العادة ، وذلك بعد خراب الرملة ولد ، ولما نزل هناك دار حول النطرون ، وأمر

بخرابها ، وكانت قلعة منيعة حصينة من القلاع المذكورة ، فشرع في خرابها .

وترددت الرسل بين الملك العادل والانكشار يذكرون أنه قد سلم أمر الصلح إلى الملك العادل وأخلد إليه ، وخرج في عشرة أنفس إلى اليزك فأخبروه بأخبار طيبة وكتب بها إلى السلطان في السابع عشر ، وكان مما أخبره به أخوه أن الملك أفرنيس مات وكان موته بأنطاكية عن مرض عرض له ، وأن الانكشار عاد إلى عكا ، وكان سبب عودته أنه صبح عنده مراسلة الماركيس للسلطان ، وبلغه أن الماركيس قد انتظم الحال بيننا وبينه وأنه قد استقرت القاعدة على عكا ، فعاد هو إلى عكا لفسخ هذه المصالح واسترجاع الماركيس إليه ، فركب السلطان إلى اليزك واجتمع بأخيه في لد ، وسأله عن الأخبار ، وعاد إلى المخيم وقت العصر ، وأتى باثنين من الأفرنج قد تخطفهم اليزك فأخبروه بصحة موت الأفرنسي ، وعود الانكشار إلى عكا .

ذكر مسير الملك العادل إلى القدس

ولما كان التاسع عشر اقتضى الحال تفقد القدس والنظر في عمارته ، وكان الملك العادل قد عاد من اليزك ، وعلم بعد مسير مقدمي الأفرنج عنا فرأى أن يكون هو الذي يسير ، فسار في هذا اليوم لهذا الغرض .

وفي تاريخ هذا اليوم وصل كتاب من تقي الدين يخبر فيه أن قزل صاحب نيار العجم ابن يلدكز قفز عليه أصحابه فقتلوه ، وقيل إن ذلك كان من تحت يد زوجته تعصبا للسلطان طغريل ، وجرى بسبب قتله خبط عظيم في بلاد العجم ، وكان قتله في أوائل شعبان من هذه السنة .

ولما كان الحادي والعشرون من رمضان قدم الملك العادل من القدس ، وفي هذا التاريخ وصل كتاب من الديوان العزيز النبوي يذكر فيه قصد الملك المظفر تقي الدين خلاط ويذكر فيه العناية ببيكتمر ، ويشفه في حسن بن قفجاق ، والتقدم باطلاقه وكان قد قبض عليه مضفر الدين بن زين الدين بابل ، ويتقدم بمسير القاضي الفاضل الى الديوان لبت حال وقصل أمر ، وسير الكتاب الى الفاضل ليقف عليه ، ويكتب إلى تقي الدين

ذكر اخبار يزك كان على عكا ولصوص دخلوا في خيام العدو

ولما كان الثاني والعشرون أحضر لصوص فرسا وبغلة قد دخلوا إلى خيم العدو وسرقوهم منهم وكان قد رتب رحمه الله ثلاثمائة لص من شلوح العرب يدخلون ويسرقون منهم أممهم والهم وخيولهم ، ويسرقون الرجال أحيانا ، وذلك أنه يكون الواحد منهم نائما فيوضع على حلقه الخنجر ، ثم يوقظ فيرى الشلح وقد وضع الخنجر على نحره فيسكت ولا يتجاسر أن يتكلم فيحمل وهو على هذا الوضع إلى أن يخرج من الخيم ، ويؤخذ أسيرا ، وتكلم منهم جماعة فنحروا ، فصار من أصابه ذلك لا يتكلم ، واختاروا الأسر على القتل ، وداموا على ذلك مدة طويلة إلى انتظام الصلح .

وفي تاريخ اليوم وصل من اليزك المرتب على عكا في موضع يقال له الزيب ، خبر أسارى مع رسول من اليزك أخبر أنهم خرجوا من عكا يتفقدون ، وأن اليزك حمل عليهم فأسر منهم إحدى وعشرين نفسا ، وأن الأسرى أخبروهم بصحة عود الانكثار إلى عكا ، وأنه مريض بها ، وأخبروا عن ضعف أهل عكا وفقرهم وقلة الميرة عندهم .

وفي هذا التاريخ وصل للعدو مراكب عدة قيل أنها وصلت من

عكا ، وأن فيها الانكثار قد عاد بجماعة عظيمة ليقصد عسقلان ويعمرها ، وقيل ليقصد القدس والله أعلم .

ولما كان الرابع والعشرون وصل الأسرى المذكورون من الزيب ، وكان وصولهم فرحا للمسلمين مبشرا بكل خير ، وفيه وصل رسول من الانكثار معه حصان إلى الملك العادل في مقابلة هدية كان أنفذها إليه ، وفيه وصل خبر وفاة حسام الدين لاجين بدمشق لمرض كان اعتراه ، فصعب على السلطان موته وشق عليه ، وفيه وصل كتاب من سامة يذكر فيها أن البرنس أغار على جيلة واللاذقية ، وأنه كسر كسرة عظيمة وقتل منه جماعة وعاد إلى أنطاكية

ذكر رسول الملك العادل إلى الانكثار

ولما كان السادس والعشرون كان اليذك للعادل ، فطلب الانكثار رسوله ، فأنفذ إليه الصنيعة وهو كاتبه ، وكان شابا حسنا فوصل إليه وهو في يازور قد خرج في جمع كثير من الرجالة انبثوا في تلك الأرض ، فاجتمع به وسار معه زمنا طويلا وحادثه في معنى الصلح وقال لا أرجع عن كلام أتحدث به مع أخي وصديقي ، يعني العادل ، وذكر له كلاما ، وعاد وأخبر به ، فكتبه الملك العادل في رقعة وأنفذها إلى السلطان ، وكان يتضمن أنك تسلم عليه وتقول له إن المسلمين والافرنج قد هلكوا ، وخربت البلاد وخرجت من يد الفريقين بالكلية ، وقد تلفت الأموال والأرواح من الطائفتين ، وقد أخذ هذا الأمر حقه وليس هناك حديث سوى القدس والصليب والبلاد ، والقدس متعبنا ، ما ، ننزل عنه ولو لم يبق منا إلا واحد ، وأما البلاد فيعاد ما هو قاطع الأرين ، وأما الصليب فهو خشبة عندكم لا مقدار له وهو عندنا عظيم فيمن به السلطان علينا ونصطليح ونستريح من هذا التعب .

ولما وقف السلطان على هذه الرسالة استدعى أرباب المشورة في دولته واستشارهم في الجواب ، والذي رآه السلطان أن قال القدس لنا كما هو لكم ، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم ، فإنه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة ، فلا تتصور أن ننزل عنه ولا نقدر على التفريط بذلك بين المسلمين ، وأما البلاد فهي أيضا لنا في الأصل واستيلاؤكم كان طارئا عليها لضعف من كان فيها من المسلمين في ذلك الوقت ، وما يقدركم الله على عمارة حجر منها ما دام الحرب قائما ، وما في أيدينا منها نأكل بحمد الله مغله وننتفع به ، وأما الصليب فهلاكه عندنا قربة عظيمة لا يجوز لنا أن نفرط فيها إلا لمصلحة راجعة إلى الاسلام هي أوفى منها ، وسار هذا الجواب إليه مع الواصل .

ذكر هرب شيركوه بن باخل الكردي من عكا وكان أسيرا

ولما كان آخر السادس والعشرين وصل شيركوه بن باخل ، وهو من جملة الأمراء المأسورين بعكا ، وكان من قصته أنه هرب ليلة الحادي والعشرين وذلك أنه كان اخبر له حبلا في مخدته ، وكان الأمير حسن بن باريك اخبر له حبلا في بيت الطهارة واتفقا على الهرب ، ونزلا من طاقة كانت في بيت الطهارة ، وانحدرا من السور الاول وعبر شيركوه من الباشورة أيضا ، وكان ابن باريك حالة نزوله انقطع به الحبل ونزل شيركوه سليما ، فراه وقد تغير من الواقعة ، فكلمه فلم يجبه ، وحركه فلم يتحرك ، فهزه لعله ينشط فيسير معه فلم يقدر ، فعلم أنه إذا أقام عنده أخذا جميعا فتركه وانصرف واشتد هربا في قيوده حتى أتى تل العياضية ، وقد طلع الصبح ، فأكمن في الجبل حتى علا النهار وكسر قيده وسار وستر الله حتى أتى المعسكر ، ومثل بخدمة السلطان ، وكان من أخباره أن سيف الدين المشطوب ضيق عليه ، وأنه قطع على نفسه قسطيعة

عظيمة من خيل وبغال وأنواع الأموال ، وأن الملك الانكثار أتى عكا وأخذ كل ماله بها من خدمه ومماليكه وأقمشة ، ولم يبق له منها شيئا ، وأن فلاحى الجبل يمدونه بالميرة مددا عظيما ، وأن طغرل السلحدار أخذ خواص مماليك السلطان وهربوا قبل هروبه .

ذكر رسالة سيرني فيها الملك العادل الى السلطان مع جماعة من الأمراء

وذلك أنه لما كان التاسع والعشرون من رمضان استدعاني الملك العادل في صبيحته وأحضر جماعة من الأمراء : علم الدين سليمان ، وسابق الدين ، وعز الدين بن المقدم ، وحسام الدين بشارة ، وشرح لنا ما عاده به رسوله من الانكثار من الرسالة والكلام ، وذلك أنه ذكر أنه قد أراد أن يتزوج الملك العادل بأخت الانكثار ، وكان قد استصحبها معه من صدقية ، فإنها كانت زوجة صاحبها ، وقد مات فأخذها أخوها لما اجتاز بصدقية ، فاستقرت القاعدة على أن يكون مستقر ملكها بالقدس ، وأن أخاها يعطيها بلاد الساحل التي بيده من عكا إلى يافا وعسقلان إلى غير ذلك ، ويجعلها ملكة الساحل ويجعله ملك الساحل ، ويكون ذلك مضافا الى ما في يده من البلاد والاقطاع وأنه يسلم إليه صليب الصليبوت ، وتكون القرى للداوية والاسبطار ، والحصون لهما ، واسرانا تفك ، وكذلك أسراهم ، وأن الصلح يستقر على هذه القاعدة ، ويرحل الانكثار طالبا بلاده في البحر ، وينفصل الأمر ، هكذا ذكر رسول العادل عن الانكثار ، ولما عرف ذلك العادل بنى عليه أن استحضرنا عنده ، وحملنا هذه الرسالة إلى السلطان ، وجعلني المتكلم فيها ، والجماعة يسمعون ، ونعرض عليه هذا الحديث ، فإن استصوبه ورآه مصلحة للمسلمين شهدنا عليه بالأنن في ذلك والرضا به ، وأن أباه شهدنا عليه أن الحال في الصلح قد انتهى إلى هذه الغاية وأنه هو الذي رأى ابطاله فلما مثلنا

بالخدمة السلطانية عرضت عليه الحديث ، وتلونا عليه الرسالة بمحضر من الجماعة المذكورين ، فبادر إلى الرضا بهذه القاعدة معتقدا أن الانكتار لا يوافق على ذلك أصلا فإن هذه منه مكر وهزل ، فكررت عليه الرضا بذلك ثلاث مرات ، وهو يقول : نعم ويفرح ، ويشهد على نفسه به ، فلما تحققنا منه ذلك عدنا إلى الملك العادل فعرفناه بما قال . وعرفه الجماعة أنني كررت عليه الحديث في تقييد الشهادة عليه ، وأنه أصر على الآن في ذلك واستقرت القاعدة عليه .

ذكر عود الرسول الى الانكتار بالجواب عن هذه الرسالة

ولما كان ثاني شوال سار ابن النصال رسولا من جانب السلطان ، ومن جانب الملك العادل ، فلما وصل إلى مخيم العدو ، وأنفذ من عرف الملك بقدومه ، أنفذ إليه من قال له : إن المالكة عرض عليها أخوها الزكاح ، فسخطت من ذلك ، وغضبت بسببه ، واذكرت ذلك انكارا عظيما ، وحلفت بسينها المغلظ من يمينها أنها لا تفعل ذلك ، وكيف تمكن مسلما من غشيانها ، ثم قال أخوها : إن الملك العادل يتنصر ، وأنا أتم ذلك ، وترك باب الكلام مفتوحا ، فكتب الملك العادل إلى السلطان رحمه الله وعرفه ذلك .

ولما كان خامس شوال وصل الخبر أن الأسطول الاسلامي استولى على مراكب الأفرنج ، وفيها مركب يعرف بالسطح قيل إنه كان فيه خمسمائة نفر وزائد على ذلك ، وأنه قتل منهم خالق عظيم ، واستبقى منهم أربعة مذكورين ، وسر المسلمون بذلك ، وضربت بشائر النصر ، ونعق بوق الظفر ، فله الحمد والمنة .

ولما كان سادس شوال جمع السلطان أكابر الأمراء وأرباب الآراء من دولته ، وشاورهم كيف يصنع إن خرج العدو ، وكان قد

تواصلت الاخبار عنهم أنهم قد اتفقوا على الخروج الى العسكر الاسلامي ، فانفصل الرأي بين ذوي الآراء على أنهم يقيمون بمنزلتهم بعد تخفيف الأثقال ، فإن خرج الأفرنج كانوا على لقائهم .

وفي عشية ذلك اليوم استأمن من الأفرنج اثنان على فرسين ، وأخبرا أن العدو على عزم الخروج وأنهم زهاء عشرة آلاف فارس ، وذكرنا أنهم لا يعرفون قصدهم ، وهرب أسير مسلم من جانبهم ، وأخبر أنهم قد أظهروا الخروج إلى الرملة ، ثم فيها يتفقون على موضع يقصدونه

ولما تحقق السلطان أمر الجاويش أن ينادى في العسكر حتى يتجهز جريئة ، وشدت الرايات وحقق عزمه واتفق على أنه يقف قبالة القوم إن خرجوا ، وسار في يوم الاثنين السابع مؤيدا منصورا حتى أتى قبلي كنيسة الرملة ليلا فخيم هناك ليلته .

ذكر خروج الأفرنج من يافا

ولما كانت صبيحة الثامن رتب الاطلاب للقتال ، وسلم اليك للملك العادل ، وتبعه من يريد من الغزاة ، وكان قد وصل جماعة من الروم يريدون الغزاة ، فخرجوا في جملة من خرج فلما وصلوا الى خيام الأفرنج هجم عليهم المماليك السلطانية لقوة جأشهم وأنسهم بقتالهم ، وثقتهم بمراكبهم ، ورموا عليهم الذشاب ، فراهم الغزاة والواصلون من الروم فاغثروا بإقدامهم ووافقوهم في فعلهم وقاربوا عسكر العدو ، فلما رأى الأفرنج تلك المضايقة والمنازلة ، ثارت همهم وحركتهم نخوتهم ، فركبوا من داخل الخيام وصاحوا صيحة الرجل الواحد ، وحملوا في جمع كثير فنجا من سبق به جواده وقدر في القدم نجاته ، وظفروا بجماعة ، فقتل منهم ثلاثة

نفر ، ونقلوا خيامهم الى يازور ، وأقام السلطان في تلك الليلة بمنزله إلى الصباح .

ذكر وفاة تقي الدين الملك المظفر

ولما كان الحادي عشر ركب السلطان الى جهة العدو فأشرف عليهم ، ثم عاد وأمرني بالاشارة الى أخيه بأن يحضر معه علم الدين سليمان ، وسابق الدين ، وعز الدين ابن المقدم ، فلما مثل الجماعة بين يديه أمر خـــــــادما أن يخلي المكان عن غير الحاضرين ، وكنت في جملتهم ، وأمره بإبعاد الناس عن الخيمة ، ثم أخرج كتابا من قبائه وفضه ووقف عليه وبدأت دموعه وغلبه البكاء والنحيب ، حتى وافقناه من غير أن نعلم السبب ، ماهر ، وفي أثناء ذلك ذكر أنه يتضمن وفاة الملك المظفر ، فأخذ الجماعة في البكاء حتى أتوا بوظيفته ، ثم ذكرته الله تعالى وإمضاء قضائه وقدره ، فقال استغفر الله ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، ثم قال المصلحة كتم ذلك وإخفاؤه لئلا يتصل بالعدو ونحن ننازله ، ثم أحضر الطعام فأكل الجماعة ، وانفصلوا وكان الكتاب الواصل المتضمن نعيه ، وهو غير الكتاب الواصل الى حماة بنعية في طي كتاب وصل من النائب بها ، وكانت وفاته بطريق خلاط عائدا إلى ميفارقين : فحمل ميتا إلى ميفارقين، ثم عملت له تربة عليها مدرسة مشهورة بأرض حماة ، وحمل إليها وزرت ضريحه ، وكانت وفاته تاسع عشر رمضان سنة سبع وثمانين .

ذكر كتاب وصل من بغداد

ولما كان الثاني عشر من شوال من السنة ، وصل من دمشق كتاب من الذواب بها ، في طية كتاب من بغداد من الديوان العزيز النبوي

مجده الله ، يتضمن فصولا ثلاثة الاول الانكار على الملك المظفر في مسيره إلى بـكـتـمـر ، وبـولـغ فيه ، حتى قيل إن الديوان العزيز لا يسلمه ، والفصل الثاني يتضمن الانكار على مظفر الدين في أمساك حسن بن قفـجـاق ، والامر بإعادته إلى الكرخاني ، وبـولـغ فيه حتى قيل إن الديوان العزيز لم يأذن لغيره في سـكـنـاها وكانت قصة حسن بن قفـجـان أنه قصد أرمية إلى السلطان طغريل ، فإنه كان قد نزل به في معونته لما هرب من بيار العجم ، واستنصر به وتزوج أخته ، ووقع في نهـنـه أنسه يكون أتـابـكـه ويملك به البلاد ، فقصد أرمية فقتل أهلها على ما قيل ، وسبي نساءهم وذرائعهم ، وتعرض للقوافل ، وكانت معقلة الكرخاني ، فلما وجد السلطان طغريل قوته تركه وانصرف عنه ، وعاد إلى بلاده ، وأظهر الفساد في الأرض والتعرض للقوافل على ما قيل ، فاستعطفه مظفر الدين صاحب إربـل حتى عاد إليه ، وانخرط في سـلـك أصحابه ، وقبض عليه ، وأنفذ إلى الديوان العزيز ذلك في معناه لاستيلاء مظفر الدين على بلاده ، ولعله تشفع إلى الديوان ، فاقترضت عاطفته ذلك في حقه ، وأما الفصل الثالث : فكان يتضمن التقدم بإحضار القاضي الفاضل إلى الديوان العزيز رسولا لتقرر معه قواعد وتكشف إليه أسباب ، هكذا كان مضمون الكتاب .

وأما الجواب عنه فإن السلطان أجاب عن الفصل الأول بأننا لم نأمره بشيء ، من ذلك ، وإنما عبر لجمع العساكر ، ويعود إلى الجهاد ، فاتفقت أسباب اقتضت ذلك ، وقد أمرناه بالعود عنه ، وأما الفصل الثاني فأجاب عنه بأنه عرفهم حال ابن قفـجـاق وماتصدى له من الفساد في الأرض ، وأنه قد تقدم إلى مظفر الدين حتى يحضره معه إلى الشام فيقطع فيه ، ويكون ملازما للجهاد ، وأما الفصل الثالث فإنه اعتذر عن القاضي الفاضل بأنه كثير الأمراض وقوته تضعف عن الحركة إلى العراق ، فهذا كان حاصل الجواب .

ذكر وصول صاحب صيدا رسولا من جانب المراكيس

ولما كان يوم الثلاثاء خامس عشر شوال وصل من أخبر بوصول صاحب صيدا من جانب المراكيس صاحب صور ، وكان قد جرى بيننا وبينه أحاديث متريدة حاصلها أنهم ينقطعون عن الأفرنج ونصرتهم ، ويصيرون معنا عليهم بناء على فتنة كانت جرت للمراكيس مع الملوك ، بسبب امرأة تزوجها كانت زوجة لأخي الملك كي ، وفتح ذكاحها بأمر اقتضاه بينهم ، فاضربت : أراؤهم فيه فخاف المراكيس على نفسه ، فأخذ زوجته وهرب تحت الليل إلى صور ، وأخذ إلى السلطان والاعتضاد به ، وكان في ذلك مصلحة للمسلمين لانقطاع المراكيس عن الأفرنج ، فإنه كان أشدهم بأسا ، وأعظمهم للحرب مراسا ، وأثبتهم في التسيير أساسا ، وحيث اتصل خبر وصول هذا الرسول بالسلطان ، أمر بإجلاله واحترامه ، فضربت خيمة ، وضرب حولها شقة ، ووضع فيها من الطرح والفرش ما يليق بعظمائهم وملوكهم ، وأمر بإنزاله في الثقل يستريح ثم يجتمع به .

ذكر واقعة الكمين الذي استشهد فيه إياس المهراني

ولما كان سادس عشر شوال من السنة أمر السلطان الحلقة ان كمننت العدو في بطون أوبية هناك ، واستصحبوا جماعة من العرب ، وكان العدو تخرج منه جماعة للاحتشاش والاحتطاب قريبا من مخيمه فبصر العرب بهم ، فضربوا عليهم ، ووقع الحرب بينهم ، وثار الصياح ، وسمع العدو فركب منهم جمع من الخيالة وطلبوا جهة العرب ، فانهزم العرب بين أيديهم إلى جهة الكمين ، والعدو يتبعهم طمعا حتى قاربوا الكمين ، فخرج الكمين عليهم وصاحوا بهم صيحة الرجل الواحد ، فانهزموا من بين أيديهم

نحو خيامهم واتصل الخبر بالعدو فركب منهم خلق عظيم ، وقصدوا نحو الوقعة والتحم القتال ، واشتد الأمر ، وقتل جمع من الطائفتين ، وأسر وجرح جمع من العدو ، وأخذ منهم خيل كثيرة ، وكان سبب انفصال الحرب ان السلطان أحس بهذه الوقعة ، فأنفذ أمراء آخر : أسلم وسيف الدين يازكج ومن يجري مجراهما ردا للمسلمين ، وقال إذا رأيتم الغلبة على الكمين فأظهروا فلما رأوا الكثرة من جانب العدو خرجوا بخيلهم ورجلهم ولما رأى العدو الأطلاب الإسلامية قد صوبت نحوه أعنه خيلها ، ولما الأدبار نحو خيامهم والسيف يعمل في أقفيتهم ، حتى دخلوا الخيام ، وانفصل الحرب قبيل الظهر ، وكان السلطان قد ركب متشوقا أخبار الكمين ، وكنت في خدمته وكان أول من دخل من الوقعة ووصل جماعة العرب ، ومعهم خمس رؤوس من الخيل قد أخذوها ، وانفصلوا قبل انفصال الحرب وما زالت الطلائع تتواتر والبشائر تتواصل وقتل من العدو زهاء ستين نفرا ، وجرح من المسلمين جماعة منهم إياز المهراني ، وكان شجاعا معروفا وجاولي غلام الغيدي وكما صرع إياز المعظمي وجرح عنة جرائح ، وحمل إلى المسلمين وأسر من العدو فارسان معروفان ، واستأمن اثنان بخيولهما وعدتهما ، وعاد السلطان إلى خيمته فرحا مسرورا معوضا من قتل قرسه ، متلطفًا بالجريح مترحما على الشهيد .

وفي بقية هذا اليوم وصل رسولا الانكثار إلى الملك العادل يعقبه على الكمين ويطلب الاجتماع به.

ذكر ماجرى للملك العادل والانكثار واجتماعها

ولما كان الثامن عشر سار الملك العادل إلى اليزك ، وضربت له فيه نوبتيه عظيمة ، وسار ومعه من الأطعمة والحلاوات والتجملات والتحف ماجرت العادة أن يحمل من ملك إلى ملك ، وهو إذا تجمّل في ذلك لا يغلب ، وسار الانكثار إلى خيمته وحضر عنده على

ما قيل ، فاحترمه احتراما عظيما ، ووصل مع الانكثار إلى خيمته وأحضر شيئا من طعامهم الذي يختصون به فأتدح به الملك العادل على وجه المطايية ، فتناول منه الملك العادل ، وتناول هو وأصحابه الواصلون معه من طعام الملك العادل وقدم إليه ما كان حمل إليه ، وتحادثا معظم ذلك النهار ، وتقاصلا على تواد ومحبة أكيدة .

ذكر الرسالة التي أذفها الانكثار إلى السلطان

وفي ذلك اليوم سأل الانكثار الملك العادل أن يلتبس من السلطان الاجتماع به ، والمثول بين يديه ، ولما وصلت هذه الرسالة شاور السلطان الجماعة في الجواب فمأمنهم من وقع له ما وقع للسلطان ، وذلك أنه قال الملوك إذا اجتمعوا يقبح منهم المخاصمة بعد ذلك ، فإذا انتظم أمر حسن الاجتماع ، والاجتماع لا يكون إلا لمفاوضة في مهم ، وأنا لأفهم بلسانك ، وأنت لاتفهم بلساني ، ولا بد من ترجمان بيننا نثوق أنا وأنت به ، فليكن ذلك الترجمان رسولا حتى يستقر أمر وتستتب قاعة ، وعند ذلك يكون الاجتماع الذي يعقبه الوداد والمحبة ، قال الرسول ولما سمع الانكثار هذا الجواب استعظمه وعلم أنه لا يقدر على بلوغ غرض إلا بالدخول تحت المراخي السلطانية .

ذكر حضور صاحب صيدا بين يدي السلطان وأداء الرسالة والحديث الذي وصل فيه

ولما كان يوم السبت التاسع عشر من شوال من السنة المذكورة جلس السلطان واستحضر صاحب صيدا لسماع رسالته ، وكلامه ، فحضر وحضر معه جماعة وصلوا معه ، وكنت حاضرا المجلس ، فأكرمه إكراما عظيما ، وحادثهم وقدم بين أيديهم

ماجرت به العادة ، ولما فرغ الطعام خلا بهم وكان حديثهم في أن السلطان يصلح المركيس صاحب صور ، وكان قد انضم إليه جماعة من أكابر الأفرنجية منهم صاحب صيدا ، وغيره من المعروفين ، وقد سبقت قصته ، وكان من شروط الصلح معه إظهار عداوة الأفرنج البحرية ، وكان سبب ذلك شدة خوفه منهم وواقعة وقعت له معهم بسبب الزوجة ، وبذل له السلطان الموافقة على شروط ، قصد بها الإيقاع بينهم ، وأن يقتل بعضهم بعضا ، فلما سمع السلطان حديثه وعد أن يرد عليه الجواب فيما بعد وانصرف عنه في ذلك اليوم

ذكر وصول رسول الانكثار

ولما كانت عشية ذلك اليوم وصل رسول ملك الانكثار وهو ابن الهمفري وهو من أكابرهم وملوكهم ومن أولاد ملوكهم ، وصل رسولا وفي صحبتته شيخ كبير ذكروا أن عمره مائة وعشرون سنة ، فأحضره السلطان عنده وسمع كلامه ، وكانت رسالته أن الملك يقول إني أحب صداقتك ومودتك ، وأنت قد ذكرت أنك أعطيت هذه البلاد الساحلية لأخيك ، فأريد أن تكون حكما بيني وبينه ، وتقسم البلاد بيني وبينه ، ولا بد أن يكون لنا علة بالقدس الشريف ، ومقصودي أن تقسم البلاد بحيث لا يكون عليه لوم من المسلمين ولا علي لوم من الأفرنجية ، فأجابه في الحال بسوء جميل ، ثم أنن له في العود في الحال ، وتأثر بذلك تأثرا عظيما وأنفذ وراءهم من سألهم عن حديث الأسارى ، وكان منفصلا عن حديث الصلح فقالوا : ان كان صلح فعلى الجميع ، وأن لم يكن صلح فلا يكون من حديث الأسارى شيء ، وكان غرضه رحمه الله أن يفسخ قاعة الصلح فإنه التففت إلي في آخر المجلس بعد انفصالهم ، وقال : متى ماصالحناهم لا تؤمن غائلتهم ، فإنني لو حدث بي حادث الموت ماتكاد تجتمع هذه العساكر ، وتقوى الأفرنج

فالمصلحة أن لانزال على الجهاد حتى نخرجهم من الساحل ، أو
يأتينا الموت ، هذا كان رأيه قدس الله روحه ، وإنما غلب على
الصلح .

ذكر مشورة ضربها في التخيير بين الصالحين بين الانكتار والمركيس

ولما كان حادي عشر شوال ، جمع السلطان الأمراء
والأكابر ، وأرباب المشورة ، وذكر لهم القاعدة التي التمسها
المركيس واستقر الأمر من جانبه عليها ، وهي أخذ صيدا ، وأن
يكون معنا على الأفرنج ويقاثلهم ويجاهرهم بالعدوان ، وذكر
ما التمسه الملك من تقرير قاعدة الصلح وهي أن تكون لنا من القرى
الساحلية مواضع معينة ، وتكون لنا الجبلية بأسرها أو تكون
القرى كلها مناصفة ، وعلى هذين القسمين يكون لهم قسوس في بيع
القدس الشريف وكنائسه ، وكان الانكتار قد خیرنا بين هذين
القسمين فشرح قدس الله روحه الحال في القاعدتين
للأمراء ، واستنبط آراءهم في ترجيح أحد الجانبين : الانكتار
والمركيس ، وترجح أحد القسمين المذكورين من جانب
الملك ، فرأى أرباب الرأي أنه إن كان صلح فليكن مع الملك ، فإن
مصافات الأفرنج للمسلمين بحيث يخالطونهم بعينة غير مأمونة
الغائلة ، وأنقض الناس ، وبقي الحديث مترددا في الصلح والرسل
تتواصل في تقرير قواعد الصلح ، وأصل القاعدة أن الملك قد بذل
أخته للملك العادل بطريق التزويج ، وأن تكون البلاد الساحلية
الاسلامية والأفرنجية لهما ، فأما الأفرنجية فلها من جانب
أخيها ، والاسلامية له من جانب السلطان ، وكان آخر الرسائل من
الملك في المعنى أن قال : إن معاشر بين النصرانية قد أنكروا
علي ، وضع أختي تحت مسلم ، بدون مشاورة البابا ، وهو كبير
دين النصرانية ، ومقدمه ، وما أنا أسير إليه رسولا يعود في ستة

أشهر ، فإن أنن فيها ونعمت ، وإلا زوجتك ابنة أخي ، وما احتاج إلى إننه في ذلك .

وهذا كله وسوق الحرب قائم ، والقتال عليهم ضربة لازم ، وصاحب صيدا يركب مع الملك العادل في الأحيان ، ويشرف على الفرنج ، وهم كلما رأوه تحركوا لطلب الصلح خوفا من أن ينضاف المركيس إلى المسلمين ، وعند ذلك تنكسر شوكتهم ولم يزل الحال كذلك إلى يوم الجمعة خامس عشر شوال من السنة المذكورة .

ذكر رحيله رحمه الله إلى تل الجزر

ولما كان ذلك اليوم أصبح السلطان على عزم الرحيل ، وأحضر أرباب الرأي وشاورهم في جواب رسالة القوم ، وعرض عليهم حديثه وذكر ما عندهم في ذلك ، وأحضر الرسل ، وكان ابن الهمفري يترجم بينه وبين البحرين ، واستقرت القاعة على أن ينفذ معهم رسولين رسولا من جانبه ، ومن جانب العادل الآخر ، لأن الحديث كان يتعلق به ، وكان من جملة رسالتهم أن البابا إن أنن في هذا العقد تم ، وإن لم يأنن زوجنا الملك العادل بابنة أخي الملك ، وهي بكر ، وذكروا أن من بينهم أن البابا إنما يحتاج إلى إننه في تزويج الثيب من بنات الملوك ، وأما الإيكار فيزوجها أهلها ، وانفصل الحال على ذلك ، وسارت الرسل إلى خيم الملك العادل ، ليجهز رسول السلطان ، ويلحقه ، ثم وصل بعد ذلك من اليك من أخبر أن الفرنج قد انتشر منهم راجل كثير ، وخرجوا عن الأسوار التي لهم ، ولم يظهر لخروجهم غائلة ، وسار رحمة الله عليه إلى تل الجزر لارتياح اليك ، وتبعه الناس في الرحيل فما كان الظهر إلا ورحل الناس إلى السلطان ونزلنا بتل الجزر ولما عرف الفرنج بعود السلطان ، رحلوا عائنين ، وأقام السلطان بتل الجزر ، ثم رحل

إلى جهة القدس الشريف ، ورحل الأفرنج إلى جهة بلادهم ، واشتد الشتاء ، وعظمت الأمطار ، وسار السلطان إلى القدس الشريف ، وأعطى العسكر دستوراً ، وأقمنا بالقدس في ذلك الشتاء أجمع ، وعاد العدو إلى بلاده ووصل الانكسار وعساكره إلى يافا ، وعاد إلى عكا ينظر في أحوالها ، فأقام مدة ثم وصل منه رسول يقول إنني أؤثر الاجتماع بالملك العادل ففيه مصلحة تعود على الطائفتين ، فقد بلغني أن السلطان فوض أمر الصلح إلى أخيه الملك العادل ، فاتفق الرأي في مضي الملك العادل ، على أنه يمضي بحيث يجتمع بعساكرنا التي في الغور وكوكب وذلك النواحي ، ويحدثه ويقول له : إن الحديث جرى بيننا مراراً ، وما أسفر عن مصلحة ، فإن كانت هذه الدفعة كذلك الدفعات فلا حاجة إلى الحديث ، وإن كان الغرض بت حال ، فقارب الحال ، وأنا لا أجتمع بك إلا أن أرى ما يقارب فصل الحال ، وقرر مع الملك العادل أن رأى ما يمكن معه فصل الحال وإلا طاولة وماطله إلى أن تصل العساكر من الأطراف ، فالتمس الملك العادل تذكرة تتضمن إنهاء ما يفصل الحال عليه ، فكتب تذكرة فيها المناصفات ، وذكر فيها من أمر بيروت أنه أصر على طلبها ، وأن نعطي صليب الصليبوت ، ويكون لهم في القمامة قس ، ويفتح لهم باب زيارتها بشرط أن لا يحملوا السلاح ، وكان الحامل على ذلك مأخذ الناس من تعب مواظبة الغزاة ، وكثرة الديون والبعد عن الأوطان ، فإن من الناس من كان لا يفارق السلطان ، ولا يمكنه طلب دستور منه .

ذكر مسير الملك العادل

وكان مسيره من القدس الشريف عصر الجمعة رابع ربيع الأول سنة ثمان وثمانين وخمس مائة ، ثم وصل كتابه من بيسان يخبر أنه لقيه ابن الهمفري مع الحاجب أبي بكر رسولاً من الانكسار يقول : إنا قد وافقنا على قسمة البلاد ، وأن كل من في يده شيء فهو

له ، فإن كان مافي أيدينا زائدا أخذتم في مقابلته مايقابل الزيادة مما يخصنا ، وإن كان مافي أيديكم أكثر فعلنا كذلك ، ويكون القدس لنا ، ولكم فيه الصخرة هكذا كان مضمون الكتاب ، فأوقف السلطان عليه الأمراء فاستصوب ذلك الأمير أبو الهيجاء ورأوا من حال هذا المقال أن يوافق عليه الملك العادل ، وهو مصلحة ، وسار الجواب إلى الملك العادل في ذلك .

ولما كان حادي عشر ربيع الأول وصل الحاجب أبو بكر ، صاحب الملك العادل ، يخبر أن الانكثار سار إلى يافا من عكا ، وأن الملك العادل مارأى أن يجتمع به إلا عن قاعدة منفصلة ، وأنه جرى بين هذا الحاجب وبين الانكثار مفاوضات كثيرة حاصليها أنه نزل على أن تكون الصخرة لنا والقلعة في أيدينا ، والباقي مناصفة ، وأن لا يكون في البلد منهم مذكور ، وأن تكون قرى القدس وبساتينه مناصفة ، ثم قدم الملك العادل في سادس عشر ربيع الأول من الغور ، وإقيه السلطان وحكى ماسبق من الخبر .

وفي بقية ذلك اليوم وصل من أخبر أن الأفرنج أغاروا على حلة عرب قريبة من الدارون ، وأنهم أخذوا منهم جماعة ، وأنهم أخذوا منهم زهاء ألف رأس غنم ، فعظم ذلك على السلطان ، وشق عليه فسير جماعة فلم تلحقه .

ذكر انفصال رسول المراكيس

وكان قد وصل يوسف غلام صاحب صيدا رسولا من جانب المراكيس ، يلتمس الصلح من المسلمين ، فاشتراط رحمة الله عليه شروطا منها أن يقاتل جنسه ويباينهم ، ومنها أن ماأخذه من البلاد الأفرنجية بعد الصلح بأنفراجه يكون له ، وماأخذه نحن بأنفراجه يكون لنا ، ومانتفق نحن وهو على أخذه تكون له نفس البلد ، ويكون لنا مافيه من أسرى المسلمين وغير ذلك من

الأموال ، ومنها أن يطلق لنا كل أسير مسلم في مملكته ، ومنها إن فوض الانكثار إليه أمر البلاد لأمر يجري بينهم ، كان الصلح بيننا وبينه على ما استقر بيننا وبين الانكثار ، وما عدا عسقلان وما بعدها فإنه لا يدخل في الصلح .

وتكون الساحليات له ، وما في أيدينا لنا ، وما في الوسط مناصفة ، وسار رسوله على هذه القاعة ، ولما كان يوم الاثنين الثامن والعشرون من ربيع الأول ، وصل أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه ، ووصل جريئة مقدما على عسكره .

ذكر خروج سيف الدين المشطوب من الأسر

وكان وصوله إلى القدس الشريف يوم الخميس مستهل جمادى الآخرة ، دخل على السلطان بفتة ، وعنده أخوه الملك العادل ، فنهض له واعتذقه ، وسر به سرورا عظيما ، وأخلى المكان وتحدث معه بطرف من أحاديث العدو ، وسأله عن حديث الصلح فذكر أن الانكثار سكت عنه .

وفي هذا اليوم كتب السلطان إلى ولده الملك الأفضل أن يسير إلى قاطع الفرات ، ويستلم البلاد من الملك المنصور بن الملك المظفر ، وكان قد أظهر العصيان بسبب الخوف من السلطان على نفسه ، وأظهر ذلك ، وبخل في إمرة الملك العادل وسير إلى الملك العادل حتى يتحدث في أمره ، وكان ذلك قد شق على السلطان وأثار منه غيظا عظيما ، وكيف يكون هذا الأمر من أهله ، ولم يكن أحد من أهله خاف منه ، ولا طلب يمينه ، وهذا كان السبب في توقف الانكثار في الصلح فإنه ظن أن هذا خلاف يكدر على السلطان شرب الغزاة ويحوجه إلى الموافقة على ما يرضاه ، فأنفذ إلى الملك الأفضل أن يسير إلى البلاد ، وكتب إلى الملك الظاهر بحلب المحروسة أن أخاه إن احتاج إلى معونة عاونة ، وجهزه بحملة كبيرة ، وسار

باحترام عظيم حتى وصل إلى حلب ، وأكرمه أخوه الملك الظاهر
إكراما عظيما وعمل له ضيافة تامة ، وقدم بين يديه تقديما
سنية ، وعدنا إلى حديث العدو .

ذكر عود رسول صدور

ولما كان سادس ربيع الآخر من سنة ثمان وثمانين
وخمسمائة ، وصل يوسف من جانب المراكيس يجدد حديث
الصلح ، ويقول قد انفصل الحال على شيء بينه وبين الأفرنجية فإن
نجز في هذه الأيام سارت الفرندسية في البحر ، وأن تأخر بطل
الحديث في الصلح بالكلية فرأى السلطان الصلح مع المراكيس
مصلحة ، لاشتغال قلبه من جانب الشرق ، وخاف أن يتصل ابن
تقي الدين ببكتمر فيحدث من ذلك ما يشغل خاطر عن
الجهاد ، فأجاب إلى ملتزم المراكيس ، وكتب مع صاحبه مواصفة
على نعت ماتقدم وسار يوسف الرسول تاسع ربيع الآخر .

ذكر قتل المراكيس

ولما كان السادس عشر من الشهر وصل من العدل الرسول المنقذ
إلى المراكيس كتاب ، أن المراكيس قتل ، وعجل الله بروحه إلى
النار ، وكانت صورة قتله أنه تقدم يوم الثلاثاء ثالث عشر عند
الأسقف ثم خرج فقفز عليه اثنان من أصحابه بالسكاكين وكان
خفيفا من الرجال ، فمازالا يضربانه حتى عجل الله بروحه إلى
النار ، وأمسك الشخصان وسئلا عن هذا الأمر ومن حضهما
عليه ، فقالا : إن الانكتار حملنا عليه وقام بالأمرا اثنان فحفظا
القلعة إلى إن اتصل الخبر بالملوك ، وانعقد الأمر وتدبر المكان .

ذكر تنمة خبر الملك المنصور وما جرى له

وذلك أنه لما بلغه مودة السلطان عليه أنفذ إلى الملك العادل رسولا يشفع به ليطيب قلب السلطان ، ويقترح عليه أحد قسمين إما حران والرها وسميساط ، وإما حماة ومنبج وسلمية والمعرة مع كفالة أخوته ، فراجع الملك العادل السلطان مرارا فلم يجبه إلى شيء عن ذلك ، فكثرت الشفاعة إليه من جميع الأمراء ، وهزت شجرة رأفته فرجع إلى خلقه النبوي ، وحلف له على حران والرها وسميساط على أنه إذا عبر الفرات أعطي الموضع التي اقترحها ، ويكفل أخوته ويتخلى عن تلك الموضع التي في يده ، وبخلت تحت ضمان الملك العادل ، ثم التمس الملك العادل خط السلطان ثانيا ، ولج عليه ، فمزق نسخة اليمين في التاسع والعشرين من ربيع الآخر ، وانفصل الحال ، وانقطع الحديث ، وكنت المت تردد بينهما في ذلك ، وأخذ الغيظ السلطان ، كيف يخاطب بمثل ذلك من جانب أولاد أولاده .

ذكر قدوم رسول ملك الروم

ولما كان مستهل جمادى الأولى وصل رسول من قسطنطينية الكبرى ، والتقى بالاحترام والاكرام ، ومثل بالخدمة السلطانية في ثالث الشهر ، وكانت رسالته تشتمل على مطالب ، منها صليب الصليبوت ، ومنها أن تكون القمامة بيد قسوس من جانبه وكذا سائر كنائس القدس ، ومنها أن يكون الاتفاق معه على أن يكون عدو من عاداه وصديق من صاذه ، وأن يوافق على قصد جزيرة قبرص ، فأقام عنده يومين ، ثم سير معه رسولا يقال له ابن البزاز من الديار المصرية ، وأجيب بالمنع عن جميع مقترحاته ، وقيل إن

الصليب قد بذل فيه ملك الكرج مئتي ألف دينار ، فلم يجب الى ذلك .

ذكر ماجرى للملك العادل في البلاد التي هي قاطع الفرات

وذلك أنه لما سار الملك الأفضل ، رقق الملك العادل قلب السلطان على ابن تقي الدين ، وقد كثر الحديث في معناه ، وأنفني السلطان لمشاورة الأمراء في خدمة الملك العادل في أمره ، فجمعهم في خدمته فذكرت لهم ما أرسلني فيه إليهم ، فانتدب الأمير حسام الدين أبو الهيجاء للجواب ، وقال : نحن عبيده ومماليكه وذلك صبي ، وربما حمله خوفه أن انضاف إلى جانب آخر ، ونحن لا نقدر على الجمع بين قتال المسلمين والكفار ، فإن أراد أننا نقاتل المسلمين صالحنا الكفار وسرنا إلى ذلك الجانب وقاتلنا بين يديه ، وأن أراد منا ملازمة الغزاة صالح المسلمين وسامحهم ، وهذا كان جواب الجميع ، فرق السلطان وجدد نسخة يمين لابن تقي الدين ، وحلف له بها ، وأعطاه خطه بما استقر من القاعة .

ثم أن الملك العادل التمس من السلطان البلاد التي كانت بيد ابن تقي الدين بعد استقلاله ، وجرت مراجعات كثيرة في العـوض عنها ، وكنت الرسول بينهما ، وكان آخر ما استقر أنه يسلم تلك البلاد ، وينزل عن كل ما هو شامي الفرات وما قطعها ماعدا الكرك والشوبك والصلت والبلقاء وخاصة بمصر بعد النزول عن خبزه ، وعليه في كل سنة ستة آلاف غرارة غلة تحمل للسلطان من الصلت والبلقاء الى القدس والمغـسل في السنة المذكورة في مواضعه له ، ومغل قاطع الفرات في هذه السنة للسلطان أيضا ، وأخذ خط السلطان بذلك ، وسار بنفسه ليصلح ابن تقي الدين ويطيب قلبه وكان مسيره في ثامن جمادى الاولى .

ذكر استيلاء الفرنج على الدارون

وكان الأفرنج خذلهم الله تعالى لما رأوا أن السلطان قد أعطى العساكر دستورا ، وتفرقت العساكر عنه نزلوا على الدارون طمعا فيه ، وكان بيد علم البين قيصر ، وفيه نوابه ، ولما كان يوم تاسع جمادى الأولى اشتد زحف العدو على المكان راجلا وفارسا ، وكان الانكثار قد استنفذ من نوبة عكا نقابين جبليين ، فتمكنوا من نقب المكان ، وأحرقوا النقب ، وطلب أهل الحصن مهلة بحيث يشاورون السلطان ، فلم يمهلوهم واشتدوا في القتال عليه ، فأخذوه عنوة ، واستشهد فيه من قدر الله له ذلك ، وأسر من قدر له ذلك ، وكان ذلك (قدرا مقدورا) (٤٤)

ذكر قصدهم لمجدل يابا

ولما استولى الأفرنج على الدارون ساروا بعد أن قرروا أمره ووضعوا فيه من اختاروا حتى نزلوا على منزلة يقال لها الحسي ، وهي قريب من جبل الخليل عليه السلام ، وذلك في رابع عشر جمادى الأولى ، فأقاموا عليه ، ثم تاهبوا بقصد حصن يقال له مجدل يابا فأتوه جريدة ، وخلفوا خيامهم في منزلتهم ، وكان بها عسكر اسلامي ، فلقيهم وجرى بينهم قتال عظيم ، وقتل من العدو كند مذكور ، واستشهد من المسلمين فارس واحد ، كان سبب قتله أنه وقع رمحه ، فنزل ليأخذه فمنعه فرسه الركوب فبادروه وقتلوه ، وعادوا إلى خيامهم بقية اليوم خائبين والله الحمد .

ذكر وقعة جرت في صور

ولما كان سادس عشر جمادى وصل كتاب من حسام الدين بشارة يذكر أنه تخلف في صور مائة راكب ، وانضم إليهم من عكا خمسون ، وطمعوا فخرجوا لشن الغارات على البلاد الاسلامية ، فوقع عليهم العسكر المرصد لحفظ البلاد من ذلك الطرف ، وجرى بينهم قتال شديد ، وقتل من العدو خمسة عشر نفرا ، ولم يقتل من المسلمين أحد وعادوا خائبين خاسرين وله الحمد .

ذكر قدوم العساكر الاسلامية للجهاد

ولما رأى السلطان ماجرى من العدو من التبسط ، سير إلى العساكر من سائر الأطراف أن يسابقوا إلى الحضور ، وكان أول قادم بدر الدين دلدرد مع خلق كثير من التركمان ، فلقاه السلطان واحترمه ، ووصل بعده عز الدين بن المقدم في سابع عشر جمادى الاولى بعسكر حسن والاث جميلة ، ففرح به السلطان .

وأما العدو فإنه رحل من الحسي ونزل على مفرق طرق منها طريق عسقلان ، وطريق إلى بيت جبرين وإلى غير ذلك من الحصون الاسلامية ، ولما بلغ السلطان ذلك أمر العساكر أن سارت نحوه ، فخرج أبو الهيجاء السمين ، وبدر الدين دلدرد ، وابن المقدم ، وتتابع العساكر وتخلف هو في القدس لنوع التياث كان عرض له ، فلما أحس العدو المخدول بظهور العساكر الاسلامية عاد خائبا خاسرا ناكضا على عقبه ، ووصلت الكتب من الأمراء مخبرين برحيل العدو إلى عسقلان .

ذكر تعبئة العدو لقصد القدس الشريف

ولما كان يوم السبت الثالث والعشرين من جمادى الاولى ، وصل قاصد من العسكر يخبر أن العدو قد خرج في راجله وفارسه وسواد عظيم ، وخيم على تل الصافية ، فسير السلطان إلى العساكر الاسلامية يندرها ويحذرهما ، واستدعى الأمراء جريدة إليه ليعقدوا رأيا فيما يقع العمل بمقتضاه ، فوصل ورحل العدو من تل الصافية إلى جانب النطرون فنزل شماليه ، وذلك في السادس والعشرين من جمادى الاولى ، وكانت قد سار من عرب الاسلام جماعة للغارة على يافا فوصلوا بليل من غير علم بحركة العدو فنزلوا في بعض الطريق يقتسمون ، ف وقعت عليهم عساكر العدو فأخذوهم ، وهرب منهم ستة نفر ، وصلوا إلى السلطان ، وأخبروه الخبر ، ووصلت الجواسيس وتواترت الأخبار من جانب العدو أنه مقيم بالنطرون لنقل الأزواد والآلات التي تدعو الحاجة إليها في الحرب ، فإذا حصل عندهم ما يحتاجون إليه ، قصدوا القدس الشريف حرسه الله تعالى ، وفي يوم الأربعاء وصل منهم رسول صحبته غلام كان للمشطوب عندهم تحدث في معنى قراقوش ويتحدث في معنى الصلح .

ذكر نزولهم في بيت نوبة وهو موضع وطاة بين جبال يبنا بينه وبين القدس مرحلة

رحل العدو من النطرون يوم الأربعاء السابع والعشرين من جمادى الاولى ونزلوا ببيت نوبة ، ولما عرف السلطان ذلك استحضر الأمراء وضرب المشورة فيما يفعل فكانت خلاصة الرأي ان تقسم الاسوار على الأمراء ، ويخرج ببقية العسكر جريدة إلى جهة العدو ، فإذا عرف كل قوم موضعهم من السور استعدادوا ، فان دعت

الحاجة إليهم خرجوا وإن دعت الحاجة إلى ملازمة مواضعهم لازموها ، فكتبت الرقاع وسيرت إلى الأمراء .

وكانت طريق يافا سابلة لمن يذقل الميرة إلى العدو ، فأمر السلطان من في اليزك أن يعمل معهم مايمكنه ، وكان في اليزك بدر الدين دلدردم ، فكمن حول الطريق كميناً فيه جماعة جيدة ، فمر بهم جمع خيالة العدو يحمون قافلة تحمل ميرة فاستضعفوهم ، فحملوا عليهم وجرى قتال عظيم كانت الدائرة فيه على العدو ، وقتل منهم ثلاثون نفراً وأسر جماعة ووصل الأسارى في التاسع والعشرين من جمادى الأولى إلى القدس وكان لسخولهم وقع عظيم وجرى على العدو من ذلك وهن كبير ، وقويت قلوب اليزكية ، وانبعث همهم حتى حملوا على العسكر ونزلوا إلى أطراف الخيم والله الحمد .

ولما علم المسلمون أن القوافل لا تنقطع خرج جماعة وأخذوا معهم عرباً كثيرة وكمذوا كميناً واجتازت القافلة ومعها جماعة كثيرة ، فخرجت العرب على القافلة وتبعتهم الخيالة فاندحروا بين أيديهم منهزمين نحو المسلمين ، فخرجت الأتراك عليهم فأخذوا منهم وقتلوا ، وجرح من الأتراك جماعة وذلك في ثالث جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين وخمسمائة .

ذكر أخذ قافلة مصر حرسها الله تعالى

وذلك أنه كان قد تقدم إلى عسكر مصر بالسير ، وأوصاهم بالاحتراز والاحتياط عند مقاربة العدو ، فأقاموا ببلييس أياماً حتى اجتمعت القوافل إليهم ، واتصل خبرهم بالعدو ، ثم ساروا طالبين البلاد ، والعدو يتربص أخبارهم ، ويتوصل إليهم بالعرب المفسدين ، ولما تحقق العدو خبر القوافل أمر عسكره بالانحياز إلى سفح الجبل ، وركب في ألف راكب مرافقين ألف راجل بالاحتياط

والتحفظ ، وسار حتى ننا من تل الصافية ، فبات ثم سار حتى أتى
تل الصافية ثم علق على خيله فيه ، وسار حتى أتى ماء يقال له
الحسي ، واتصل خبر نهضة العدو بالسلطان فأنفذ بنذير
للقافلة ، وكان المندوب لذلك الأمير آخر أسلم ، والطنبا العادلي
وجماعة من الفرسان المذكورين ، وأمرهم أن يبعدوا بالقافلة في
البرية ، ويتباعدوا من العدو ما أمكن ، فاتفق أن العسكر وصل
الحسي قبل وصول العدو إليه فلم يقيموا عليه ، وساروا حتى وصلوا
القفل والعسكر المصري ، فأتوا بالقفل على ذلك الطريق ثقة منهم
بأنهم لم يجدوا فيه ذاعرا ، ولا أحسوا فيه بمخوف ، فرغبوا في قرب
الطريق ، وسلكوا بالناس هذا الطريق حتى وصلوا إلى ماء يقال له
الخويلقة ، وتفرق الناس لأجل الماء ، فأخبر العرب العدو بذلك وهو
نازل برأس الحسي فقام من وقته وسرى حتى أتاهم قبيل
الصبح ، وكان مقدم العسكر فلك الدين أخو الملك العادل ، لأمه
فأشار أسلم بالسير ليلا قطعاً للطريق واستظهارا بالصعود
الجبل ، فخاف فلك الدين أنه إن رحل بالليل جرى أمر على القافلة
لتبديدها فنادى في الناس أن لا يرحلوا إلى الصباح .

وأما الانكثار فبلغنا أنه لما بلغه الخبر لم يصدقه ، وركب مع
العرب بجمع يسير وسار حتى أتى القفل فطاف حوله في صورة
عربي ، وأهم ساكنين قد غشيهما النعاس ، فعاد واستركب
عسكره ، وكانت الكبسة قريب الصباح ، فبغت الناس ، ووقع
عليهم بخيله ورجله ، وكان الشجاع هو الذي ركب فرسه ونجا
بنفسه ، وانهزم الناس إلى جهة القفل .

والعدو يتلوهم ، فلما رأوا القفل أعرضوا عن قتال
العسكر ، وطلبوا القفل فأنقسم القفل ثلاثة أقسام قسم قصدوا
الكرك مع جماعة من العرب ، وعسكر الملك العادل ، وقسم أوغلوا
في البرية مع جماعة العرب أيضا ، وقسم استولى عليهم العدو
فساقهم بجمالهم وأحمالهم وجميع ما كان معهم ، وكانت وقعة
شنعاء لم يصب الاسلام بمثلا من مدة مديدة .

وكان في العسكر المصري جماعة من المذكورين كحسين الجراحي ، وفلك الدين ، وبني الجاولي وغيرهم من المذكورين ، وقتل من العدو زهاء مئتي فارس على رواية ، وعشرة أنفس على رواية ، ولم يقتل من المسلمين معروف سوى الحاجب يوسف وابن الجاولي الصغير ، فإنهما استشهدا إلى رحمة الله تعالى ، وتبدد الناس في البرية ورموا أموالهم ، وكان السعيد منهم من نجا بنفسه وجمع العدو ما أمكنهم جمعه من الخيل والبغال والجمال والأقمشة وسائر أنواع الأموال ، وكلف الجمالين خدمة الجمال والخربندية خدمة البغال ، والساسة خدمة الخيل ، وسار في جدقل من الغنيمة يطلب عسكره فنزل على الخويلفة فاستقى منها ، ثم سار حتى أتى الحسي ، ولقد حكى لي من كان أسيرا معهم أنه في تلك الليلة وقع فيهم الصوت أن عسكر السلطان قد قصدهم ، فتركوا الغنيمة ، وانهزموا وبعثوا عنها زمانا ، ولما انكشف لهم إن العسكر لم يلحقهم عادوا إلى الرحل ، وهرب في تلك الغيبة جمع من أسارى المسلمين ، وكان الحاكي منهم ، فسأله بكم حزرقم الجمال والخيل فأخبر أن الجمال تناهز ثلاثة آلاف ، والأسارى خمسمائة ، وتقرب من ذلك عدة الخيل .

وكانت هذه الواقعة صبيحة الثلاثاء حادي عشر جمادى الآخرة ، ووصل الخبر إلى السلطان في عشية ذلك اليوم بعد العشاء الآخرة ، وكنت جالسا في خدمته ، وأوصل الخبر شاب من الاصطبلية ، فما مر بالسلطان خبر أنكى منه في قلبه ، ولا أكثر تشويشا لباطنه ، وأخذت في تسكينه وتسليته ، وهو لا يكاد يقبل التسلية .

وكان أصل هذه القضية أن الأمير أسلم أشار عليهم أن يصعدوا الجبل فلم يفعلوا ، فصعد هو وأصحابه ، فلما وقعت الكبسة كان هو على الجبل فلم يصل إليه أحد من العدو ولم يشعروا به ، ولما انهزم المسلمون تبعتهم خيالة الأفرنج ، وأقام الرجالة منهم يستولون على ماتخلف من المسلمين من الأقمشة ، ولما تحقق الأمير

أسلم أن الخيالة قد بعدت عن الرجالة نزل إليهم بمن معه من الخيالة وكبسهم من حيث لم يشعروا وقتلوا منهم جماعة وغنموا منهم دواب من جملتها بغلة كانت تحت هذا القاصد .

ثم سار العدو يطلب خيامه ، فكان وصوله إلى المخيم يوم الجمعة سادس عشر جمادى الآخرة ، وكان يوماً عظيماً عندهم ، وأظهروا فيه من السرور وأسبابه ما لا يمكن وصفه ، وأعادوا خيمهم إلى الوطأة على بيت ذوبة ، وصح عزيمتهم على القدس ، وقويت نفوسهم بما حصلوا عليه من الأموال والجمال التي كانت تحمّل الميرة والزاد الواصلة من مصر مع عسكرها ، ورتبوا جماعة على لد يحفظون الطريق على من ينقلون الميرة ، وأنفذوا الكند هري إلى صور وطرابلس وعكا يستحضر من فيها من المقاتلة ليصعدوا إلى القدس ، ولما عرف السلطان ذلك منهم عاد إلى الاسوار فقسمها على الأمراء وتقدم إليهم بتهيئة أسباب الحصار ، وأخذ في إفساد المياه بظاهر القدس ، وتخريب الصهاريج والجباب بحيث لم يبق حول القدس ماء يشرب أصلاً ، وأطنب في ذلك أطناباً عظيماً ، وأرض القدس لا يطعم في حفر يثر بها فيها ماء معين لأنها جبل عظيم ، وحجر صلب ، وسير إلى العساكر يطلبها من النواحي والبلاد .

ذكر قدوم الملك الأفضل وأمره بالعود عن

تلك البلاد وكان قد وصل إلى حلب المحروسة

ولما وصل أمر السلطان إليه بالعود عاد مع إنكسار في قلبه وتشويش في باطنه ، فوصل إلى دمشق مستغتباً ، ولم يحضر إلى خدمة السلطان ، فلما اشتد خبر الأفرنج سير إليه وطلبه ، فما وسعه التأخر ، فسار مع من كان قد وصل من العساكر الشرقية إلى دمشق ، وكان وصوله في يوم الخميس تاسع عشر جمادى

الأخرى ، ولقيه السلطان قريبا من العازرية ، فترجل له جبيرا لقلبه وتعظيما لأمره ، وسار في خدمته أخوه الملك الظاهر ، وقطب الدين إلى ظاهر القدس.

ذكر عود العدو إلى بلادهم وسبب ذلك

ولما كانت ليلة الخميس تاسع عشر جمادى الآخرة استحضر السلطان الأمراء عنده ، فحضر الأمير أبو الهيجاء السمين بمشقة عظيمة وجلس على كرسي في خيمة السلطان ، وحضر المشطوب والأسدية بأسرهم ، وجماعة الأمراء ثم أمرني أن أكلمهم وأحثهم على الجهاد ، فذكرت مايسره الله من ذلك ، وكان مما قلته أن النبي صلى الله عليه وسلم لما اشتد به الأمر بايعه الصحابة رضي الله عنهم على الموت في لقاء العدو ، ونحن أولى من تأسى به صلى الله عليه وسلم ، والمصلحة الاجتماع عند الصخرة والتحالف على الموت ، ولعل ببركة هذه النية يندفع هذا العدو ، فاستحسن الجماعة ذلك ، ووافقوا عليه .

ثم شرع السلطان بعد أن سكت زمانا في صورة مفكر والناس سكوت كأن على رؤوسهم الطير فقال « الحمد لله » والصلاة على رسول الله ، إعلموا أنكم جند الاسلام اليوم ومنعته ، وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذرايرهم معلقة بدممكم ، وأن هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه إلا أنتم فإن لو يتم أعنتكم - والعياذ بالله - طوى البلاد طوى السجل للكتاب ، وكان ذلك في ذمتكم ، فإنكم أنتم الذين تصيبتم لهذا وأكلتم مال بيت المال ، فالسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم والاسلام »

فانتدب لجوابه سيف الدين المشطوب وقال : يامولانا نحن مماليكك وعبيدك وأنت أنعمت علينا وكبـرتنا وعظمتنا وأعطيتنا ، وليس لنا إلا رقابنا وهي بين يديك ، والله لا يرجع أحد

منا عن نصرتك إلى أن نموت فقال : الجماعة مثل ما قال ، فانبسطت نفسه بذلك المجلس ، وطاب قلبه ، وأطعمهم ثم انصرفوا ، وانقضى يوم الخميس على أشد حال التأهب والاهتمام ، حتى كانت العشاء الآخرة ، وجميعنا في خدمته على العادة وسهرنا حتى مضى من الليلة هزيع وهو غير منبسط على عادته ثم صلينا العشاء ، وكانت العشاء هي الدستور العام ، فصلينا وأخذنا في الانصراف ، فاستدعاني فلما جلست في خدمته ، قال لي علمت مالذي تجدد ؟ قلت : لا ، قال : إن أبا الهيلاء السمين أنفذ إلي اليوم وقال : إنه اجتمع عنده جماعة من المماليك وأنكروا علينا موافقتنا على الحصار ، وقالوا لامصلحة في ذلك فإننا نخاف أن نحضر ويجري علينا مثل ما جرى على عكا ، وحينئذ تؤخذ بلاد الاسلام أجمع ، والرأي أن نأقضى مصاف ، فإن قدر الله تعالى أن نهزمهم ملكنا بقية بلادهم ، وإن تكن الأخرى يسلم العسكر ويمض القدس ، وقد حفظ الاسلام بعساكره مدة بغير القدس ،

وكان رحمه الله عنده من القدس أمر عظيم لاتحمله الجبال ، فشقت عليه هذه الرسالة وأقامت تلك الليلة في خدمته ، وهي من الليالي التي أحيتها في سبيل الله .

وكان مما قالوه في الرسالة : إن أردت أن نقيم فتكون معنا أنت أو بعض أهلك ، وإلا فالأكراد لا يدينون للأتراك ، والاتراك كذلك ، فأنفصل الحال على أن يقيم من أهله مجدد الدين بن فروخشاه صاحب بعلبك ، وكان رحمه الله يحدث نفسه بالمقام ، ثم صرف رأيه عنه لما فيه من الخطر على الاسلام ، فلما أن قارب الصبح ، وأشفقت عليه ، خاطبته في أن يستريح ساعة ، وانصرفت عنه ، فما وصلت إلا والمؤن قد أذن فأخذت في أسباب الوضوء فما فرغت إلا والصبح قد طلع ، فعدت إلى خدمته ، وهو يجدد الوضوء فصلينا ، ثم قلت له : قد وقّع لي واقّع أعرضه ، قال : وما هو ؟ قلت : من كثر اهتمامه بما قد حمل على

نفسه ، وقد عجزت أسبابه الأرضية ، يذبغي له أن يرجع إلى الله ، وهذا يوم الجمعة ، وهو أوبرك أيام الاسـبوع فيه دعوة مستجابة ، ونحن في أوبرك موضع ، فالسلطان يغتسل ويتصدق بصدقة خفية بحيث لا يشعر أحد أنها منه ، ويصلي بين الأذان والاقامة ركعتين يناجي فيهما ربه ، ويفوض مقاليد أموره إليه ، ويعترف بالعجز عما تصدى له ، فلعل الله يرحمه ، ويستجيب دعاءه ، وكان حسن العقيدة تام الايمان ، يتلقى الأمور الشرعية بأكمل انقياد .

ثم انفصلنا فلما جاء وقت الجمعة صليت إلى جانبه في الأقصى ، فصلى ركعتين ، ورأيته ساجدا وهو يذكر كلمات ودموعه تتقاطر على مصلاة ، ثم انقضت الجمعة بخير ، ولما كانت عشيتها ونحن في خدمته على العادة وصلت رقعة من جريدك ، وكان في اليزك ، وكان جملة ما فيها : أن القوم ركبوا بأسرهم ، ووقفوا على التل وقت الظهيرة ، ثم عادوا إلى خيامهم وقد سيرنا جواسيس تكشف أخبارهم .

ولما كانت صبيحة السبت وصلت رقعة أخرى ، يخبر فيها أن الجواسيس رجعوا ، وأخبروا أن القوم اختلفوا في الصعود إلى القدس أو الرحيل إلى بلادهم فذهبت الفرنسية إلى الصعود إلى القدس ، وقالوا : نحن إنما جئنا من بلادنا بسبب القدس ولا نرجع دونه ، وقال الانكتار : إن هذا الموضع قد أفسدت مياهه ، ولم يبق حوله ماء أصلا فمن أين نشرب ؟ فقالوا له : نشرب من نهر نقوع بينه وبين القدس مقدار فرسخ ، فقال : كيف نذهب إلى السقي ؟ فقالوا : نذهب قسمين قسم يركب إلى السقي ، وقسم يبقى على البلد في المنازلة ، ويكون الشرب في اليوم مرة ، فقال الانكتار : إذا يؤخذ العسكر البراني الذي يذهب مع الدواب ويخرج عسكر البلد على الباقيين ويذهب بين النصرانية .

فانفصل الحال على أنهم حكموا ثلاثمائة من أعيانهم ، وحكم

الثلاثمائة أثني عشر منهم ، وحكم الاثنا عشر ثلاثة منهم ، وقد باتوا على حكم الثلاثة ، فما أمروا به فعلوه ، فلما أصبحوا حكموا بالرحيل فلم يمكنهم المخالفة وأصبحوا في بكرة الحادي والعشرين من جمادى الآخرة راحلين نحو الرملة وعلى أعقابهم ناكسين ، والله الحمد ، ومضى عسكرهم شاكيا السلاح ، ولم يبق في المنزلة إلا الآثار ، ثم نزلوا الرملة ، وتواترت الأخبار بذلك ، فركب السلطان ، وركب الناس ، وكان يوم سرور وفرح ، ولكن السلطان - قدس الله روحه - خاف على مصر المحروسة ، لما حصلوا عليه من الجمال والظهر ، وكان قد ذكر الانكثار مثل هذا الحديث مرارا .

ذكر رسالة الكندهري

ولما فرغ بال السلطان برحيل العدو حضر رسول الكندهري يقول إن الانكثار قد أعطاني البلاد الساحلية ، وهي الآن لي فأعد علي بلادي حتى أصالحك ، وأكون أحد أولادك ، فغضب السلطان لذلك غضبا عظيما بحيث أنه كاد يبطش به ، فأقيم من بين يديه ، فسأل أن يمهل ليقول كلمة أخرى ، فأذن له في ذلك فقال : نقول إن البلاد في يدك فما الذي تعطيني منها ؟ فانتهره وأقامه .

ولما كان اليوم الثالث والعشرون حضر الرسول ، وكان جوابه أن يكون الحديث بيننا في صور وعكا على ما كان مع المركيس ، ثم وصل بعد ذلك إلى الحاجب يوسف صاحب المشطوب من عند الأفرنج وذكر أن الانكثار أحضره وأحضر الكندهري وأخلى المجلس وقال له : قل لصاحبك إنا قد هلكنا نحن وأنتم ، والأصلح حقن الدماء ولا ينبغي أن تعتقد أن ذلك لضعف مني ، بل للمصلحة ، ولا تغتر بتأخري عن منزلي فالكبش يتأخر لينطح ، وأن يكون هو الواسطة بينهم وبين السلطان ، وأنفذ مع الحاجب شخصين يسمعان الكلام من المشطوب ، وكان ظاهر الحال الكلام في إطلاق بهاء الدين قراقوش

وباطنه في معنى آخر ، وأخبر الحاجب أنهم رحلوا عن الرملة قاصدين يافا ، وأنهم على غاية الضعف والعجز عن قصد مكان آخر ، فاستحضر المشطوب من نابلس لسماع الرسالة وكان الجواب إلى الكنديري : أن نعطي عكا ، ونصالحه على مال ويتركنا والانكتار على بقية البلاد .

وكان رحمه الله قد جعل في مقابلة عكا عسكريا خشية خروج العدو إلى الدواحي التي تليها ، فلما كان الثاني والعشرون خرج العدو من عكا غائرين على ما يليها من البلاد والرساتيق ، فثارت عليهم الكمينات من الجوانب ، وكان قد شعر العسكر الاسلامي بخروجهم ، فكمّن لهم فأخذوا منهم جماعة ، وقتلوا جماعة والله الحمد .

ذكر عود رسولهم في معنى الصلح

ولما كان يوم الجمعة السادس والعشرون من الشهر عاد رسولهم صحبة الحاجب ، وقد حمل الحاجب يوسف رسالة يؤديها بحضور صاحبهم وهي أن ملك الانكتار يقول : إني راغب في مودتك وصداقتك ، وأنه لا يريد أن يكون فرعون يملك الأرض ، ولا يظن ذلك فيك ، ولا يجوز لك أن تهلك المسلمين كلهم ، ولا يجوز لي أن أهلك الأفرنج كلهم ، وهذا ابن أختي الكنديري قد ملكته هذه الديار ، وسلمته إليك ليكون هو وعسكره تحت حكمك ، ولو استدعيتهم إلى الشنق سمعوا وأطاعوا ، ويقول : إن جماعة من الرهبان المنقطعين قد طلبوا منك كنائس فما بخلت عليهم بها ، وأنا أطلب منك كنيسة ، وتلك الأمور التي كانت تضيق صدرك مما كان يجري في المراسلة مع الملك العادل تركتها وأعرضت عنها ، ولو أعطيتني قرية أو خربة قبلتها .

فلما سمع السلطان هذه الرسالة ، جمع أرباب الرأي وأصحاب

مشورته ، وسألهم عما يكون الجواب لهذه الرسالة ، فما منهم إلا من أشار بالحاسنة ، وعقد الصلح لما كان قد أخذ المسلمون من الضجر والتعب وعلاهم من الديون ، واستقر الحال على هذا الجواب :

إنك إذ دخلت معنا هذا الدخول فما (جزاء الاحسان إلا الاحسان (٤٥)) إن ابن أختك يكون عندي كبعض أولادي ، وسيبلغك ما أفعل معه ، وأنا أعطيك أكبر الكنائس وهي القمامة ، وأما بقية البلاد فنقسمها : فالساحلية التي بيدك تكون بيدك ، والذي بأيدينا من القلاع الجبلية يكون لنا ، وما بين العاملين يكون مناصفة ، وعسقلان وما وراءها يكون خرابا لانا ولالكم ، وإن أردتم قراها كانت لكم ، والذي كنت أكرهه حديث عسقلان .

واذفصل الرسول طيب النفس ، في ثاني يوم قدومه ، وهو الثامن والعشرون ، واتصل الخبر بعد وصول الرسول إليهم أنهم راحلون إلى عسقلان ، طالبون جهة مصر ، ووصل رسول من جانب قطب الدين بن قليج أرسلان أن البابا قد وصل إلى القسطنطينية في خلق لا يعلم عددهم إلا الله تعالى ، وقال الرسول : إنني قتلت في الطريق اثني عشر فارسا ، ويقول تقدم إلى من يستلم بلادي مني فإني قد عجزت عن حفظها ، فلم يصدق السلطان هذا الخبر ولم يكثرث به .

ذكر عود رسول الأفرنج ثالثا

ولما كان التاسع والعشرون ، وصل الحاجب صاحب المشطوب ، ومعه جفري رسول الملك ، فقال إن الملك شكر إنعام السلطان وقال : إن الذي أطلبه منك أن يكون لنا في القدس عشرون رجلا ، وأن من سكن من النصارى والأفرنج لا يتعرض إليهم ، وأما بقية البلاد فلنا منها الساحليات والوطاة والبلاد الجبلية لكم .

وأخبرنا الرسول من عند نفسه مناصحة أنه قد نزل عن حديث القدس ، ماعدا الزيارة ، ولكن يقول ذلك لضعفنا وأنهم راغبون في الصلح وأن الانكثار لا بد له من الرواح إلى بلده ، وأقام يوم الاثنين سلخ الشهر ، وكان معه في هذه الدفعة بازيان هدية للسلطان .

فاستحضر الأمراء بأسرهم وشاورهم فيما يكون الجواب لهذه الرسالة ، واندفع الحال على هذا الجواب ، وهو أن القدس ليس لكم فيه حديث سوى الزيارة ، فقال الرسول : وليس على الزوار شيء يؤخذ منهم ؟ فعلم من هذا القول الموافقة ، وأما البلاد كعسقلان وماوراءها فلا بد من خرابه ، فقال الرسول : قد خسر الملك على سورها مالا جزيلا ، فقال المشطوب للسلطان : المصلحة أن تجعل مزارعها وقراها في مقابلة خسارتها ، فأجاب : وأن الدارون وغيره تخرب وتكون بلادها مناصفة ، وأما باقي البلاد فتكون لهم من يافا إلى صور بأعمالها ، ومهما اختلفنا في قرية كانت مناصفة ، هكذا جواب رسالته ، وسار في يوم الثلاثاء مستهل رجب ، ومعه الحاجب يوسف ، وكان قد طلب رسولا مذكورا يحلفه إن استقرت القاعدة ، فأخبر السلطان تسيير الرسول إلى حين استقرار القاعدة ، وأنفذ لهم هدية في مقابل هديتهم ، وما كان يغلب في الهدايا .

ذكر عود الرسول

كان عوده وقد مضى هزيع من ليلة ثالث رجب ، فحضر الحاجب ليلا ، وأخبر السلطان الخبر ، وحضر الرسول في بكرة الخميس الثالث من رجب وأدى الرسالة ، وهي : إن الملك يسأل ويخضع لك أن تترك له هذه الأماكن الثلاثة عامرة ، وأي قدر لها في ملكك وعظمتك ؟ وما من سبب لاصرارها عليها إلا إن الافرنج لم يسمحوا بها ، وقد ترك القدس بالكلية فلا يطلب أن يكون فيه رهبان ولا قسوس إلا في القمامة وحدها ، فأنت تترك هذه البلاد ، ويكون

الصلح عاما ، فيكون لهم كل مافي أيديهم من الدارون إلى أنطاكية ، ولكم مافي أيديكم ، وينتظم الحال ونروح ، وأن لم ينتظم الصلح فالأفرنج لايمكثونه من الرواح ، ولايمكنه مخالفتهم ، فانظر إلى هذه الصناعة في استخلاص الغرض باللين تارة وبالشدة أخرى ، وكان لعنه الله مضطرا إلى الرواح ، وهذا عمله مع اضطارره ، والله الولي في أن يقي المسلمين شره ، فما بلونا أعظم حيلة ، ولاأشد اقداما منه .

ولما سمع السلطان هذه الرسالة أحضر الأمراء ، وأرباب الرأي من دولته ، وسألهم عن الجواب مايكون فكان خلاصة الرأي هذا الجواب ، وهو : « إن أهل أنطاكية لنا معهم حديث ، ورسالنا عندهم ، فإن عادوا بما نريد أدخلناهم في الصلح وإلا فلا ، وأما البلاد التي سألها فلا يوافق المسلمون على دفعها إليه وأن كانت لا قدر لها ، وأما سور عسقلان فيأخذ في مقابلة ماخسر عليه لذا في الوطأة » وسير الرسول صبيحة الجمعة رابع رجب . .

ولما كان الخامس من رجب وصل ولده الملك الظاهر عز نصره ، وكان كثير المحبة له والايثار لجانبه ، لما يراه فيه من أمارات السعادة وصفات الكفاءة وتوسم الملك ، فخرج السلطان إلى لقائه فلقى من قاطع العازرية ، ونزل له عند لقائه ، واحترمه وأكرمه وضمه إليه وقبله بين عينيه ، ونزل في دار الاسبتار .

ولما إن كان السابع وصل الحاجب يوسف وحده ، وذكر أن الملك قال له : لايمكن أن نخرب من عسقلان حجرا واحدا ، ولايسمع عنا في البلاد مثل ذلك ، وأما البلاد فحدودها معروفة ولامناكرة فيها ، وعند ذلك تاهب السلطان للخروج إلى جهة العدو ، وأظهر القوة ، وشدة العزم على اللقاء .

ذكر تبريزه رحمة الله عليه

ولما كان العاشر من رجب بلغ السلطان أن الأفرنج رحلوا طالبيين نحو بيرت فبرز من القدس إلى منزلة يقال لها الجيب ، وكان قدوم الملك العادل من البلاد الفراتية في بكرة الحادي عشر ، فدخل الصخرة وصلى عندها ، ثم توجه يتبع السلطان ، ثم إن السلطان رحل من الجيب إلى بيت زوبة ، وبعث إلى العسكر في القدس يحدثهم على الخروج والحقاق به ، ولحقت السلطان في بيت زوبة فإني كنت تخلفت عنه ليلة الاستعداد ، ثم رحل في يوم الأحد الثالث عشر إلى الرملة ضحوة نهار على تلال بين الرملة ولد ، فأقام بها بقية الأحد ، ولما كانت صبيحة الاثنين ركب جريدة حتى أتى يازور وبيت جبرين ، فأشرف على يافا ، ثم عاد إلى منزلته ، وأقام بها بقية يومه ، وجمع أرباب مشورته وشاورهم في النزول على يافا ، واتفق الرأي على ذلك .

ذكر حصار يافا

ولما كان صباح الثلاثاء خامس عشرة رحل طالبا جهة يافا ، فخيم عليها ضحوة النهار ، ورتب العسكر ميمنة وميسرة وقلبا ، وكان طرف الميمنة على البحر ، وطرف الميسرة على البحر ، والسلطان في الوسط ، وكان صاحب الميمنة الملك الظاهر أعز الله نصره ، وصاحب الميسرة أخاه الملك العادل ، والعساكر فيما بينهما .

ولما كان السادس عشر من الشهر زحف الناس إليها واستحقروا أمرها استحقارا عظيما ، ثم رتب السلطان الناس للقتال وأحضر المنجنقات وركبها على أضعف موضع في السور مما يلي الباب

الشرقي ، وشرع النقبابون في السور ، وارتفعت الأصوات وعظم الضجيج واشتد الحزم والزحف ، فأخذ النقبابون النقب من شمالي الباب الشرقي إلى الزاوية بطول البنية ، وكان قد هدم المسلمون ذلك المكان في الحصار الأول وبناه الأفرنج ، وتمكن النقبابون من النقب ودخلوا فلم يشك الناس في أخذ البلد في هذا اليوم ، هذا وأمر العدو في ازبياد ، وكان الملك قد توجه من عكا إلى بيروت ، وهذا الذي حمل السلطان على نزوله على يافا ، ثم انفصل ذلك اليوم عن قتال شديد قد ضرس العدو منه ، وظهر من العدو من الشدة والحمية والذب والمنعة ما أضعف قلوب الناس ، هذا والنقبابون قد تمكنوا من النقب عليهم ، فلما قارب الفراغ أخذ العدو في خسف النقب عليهم فحسفوه في مواضع عدة ، وخاف النقبابون وخرج منهم جماعة وفتر الناس عن القتال ، وعلموا أن أمر البلد مشكل ، وأنه يحتاج إلى زيادة عمل في أخذه ، فعزم السلطان عزم مثله فأمر النقبابين أن يأخذوا النقب في بقية البنية من البرج إلى الباب ، وأمر المنجنيقات أن تضرب قبالة البنية المنقوبة ، ففعلوا ذلك ، وأقام السلطان في تلك الليلة هناك إلى أن مضى من الليل ثلثه ، وعاد إلى الثقل ، وكان الثقل بعيدا عن البلد على تل قبالة ، وأصبحت المنجنيقات قد أقيم منها اثنان وأقيم الثالث في بقية النهار ، وأصبح السلطان على القتال والزحف فلم يجد من الناس إلا الفتور ، بسبب نصب المنجنيقات ظنا منهم أن المنجنيق لا يعمل إلا بعد أيام ، ولما علم السلطان من الناس الفتور والتواكل حملهم على الزحف ، فالتحم القتال واشتد الأمر ، وأذاقوا العدو مر الحرب ، فأشرف البلد على الأخذ وأيقنت الذفوس به وطمعت في ذلك طمعا شديدا ، وضعف العدو إلا أنه جرح من المسلمين جماعة بالذشاب والزنبورك من البلد ، فمنهم : الحاجب أبو بكر ، وختلج - والي بعلبك - وأصيب بعينه وطغرل التاجي ، وقد استقر في وجهه ، وهما من مقربي المماليك وأناز جركس في يده ، وهو من كبارهم .

ولما رأى العدو المخدول ما قد حل به أرسل رسولين نصرانيا

وأفرنجيا يطلبان الصلح ، ويتحدثان فيه ، فطلب السلطان منهم قاعدة القدس وقطيعته ، فأجابوا إلى ذلك واشتروطوا أن ينظروا إلى يوم السبت الذي هو تاسع عشر رجب ، فإن جاءتهم النجدة ، وإلا تمت القاعدة على ما استقر ، فأبى السلطان الإنظار ، فعاد الرسول ، ثم رجوا يسألونه الإنظار ، فأبى ذلك ، وفقر الناس عن القتال بسبب تواصل الرسل سكونا إلى الدعة على جاري العادة ، فأمر السلطان النقاين بحشو الذقب بعد انتهائه ، ففعلوا ذلك ، ووضعت النار فيه فوق نصف البينة ، وكان العدو قد عرف وقوع النار في الذقب ، وعلم إن ذلك المكان يقع فعمد إلى أخشاب عظيمة وهياها خلف ذلك المكان ، فلما وقع ذلك المكان التهب النيران فمنعت من الدخول إلى الثلمة ، ثم أمر السلطان الناس فزحفوا ، وضايقوا القوم مضايقة عظيمة ، فله درهم من رجال أقيال ما أشدهم وأعظم بأسهم ، فإنهم مع هذا كله لم يغلقوا لهم بابا ، ولم يزالوا يقاتلون خارج الأبواب أعظم قتال حتى فصل الليل بين الطائفتين ، ولم نقدر على البلد في ذلك اليوم حتى بعد حرق النقب في باقي البينة ، وضاق صدر السلطان لهذا الأمر وتقسم فكره ، وندم كيف لم يجبههم إلى الصلح ، وبات تلك الليلة في المخيم وقد عزم على أن يقيم تمام خمسة مناجيق ، تضرب بعضها البينة الضعيفة بسبب النقب والنيران والخسف من جانبهم .

ذكر فتح يافا وما جرى فيه من الوقائع

ولما كان يوم الجمعة ثامن عشر رجب أصبحت المنجنوقات وقد نصبت ، وحجارتها قد جمعت من الأوبية والأماكن البعيدة لعدم الحجر في ذلك المكان ، وظلت ترمي البينة المنقوبة وزحف السلطان وزحف ولده الملك الظاهر عز نصره زحفا شبيد ، وزحف عسكري الملك العادل من الميسرة ، فإنه كان مريضا وارتفعت الأصوات وضربت الكوسات ، ونعقت البوقات ، ورمت المنجنوقات ، وأحاط بهم

الويل ، واشتد عزم النقبين في إيقاد النار فما مضى من النهار ساعتان إلا ووقعت البينة ، وكان وقعها كوقع الواقعة ، ونادى الناس ألا أن البينة قد وقعت فلم يبق من له أدنى إيمان إلا وزحف ، ولا قلب من العدو إلا أرعد ورجف ، هذا الزحف وهم على القتال أشد وأحزم ، وعلى الموت أعز وأكرم ، وذلك أنها لما وقعت عللها بخان وغبار ، وأظلم الأفق وعميت عين النهار ، وماتجاسر أحد على الولوج خوفا من اقتحام النار ، فلما انكشفت الظلمة ظهرت أسنة قد نابت مناب الأسوار ، ورماح قد سدت الذلثة حتى غيبت نفوذ الأبصار ، ورأى الناس هولا عظيما من صبر القوم وثباتهم ، وسداد حركاتهم وسكناتهم ، ولقد رأيت رجلين على ممشى السور يمتنعان المتسلق عليه من جهة الذلثة ، وقد أتى أحدهما حجر المنجنيق فأخذه ونزل إلى داخل ، وقام رفيقه مقامه متصديا لمثل مالحق صاحبه في ساعة أسرع من لمح العيون ، بحيث لم يفرق بينهما فارق .

ولما رأى العدو ما آل الأمر إليه سيروا رسولين إلى السلطان يلتمسون الأمان فقال رحمه الله الفارس بالفارس ، والتركي بتركي ، والراجل بالراجل ، والعاجز على قطيعه القدس ، فنظر الرسول فرأى القتال على الذلثة أشد من إضرار النار ، فسأل السلطان أن يبطل القتال إلى أن يعود ، فقال : لا أقدر على منع المسلمين من هذا الأمر ولكن أدخل إلى أصحابك فقل لهم يتجاوزوا إلى القلعة ويتركوا الناس يشغلون بالبلد ، فما بقي دونه مانع ، فعاد الرسول بهذه الرسالة فانحاز العدو إلى قلعة يافا بعد أن قتل منهم جماعة عظيمة ، ودخل البلد عذوة ونهبوا منه أقمشة عظيمة ، وغللا كثيرة ، وأثاثا وبقايا قماش ، مما نهب من القافلة المصرية ، واستقرت القاعدة على الوجه الذي قرره السلطان .

ولما كان عصر الجمعة المباركة وصل السلطان كتاب من قسايمان النجمي ، وكان في طرف العدو لحمايته من عسكر العدو الذي في

عكا ، يخبر فيه أن الاكتار لما سمع خبر يافا أعرض عن قصد بيروت ، وعاد إلى قصد يافا ، فاشتد عزم السلطان على تنمة الأمر وتسليم القلعة وكنت ممن لم ير الأمان لأنه قد لاح أخذهم ، وكان الناس لهم مدة لم يظفروا من العدو بمغزم بوثبهم عليه ، فكان أخذهم عنوة مما يبعث همم العسكر ، غير أن الأمان وقع واتفق الصلح فكنت بعد ذلك ممن يحث على إخراج العدو من القلعة ، وتسلمها خوفا من لحوق النجدة ، وكان السلطان يشتهي خروجه غير أن الناس قد أقعدهم التعب عن إتمام الأمر ، وأخذ منهم الحديد وشدة الحر وبخان النار ، بحيث لم تبق لهم استطاعة على الحركة ، وأقام السلطان يحثهم إلى هوي من الليل ، فلما رأى ما قد نزل بالناس من التعب ركب وسار إلى خيمته إلى الثقل وسار الناس إلى خدمته ، ثم نزل في خيمته ، وعنت إلى خيمتي ، وعندي من الخوف ما أقلقني عن النوم .

ولما كان سحر تلك الليلة سمعنا بوق الأفرنج قد نعق ، فعلمنا بوصول النجدة ، قد وصلت في البحر ، فاستدعاني السلطان من وقته ، وقال : لاشك إن النجدة قد وصلت في البحر وعلى الساحل من عساكر الاسلام من يمنعهم من النزول ، والمصلحة أن تسير إلى الملك الظاهر ، وتقول له أن يقف بظاهر الباب القبلي ، وتدخل أنت ومن تراه إلى القلعة وتخرجوا القوم وتسولوا على ما فيها من الأموال والأسلحة وتكتبها بخطك إلى الملك الظاهر وهو خارج البلد ، وهو يسيرها إلي وسير معي لتقوية اليد على ذلك عز الدين جريدك ، وعلم الدين قيصر ، ودرباس المهراني ، فسرت من ساعتى ، ومعى شمس الدين عدل الخزانة حتى أتيت الملك الظاهر ، وهو نائم على شقته على تل قريب البحر في اليذك ، وعليه كراغنة ، وهو بلامه حربة ، فلاضيع الله صنعهم في نصرة الاسلام ، فأيقظته فقام والذوم في عينيه ، وسرت في خدمته ، وهو يستفهم مني رسالة السلطان حتى وقف حيث أمره ، وبخلنا نحن إلى يافا وأتينا القلعة ، وأمرنا الأفرنج بالخروج فأجابوا إلى ذلك ونهياوا للخروج .

ذكر كيفية بقاء القلعة في يد العدو

وكان ذلك في بكرة السبت تاسع عشر رجب سنة ثمان وثمانين .
ولما أجابوا إلى الخروج قال عز الدين جريدك لا ينبغي أن يخرج
منهم أحد حتى يخرج الناس من البلد خشية أن يتخطفهم
الناس ، وكان الناس قد داخلهم الطمع في البلد ، وأخذ عز الدين
يشدد في ضرب الناس وإخراجهم ، وهم غير مضطربين بعد ولا
محصورين في مكان ، فكيف يمكن إخراجهم ، وطال الأمر إلى أن
علا النهار وأنا ألومه وهو لا يرجع عن ذلك والزمان مضى ولما رأيت
الوقت كادية فقلت له : إن النجدة قد وصلت ، والمصلحة المسارعة
في إخراجهم ، والسلطان قد أوصاني بذلك ، فلما عرف السبب في
حرصي أجاب إلى إخراجهم ، ومضينا إلى باب القلعة القريب من
الباب الذي الملك الظاهر قائم عنده ، فأخرجنا تسعة وأربعين نفرا
بخيولهم ونسائهم ، وسيرناهم ، ولما خرج هؤلاء اشتد الباقون
وحدثتهم نفوسهم بالعصيان ، وكان سبب خروج من خرجوا أنهم
استقلوا المراكب التي جاءتهم وظنوا أن لانجدة لهم فيها ، ولم
يعلموا أن الانكثار مع القوم وأوهم قد تأخروا عن النزول إلى علو
النهار ، فخافوا أن يمتنعوا فيؤخذوا ويقتلوا ، فخرج من خرج ، ثم
بعد ذلك قربت النجدة حتى صاروا خمسة وثلاثين مركبا ، فقويت
نفوس الباقين في الحصن وظهرت عليهم أمارات العصيان
ودلائله ، وخرج منهم من أخبرني بتشويش عزمهم وأخذوا
الطاريقات والجنويات وعلوا على الأسوار ، وكانت القلعة جديدة لم
تشرف بعد ، فلما رأيت الأمر قد آل إلى ذلك نزلت من التل الذي كنت
واقفا عليه ، وهو ملاصق لباب القلعة ، وقلت لعز الدين
جريدك ، وهو مع عسكره في الأسفل مع جمع من الأجناد : خذوا
حذركم ، فقد تغيرت عزائم القوم فما كانت إلا ساعة بحيث صرت
خارج البلد في خدمة الملك الظاهر إلا وقد ركب القوم خيلهم وحملوا
من القلعة حملة الرجل الواحد وأخرجوا من كان في البلد من

الأجناد ، ولقد أرحم الناس في الباب حتى كاد يتلف منهم جماعة وبقي في بعض الكنائس جماعة من أتباع العساكر مشتغلين بما لايجوز فهجموا عليهم وقتلوا منهم وأسروا ، وسيرني الملك الظاهر إلى والده السلطان أعرفه بالحال ، فأمر الجاويش أن ينادي في العسكر ، وضرب الكوس للقتال ونفر الناس من كل جانب للغزاة ، وهجموا البلد وحشروا العدو في القلعة ، فأيقنوا بالبوار ، واستبطأوا نزول النجدة إليهم ، وخافوا خوفا عظيما ، فأرسلوا بطركهم والقسطلان (٤٦) وكان ذا خلقة هائلة رسولين إلى السلطان يعتذران إليه مما جرى ، ويسألان القاعة الأولى فخرجا إلى السلطان والقتال يشتد عليهم وكان سبب انقطاع النجدة أنهم رأوا البلد مشحونا ببيارق المسلمين ، ورجالهم ، فخافوا أن تكون القلعة قد أخذت ، وكان البحر يمنع من سماع الصوت من كل جانب لكثرة الضجيج والتهليل ، فلما رأى من في القلعة شدة الزحف عليهم ، وامتناع النجدة من النزول مع كثرتها فإنها بلغت نيفا وخمسين مركبا ، منها خمسة عشر شانيا فيها شاني الملك علموا أن النجدة ظنت أن البلد قد أخذ ووهب واحد نفسه للمسيح وقفز من القلعة إلى الميناء ، وكانت رملا فلم يصبه شيء ، واشتد عدوا حتى أتى البحر، فخرج له شاني وأخذه إلى شاني الملك فصدته بالحديث ، فلما شعر الانكثار أن القلعة مع أصحابه ، اندفع يطلب الساحل ، وكان أول شاني ألقى من فيه بالبر شانيه ، وكان أحمر ورقبته حمراء ، وببرقه أحمر ، فما كانت إلا ساعة حتى نزل كل من في الشواني إلى الميناء ، هذا كله وأنا أشاهد ذلك ، ثم حملوا على المسلمين فاندفعوا بين أيديهم وأخرجوهم من الميناء ، وكان تحتي فرس فساقته إلى السلطان وأخبرته الخبر ، وبين يديه الرسولان ، وقد أخذ القلم بيده ليكتب لهم الأمان فعرفته في إننه ماجرى ، فامتنع من الكتابة وشغلهم بالحديث ، فما كان إلا ساعة حتى فر المسلمون نحو السلطان ، فصاح في الناس ، فركبوا وقبض على الرسولين ، وأمر بترحيل الثقل والأسواق إلى يازور ، فرحل الناس ، وتخاف لهم ثقل عظيم مما كانوا نهبوه من

يافا لم يقدوا على نقله ، ورحل النذل ، وبقي السلطان جريئة في الليل ، وبات ليلته هناك ، وخرج الانكثار إلى موضع السلطان الذي كان فيه لضيق البلد ، وأمر من في القلعة أن يخرجوا إليه معظم سواده ، فاجتمع به جماعة من الماليك وجرت بينهم أحاديث ومجاوبات كثيرة .

ذكر حديث الصلح

ثم طلب الحاجب أبا بكر العادلي ، وحضر عندهم أيبك العزيزي ، وسدقر المشطوبي وغيرهم ، وكان قد صادق جماعة من خواص الماليك ، ودخل معهم دخولا عظيما بحيث كادوا يجتمعون به في أوقات متعددة ، وكان قد صادق من الأمراء كبدر الدين دلدوم وغيره ، فلما حضر هذا الجمع عنده جد وهزل ، ومن جملة ما قاله هذا السلطان عظيم ، وما في هذه الأرض للاسلام أكبر ولا أعظم منه ، كيف رحل عن المكان بمجرد وصولي ، والله مالبست لامة حرب ، ولا تاهبت لأمر وليس في رجلي إلا زربول البحر فكيف تأخر ؟! ثم قال والله العظيم الكريم ما ظننت أنه يأخذ يافا في شهرين ، فكيف أخذها في يومين ، ثم قال لأبي بكر سلم على السلطان وقل له بالله عليك أجب سؤالي في الصلح ، فهذا الأمر لابد له من آخر ، وقد هلكت بلادني وراء البحر ، وما في دوام هذا مصلحة لالنا ولا لكم .

ثم انفصلوا عنه وحضر أبو بكر عند السلطان ، وعرفه ما قاله ، وكان ذلك في أواخر يوم السبت تساع عشر شهر رجب ، فلما سمع السلطان ذلك أحضر أرباب المشورة ، وانفصل الحال على أن الجواب هو : « إنك كنت طلبت الصلح أولا على قاعة ، وكان الحديث في يافا وعسقلان ، والآن قد خربت يافا فيكون لك من صور إلى قيسارية » فمضى إليه وعرفه ما قال فربده إليه ومعه رسول أفرنجي وقال يقول : « ان قاعة الأفرنج أنه إذا

أعطى واحد لواحد بلدا صار تبعه وغلामه ، وأنا أطلب منك هذين
البلدين يا فا وعسقلان ، وتكون عساكرهما في خدمتك دائما ، وإذا
احتجت إلي وصلت إليك في أسرع وقت ، وخدمتك كما تعلم
خدمتي « فكان جواب السلطان : « حيث دخلت هذا المدخل فأنا
أجيبك بأن نجعل هذين البلدين قسمين : أحدهما لك وهو يا فا
وماوراءها ، والثاني لي وهو عسقلان وماوراءها « ثم سار
الرسولان ورحل السلطان إلى الذقل ، وكان الخيم بيازور ورتب
الذقابين لذلك واليزك عندهم ، وسار حتى أتى الرملة فخيم بها يوم
الأحد العشرين من رجب ، ووصل إليه الرسول مع الحاجب أبي
بكر ، فأمر بإكرامه والاحسان إليه ، وكانت رسالته الشكر من
الملك على إعطائه يا فا ، وتجديد السؤال في عسقلان ويقول : إنه إن
وقع الصلح في هذه الأيام سار إلى بلاده ، ولا يحتاج أن يشتي
ها هنا ، فأجابه السلطان في الحال بقوله : « أما النزول عن عسقلان
فلا سبيل إليه ، وأما تشتيته ها هنا فلا بد منها لأنه قد استولى على
هذه البلاد ، ويعلم أنه متى غاب عنها أخذت بالضرورة ، كما تؤخذ
أيضا إذا أقام إن شاء الله تعالى ، وإذا سهل عليه أن يشتي
ها هنا ، ويبعد عن أهله ووطنه مسيرة شهرين وهو شاب في عذفوان
شبابه ووقت اقتناص لذاته ، أفلا يسهل علي أن اشتي وأصيف وأنا
في وسط بلادي وعندي أولادي وأهلي ، ويأتي إلي ما أريد ، وأنا
رجل شيخ قد كرهت لذات الدنيا وشبعت منها ورفضتها
عني ، والعسكر الذين يكون عندي في الشتاء غير العسكر الذي
يكون عندي في الصيف ، وأنا أعتقد أنني في أعظم
العبادات ، ولا زال كذلك حتى يعطي الله النصر لمن يشاء »

فلما سمع الرسول ذلك طلب أن يجتمع بالملك العادل ، فأن له في
ذلك فسار إليه مع جماعة ، ثم بلغ السلطان أن عسكر العدو قد رحل
من عكا قاصدا يا فا للانجاد ، فجمع أرباب الرأي ، وعقد مشورة في
قصدهم ، فاتفق الرأي على أنهم يقصدونهم ويرحل بالذقل إلى
الجبيل ويقصدونهم جريئة ، فان لاحت فرصة انتهزوها ، وإلا
رجعوا عنهم ، وهذا أولى من أن نصبر حتى تجتمع عساكر

العدو ، ونرحل إلى الجبل في صورة منهزمين ، وأما إذا وصلنا الآن ففي صورة طالبيين ، فأمر السلطان المثل أن يسير إلى الجبل عشية الاثنين الحادي والعشرين من رجب ، وسار هو جريدة في صبيحة يوم الثلاثاء حتى نزل على العوجاء ، ووصل إليه من أخبره أن عسكر العدو قد وصل قيسارية وبخل إليها ، ولم يبق فيه طمع ، وبلغه إن الانكثار ، قد نزل خارج يافا في نفر يسير بخيم قليلة ، فوقع له أن ينتهز فيه الفرصة ويكبس خيمه وينال منهم غرضا ، وعزم على ذلك ، وسار من أول الليل والأدلة من العرب تتقدمه وهو يقطع الطريق إلى أن أتى في الصباح إلى خيام العدو فوجدها تقريبا عشر خيم ، فداخله الطمع ، وحملوا حملة الرجل الواحد ، فثبتوا في أماكنهم وكشروا عن أنياب الحرب فارتاعوا فوجموا من ثباتهم ودار العسكر حلقة واحدة ،

ولقد حكى لي بعض الحاضرين ، فإني كنت تأخرت مع المثل ، ولم أحضر هذه الواقعة لالتياث مزاجي ، أن عدة الخيل كان يحرسها المقل سبعة عشر ، والمكاثر تسعة عشر ، والرجال دون الألف فمن قاتل ثلاثمائة ، ومن قاتل أكثر من ذلك فوجد السلطان من ذلك مغيظة عظيمة ودار على الأطلاب يحنها ، فلم يجب دعاءه سوى ولده الملك الظاهر ، وقال له الجناح أخو المشطوب قل لغلمانك الذين ضربوا الناس يوم فتح يافا ، وأخذوا منهم الغنيمة يحملون وكان في قلوب العسكر من صلح يافا غيظ على السلطان ، حيث فوتهم الغنيمة ، وما كان كان وجرى ماجرى وأثر هذا الأثر .

فلما رأى السلطان ذلك رأى أن وقوفه في مقابلة هذه الشرزمة اليسيرة من غير عمل خسة في حقه ، وقد بلغني إن الانكثار أخذ رمحه ذلك اليوم وحمل من طرف الميمنة إلى طرف اليسرة ، فلم يتعرض له أحد ، فغضب السلطان ، ثم أعرض عن القتال ، وسار حتى أتى يازور كالمغضب ، ونزل وذلك في يوم الأربعاء الثالث والعشرين من رجب ، وبات العسكر باليزك ، ثم أصبح يوم الخميس فسار إلى النطرون ونزل به ، وأنفذ إلى العسكر فأحضره

عنده ، فوصلنا إليه آخر نهار الخميس الرابع والعشرين ، فبات به ، ثم أصبح يوم الجمعة فسار إلى أخيه العادل يفتقده ، وبخل القدس ، وصلى الجمعة ونظر العمائر ورتبها ، ثم عاد من يومه إلى الثقل وبات فيه على النطرون .

ذكر قدوم العساكر

كان أول من وصل علاء الدين بن أتابك صاحب الموصل ، وكان وصوله ضحاء نهار السبت السادس والعشرين من رجب ، فلقى السلطان عن بعد ، واحترمه وأكرمه وانزله عنده في الخيمة ، وعمل همه حسنة ، وقدم له تقديما جميلة ، ثم سار إلى خيمته

وأما رسول الملك فإنه عاد في هذا اليوم ، فان الملك العادل قد حمله رسالة مشافهة إلى الملك ، وعاد مع الحاجب أبي بكر إلى يافا ، فعاد أبو بكر وحضر عند السلطان في ذلك اليوم وأخبره أن الملك لم يتركني أدخل يافا ، وخرج إلي وكلمني في ظاهرها ، وكان كلامه إلي : كم أطرح نفسي على السلطان ، وهو لا يقبلني وأنا كنت أحرص أن أعود إلى بلادي والآن قد هجم الشتاء ، وتغيرت الأنواء ، وقد عذمت على الإقامة ، وما بقي بيننا حديث هكذا كان جوابه خذله الله تعالى .

ولما كان يوم الخميس تاسع شعبان قدم عسكر مصر ، فخرج السلطان إلى لقائهم ، وكان فيهم مجد الدين هلدري ، وسيف الدين يازكج ، وجماعة الأسبكية ، وكان في خدمته الملك المؤيد مسعود ، وقد أظهروا الزينة ، ونشروا الأعلام والبيارق فكان يوما مشهودا ، ثم أنزلهم عنده ، ومد الخوان ، ثم ساروا إلى منازلهم .

ذكر قدوم الملك المنصور بن تقي الدين رحمه الله

وكان قد تسلم البلاد التي وعد بها ، وكان وصوله إلى خدمة الملك في يوم السبت حادي عشر شعبان ، فنزل عنده بماء صمويل ، وافتقده ، وكتب الملك العادل في ذلك اليوم إلى السلطان يخبره بوصوله ، وسأله في احترامه وإكرامه وإطلاق الوجه له ، ولما تحقق الملك الظاهر وصول الملك المنصور استأنن والده في لقائه ، وافتقاد الملك العادل ، فأذن له في ذلك ، فسار فوجد الملك المنصور مخيما ببيت نوبة فنزل عنده وخرج إلى لقائه ، وأقام عنده إلى العصر ، وذلك في يوم الأحد ، وأخذ وسار به جريئة حتى أتى خيمة السلطان ، ونحن في خدمته ، فدخل عليه فاحترمه ونهض إليه ، فاعتقه وضمه إلى صدره ، ثم غشيه البكاء ، فصبر نفسه حتى غلبه الأمر ، وغشيه من البكاء ما لم ير مثله ، فبكى الناس لبكائه ساعة زمانية ثم باسطه وسأله عن الطريق ثم انفصل وبات في خيمة الملك الظاهر إلى صبيحة يوم الاثنين ، ثم ركب وعاد إلى عسكره ، ونشروا الأعلام والبيارق ، وكان معه عسكر جليل ، فمرت عين السلطان ، ونزل في مقدمة العسكر مما يلي الرملة .

ذكر رحيله رحمه الله إلى الرملة

وذلك أنه لما رأى العساكر قد اجتمعت ، جمع أرباب الرأي وقال : ان الانكتار قد مرض مرضا شديدا ، والافرنسية قد ساروا راجعين ليعبروا البحر من غير شك ، ونفقاتهم قد قلت ، وهذا العدو قد أمكن الله منه ، وأرى أن نسير إلى يافا فإن وجدنا فيها مطمعا بلغناه ، والا عدنا تحت الليل إلى عسقلان فما تلحقنا النجدة إلا وقد نلنا منها غرضا فرأوا ذلك رأيا ، وتقدم إلى جماعة من الأمراء كعز الدين جريدك ، وجمال الدين فرج وغيرهما

بالمسير في ليلة الخميس سادس عشر شعبان ، حتى يكونوا قريبا من يافا في صورة يزك يستطلعون كم فيها من الخيالة والرجالة بالجواسيس ، ثم يعرفونه ذلك فساروا ، هذا ورسلا الانكشار لاتنقطع في طلب الفاكهة والثلج ، ووقع عليه في مرضه شهوة الكمثرى والخوخ ، فكان السلطان يمدد به ذلك ، ويقصد كشف الاخبار بقواته الرسل ، والذي انكشف من الاخبار أن فيها ثلاثمائة فارس على قول المكثري ، ومثني فارس علي قول المقل ، وأن الكندهرى يتردد بينه وبين الفرنسيسية في مقامهم ، وهم عازمون على عبور البحر قولا واحدا ، وأنهم لا عناية لهم بسور البلد وإنما عنايتهم بعمارة سور القلعة وكان الانكشار قد طلب الحاجب أبا بكر العادلي ، وكان له معه انبساط عظيم .

فلما تحقق السلطان الاخبار أصبح يوم الخميس راحلا إلى جهة الرملة فنزل بها ضاحي نهار ، ووصل الخبر من المغيرين يقولون إنا أغرنا على يافا فلم يخرج إلّا نحو ثلاثمائة فارس معظمهم على بغال ، فأمرهم السلطان بمقامهم هناك ، ثم وصل الحاجب أبو بكر ومعه رسول من عند الملك يشكر السلطان على إنعامه بالفواكه والثلج ، وذكر أبو بكر أنه تفرد به ، وقال له : قل لأخي الملك العادل يبصر كيف يتوصل إلى السلطان في معنى الصلح ، ويستوهب لي منه عسقلان ، وأمضي أنا ويبقى هو في هذه الشريعة يسيرة يأخذ البلاد منهم ، فليس لي غرض إلا إقامة جاهي بين الأفرنج وإن لم ينزل السلطان عن عسقلان ، فيأخذ لي منه عوضا عن خسارتي على عمارة سورها .

فلما سمع السلطان ذلك سيرهم إلى الملك العادل وأسر إلى ثقة عنده أن يمضي إلى الملك العادل ويقول له إن نزلوا عن عسقلان فصالحهم فإن العسكر قد ضجروا ملازمة البيكار (٤٧) ، والنفقات قد زفدت ، فسار ضحى الجمعة سابع عشر شعبان .

ذكر الاجابة إلى النزول عن عسقلان

ولما كان غروب الشمس من اليوم المذكور ، انفذ بدر الدين دلدرم من اليذك بقول : يا انه قد خرج إلينا خمسة أنفس منهم شخص مقدم عند الملك يسمى هوات وذكروا ان لهم معنا حديثا ، فهل أسمع حديثهم أولا ؟ فأنن له السلطان في ذلك ، ولما كانت العشاء الآخرة حضر بدر الدين بنفسه وأخبر أن حديثهم كان أن الملك قد نزل عن عسقلان ، وعن طلب العوض عنها ، وقد صرح مقصوده في الصلح ، فأعاده السلطان ثانية لينفذ اليه ثقة يأخذ يده على ذلك ، ويقول : إن السلطان قد جمع العساكر ومايمكثني أن أحدثه هذا الحديث إلا بأن أذك أذك لاترجع ، وبعد ذلك أحدثه وسار بدر الدين على هذه القاعدة وكتب الى الملك العادل يخبره بما جرى .

ولما كان يوم السبت ثامن عشر شعبان ، انفذ بدر الدين ، وذكر أنه أخذ يده على هذه القاعدة بمن يثق به ، وأن حدود البلاد على مااستقر في الدفعة الأولى مع الملك العادل ، فأحضر السلطان الديوان فذكروا يافا وأعمالها وأخرج الرملة وبيننا ومجدل يابا ، ثم ذكر قيسارية وأعمالها وأرسوف وأعمالها ، وحيفا وأعمالها ، وعكا وأعمالها ، وأخرج منها الناصرة وصفورية ، وأثبت الجميع في ورقة ، وكتب جواب الكتاب ، وأنفذه على يد طرنتاي مع الرسول ، وكان قد وصل الرسول لتحرير القاعدة مع بدر الدين في عصر السبت ، وقال للرسول هذه حدود البلاد التي تبقى في أيديكم ، فإن صالحتم على ذلك فمبارك قد أعطيتكم يدي ، ولينفذ الملك من يحلف ويكون ذلك في غداة غد ، وإلا فيعلم أن هذا تدفيع ومماطلة ، ويكون الأمر قد انفصل من بيننا وساروا في بكرة الأحد على هذه القاعدة .

ولما كانت العشاء الآخرة يوم الأحد وصل من أخبر بوصول طرنتاي ومعه الرسول ، واستأنن في حضورهما فأنن رحمه الله في

حضور طرنتاي وحده ، فذكر أن الملك قد وقف على تلك الرقعة وأنكر أنه نزل عن العوض ، فأذكره الجماعة الذين خرجوا إلى بين يدي دلدردم أنه نزل عن ذلك ، فقال إذا أنا قلته فلا أرجع عنه ، قولوا للسلطان مبارك رضيت بهذه القاعدة ، وقد رجعت إلى مروءتك فإن زدتن شيئا فمن فضلك وانعامك ، ثم سار وأحضر الرسل ليلا وأقاموا إلى بكرة وحضروا عند السلطان بكرة الاثنين فذكروا ما استقر عن صاحبهم ، ثم انفصلوا إلى خيمهم ، وحضر عند السلطان أرباب المشورة واستقر الأمر ، وانفصلت القاعدة ، وسار الأمير بدر الدين دلدردم إلى الملك العادل ، وأخذ الرسل معه في صورة من يسأل في زيادة الرملة ، وعاد في عشاء الآخرة ليلة الاثنين وكتب المواضعة ، وذكر فيها شروط الصلح ثلاث سنين من تاريخها ، وهو الأربعاء الثاني والعشرون من شعبان سنة ثمانية وثمانين وخمسمائة ، ويزاد فيها الرملة لهم ولد أيضا ، وسير العدل وقال له : ان قدرت أن ترضيهم بأحد الموضعين أو مناصفتهم فافعل ، ولا يكون لهم حديث في الجبلية ، ورأى السلطان ذلك مصلحة لما عرا الناس من الضعف ، وقلة النفقات والشوق إلى الأوطان ، ولما شاهده من تقاعدهم عن يافا يوم أمرهم بالحملة فلم يحملوا فخاف أن يحتاج إليهم فلا يجدهم فرأى أن يجيبهم مدة حتى يستريحوا ويتبعوا غير هذه الحالة التي صاروا إليها ، ويعمر البلاد ويشحن القدس بما يقدر عليه من الآلة ويتفرغ لعمارتها .

وكان من القاعدة أن عسقلان تكون خرابا ، وأن يتفق أصحابنا وأصحابهم على خرابها خشية أن نأخذها عامرة فلا نخربها ، فمضى العدل على هذه القاعدة واشترط دخول البلاد الإسلامية ، واشترطوا هم دخول صاحب أنطاكية وطرابلس في الصلح على قاعدة آخر صلح صالحناهم عليه واستقر الحال على ذلك ، وسارت الرسل وحكم عليهم أن لا بد من فصل الحال أما الصلح وأما الخصومة ، خشية أن يكون هذا الحديث من قبيل أحاديثه السابقة ومدافعاته المعروفة .

وفي ذلك اليوم وصل رسول سيف الدين بكتمر صاحب خلاط يبذل الطاعة والموافقة وسير العساكر ، وحضر رسول الكرج وذكر فصلا في معنى الزيارات التي لهم في القدس وعمارتها ، وشكوا أنها أخذت من أيديهم ، ويسأل عواطف السلطان أن يردها إلى نوابهم ورسول صاحب أرزن الروم يبذل الطاعة والعبودية .

ذكر تمام الصلح

ولما وصل العدل إلى هناك أنزل خارج البلد في خيمة حتى أعلم الملك به ، فلما علم به استحضره عنده مع بقية الجماعة ، وعرض العدل عليه النسخة وهو مريض الجسم ، فقال بلاطقة لي بالوقوف عليها وأنا قد صالحت وهذه يدي ، فاجتمعوا بالكندھري والجماعة وأوقفوهم على النسخة ورضوا بلد والرملة مناصفة ، وبجميع ما في النسخة واستقرت القاعدة أنهم يحلفون بكرة يوم الأربعاء لأنهم كانوا قد أكلوا شيئا ، وليس من عادتهم الحلف بعد الأكل وأنفذ العدل إلى السلطان من عرفه ذلك .

ولما كان يوم الأربعاء الثاني والعشرون من شعبان حضر الجماعة عند الملك وأخذوا يده وعاهدوه ، واعتذر أن الملوك لا يحلفون وقنع السلطان بذلك ، ثم حلف الجماعة والمستحلف الكندھري ابن أخته ، المستخلف عنه في الساحل ، وباليان بن بارزان صاحب طبرية ، ورضي الاستتار والداوية وسائر مقدمي الأفرنجية بذلك ، وساروا بقية يومهم عائدين إلى المخيم السلطاني فوصلوا العشاء الآخرة ، وكان الواصلون من جانبهم ابن الھذھري وابن بارزان ، وجماعة من مقدميهم فاحترموا وأكرموا ، وضربت لهم خيمة تليق بهم وحضر العدل وحكى ماجرى .

ولما كانت صبيحة الثالث والعشرين حضر الرسل في خدمة

السلطان ، وأخذوا بيده الكريمة، وعاهدوه على الصلح على القاعدة المستقرة ، واقترحوا حلف جماعة ، وهم : الملك العادل ، والملك الأفضل ، والملك الظاهر ، عز نصرهم ، والاشطوب وبدر الدين دلدزم ، والملك المنصور ، ومن كان مجاورا لبلادهم : كابن المقدم وصاحب شيزر وغيرهم فوعدهم السلطان أن يسير معهم رسلا إلى الجماعة المجاورين ليحلفوهم لهم ، وحلف لصاحب انطاكية وطرابلس ، وعلق اليمين بشرط حلفهم للمسلمين ، فإن لم يحلفوا فلا يدخلوا في الصلح .

ثم أمر المنادي أن ينادي في الوطاقات والأسواق إلا أن الصلح قد انتظم في سائر بلادهم فمن شاء من بلادهم أن يدخل إلى بلادنا فليفعل ، ومن شاء من بلادنا أن يدخل إلى بلادهم فليفعل ، وأشار - رحمة الله عليه - أن طريق الحج قد فتح من الشام ، ووقع له عزم على الحج في ذلك المجلس ، وكنت حاضرا ذلك جميعه ، وأمر السلطان أن يسير مائة نقاب لتخريب سور عسقلان ، معهم أمير كبير، ولاخراج الأفرنج منها ، ويكون معهم جماعة من الأفرنج إلى حين وقوع الخراب في السور خشية استبقائه عامرا .

وكان يوما مشهودا غشي الناس من الطائفتين فيه من الفرح والسرور ما لا يعلمه إلا الله تعالى ، والله العظيم إن الصلح لم يكن من إثارة ، فإنه قال لي في بعض محاورته في الصلح : أخاف أن أصالح ، وما أدري أي شيء يكون مني ، فيقوى هذا العدو ، وقد بقيت لهم هذه البلاد، فيخرجوا لاسترداد بقية بلادهم ونرى كل واحد من هؤلاء الجماعة قد قعد في رأس قلته ، يعني حصنه ، وقال : لا أنزل فيهلك المسلمون ، هذا كلامه ، وكان كما قال ، لكنه رأى المصلحة في الصلح لسأمة العسكر وتظاهرهم بالمخالفة ، وكانت مصلحة في علم الله تعالى ، فإنه اتفقت وفاته

بعيد الصلح ، ولو كان اتفق ذلك في أثناء الوقعات لكان الاسلام على خطر ، فما كان الصلح إلا توفيقا وسعانة له .

ذكر خراب عسقلان

ولما كان الخامس والعشرون من شعبان نذب السلطان علم الدين قيصر إلى خراب عسقلان ، وسير معه جماعة من النقبائين والحجارين ، واستقر أن الملك ينفذ من يافا من يسير معه ليقف على التخريب ، ويخرج الأفرنج منها ، فوصلوا إليها من الغد ، فلما أرادوا التخريب اعتذر الأجناد الذين بها بأن لنا على الملك جامكية لمدة ، فإما أن يدفعها إلينا ونخرج أو ادفعوها أنتم إلينا فوصل بعد ذلك رسول الملك يأمرهم بالخروج فخرجوا ، ووقع التخريب فيها في السابع والعشرين من شعبان ، واستمر يخربها ، وكتب على الجماعة رقاعا بالمعاونة على التخريب ، وأعطى كل واحد قطعة معلومة في السور ، وقيل له دستورك في تخريبها .

ولما كان التاسع والعشرون رحل السلطان إلى النظرون ، واختلط العسكران ، ونهب جماعة من المسلمين إلى يافا في طلب التجارة ، ووصل خلق عظيم من العدو إلى القدس للحج ، وفتح لهم السلطان الباب ، وأنفذ معهم الخفراء يحفظونهم حتى يربهم إلى يافا ، وكثر ذلك من الأفرنج ، وكان غرض السلطان بذلك أن يقضوا غرضهم من الزيارة ويرجعوا إلى بلادهم فيأمن المسلمون من شرهم .

ولما علم الملك كثرة من يزور منهم صعب عليه ذلك وسير إلى السلطان يسأله منع الزوار ، واقتراح أن لا يؤذن لهم إلا بعد حضور علامة من جانبه أو كتابه ، وعلمت الأفرنج ذلك فعظم عليهم ، واهتموا في الحج ، فكان يرد منهم في كل يوم جموع كثيرة مقدمون ، وأوساط وملوك متنكرون .

وشرع السلطان في إكرام من يرد ومد الطعام ومباسطتهم ومحادثتهم ، وعرفهم إنكار الملك ذلك ، وأنن لهم السلطان في الحج وعرفهم أنه لم يلتفت إلى منع الملك من ذلك ، واعتذر إلى الملك بأن قوما قد وصلوا من بعد ذلك لزيارة هذا المكان الشريف ، فلا استحل منعهم ، ثم اشتد المرض بالملك فرحل في ليلة التاسع والعشرين وسار هو والكندھري وسائر العدو الى جانب عكا ، ولم يبق في يافا إلا مريض أو عاجز ونفر يسير .

ذكر عود العساكر الاسلامية إلى أوطانهم

ولما انقضى هذا الامر استقرت القواعد ، وأعطى السلطان الناس دستوراً وكان أول من سار عسكر إربل ، فإنه سار في مستهل شهر رمضان المبارك ، ثم سار بعده في ثمانية عسكر الموصل وسنجار والحصن ، وأشاع أمر الحج ، وقوى عزمه على براءة الذمة ، وكان هذا مما وقع لي ، وبدأت بالاشارة به فوقع منه موقعا عظيما ، وأمر الديوان وكل من عزم على الحج من العسكر أن يثبت إسمه ، حتى يحصر عنة من يدخل معنا في الطريق ، وكتب جرائد بما يحتاج إليه في الطريق من الخلع والأزواد وغيرها ، وسيرها إلى البلاد ليعدها .

ولما أعطى الناس دستورا ، وعلم عود العدو منحورا ، إلى ورائه رأى الدخول إلى القدس الشريف ، لتهيئة أسباب عمارته ، والنظر في مصالحه ، والتأهب للمسير إلى الحج ، فرحل من النطرون يوم الأحد رابع شهر رمضان ، وسار حتى أتى ماء صمويل يفتقد الملك العادل ، فوجده قد سار إلى القدس ، وكنت عنده رسولا من جانب السلطان أنا والأمير بدر الدين دلدردم ، والعدل ، وكان قد انقطع عن أخيه مدة بسبب مرضه ، وكان قد تماثل فعرفناه مجيء السلطان إلى ماء صمويل لعيادته ، فحمل على نفسه ، وسار معنا حتى لقيه

في ذلك المكان ، وهو أول وصوله إلى مساء صمويل ولم ينزل بعد ، فلقيه ونزل ، وقبل الأرض ، وعاد فركب فاستدناه وسأله عن مزاجه ، وسارا جميعا حتى أتينا القدس الشريف في بقية ذلك اليوم .

ذكر وصول رسول من بغداد

ولما كان يوم الجمعة الثالث والعشرون من شهر رمضان صلي الملك العادل الجمعة ، وانصرف إلى الكرك عن دستور من السلطان لينظر في أحواله ، ويعود إلى البلاد الشرقية يدبرها فإنه كان قد أخذها من السلطان ، وكان قد ودع السلطان ، فلما وصل العازرية نزل بها مخيما ، فوصله من أخبر أن رسولا من بغداد واصل إليك فأنفذ إلى السلطان وعرفه فذكر له أن يجتمع ويطلع ما وصل فيه ، فلما كان السبت الرابع والعشرون دخل إلى الخدمة السلطانية ، وذكر أن الرسول قد وصل إليه من جانب ابن الناقد بعد أن ولي نيابة الوزارة ببغداد ، ومقصود الكتاب أنه يحثه على استعطاف قلب السلطان إلى الخدمة الشريفة ، والدخول بينه وبين الديوان العزيز ، والانكار عليه بتأخر رساله عن العتبة الشريفة ، واقتراح تسيير القاضي الفاضل ليحضر الديوان العزيز في تقرير قاعدة تتحرر بينه وبين السلطان لا بد منها ، وقد وعد الملك العادل من الديوان بدعوة عظيمة إذا قرر ذلك ، وتكون له يد عند الديوان يستثمرها فيما بعد ، وما يشبه هذا الفن ، فحدثت عند السلطان فكرة في انفاذ رسول يسمع كلام الديوان ويستعلم سبب دخول الملك العادل في البين ، وزاد الحديث ونقص ، وطال وقصر ، وقوي العزم السلطاني على انفاذ الضياء الشهرزوري ، وعاد الملك العادل إلى مخيمه بالعازرية بعد تقرير هذه القاعدة وعرفه إجابة السلطان إلى انفاذ رسول إلى خدمة الديوان العزيز ، وسار يوم الاثنين طالبا جهة الكرك ، وسار

الضياء متوجها إلى بغداد يوم الثلاثاء السادس والعشرين من شهر رمضان .

ذكر توجه ولده الملك الظاهر الى بلاده ووصية السلطان له

ولما كانت بكرة التاسع والعشرين توجه الملك الظاهر ، عز نصره ، بعد أن ودعه ونزل إلى الصخرة فصلى عندها ، وسأل الله تعالى ما شاء ، ثم ركب وركبت في خدمته ، فقال لي : قد تذكرت أمرا أحتاج فيه مراجعة السلطان مشافهة ، فأذف من استأذن له العود إلى خدمته ، فأذن له في ذلك فحضر واستحضرني ، وأخلى المكان ، ثم قال : أوصيك بتقوى الله تعالى ، فإنها رأس كل خير وأمرك بما أمر الله به فإنه سبب نجاتك ، وأحذر من الدماء والدخول فيها والتقليد بها ، فإن الدم لا ينام ، وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر في أحوالهم فأنت أمين وأمين الله عليهم ، وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء وأرباب الدولة والأكابر ، فما بلغت ما بلغت إلا بمداواة الناس ، ولا تحقد على أحد فإن الموت لا يبقى على أحد ، واحذر ما بينك وبين الناس فإنه لا يغفر إلا برضاهم ، وما بينك وبين الله يغفره الله بتوبتك إليه فإنه كريم ، وكان ذلك بعد إن انصرفنا من خدمته ومضى من الليل ما شاء الله أن يمضي وهذا ما أمكنني حكايته وضبطه ، ولم يزل بين يديه إلى قريب السحر ، ثم أذن له في الانصراف ونهض له ليودعه ، فقبل وجهه ومسح على رأسه ، وانصرف في دعة الله ونام في برج الخشب الذي للسلطان ، وكنا نجلس عنده في الأحيان إلى بكرة وانصرف في خدمته إلى بعض الطريق وودعته وسار في حفظ الله .

ثم سير الملك الأفضل ثقله ، وأقام يراجع السلطان على لسانني في أشغال كانت له حتى دخل في شوال أربعة أيام ، وسار في ليلة الخامس منه نصف الليل عن تعتب عليه جريئة على طريق الغور .

ذكر مسيره رحمه الله من القدس الشريف

واقام السلطان يقطع الناس ، ويعطيهم دستورا ، ويتأهب للمسير إلى الديار المصرية وانقطع شوقه عن الحج ، وكان من أكبر المصالح التي فاقته ، ولم يزل كذلك حتى صبح عنده اقلاع مركب الانكثار متوجها إلى بلاده مستهل شوال ، فعند ذلك حرر السلطان عزمه على أن يدخل الساحل جريئة ، ويفتقد القلاع البحرية إلى بانياس ، ويدخل دمشق المحروسة ويقيم بها أياما قلائد ، ويعود إلى القدس الشريف سائرا إلى الديار المصرية يفتقد أحوالها ، ويقرر قواعدها ، وينظر في مصالحها ، وأمرني بالمقام في القدس الشريف ، لعمارة بيمارستان أنشأه فيه ، وإدارة المدرسة التي أنشأها فيه إلى حين عونه ، وسار من القدس الشريف ضحوة نهار الخميس سادس شوال ، وودعته إلى البيرة ، ونزل بها وأكل فيها الطعام ، ثم أتى بعض طريق نابلس فبات فيه ، ثم أتى نابلس ضحوة نهار الجمعة سابع شوال ، فلقية خلق عظيم يستغيثون من المشطوب ، ويتضرعون من سوء رعايته لهم ، فأقام يكشف عن أحوالهم إلى عصر يوم السبت ، ثم رحل ونزل بسببصطية يتفقد أحوالها ، ثم أتى في طريقه إلى كوكب ونظر في أحوالها وسد خللها وذلك في يوم الاثنين عاشره .

وكان فكاك بهاء الدين قراقوش من ربة الاسر يوم الثلاثاء حادي عشر شوال ، ومثل في الخدمة السلطانية ، ففرح به فرحا شديدا ، وكانت له حقوق كثيرة على السلطان وعلى الاسلام ، واستأنن السلطان في المسير إلى تحصيل القطيعة ، فأذن له في ذلك ، وكانت القطيعة على ما بلغني ثمانين ألفا والله أعلم .

ولما وصل السلطان إلى بيروت وصل إلى خدمته البرنس صاحب انطاكية مسترفدا ، فبالغ في احترامه وإكرامه ومباسطه وأنعم عليه

بالعمق وزرعان ومزارع تغل خمسة عشر ألف دينار ، وكان قد خلف المشطوب في القدس من جملة العسكر المقيمين به ، ولم يكن واليه ، وإنما كان واليه عز الدين جريدك ، وكان ولاه بعد الصلح حالة عوده إلى القدس بعد أن شاور فيه الملك العادل ، والملك الأفضل ، والملك الظاهر ، على لسانی ، وأشار به أهل الدين الصلاح ، لأنه كان كثير الجد والخدمة والحفظ لأهل الخير ، فأمرني السلطان أن أوليه ذلك في يوم الجمعة عند الصخرة ووليته إياه بعد صلاة الجمعة ، واشترطت عليه الأمانة ، وعرفته موضوع حسن اعتقاد السلطان فيه ، وانهقد الأمر ، وقام به القيام المرضي ، وأما المشطوب فإنه كان مقيما بالقدس من جملة من كان مقيما بها وتوفي يوم الأحد الثالث والعشرين من شوال ، ودفن في داره بعد أن صلى عليه في المسجد الأقصى رحمه الله .

ذكر عود السلطان الى دمشق المحروسة

وكان عوده إليها بعد الفراغ من تصفح أحوال القلاع الساحلية بأسرها ، والتقدم بسد خللها وإصلاح أمور أجنادها وشحنها بالأجناد والرجال ، ودخل دمشق بكرة الأربعاء السادس والعشرين من شوال ، وفيها أولاده : الملك الأفضل والملك الظاهر والملك الظاهر ، وأولاده الصغار ، وكان يحب البلد ويؤثر الإقامة فيه على سائر البلاد ، وجلس للناس في بكرة الخميس السابع والعشرين منه ، وحضر الناس عنده وبلوا شوقهم من رؤيته وأنشده الشعراء وعم ذلك المجلس الخاص والعام ، وأقام يذشر جناح عدله ويهطل سحاب إنعامه وفضله ، ويكشف مظالم الرعايا في الأوقات المعتادة ، حتى كان يوم الاثنين مستهل ذي القعدة اتخذ الملك الأفضل دعوة للملك الظاهر ، فإنه لما وصل إلى دمشق بلغه حركة السلطان إليها فأقام حتى يتملى بالنظر إليه ثانيا ، وكأن نفسه الشريفة كانت قد أحست بنحو أجل السلطان ، فدعاه في تلك الليلة مرارا متعديدا وهو يعود إليه ، ولما اتخذ الملك الأفضل له دعوة أظهر

فيها من بيع التجميل وغريبة مايليق بهمته ، وكأنه أراد مجازاته عما خدمه به حين وصوله إلى حلب ، وحضرها أرباب الدنيا وأبناء الآخرة ، وسأل السلطان الحضور فحضر جبوا لقلبه .

ذكر قدوم الملك العادل أخيه

ولما تصفح الملك العادل أخبار الكرك ، وأمر بإصلاح ما قصد إصلاحه منه ، عاد طالبا البلاد الفراتية ، فوصل أرض دمشق يوم الأربعاء سابع عشر ذي القعدة وكان السلطان قد خرج إلى لقائه ، وأقام يتصيد حوالي غباغب إلى الكسوة (٤٨) حتى لقيه ، وسارا جميعا ، وكان بخولهما إلى دمشق آخر الحادي والعشرين ، وأقام السلطان بدمشق يتصيد هو وأخوه وأولاده ، ويتفرجون في أرض دمشق وموطن الصبيا ، وكأنه وجد راحة مما كان فيه من ملزمة التعب وسهر الليل ، ونصب النهار ، وما كان ذلك إلا كالوداع لأولاده ، ومرابع تنزهه وهو لا يشعر ، ونسي عزمه المصري ، وعرضت له أمور أخرى وعزمات غير ذلك ووصلني كتابه إلى القدس يستدعيني إلى خدمته ، وكان شتاء شديد ، ووحل عظيم ، فخرجت من القدس الشريف في يوم الجمعة الثالث والعشرين من المحرم سنة تسع وثمانين ، وكان الوصول إلى دمشق يوم الثلاثاء ثاني عشر صفر سنة تسع ، وكان وصل أوائل الحج على طريق دمشق ، واتفق حضوري والملك الأفضل حاضر في الايوان الشمالي ، وفي خدمته خلق من الأمراء وأرباب المناصب ينتظرون جلوس السلطان لخدمته ، فلما شعر بحضوري استحضرنني هو وحده قبل أن يدخل إليه أحد ، فدخلت عليه ، فقام ولقيني لقاء ما رأيت أشد من بشره بي فيه ، واقد ضمنني إليه ودمعت عينه .

ذكر لقائه للحاج

ولما كان يوم الأربعاء ثالث عشر صفر طلبني فحضرت عنده ، فسألني عن في الايوان ، فأخبرته أن الملك الأفضل جالس في الخدمة والأمراء والناس في خدمته ، فاعتذر إليهم على لسان جمال الدولة اقبال ، ولما كانت بكرة الخميس استحضرنني فحضرت عنده في صفة البستان ، وعنده أولاده الصغار ، فسأل عن الحاضرين فقليل له رسل الأفرنج وجماعة الأمراء والأكابر ، فاستحضر رسل الأفرنج إلى ذلك المكان فحضروا ، وكان له ولد صغير وكان كثيرا مايميل إليه يسمى الأمير أبا بكر ، وكان حاضرا وهو يداعبه ، فلما وقع بصره على الأفرنج ورأى أشكالهم وحلق لحاهم وقص شعورهم وماعليهم من الثياب غير المألوفة خاف منهم وبكى ، فاعتذر إليهم وصرفهم بعد أن حضروا ، ولم يسمع كلامهم وقال : إن لي اليوم شغلا ، وكانت عادته هذه المباشطة ، ثم قال احضروا لنا ماتيسر ، فأحضروا أرزابلين وماشابه ذلك من الأطعمة الخفيفة ، فأكل وكنت أظن أنه ما عنده شهوة ، وكان في هذه الأيام يعتذر إلى الناس لثقل الحركة عليه ، وكان بينه ملتاثا ممتلئا وعنده كسل ، فلما فرغنا من الطعام قال : مالذي عندك ، من خبر الحاج ؟ فقلت : اجتمعت بجماعة منهم في الطريق ولولا كثرة الوحل لدخلوا اليوم ، ولكنهم غدا يدخلون فقال : نخرج إن شاء الله إلى لقائهم ، وتقديم بتنظيف طرقاتهم من المياه ، فإنها سنة كثيرة النداء ، وقد سالت المياه في الطرق والأنهار ، وانفصلت من خدمته ، ولم أجد عنده من النشاط ماكنت أعرفه ، ثم ركب في بكرة الجمعة وتأخرت عنه قليلا ، ثم لقيته ، وقد لقي الحاج وكان فيهم سابق البين وقـرالا الياروقي ، وكان كثير الاحترام للمشايخ ، فلقاهم ، ثم لحقه الملك الأفضل وأخذ يحدثني ، فنظرت إلى السلطان فلم أجد عليه كراغنده ، وما كان له عادة يركب بدونه وكان يوما عظيما وقد اجتمع

فيه للقاء السلطان والتفرج عليه معظم من في البلد ، فلم أجد الصبر دون أن سرت إلى جانبه ، وحدثته في إهمال هذا ، فكانه استيقظ فطلب الكزاغند فلم يوجد الزردكاش ، فوجدت لذلك أمرا عظيما ، وقلت في نفسي السلطان يطلب مالا بـد منه في عاداته ولا يجده ، ووقع في قلبي تطير بذاك ، فقلت له : أليس ثم طريق نسلكه ليس فيه خلق كثير ؟ فقال : بلى ثم سار بين اليسانين فطلب جهة المنبيع ، وسرنا في خدمته وقلبي يرعد لما قد وقع فيه من الخوف عليه ، فسار حتى أتى القلعة فعبر على الجسر إلى القلعة وهو طريقه المعتاد ، وكانت آخر ركابة رحمة الله عليه ، وقدس روحه .

مرضه رحمة الله عليه

ولما كانت ليلة السبت وجد كسلا عظيما ، فما انتصف الليل حتى غشيته حمى صفراوية كانت في باطنه أكثر من ظاهرة ، وأصبح في يوم السبت سادس عشر صفر سنة تسع وثمانين متكسلا عليه أثر الحمى ، ولم يظهر ذلك للناس لكن حضرت أنا والقاضي الفاضل وبخل ولده الملك الأفضل وطال جلوسنا عنده ، وأخذ يشكو من قلقه في الليل ، وطاب له الحديث إلى قريب الظهر ، ثم انصرفنا والقلوب عنده ، فتقدم إلينا بالحضور على الطعام في خدمة الملك الأفضل ، ولم يكن القاضي عادته ذلك ، فانصرف ، وبخلت أنا إلى الايوان ، وقد مد الطعام ، والملك الأفضل قد جلس في موضعه ، فانصرفت ومما كان لي قسوة على الجلوس استيحاشا ، وبكى جماعة تفاؤلا بجلوس ولده في موضعه .

ثم أخذ المرض في تزايد من حينئذ ، ونحن نلازم التردد طرقي النهار ، ونبخل إليه أنا والقاضي الفاضل في النهار مرارا ويعطي الطريق في بعض الايام التي يجد فيها خفة ، وكان مرضه في رأسه ، وكان من إمارات انتهاء العمر ، إذ كان قد ألف مزاجه

سفرا وحضرا ، ورأى الأطباء فصدّه ففصدوه في الرابع ، فاشتد مرضه وقلت رطوبات بدنه وكان يغلب عليه اليبس غلبة عظيمة ، ولم يزل المرض يتزايد حتى انتهى إلى غاية الضعف ، واقد جلسنا في سادس مرضه وأسندنا ظهره إلى مخدة ، وأحضر ماء فاتر ليشربه عقيب شرب دواء لتليين الطبيعة فشربه ، فـوجدّه شديد الحرارة ، فشكا من شدة حرارته ، وعرض عليه ماء ثان فشكا من برده ، ولم يغضب ولم يصخب ، ولم يقل سـوى هـذه الكلمات : سبحان الله ، ألا يمكن أحدا تعديل الماء ، فخرجت أنا والقاضي الفاضل من عنده وقد اشتد بنا البكاء ، والقاضي الفاضل يقول لي : أبصر هذه الأخلاق التي قد أشرف المسلمون على مفارقتها والله لو أن هذا بعض الناس لضرب بالقدح رأس من أحضره ، واشتد مرضه في السادس والسابع والثامن ولم يزل يتزايد ويغيب ذهنه .

ولما كان التاسع حدثت عليه غشية وامتنع من تناول المشروب ، فاشتد الخوف في البلد وخاف الناس ، ونقلوا الأقمشة من الأسواق ، وغشي الناس من الكآبة والحزن ما لا يمكن حكايته ، ولقد كنت أنا والقاضي الفاضل نقتعد كل ليلة إلى أن يمضي من الليل ثلثه أو قريب منه ، ثم نحضر في باب الدار فإن وجدنا طريقنا دخلنا وشاهدناه وانصرفنا ، وإلا عرفونا أحواله وكنا نجد الناس يتربصون خروجنا إلى أن يلاقونا حتى يعرفوا أحواله من صفحات وجهنا .

ولما كان العاشر من مرضه حقن دفعتين وحصل من الحقن راحه ، وحصل بعض خفة وتناول من ماء الشعير مقداراً صالحاً ، وفرح الناس فرحاً شديداً ، فأقمنا على العانة إلى أن مضى الليل هزيع ، ثم أتينا الدار فوجدنا جمال الدولة إقبالا فالتمسنا منه تعريف الحال المستجد ، فدخل وأنفذ إلينا مع الملك المعظم توراندشاه جبره الله تعالى أن العرق قد أخذ في ساقيه ، فشكرنا الله تعالى على ذلك ، والتمسنا منه أن يمس بقية

قدمه ويخبرنا بحاله في العرق فتفقدته ، ثم خرج إلينا وذكر أن العرق
سابع ، وانصرفنا طيبة قلوبنا ، ثم أصبحنا في الحادي عشر من
مرضه وهو السادس والعشرون من صفر ، فحضرنا بالباب وسألنا
عن الأحوال فأخبرنا بأن العرق أفرط حتى نفذ في الفراش ثم في
الحصر وتأثرت به الأرض ، وأن اليبس قد تزايد تزايداً عظيماً
وخارت فيه القوة واستشعر الأطباء .

ذكر تحليف الأفضل

ولما رأى الملك الأفضل ماحل بوالده ، وتحقق الناس
مـوته ، تسرع في تحليف الناس في دار رضوان المعـروفة
بسكناه ، واستحضر القضاة وعمل له نسخة يمين مختصرة محصلة
للمقاصد تتضمن الحلف للسلطان مدة حياته وله بعد وفاته ، واعتذر
إلى الناس بأن المرض قد اشتد ، وما يعلم ما يكون ، وما يفعل هذا
إلا احتياطاً على جاري عانة الملوك ، فأول من استحضر الحلف
سعد الدين أخو بدر الدين مودود الشحنة ، فبادر إلى اليمين من غير
شرط ، ثم حضر ناصر الدين صاحب صهيون ، وزاد أن الحصن
الذي في يده له ، وحضر سابق الدين صاحب شيزر فحلف ولم يذكر
الطلاق ، واعتذر بأنه ماحف به ، ثم حضر خشتربن حسين
الهكاري وحلف ، وحضر أنو شروان الزرزاري وحلف واشتراط أن
يكون له خبز يرضيه ، وحضر علكان ومكلان وحلفا ، ثم مد الخوان
وحضر الجماعة وأكلوا .

ولما كان العصر أعيد المجلس للتحليف ، وحضر ميمون القصري
رحمه الله ، وشمس الدين الكبير ، وقال نحن نحلف بشرط أن
لا نسل في وجه أحد من أخوتك سيفاً ، لكن رأسي دون بلادك ، هذا
قول ميمون القصري ، وأما سنقر فإنه امتنع ساعة ، ثم قال : كنت
حلفتني على النظرون وأنا عليها وحضر سامة ، وقال ليس لي
خبز ، فقل لي : على أي شيء أحلف ؟ فزوج فحلف وعلق يمينه

الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة (٤٩) سمعه وهو يقول رحمة الله عليه : صحيح ، وهذه يقظة في وقت الحاجة وعناية من الله تعالى به ، فله الحمد على ذلك .

وكانت وفاته بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، وبادر القاضي الفاضل بعد طلوع الصبح فحضر في وقت وفاته ، ووصلت وقد مات وانتقل إلى رضوان الله ومحل كرمه وجزيل ثوابه .

ولقد حكى لي إنه لما بلغ الشيخ أبو جعفر إلى قوله تعالى (لا إله إلا هو عليه توكلت) (٥٠) تبسم وتهل وجهه وسلمها إلى ربه .

وكان يوما لم يصب الاسلام والمسلمون بمثله منذ فقدوا الخلفاء الراشدين ، وغشي القلعة والبلد والدنيا من الوحشة مالا يعلمه إلا الله تعالى وبالله لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فداء من يعز عليهم بذفوسهم ، وما سمعت هذا الحديث إلا على ضرب من التجوز والترخص إلا في ذلك اليوم ، فإني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قبل الفداء لقي بالذفس .

ثم جلس ولده الملك الأفضل للعزاء في الايوان الشمالي وحفظ باب القلعة إلا عن الخواص والأمراء والمعممين ، وكان يوما عظيما وقد شغل كل إنسان ما عنده من الحزن والأسف والبكاء والاستغاثة ، من أن ينظر إلى غيره ، وحفظ المجلس عن أن يذشد فيه شاعر أو يتكلم فيه فاضل أو واعظ ، وكان أولاده يخرجون مستغيثين إلى الناس ، فتكاد الذفوس تزهرق لهول منظرهم ، ودام الحال على هذا إلى ما بعد صلاة الظهر ، ثم اشتغل بتفسيه وتكفينه فما أمكننا أن ندخل في تجهيزه ما قيمته حبة واحدة إلا بالقرض، حتى في ثمن التبن الذي يلت به الطين ، وغسله الدولعي الفقية ، ونهضت إلى الوقوف على غسله ، ولم تكن لي قوة تحمل ذلك المنظر ، وأخرج بعد صلاة الظهر في تابوت مسجى بثوب

فوط ، وكان ذلك وجميع ما احتاج إليه من الثياب في تكفينه قد أحضره القاضي الفاضل من وجه حل عرفه ، وارتفعت الأصوات عند مشاهدته ، وعظم الضجيج حتى أن العاقل يتخيل أن الدنيا كلها تصيح صوتا واحدا ، وغشي الناس من البكاء والعدويل ما شغلهم عن الصلاة ، فصلى عليه الناس أرسالا ، وكان أول من أم بالناس القاضي محيي الدين بن الزكي ، ثم أعيد إلى الدار التي في اليستان وكان متمرضا بها ودفن في الضفة الغربية منها ، وكان نزوله في حفرته قدس الله روحه وذور ضريحه قريبا من صلاة العصر ، ثم نزل في أثناء النهار ولده الملك الظاهر ، وعزى الناس فيه ، وسكن قلوب الناس وكان الناس قد شغلهم البكاء عن الاشتغال بالنهاب والفساد ، فما وجد قلب الحزين ، ولا عين إلا باكية إلا من شاء الله ، ثم رجع الناس إلى بيوتهم أقبح رجوع ولم يعد أحد منهم في تلك الليلة إلا نحن حضرنا وقرأنا وجدنا حالا من الحزن .

واشتغل في ذلك اليوم الملك الأفضل بكتابة الكتب إلى عمه وأخوته يخبرهم بهذا الحادث ، وفي اليوم الثاني جالس للعزاء جلوسا عاما ، وأطلق باب القلعة للفقهاء والعلماء وتكلم المتكلمون ولم يندشد شاعر ، ثم انفض المجلس في ظهر ذلك اليوم ، واستمر الحال في حضور الناس بكرة وعشية ، وقراءة القرآن والدعاء له رحمة الله عليه ، واشتغل الملك الأفضل بتدبير أمره ومراسلة أخوته وعمه .

ثم انقضت تلك السنون وأهلها
فكأنها وكأنهم أحلام

وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وعلى آله .
هذه أخبار الملك الناصر أبي المظفر يوسف بن أيوب - رحمة الله عليه - فرغت من جمعها يوم وفاته - رحمة الله عليه - وقصبت بذلك وجه الله تعالى في حث الناس على الترحم عليه ، وذكر محاسنه ، والله يحسن خلافته من بعده ، ويجزيه ما هو أهله بمحمد وآله ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

قال مولانا صاحب المصنف ، أدام الله علوه :

ذكر المدن والحصون التي يسر الله فتحها على يديه
رحمة الله عليه - من ييار الفرنج - خذلهم الله
تعالى - من سنة ثلاث وثمانين إلى سنة ست
وثمانين .

طبرية على بحر الأردن بالسيف ، عكا على البحر الكبير
بالأمان ، حيفا على البحر بالأمان ، الناصرة التي تدنس إليها
النصارى ، الرملة ، قيسارية بالسيف ، أرسوف بالأمان ، يافا
بالسيف « مدينتها » عسقلان بالأمان ، غزة
بالأمان ، الداروم ، صيدا على البحر ، بيروت
بالأمان ، جبيل ، هونين ، جبيل ، تبين ، أنطربوس « دون أخذ
برجها » بالسيف ، جبلة « مدينتها بالسيف ، وقلعتها
بالأمان » ، اللاذقية ، مدينتها بالسيف وقلعتها بالأمان ، السرفند
مدينة القدس الشريف ، خلصه الله تعالى ، نابلس ، البيرة بأرض
القدس ، صفورية ، الطور ، حصن دبور ، الفولة ، حصن
عفريل ، حصن جينين ، سفسطية ، كوكب ، حصن
عفري « شمالي القدس » بيت لحم ، حصن العازرية بأرض
القدس ، البرج الأحمر « قريبا منه » ، حصن الخليل « عليه
السلام » بيت جبرين ، تل الصافية ، حصن مجدل يابا ، قلعة
الجيب الفوقاني ، « الجيب » التحتاني ، النطرون ، الحصن
الأحمر ، لد بأرض الرملة ، قلنوسة « قريبا منها » يبنى ، القاقون
والقيمون ، قلعة الكرك « بعد حصار سنة ونصف » قلعة
الشوبك « بعد حصار سنتين » قلعة السلع ، الوعيرة ، قلعة
الجمع ، قلعة الطفيلة ، قلعة الهرمز ، جميع ذلك في وادي موسى
والسراة ، قلعة صفد ، حصن يازور ، شقيف أردون ، حصن
اسكندرونة « بين صور وعكا » قلعة ابي الحسن « بأرض

- ٦٩٠٠ -

صيدا « صيدا أيضا حصن بلدة بالساحل الأعلى ، المرقية » على
البحر « حصن يحمـور بأرض عكا ، بلنياس بين جبلة
والمرقب ، صهيون ، بلاطنس ، حصن الجماهريين ، قلعة
العيد ، بكاس الشـغر ، بكسرا ئيل ، السرمانية ، قلعة
برزية ، دربساك ، بغراس « قريبا من أنطاكية » الدامور بأرض
بيروت ، السرفند قريبا من صيدا ،

آخره والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على سيدنا محمد وآله
وصحبه وسلامه ، ووافق الفراغ منه ثاني عشر رجب المبارك سنة
ست وعشرين وستمائة ، على يد العبد الفقير إلى رحمة
ربه ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

من مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي يوسف بن
قزا وجلي

السنة التاسعة والثمانون والاربعمائة

فيها ... تواترت الاخبار بخروج ملك الروم من بلد الروم بخلق لا يحصى ، فأخرج يغي سفان النصارى من أنطاكية ، واستصرخ بحلب ودمشق ، والشرق على الفرنج ، وجاءت عساكر الفرنج في شوال ، فنزلت على بغراس ، وأغارت على أعمال أنطاكية ، وقتلت ونهبت وسبت ، وقيل إنها وصلت إلى المعرة

السنة التسعون والأربعمائة

فيها .. فتحت الفرنج نيقية ، وهي أول بلد فتحوه ، ثم فتحوا حصون الدروب شيئاً بعد شيء ، ووصلوا إلى البصرة ، وجبسل السماق ، وفامية ، وكفر طاب وذواحيها

السنة الحادية والتسعون والاربعمائة

فيها ... كثرت الاستنفار على الفرنج ، وتواترت الشكايات منهم ، وكتب السلطان بركياروق إلى العساكر يأمرهم بالخروج مع عميد الدولة للجهاد ، ويجهز سيف الدولة صدقة ، وبعث مقدماته إلى الأنبار ، ثم وردت الأخبار إلى بغداد ، بأن الفرنج ملكوا أنطاكية ، وصاروا إلى معرة النعمان فقتلوا ونهبوا ، وكانوا في ألف ألف انسان .

ذكر شرح ذلك :

كان خروجهم أولاً إلى بلد أنطاكية ، فلم ينازلوها ، وجاءوا إلى

المعرة ، فنصبوا عليها السلالم ، فقتلوا من أهلها مائة ألف انسان ، وسبوا مثل ذلك ، ثم دخلوا كفر طاب ، وفعلوا مثل ذلك ، وعادوا إلى أنطاكية ، وكان بها الأمير يغي سغان ، وكان على الفرنج صنجيل ، فحاصرها مدة ، فنافق رجل يقال له فيروز ، وفتح لهم في الليل شياكا ، فدخلوا منه ، ووضعوا السيف ، وهرب يغي سغان ، وترك أهله وأمواله ، وأولاده بها ، فلما بعد عن البلد ندم على ذلك ، فنزل من على فرسه ، فحشا التراب على رأسه وبكى ، ولطم ، وتفرق عنه أصحابه ، وبقي وحده ، فمر به رجل أرمني حطاب فعرفه ، فقتله ، وحمل رأسه إلى صنجيل (خبر عن ابن القلانسي) وكان افتتاح المعرة في ذي الحجة ، بعد فتح أنطاكية .

وفيهما اجتمع ملوك الاسلام بالاشام : رضوان صاحب حلب ، وأخوه دقاق ، وطفتكين ، وكربوقا صاحب الموصل ، وسكمان بن أرتق صاحب ماردين ، وأرسلان شاه صاحب سنجار ، فنازلوا أنطاكية ، وضيقوا على الفرنج ، حتى أكلوا ورق الشجر ، وكان صنجيل مقدم الفرنج فيه دهاء ومكر ، فرتب مع راهب لهم حيلة ، قال : اذهب فادفن هذه الحربة في مكان كذا ، وقال (قل) للفرنج : رأيت المسيح في منامي ، وهو يقول : في المكان الفلاني حربة مدفونة ، فاطلبوها فإن وجدتموها فالظفر لكم ، وهي حربتي فصوموا ثلاثة أيام ، وصلوا وتصدقوا وجاء وهم معه إلى المكان فذبشوه ، فظهرت الحربة ، فصاحوا وصاموا ، وتصدقوا وخرجوا إلى المسلمين فدفعوهم عن البلد ، وثبتت جماعة فقتلوا عن آخرهم وكتب دقاق ورضوان والامراء إلى الخليفة يستنصرونه ، فأخرج الخليفة أبو نصر بن الموصلايا إلى بركياروق ، إلى الري يستنجد (خبر عن ابن القلانسي)

السنة الثانية والتسعون والأربعمئة

فيها في يوم الجمعة ثالث وعشرين شعبان استولى الفرنج على

البيت المقدس ، ساروا من أنطاكية ومقدمهم كندهري (غود فري) في ألف ألف منهم خمسمائة ألف مقاتل ، والباقون رجالة وفعلة وأرباب مجانيق وعرادات وغيرها من آلة القتال ، وجعلوا طريقهم على الساحل ، وكان بها افتخار الدولة من قبل المصريين ، فأقاموا يقاتلون أربعين يوما ، وعملوا برجين مطلين على السور ، أحدهما بباب صهيون ، والآخر بباب العمود ، وباب أسباط ، وهو بسرج الزاوية ، ومنه فتحها صلاح الدين رحمه الله ، فأحرق المسلمون البرج الذي كان بباب صهيون وقتلوا من فيه ، وأما الآخر فزحفوا به حتى ألصقوه بالسور وحكموا به على البلد ، وكشفوا من كان عليه ، ورموا بالمجانيق والسهام رمية رجل واحد ، فانهزم المسلمون ، فنزلوا البلد ، وهرب الناس إلى الصخرة والأقصى ، فاحتما بهما ، فهجموا عليهم ، فدكي أنهم قتلوا في الحرم مائة ألف وسبوا مثله ، وقتلوا الشيوخ والعجائز ، وسبوا النساء ، وأخذوا من في الصخرة والأقصى ، سبعين قنديلا منها عشرون ذهبيا ، في كل قنديل ألف مثقال ومنها خمسون فضة ، في كل قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم بالشامي ، وأخذوا تذورا من الفضة وزنه أربعون رطلا بالشامي ، وأخذوا من الاموال مالا يحصى ، ومنذ افتتحه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه في سنة ست عشرة لم يزل في أيدي المسلمين إلى هذه السنة .

وكان الأفضل بن أمير الجيوش لما بلغه أنهم قد ضايقوا القدس سار في عشرين ألفا ، وجد في السير ، فوصل يوم ثاني فتحه ، ولم يعلم وقصده الفرنج فدخل عسقلان وقتل من أصحابه عدد كثير ، وأحرق الفرنج ما حول عسقلان ، وقطعوا أشجارها ، وعادوا إلى القدس (خبر عن ابن القلانسي)

ولما تمت هذه الحادثة ، خرج المستنفرون من دمشق مع قاضيتها زين الدين أبي سعد الهروي ، فوصلوا بغداد ، وحضروا في الديوان ، وقطعوا شعورهم ، واستغاثوا وبكوا وقام القاضي في الديوان ، وأورد كلاما أبكى الحاضرين ، وندب من الديوان من

يمضي إلى العسكر السلطاني ، ويعرفهم هذه المصيبة ، ووقع
التقاعد

السنة الثالثة والتسعون والأربعمئة

فيها ... وفي رجب خرج بيمند (بوهيموند) زعيم الروم صاحب
أنطاكية فعاث في أرض حلب ، وبلغه أن الدانشمند وصل إلى ملطية
في جيش كثيف من الاتراك ، وعسكر (قلج أرسلان بن سليمان بن
قتلمش) ، فعاد بيمند إلى أنطاكية ، وجمع وحشد ، وعاد والتقاءه
المسلمون فأسروه ، وقتلوا من أصحابه مقتلة عظيمة

وفيها خرج سعد الدولة القوامي من مصر بعسكر كثيف فالتقى
الفرنج على عسقلان ، وكان في القلب ، وقاتل قتالا شديدا ، فكبا به
فرسه فقتل وثبت المسلمون وحملوا على الفرنج ، فهزموهم إلى
قيسارية ، فيقال إنهم قتلوا من الفرنج ثلاثمائة ألف ، ولم يقتل من
المسلمين سوى سعد الدولة ونفر يسير ...

السنة الرابعة والتسعون والأربعمئة

فيها ... (خبر عن ابن القلانسي) .

السنة الخامسة والتسعون وأربعمئة

فيها ... وأما أخبار الشام فنزل ابن صنجيل الفرنجي على
طرابلس ، فكتب ابن عمار إلى دمشق يستنجدهم ، فسار عسكرها
مع جناح الدولة صاحب حمص إلى أنطربطوس ، والتقوا فانهزم

جناح الدولة إلى حمص ، وعاد فل المسلمون إلى دمشق في جمادى الآخرة ، ومات المستعلي صاحب مصر ، وقام ولده أبو علي مقامه ، وجهز الأفضل العساكر المصرية إلى الساحل ، ووصلوا إلى عسقلان في رجب مع نصير الدولة يمن ، وخرج بردويل (بلدوين) من القدس في سبعمائة راجل وفارس ، وكبس العسكر المصري ، فثبتوا وقتلوا معظم من كان معه ، وانهزم في ثلاثة نفر إلى الرملة واختبأ في أجمة قصب ، فاحتاط المسلمون به ، وأحرقوا القصب ، فوصلت النار إليه فاحترق بعض جسده ، وأفلت إلى يافا ، وأسر رجاله ، وحملوا إلى مصر في رجب ، وعاد الفرنج إلى طرابلس ، فعاد ابن عمار كتب إلى دمشق وحمص ، فجاءوا ودفعوا الفرنج عنه

السنة السادسة والتسعون والأربعمائة

فيها ... وفي رمضان خرجت العساكر المصرية في البر ، والاسطول في البحر مع شرف الدولة ولد الأفضل ، وكتب إلى دمشق وغيرها باستدعاء العساكر للجهاد ، فجاءت العساكر ونزلت على يافا ، وتفرقت في السواحل .

وفيها خرج قلج أرسلان بن سليمان بن قتلмыш من بلاد الروم طالبا أنطاكية ، فوصل مرعش ، (وجرى بينه وبين) الأمير الدانشمند (صاحب ملطية خلف ومنازعة ، أوجبت عوده عليه ، وإيقاعه به وفل عسكره (١) وقتل رجاله ، واذكفاً عن ملطية ، وكتب إلى حلب يلتمس الإقامة والميرة لعساكره ، وأنه قاصد أنطاكية ، فتباشر الناس

السنة السابعة والتسعون والأربعمائة

فيها ... وفي رجب وردت مراكب من الفرنج إلى اللاذقية مشحونة

بالمقاتلة والتجار ، وغيرهم ، فنزلوا على طرابلس مع صنجيل ، فأقاموا أياما ، ورحلوا إلى جبيل ، فأمنوا أهلها وبخلوها ثم غدروا بأهلها فقتلوه .

وفيهما نزل الأمير سكمان بن أرتق صاحب ماربين والأمير جكرمش صاحب الموصل على رأس العين في شعبان عازمين على لقاء الفرنج وقتالهم ، ونهض بيمند وطنكري (تاذكرد) من أنطاكية إلى الرها بالعساكر لينجدا صاحبها ، وعرف المسلمون فساروا إلى قريب الرها فصادفوه ، والتقوا فنصر الله المسلمين عليهم ، فقتلوا منهم عشرة آلاف ما بين راجل وفارس ، وانهزم بيمند وطنكري في نفر يسير ، ففويت قلوب المسلمين .

وفيهما نزل بغدوين صاحب القدس على عكا في البر والبحر في نيف وتسعين مركبا فحصرها من جميع الجهات ، وقاتل أهلها حتى ضعفوا ، وكان واليها زهر الدولة الجيوشي ، فعجز عنهم ، فطلب الأمان له وللمسلمين ، فلم يعطوه وأخذوها بالسيف في رمضان ، وقتل في شعبان ، وجاء زهر الدولة منهزما إلى دمشق ، فأحسن إليه طغتكين ، ثم مضى إلى مصر وكان صنجيل قد بنى على طرابلس حصنا ليأخذها به ، وشحنه بالرجال والأموال والأسلح ، فخرج القاضي ابن عمار في عسكره في ذي الحجة ، وهجم هذا الحصن على حين غرة ، فقتل من فيه ونهبه ، وأخذ من المال والأسلح والمتاع شيئا كثيرا وهدمه ، وعاد إلى طرابلس سالما غانما .

وفيهما خرجت الفرنج من الرها ، وانقسموا قسمين ، قسم قصد حران ، والآخر الرقة ، فنزل سكمان من ماربين ، وكان سالم بن بدر العقيلي ، في بني عقيل نازلا على عين العروس ، فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا ، وأسر سالم ، وكانت الدبرة على الفرنج ، فانهزموا وقتل منهم خلق كثير ...

السنة الثامنة والتسعون والأربعمئة

فيها ... هلك صنجيل ، وكان قد صالح ابن عمار بطرابلس وهادنه أن يكون لصنجيل ظاهر طرابلس ، ولا يقطع الميرة والمسافرين عنها

وفي رجب خرج فخر الملك رضوان من حلب في خلق عظيم قاصدا طرابلس ينجدها على الفرنج النازلين عليها ، وكان الأرمن النين في حصن أرتاح قد سلموه إلى رضوان ، لما شملهم جور الفرنج ، وخرج طنكري من أنطاكية ليخلص حصن أرتاح ، فالتقى رضوان واقتتل الفريقان ، فانهزم فرسان المسلمين ، وثبتت الرجالة وأحداث حلب ، فحصدتهم الفرنج ، وفقد من الفرسان والرجالة ثلاثة آلاف ، ورجع رضوان إلى حلب ، وهرب المسلمون من حصن أرتاح ، وتسلمه الفرنج .

وفيها عاد أرتاش وايتكين الحلبي إلى بصرى من الرحبة ، فخرج طغتكين بالعساكر ونازل بصرى ، وحصرهما فيها ، واتفق خروج العسكر المصري في عشرة آلاف مع الأمير شمس المعالي ولد الأفضل ، وكوتب طغتكين بالسير معه إلى قتال الفرنج ، وكان نازلا على بصرى ، فامتنع ، ثم رأى تقويم الجهاد ، فسار إلى العسكر المصري ، والتقى المسلمون والفرنج فانهزم عسكر المصريين إلى عسقلان وعسكر طغتكين إلى بصرى ، فوجد أرتاش وايتكين قد خرجا منها إلى الرحبة ، فأمن أهل بصرى ، وسلموها إليه ، فلم يتعرض لهم وطيب قلوبهم .

السنة التاسعة والتسعون والأربعمئة

فيها ... خرج الفرنج إلى سواد طبرية ، وشرعوا في عمارة حصن

بين السواد والبشنة يقال له عال ، وكان منيعا ، وبلغ طغتكين ، فسار في عسكره فبيتهم ليلا ، فقتلهم واسرهم وأخذ الحصن بما فيه من آلة وغيرها، وعاد إلى دمشق بالأسارى والغنائم في جمادى الآخرة وفيها ملكت الاسماعيلية حصن أفامية ، وقتلوا خلاف بن ملاعب صاحبه بأمر أبي طاهر العجمي الصائغ المقيم بحلب ، مقام المنجم ، وكان بفامية رجل من دعاتهم يقال له ابن القنچ السرميني ، فقرّر ذلك مع أهلها ، فنقبوا السور ، وهجموا على ابن ملاعب فطعنوه بحربة ، فمات ونادوا بشعار رضوان صاحب حلب ، وكان رضوان قد بنى لهم بحلب دار دعوة ، وهو أول من عملها ، وبقي الحصن في أيديهم حتى أخذه الفرنج منهم سنة خمس مائة

السنة الخمسمائة

فيها ... كثر فساد الفرنج في أعمال السواد وحواران وجبل عوف ، فجمع طغتكين العساكر من التركمان وغيرهم ، وخيم في السواد ، وكان الأمير عز الملك والي صور قد نهض إلى حصن تبنين ، فهجم ربضه وقتل من فيه ونهب ، وبلغ بغدوين ملك الفرنج ، فرحل من طبرية قاصدا صور ، وعاد طغتكين إلى دمشق

السنة الحادية والخمسمائة

فيها ... سار بغدوين إلى ظاهر صور ، ونزل قريبا منها ، وشرع في بناء حصن على تل المعشوقة ، وأقام شهرا ، فقاطعه والي صور على سبعة آلاف دينار ، فأخذها ورحل ، وفي شعبان اشتد الأمر بفخر الدولة صاحب طرابلس من مجيء الفرنج ، وتمادى العساكر إليه ، فخرج من طرابلس في خمس مائة فارس وراجل ، ومعه هدايا وتحف أعدها للخليفة والسلطان ، فجاء إلى دمشق فنزل بظاهرها والتقاء طغتكين وأكرمه وخدمه وحمل إليه الهدايا والألطاف ، وكذا

جمع الأمراء ، وكان لما خرج من طرابلس استناب ابن عمه أبا المناقب ، ووجوه أصحابه في حفظها ، وأطلق له واجب ستة أشهر واستحلفهم وتوثق منهم ، فعصاه ابن عمه وأظهر شعار الأفضل ، وعلم فخر الملك ، فكتب إلى أصحابه يأمرهم بالقبض عليه وحمله إلى حصن الخوابي ففعلوا به ذلك ، وسار فخر الملك إلى بغداد ومعه تاج الملوك بوري بن طغتكين ، وكان جماعة ممن يحسد طغتكين قد سعوا به إلى السلطان ليفسدوا حاله عنده ، فاصحب ولده من الهدايا والتحف والخيول والثياب وغير ذلك ما يحسن أنفاده ، واستوزر له أبا النجم هبة الله بن محمد بن ببيع الذي كان مستوفيا لتاج الدولة وجعله مدبرا لأمره ، وسفيرا بينه وبين من أنفذ إليه ، وتوجه في رمضان ، فلما وصلا بغداد لقي فخر الملك من السلطان من الأكرام والاحترام ما زاد على أمله ، وتقدم إلى جماعة من أكابر الأمراء بالمشير معه لمعاونته وإنجاده ، وأمرهم بالالمام بالموصل وانتزاعها من يد جاولي سقاوة ، ثم المشير إلى طرابلس .

وطال مقام فخر الملك طولا ضجر معه ، وعاد إلى دمشق في المحرم سنة اثنتين وخمسمائة ، وأما تاج الملوك بوري ، فإنه لقي من السلطان كل ما يسره ، وخلع الخليفة والسلطان عليه ، وعاد إلى دمشق في آخر ذي الحجة ، ولما عاد ابن عمار إلى دمشق أقام بها أياما ، وسار إلى جبلة فدخلها ، وأطاعه أهلها ، وأنفذ أهل طرابلس إلى الأفضل بمصر يلتمسون أنفاذ والي يصل إليهم من البحر ، ومعه الغلة والميرة ، ويتسلم البلد ، فبعث إليهم شرف الدولة ابن أبي الطيب ، فلما حصل بها قبض على جماعة فخر الملك بن عمار وأصحابه ونخائره وأمواله وبعث بها إلى مصر .

وفيهما خرج بغدوين من القدس ، فنزل على صيدا وضايقها ، وجاء الاسطول من مصر فدفعه عنها ، فعاد إلى القدس .

وفيهما أغار طغتكين على بحيرة طبرية وبها جرفاس مقدم الفرنجية ، وكان من أكبر الملوك فخرج من طبرية ، والتقوا فقتل

أتاك منهم مقتلة عظيمة ، وأسر جرقاس وخواصه ، فبذل في نفسه أموالا عظيمة ، فلم يقبل منه ، وبعث به وبأصحابه هدية إلى السلطان .

السنة الثانية وخمسمائة

فيها ... أخذت الفرنج طرابلس ، وقيل في السنة الآتية ، اجتمع عليها ملوكهم : ريمند بن صنجيل في ستين مركبا في البحر مشحونة بالماقتلة ، وطنكري صاحب أنطاكية وبغدوين صاحب القدس ، وشرعوا في قتالها وضايقوها منذ أول شعبان إلى حادي عشر ذي الحجة ، وأسندوا أبراجهم إلى السور ، فلما رأى من بها من العسكر وأهل البلد ذلك سقط في أيديهم ، وأيقنوا بالهلاك مع تأخر اسطول مصر عنهم ، وكان كلما سار الاسطول نحوهم ردت الفرنج إلى مصر ، فلما كان يوم الاثنين هجمها الفرنج ونهبوها وأسروا رجالها ، وسبوا نساءها ، وأخذوا أموالها ونخائرها ما لا يحصى ولا يحصر ، واقتسموها بينهم ، وساروا إلى جبلة وبها فخر الملك بن عمار فتسلموها بالامان في ثاني عشرين ذي الحجة ، وخرج منها ابن عمار سالما ، ووصل حينئذ الاسطول المصري ، ولم يخرج فيما تقدم من مصر مثله ، فوجدوا البلد قد أخذ ، فعادوا إلى مصر ، وجاء ابن عمار إلى شيزر فأكرمه صاحبها سلطان بن علي بن منقذ ، واحترمه وعرض عليه المقام عنده ، فأبى وتوجه إلى دمشق فأكرمه طغتكين وأنزله في دار ، وأقطعه الزبداني وأعماله ، ووقعت مهالبة بين بغدوين صاحب القدس ، وبين طغتكين على أن يكون السواد وجبل عوف مثالثة : الثلث للفرنج ، والباقي للمسلمين .

السنة الثالثة والخمسمائة

فيها ... نهضت الفرنج إلى رمنية ، وعرف طغتكين ، فسار بالعسكر

وتغريقا في الفراه ، وامتلات الايدي من الغنائم والسبي والدواب ، وعاد الفرنج الى مراكزهم ، وكان طغتكين على عزم ان يلقاهم مع المسلمين ، فلما رجعوا عاد الى دمشق خوفا عليها ، وعاد المسلمون الى الرها ، فطال عليهم منازلتها فتقربوا الى بلادهم ، ولما عاد بغدوين جعل طريقه على البقاع ، فأسر وقتل ، ثم عاد الى صيدا ونازلها ، ونصب عليها الابراج ، فايقنوا بأخذها ، فاخرجوا اليه قاضيه وجماعة من شهودها ، فطلبوا منه الامان ، فامنهم ، وخرج الوالي والعسكر واهل البلد الى دمشق ، ولم يتعرض لاحد منهم ، وعاد الى القدس ، وقيل إنما فتحت صيدا سنة أربع وخمسمائة ...

السنة الرابعة والخمسمائة

فيها ... قدم تجار من الشام الى بغداد ، وكسروا المنبر ، ومنعوا الخطيب من الخطبة يوم الجمعة بجامع السلطان ، واستغاثوا ، فقال السلطان : مالهم ؟ فقالوا : قد استولى الفرنج على الشام ، وقتلوا واسروا وسبوا ، فقال السلطان : نسير العساكر اليهم . وفيها قصد بغدوين عسقلان ، وكان واليها شمس الخلافة ، فراسل بغدوين واتفقا على مال ، وقرر على صدور سبعة الاف دينار ، وبلغ الافضل ذلك ، فأسره في نفسه وبعث جيشا الى عسقلان ، فعصى واليها عليه ، واخرج من كان معه في البلد من العسكر خوفا منهم ، وراسل بغدوين يستمده على (الافضل) ووعدته إن غلب سلم إليه عسقلان ، ويعوضه عنها ، وعلم الافضل ، فكاتبه وطيب قلبه ، وأقطع عسقلان وأقر عليه أقطاعه بمصر ، فاستدعى جماعة من الأرمن ، فاسكنهم البلد ، فأذكر أهل البلد ذلك ، ووثبوا عليه فقتلوه ، ونهبوا داره ، وبعثوا برأسه إلى مصر ...

وفيها غدر بغدوين ، ونزل على طبرية ، وخرج طغتكين ، فنزل راس الماء ، ثم استقر ان يكون ما كان من البلاد مثالثة ومناصفة .

وفيها جهز محمد شاه العساكر الى الشام لقتال الفرنج ، منهم :
شرف الدين مودود صاحب الموصل . وقطب الدين سكمان صاحب
ديار بكر ، واجتمعوا في حران وكتب اليهم سلطان بن منقذ صاحب
شيزر يعرفهم ان طنكري نزل أرض شيزر ، وشرع في بناء تل (ابن
معشر (١)) حصنا بمقابلة شيزر ، فقطعوا الفراه ، ونزلوا على تل
باشر ينتظرون البرسقي صاحب همذان ، فوصل وهو مريض ،
واختلفت آراؤهم ، ومرض سكمان صاحب ارمينية وخلاط وديار
بكر وطمع أحمديل في بلاده ، ورأسله صاحب الحصن (٢)
وهاداه ، فقصر فعادوا الى حلب ، وعاثوا في اعمالها ، وفعلوا اقبح
من فعل الفرنج ، وتوقعوا خروج رضوان اليهم ، وخدمتهم ، فما
التفت ، واغلق أبواب حلب ، وأخذ رهائن أهلها إلى القلعة ،
واستعد للقتال ، وقد كانوا لما قطعوا الفرات ، كاتبا طغتكين
بالوصول اليهم ، وكتب إليه السلطان بمثل ذلك ، فجمع رجاله ،
ورجال حمص ، وحماه ، ورفنية ، وسار في جمع كثيف طلبا
للجهاد ، فوصل اليهم على حلب ، فسروا بوصله وقويت نفوسهم ،
فلم ير منهم عزيمة صادقة في جهاد ولاحمية بلاد .

وأما سكمان القطبي ، فإنه عاد الى بلاده ، وقد أشفى ، ومات
قبل وصوله الى الفرات ، وأما البرسقي ، فكان به نقرس ، ويحمل
في محفة ، ولا قول له ولا فعل ، وأما أحمديل فعزمه قوي على العود
لطمعه في بلاد سكمان واقطاعها له من السلطان ، فقال طغتكين :
ارحلوا الى المعرة ، فرحلوا على كره ، فقال : انزلوا طراباس ،
فتوقفوا ثم تسللوا ، وتفرقوا أيدي سبأ ، ولم يبق منهم سوى
مودود ، وكان مصافيا لatabك صديق صدق ، ونزلا على العاصي ،
وكان الفرنج قد تفرقوا الى مواضعهم ، فلما تفرق المسلمون ،
ورجعوا اتفق الفرنج وصاروا يدا واحدة على الاسلام ، ونزل
سلطان بن علي بن منقذ من شيزر الى طغتكين ومودود وخدمهما ،
وحمل اليهما ، وجاء الفرنج فنزلوا على تل (ابن) معشر مقابل
شيزر ليبذوا عليه حصنا ، فنازلهم طغتكين ومودود ، وطمع بهم
الترك وخطفهم ومنعوا أحدا منهم ان يخرج من خيمة ، وقتلوا

واسروا ، فلما رأوا احوالهم ناقصة ، انكفأوا راجعين إلى أنطاكية وطرابلس ، واليزك في آثارهم قتلا وأسرا ، واستحكمت المودة بين طغتكين ومودود .

وفيهما توفي سکمان بن أردق ، صاحب خلاط وديار بكر ، فذكرنا أنه جاء إلى الرها ومرض ، فحمل في محفة فمات بميفارقين ، وحمل تابوته إلى خلاط فدفن بها ، وكان عادلا مجاهدا ، وأبوه أردق مات بالقدس ، وكان قد دخل الرمل خوفا من ملكشاه ، ولما عاد ملكشاه عن الشام رجع أردق إلى القدس ، ومات به ، ونجم الدين ايلغازي بن أردق ، أخو سکمان مضى إلى السلطان محمد شاه ، فوله شحنة العراق ، ثم أخذ ماريين في سنة ثمان وخمسمائة وميفارقين في سنة عشرة ، ثم أخذ حلب ، وله وقائع مع الفرنج ، سأذكرها إن شاء الله فيما بعد .

السنة الخامسة والخمسمائة

فيها ... جمع بغدوين وحشد مقصد صور ، فكتب إليها وأهلها إلى طغتكين يسألونه أن يسلموها إليه قبل مجيء الفرنج ، لانهم يئسوا من نصر مصر ، فبعث إليهم الفرسان والرجالة ، وجاءهم من جبل عامل ، وسار إليها بغدوين في الخامس والعشرين من جمادى الاولى ، فقطع أشجارها وقتلها أياما ، ويعود خاسرا ، وخرج طغتكين من دمشق ، وخيم ببانياس ، وجهز الخيالة والرجال إلى صور نجدة ، فلم يقدرُوا على الدخول ، فسار إلى السواد فنزل على الحديس ، وهو حصن عظيم ، وحاصره ففتحه عنوة ، وقتل كل من فيه ، وشرع بغدوين في عمل الابراج والزحف على صور ، وخف إليهم اتابك ليشغلهم ، فخذقوا عليهم ، وهجم الشتاء ، ولم يبال الفرنج لانهم كانوا في أرض رمل ، والمادة تصل إليهم من صيدا في المراكب ، فسار إليها اتابك طغتكين وقتل جماعة من البحرية ، وغرق المراكب ، وواصل المكاتبة إلى أهل صور يقوي قلوبهم ، وعمل

الفرنج بـرجين عظيمين طول الكبير منهما زيادة على خمسين ذراعا ، وطول الصغير نيفا واربعين ذراعا ، وزحفوا بهما أول يوم من شهر رمضان ، وخرج أهل صور بالنفط والقطران ، ورموا النار فهبت الريح فاحرقت البرج الصغير بعد المحاربة العظيمة ، ونهب منه زربيات وطوارق وغير ذلك ، ولعبت النار في البرج الكبير ، فاطفاها الفرنج ، وطموا الخندق ، واكثروا الزحف طول شهر رمضان ، وأشرف أهل البلد على الهلاك ، فتحيل واحد من المسلمين له خبرة بالحرب ، فعمل كباشا في أخشاب يدفع البرج الذي يلصقونه بالسور ، ثم تحيل في حريق البرج الكبير فاحترق ، وخرج المسلمون فاخذوا منه الات وأسلحة ، فحينئذ يذس الفرنج ، فرحلوا وأحرقوا جميع ما كان لهم من المراكب على الساحل والأخشاب والعمائر والعلوفات وغيرها ، وجاءهم طغتكين ، فما سلموا إليه البلد ، فقال : أنا ما فعلت ما فعلت إلا لله تعالى ، لارغبة في حصن ولا مال ، ومتى دهمكم عدو جئتكم بذنبي ورجالي ورحل عنهم .

وفيهما نزل مودود على الرها ، ورعى زرعها ، ورحل إلى سروج ، ففعل بها كذلك .

السنة السادسة والخمسمائة

فيها ... اشتد خوف أهل صور من نزول الفرنج عليهم مرة ثانية ، فاتفقوا مع واليها عز الملك أنو شتكين الأفضلي على تسليمها إلى ظهير الدين طغتكين بحكم ما سبق من نصرته لهم ، وما عانى من الشدة في دفع العدو عنهم ، فراسلوا طغتكين في هذا المعنى ، فجاء الرسول إلى بانياس ، وواليها سيف الدولة مسعود فأخبره ، فسار مسعود إلى دمشق فوجد أتابك قد مضى إلى ناحية حماه ليتفق مع رضوان صاحب حلب على أمر ، فخاف مسعود أن يتأخر الأمر إلى حين عود أتابك من حماه ، فيستبق بغدوين فينزل على صور ، فيفوت الغرض ، فتحدث مع تاج الملوك بدوري بالسفير معه إلى

بانياس ، فأجابه وسار معه الى بانياس ، وتم مسعود ومعه من يعتمد عليه من العسكر ، وبلغ أتابك ، فبعث قطعة من الاتراك الى تقوية صور ، فساروا إليها وبخلوها ، واتفق فيهم أتابك ، وطابت نفوسهم ، وأجروا على الرسم على الخطبة والسكة لصاحب مصر ، وكتب أتابك إلى الأفضل : إن الفرنج نزلوا على صور ، وشارفوا أخذها ، وبعث أهلها إلي يستجدوا بي ، وإنني أنجدتهم بنفسي ومالي ورجالي ، وسألوني بعد ذلك إنقاذ عسكر إليهم ، فبعثت رجالي ، ومتى وصل إليها من مصر من يذب عنها سلمتها إليه ، فلا تهمل حال الاسطول ، وإنقاذ الغلة والقوة .

وجاء بغدوين الى عكا ، فبلغه الخبر ، فتوقف ، وفات غرضه ، ولما فات غرضه شرع في الغارات على حوران والسواد ، وكثر فساد ، فكتب أتابك الى مودود يخبره ويطلب نجدة وكانا قد اتفقا وتصادقا ، فسار مودود بعساكره فقطع الفرات ، وخرج إليه أتابك ، فالتقيا على سلمية ، واتفق رأيهما على قصد بغدوين ، وسار من حمص بعساكر الشرق وحماه وحمص ودمشق وأعمالها ، وجازا على البقاع فنزلا الغور على الحابن (٣) ، وجمع بغدوين ونزل على جسر الصنبرة ، فتقدم بعض الغلمان ، وقطع الجسر للعلوفة ، فالتقوا الفرنج ، ونشب القتال ، وجاء أتابك فقطع الجسر واقتتلوا ، فانهزم الفرنج ، وقتل منهم نحو ألفي فارس من الشجعان والابطال ، وغنموا أثقالهم ، وأفلت بغدوين بعدما قبض ، وأخذ سلاحه ، وغرق أكثرهم في البحيرة بحيث صارت دما ، وامتنع الناس من الشرب منها أياما ، وبعث أتابك ومودود إلى السلطان محمد يخبرانه بهذا الفتح ، وبعثا بالاساري والهدايا ورؤوس الفرنج وخيولهم وسلاحهم ، ثم أغار المسلمون على الضياع التي بين القدس وعكا ، وأخربوا ونهبوا وقتلوا وعادوا الى دمشق ، فنزل مودود في حجرة الميدان الأخضر ، وبذل أتابك المجهود في خدمته وخدمه بنفسه ، وواصل الصلاة في جامع دمشق ، والتبرك بنظر المصحف ، قال ابن القلانسي : وهذا المصحف حمله عثمان بن عفان

رضي الله عنه من المدينة الى طبرية ، وحمله أتابك طغتكين من طبرية الى دمشق

السنة السابعة والخمسمائة

فيها ... عاد جواب الافضل الى طغتكين يتضمن الشكر له في حديث صور ، ويقول : إن هذا الامر وقع منا أجمل موقع ، وأحسن موضع ، وبعث بالاسطول فيه الميرة ومال الذفقة للعساكر والغلات ، وكان يقدمه شرف الدولة بدر بن أبي الطيب الدمشقي الوالي كان بطرابلس عند تملك الفرنج ، فرخصت الاسعار ، واستقامت الامور ، وكان معه خلع فاخرة من صاحب مصر لطغتكين وولده تاج الملوك يوري ولخواصه ، ولسعود والي صور ، ورأسل بغدوين مسعود يسأله الموادة ، وانعقد الامر بينهما على السداد ، واستقامت الامور ، وامنت السبل ، ودب التجار من جميع الاقطار ، وكان ابن السلطان تكش بن ألب أرسلان قد هرب من محمد شاه الى الشام ، فلم يقبله رضوان ولا طغتكين ، فتوجه الى مصر فلقى من الافضل ما أحب من الاحسان والاكرام ، فأقام عنده .

وفيها عامل جماعة من الباطنية من أهل فامية ومعرة النعمان ، ومعرة مصرين على حصن شيزر في فصيح النصارى ، فوثب به مائة راجل على حين غفلة من أهله ، فملكوا الحصن وأخرجوهم منه ، واغلقوا ابوابه ، وكان بنو منقذ قد خرجوا لمشاهدة عيد النصارى ، وبلغهم الامر فجاءوا ، ودلى الحرم الحبال من القلعة ، واستبقوا الرجال ، وفتحوا الباب وصعد الامراء بنو منقذ فقاتلوهم ، فذلوا فقتلوهم عن آخرهم ، وقتلوا كل من كان على رأيهم في البلد من الباطنية ، ووقع الاحتراز من مثل ذلك ، وقيل إن بني منقذ كانوا يخرجون الى الصيد فقالت الباطنية : الصواب أن يتخاصم منا اثنان ، ويصعدا الى القلعة ، ولنا بها جماعة ، فلما صعدا فطن الناس ، فغلقوا الابواب ، وقتلوهم ، ثم احترز بنو منقذ ، فمبا كان

يغيب واحد إلا ويحضر آخر
وفيها توفي ... مودود الامير صاحب الموصل .

وقد ذكرنا انه جاء الى الشام لمساعدة أتابك طغتكين ، وكسر الفرنج وعاد مع أتابك الى دمشق ، ونزل في الميدان الاخضر ، وكان يدخل كل جمعة إلى دمشق ، فيصلي بالجامع ، ويتبرك بمصحف عثمان رضوان الله عليه ، فدخل الجامع على عادته ومعه أتابك والغلمان حوله بالسيوف المسللة ، وأنواع السلاح وأتابك بين يديه خدمة له ، فلما حصل في صحن الجامع وثب رجل من الناس لايؤبه له ولا يحفل به ، فقرب من مودود كأنه يدعو له ويتصدق منه ، فلزم بند قبائه وضربه بخنجر أسفل صرته ضربتين احدهما نفذت الى خاصرته والاخرى الى فخذه ، والسيوف تأخذه من كل ناحية ، وقطع رأسه ليعرف شخصه ، فما عرف وأحرق ، وعدا أتابك وقت الكائنة ، وأحاط به أصحابه ، ورجع إلى مودود وهو يمشي فتماسك ، ووقع عند الباب الشمالي من الجامع ، وحمل الى دار أتابك ، وخيط جرحه ، فعاش ساعات يسيرة ، ومات في يومه ، فقلق أتابك لوفاته على هذا الوجه ، وحزن حزنا شديدا ، وكذا سائر الناس ، ودفن في مشهد داخل باب الفرائيس ، وشرع أصحابه في العود الى الموصل وغيرها من البلاد ، وأمر لهم أتابك باطلاق ما يستدعونه لسفرهم ، واستصحبوا معهم أمواله وجواريه وأثقاله ، ولم يزل مدفونا حتى بعثت زوجته وولده من الموصل في شهر رمضان من حمله في تابوت الى الموصل ، وشيعه أتابك الى الثنية ، وكان سأل أتابك يوم خرج أن يفطر ، وكان صائما فلم يفعل ، وقال : والله لالقيت الله إلا صائما ، وكتب بغديين ملك الفرنج الى طغتكين : إن أمة قتلت عميدها في يوم عيدها في بيت معبودها لحقيق على الله أن يبيدها ، وقيل إن هذه الواقعة كانت سنة خمس وخمسمائة .

ونذكر بعضهم أن أتابك خاف منه ، فوضع عليه من قتله ، وليس بصحيح ، فإنه كان أحب الناس له ، وحزن عليه حزنا عظيما ،

وشق ثوبه عليه ، وجلس في عزائه سبعة أيام ، وتصديق عنه بمال جزيل ، وبلغ السلطان ما جرى ، فأقطع الموصل والجزيرة لآق سنقر البرسقي ، وأمره بتقديم عماد الدين زنكي ، والرجوع الى اشارته ، لما ظهر منه من النهضة والكفاية ويمن النقيبة .

السنة الثامنة والخمسمائة

فيها ... مات بغدوين صاحب القدس لجرح أصابه في الوقعة المتقدمة على طبرية ، فأقاموا من اختاره من أصحابه .

... وفيها توفي الامير أحمدبيل صاحب مراغة كان في خدمته خمسة الاف فارس واقطاعه أربعمائة ألف دينار ، وكان شجاعا جوادا ، ولما قدم أتاك طغتكين الى بغداد ، وكان يحضر كل يوم الى دار السلطان مع الامراء للخدمة ، فبينما هو ذات يوم جالس في الدار والى جانبه أحمدبيل الروادي تقدم رجل ومعه قصة ، فسأل أحمدبيل إيصالها الى السلطان ، فتقدم فمد يده ليأخذها فضربه بسكين فأخذ أحمدبيل وتركه تحته وجاء آخر فضرب أحمدبيل ، وقال شاباش كأنه استحسن فعل الأول ، وجاء ثالث وصاح شاباش ، وضربه وقتلوا ، وظن الحاضرون أن المراد طغتكين ، وكان أحمدبيل قد أذكى في الباطنية فقتل وتفرق الناس ، وهذا اقدام من الباطنية لم يتقدموا على مثله في دار السلطان ، وعاد طغتكين الى الرملة غربي بغداد فنزل في مخيمه ، وبكى الناس على أحمدبيل وأحرق غلمانته خيامه ورحله ، وطلب طغتكين دستوروا الى دمشق فسار بالخلع ومراكب الفضة ، والذهب ، ووعده السلطان أن ينفذ إليه عسكريا ، وكتب السلطان الى البرسقي الى همذان ليحضر ، فحضر في عسكريه فسار الى الشام فلاقاه طغتكين وأكرمه ، وكان ابن سنجيل صاحب طرابلس قد خرج ، فنزل عين الجر وأخرب البقاع ، فخرجوا إليه فجاءه ليلا وقتلا من أصحابه ثلاثة آلاف ، وأسرا مثلهم وعادوا الى دمشق ، وانهزم ابن سنجيل في نفر يسير ، وعاد البرسقي الى

العراق بعد أن خدمه أتابك وأكرمه ، وتأكدت الصداقة بينهما والمودة .

السنة التاسعة والخمسمائة

... قويت شوكة الفرنج في رمنية وبالفوا في تحصينها وشحذوها بالرجال وشرعوا في الفساد ، فأظهر طغتكين أنه قاصد بعض الجهات وسار إليها مغذا فبغتهم وأحاط بهم وقتل وأسر وغنم أصحابه منهم ما أمتلأت به الأيدي وذلك في جمادى الآخرة ، ثم عاد إلى دمشق ومعه الأسرى ورؤوس القتلى ، ولما شاع عنه ما رزقه الله من الجهاد والعدل والاحسان إلى الرعية حسده القوم وطعنوا عليه وراموا فساد حاله ، وكتب إليه بذلك من أصدقائه من يؤثر إصلاح حاله فاقترضت الحال أن سار بنفسه إلى بغداد ومعه الهدايا والتحف ما يليق بالخليفة والسلطان ، فبذلغ في إكرامه واحترامه وفعل في حقه ما قدمناه ، وتشرف بالخلع الخليفة والسلطانية وكتب له المذشور السلطاني بولاية الشام حرباً وخراجاً ، وأطلق يده في ارتفاعه على حسب اختياره ...

وفيها صالح بردويل صاحب القدس الأفضل أمير الجيوش ، وكان بردويل قد أخذ في السبخة المعروفة بسبخة بردويل قافلة عظيمة جاءت من مصر ، فرأى الأفضل مهانتها وأمن الناس

السنة العاشرة والخمسمائة

فيها ... ورد الخبر بأن بدران بن صنجيل صاحب طرابلس قد جمع ونهض إلى ناحية البقاع ، وكان سيف الدين سنقر البرسقي صاحب الموصل ، قد وصل دمشق في بعض أسكره لمعونة طغتكين ، فاتفقا على تبييت الفرنج ليلاً ، فأغذا المسير حتى هجما على خيامهم ،

وهم غارون ، فوضعوا فيهم السيف قتلا وأسرا ، وهرب يدران ،
وغنم المسلمون خيولهم وسلاحهم وأموالهم وعادوا الى دمشق ،
وتوجه البرسقي إلى بلده ، بعد استحكام المودة بينه وبين أتاك .

السنة الحادية عشر والخمسمائة

فيها ... خرج أق سنقر البرسقي من الرحبة فأتى الى حلب وفيها
يارقتاش الخادم يعد لؤلؤ ، فنزل البرسقي عليها فلم يظفر بطائل
وعاد الى الموصل .

وفيها هجمت الفرنج على ريبض حماة في ليلة خسوف القمر
وقتلوا من أهلها مائة وعشرين رجلا .

وفيها وصل الامير نجم الدين ايل غازي بن أرتق الى حلب في
عسكره وتولى تدبير أمرها مدة شهر وفسد عليه ماأراد فخرج منها
وبقي ولده تمرتاش حسام الدين فيها وكان أمرها مردا الى أبي
المعالى ابن الملحمي الدمشقي

السنة الثانية عشر وخمسمائة

فيها ... كثر فساد الفرنج في بلاد المسلمين ، فجاء الامير نجم الدين
ايل غازي الى طغتكين ، فاتفقا على الجهاد للفرنج وتحالفا وتعاقدا
وأن ايل غازي يمضي ويجمع التركمان ويكون اللقاء في صفر على
حلب سنة ثلاث عشرة .

السنة الثالثة عشرة وخمسمائة

فيها ... اجتمع أتابك طغتكين ونجم الدين ايل غازي على حلب ،
للموعد الذي كان بينهما ، ومعهما من التركمان خلق كثير ، وخرج
صاحب انطاكية في عشرين ألفا والتقوا في ربيع الاول ، فهزم الله
الكفار ، وتبعهم المسلمون قتلا واسرا بحيث أتوا على بعضهم ، ولم
يبق بانطاكية من يحميها ، فوقع التغافل عنها ، وقيل إن طغتكين
(كان غائبا) لأن التركمان تسارعوا الى القتال قبل مجيئه وقيل بل
ادركها في آخر الامر ، فصادف خاتون صفوة الملك أم دقاق مريضة ،
فأوصت إليه فقبل وصيتها ، وتوفيت يوم الأحد سلخ جمادى
الاولى ، ودفنت عند ولدها دقاق في الطبقة التي بنتها على القلعة
المطلة على الميدان الأخضر ، وكانت كثيرة الصدقات غزيرة
الخيرات ، وحزن طغتكين عليها وانفذ وصيتها

وذكر غير ابن القلانسي من أهل الشام ، أن في هذه السنة مات
بردويل صاحب القدس ، فضبط الامر برشان الرهاوي إلى أن
وصل الملك كندهري من قبل البابا خليفة الفرنج ، وأغار على
أذرع وأطراف الشام ، وكان أتابك طغتكين بالثنية فبعث بولده
بوري مع عسكر ، وأقام هو موضعه ردا لهم ، فالتقوا فظهر الفرنج
على بوري ، فعاد الى أبيه ، وبخلا دمشق ومضى طغتكين الى حلب
مستصرخا بنجم الدين ايل غازي بن أرتق ، وكان أول ما ملكها ،
فأقام طغتكين عنده ، وشرع في جمع العساكر ، واغتصمت الفرنج
غيبته ، فقصدوا الشام ، ووصلوا إلى حوران فالتجأ أهله الى
اللجاة ، وكان بين أهل القرية المعروفة بالشقراء وأهل القرية
المعروفة بسر(؟) عداوة ، فحمل أهل الشقراء على أن دلوا الفرنج
على طريق سهلة ، فجاءوا وقتلوا أهل بسر ، وبخلوا الى اللجاة
فقتلوا وأسروا وبخلوا الى القدس ، ولما بلغ أصحاب انطاكية هذا
جمعوا وحشدوا ، وقصدوا بلد حلب ، ونزلوا على مكان يقال له
أرتاح في خمسة آلاف فارس وثمانية آلاف راجل ، وأشاع نجم الدين

ايل غازي أن أتابك طغتكين واصل من دمشق ، وما كان الا جريدة عنده ، فخرج ايل غازي ، وعمل كمينا ، فلما التقى الفريقان ظهر الكمين وضربوا البوقات والطبول فظنوه أتابك طغتكين فانهزموا ، وعمل فيهم السيف قتلا واسرا ، وافلت برجار بن طنكري ملك الفرنج مجروحا

السنة الرابعة عشرة والخمسمائة

فيها ... رفع ايلغازي عن اهل حلب المكوس ، وما جدد الظلمة ، ووادع الفرنج

السنة الخامسة عشرة والخمسمائة

فيها ... كسر أتابك طغتكين الفرنج على زحر العقبة ، فقتل وسبى وغنم وكانت كسرة عظيمة

السنة السادسة عشرة وخمسمائة

وفيها ...

السنة السابعة عشرة وخمسمائة

فيها ... دخل الاسطول المصري الى صوور وهو مشحن بالمال والرجال البحرية والعسكرية ، وكان في نفس الوالي بصوور من قبل المصريين ، أن يعمل على سيف الدولة مسعود الوالي من قبل

طغتكين ، فلما خرج للإسلام على والي الاسطول سألوه النزول في المركب فاعتقلوه ، وبعثوا به الى مصر ، فأكرم فأنزل في دار واطلق له ما يحتاج إليه ، وكان السبب في اعتقاله أن الشكاوى من أهل صور كثرت الى صاحب مصر منه ، وأنه يكلفهم ما لم تجرب به العادة ، وكان قد أضر بهم ، فاقضى التدبير اعتقاله ، لكن كان في ضمن خروجه منها ، أخذ الفرنج لها .

وفيها : سار الامير نور الدولة بك بن أرتق الى الرها ، في رجب فخرج إليه منها جيش كثيف ، فيه جوسلين وابن خالته كليان ، والتقوا على سروج فهزمهم وأخذ جوسلين وابن خالته وأعيان الفرنج أسارى ، وقتل منهم مقتلة عظيمة .

...وفيها سلم صاحب حلب الاثارب الى الفرنج ، وجرت موادة .

وفيها سار بغدوين ملك الفرنج الى نور الدين بك بن أرتق وهو على قلعة المنيطرة ، فكسره بك وأسره ، واعتقله مع جوسلين ، وكان قد أسر جوسلين في هذه السنة ، ونزل بك بن أرتق على حمص ، وأخذها عنوة ، وسار إلى حصن البارة فملكه وقتل أسقفه .

وفيها أعمل بغدوين وجوسلين وأصحابه الحيلة ، وهربوا من حبس بك وكانوا في قلعة خرت برت ، فوصلوا الى الرها ، وكان بك ابن أرتق مشغولا بالشام ، وكانوا قد غلبوا على خرت برت ، وعاد بك فاستنقذها منهم ، وعاد الى حلب وبها عمه بدر الدولة بن ايل غازي فحصره وأخذها بالامان ، وكان حسان صاحب منبج بحلب فاعتقله ، وأخوه عيسى بمنبج ، فطلب بك بن أرتق من حسان منبج فلم يعطه إياها فسار بك بن أرتق فحاصر منبج ، وقاتل فجاءه سهم من الحصن فذبحه ، فحمل الى حلب في تابوت ، وكان معه

سكمان بن أرتق ، فعقد له العسكر الامارة ، واطلق حسانا ، فعاد الى منبج ، واقام سكمان بحلب

السنة الثامنة عشرة وخمسمائة

فيها ... كاتب اهل حلب اق سذقر البرسقي الى الموصل ، فسار إليها فسلمها إليه أهلها ، وهرب سكمان ، فلحقه البرسقي بمنبج فقتله . وسنذكره .

وفيها استولت الفرنج على صور بالامان ، ذكره أبو يعلى بن القلانسي وما تعرضوا لاحد من أهل البلد ، ومن اشتهى الإقامة من المسلمين أقام بالبلد ، ومن اشتهى أن يرحل فليرحل ، ومضى بعضا من المسلمين الذين كانوا فيها الى دمشق ، وكان دخول الفرنج الى صور في الثالث والعشرين من جمادى الاول

السنة التاسعة عشرة وخمسمائة

فيها ... جمع بغدوين صاحب القدس وحشد وقصد حوران ، وشرع في الغارات على الاماكن القريبة من دمشق ، فجمع طغتكين التركمان ، وكاتب الاطراف ، ووصل اليه من التركمان نحو من ألفي فارس طالبيين للجهاد ، وخرج من دمشق في خلق كثير ، ونزل مرج الصفر في السابع والعشرين من ذي الحجة ، وخرج من دمشق أحداثها ورجال الغوطة والمرج وقصر حجاج وعقبة وغيرها بالسلاح التام ، وقالوا نلحق المصاف ، ولم يشك احد في ذلك اليوم أن النصر للمسلمين ، وجاء الفرنج الى مرج الصفر ، والتقت الطلائع فلما شاهد الفرنج ذلك الجمع العظيم علموا أنهم لا طاقة لهم بهم ، فعادوا الى خيامهم ومنزلتهم فتبعهم طائفة من التركمان والاحداث ، وتفرق العسكر في تهب خيام الفرنج ، فلما رأى الفرنج ذلك عادوا فحملوا

على المسلمين فكسروهم من أواخر مرج الصفر ، وهزموهم الى
عقبة سدورا ، فقتلوا جميع الرجال والتركمان إلا من نجا بفرسه ،
وانهزم طغتكين الى دمشق فوصلها آخر النهار ، وقد قتل رجاله
وأسر أبطاله ، وغنم الفرنج غنيمة لم يغنموا مثلها ، وبياتوا على
عقبة سدورا عازمين على منازلة البلد ، واستعد أتاك للحصار
وأصبحوا وقد رحل الفرنج الى منزلتهم

وفيها استشهد آق سنقر البرسقي صاحب الموصل ، وكان
شجاعا عادلا في الرعية ، وهو الذي رحل الفرنج عن حلب ، وكان
الخلفاء والملوك يحترمونه وكان بين يدي الخليفة ، ولما كبر ونشأ ،
وكان قد احترز من الباطنية بالرجال والسلاح والجندارية وغيرهم ،
فدخل يوم الجمعة جامع الموصل ليصلي فجاء الى المقصورة ، وفيها
جماعة من الصوفية لهم عادة يصلون فيها فما استرا بهم ، فدخل في
الصلاة ، وتأخر عنه أصحابه فوثب عليه ثلاثة في زي الصوفية
فضربوه بالسكاكين فلم تعمل في جسده للدرع الذي كان عليه ،
فضربوا رأسه ووجهه ، وضربوه حتى قتلوه ، وحزن عليه لأنه كان
محسنا إليهم ، وأقاموا ابنه مسعودا مقامه .

السنة العشرون وخمسمائة

فيها

السنة الحادية والعشرون وخمسمائة

فيها

السنة الثانية والعشرون وخمسمائة

فيها ... توفي ...

أبو منصور ظهير الدين ، أتابك صاحب الشام ، مملوك تاج الدولة تدمش ، كان مقدما ، عنده زوجه أم ابنه دقاق ، ونص عليه في أتابكية دقاق ، وقد ذكرنا وقائعه ، وكان شجاعا شهما عادلا ، ولما احتضر أوصى الى ولده تاج الملوك بوري بحسن الطريقة ، والتزام العدل ، وإقامة منار الاسلام والجهاد ، والاحسان الى الرعية ، ومراجعة العلماء وأرباب الخبرة بما يتجدد ، وتوفي يوم السبت ثامن صفر ، ودفن في تربته التي بناها قبلي دمشق عند المسجد الجديد ، وهي قائمة إلى هلم جرا ، وحزن أهل دمشق عليه ، وعملت المآتم له في كل محلة وسوق ، لأنه كان حسن السيرة ، ظاهر العدل ، كثير الاحسان ، مدبرا للممالك ، فحسنت آثاره وعمرت البلاد في أيامه ، وأقام حاكما على الشام خمسا وثلاثين سنة .

وجلس بوري مكانه ، فسار بسيرته مدة ، وأقر الولاية على حالهم ، ثم تغيرت نيته ، وأظهر السوء لأصحاب أبيه ، والظلم للرعية ، وقبض على خواص أبيه واحدا بعد واحد ، فاسترابوا به ، ونفرت القلوب منه ، وتمكن وزيره المزدقاني من أهل دمشق ، وصادق الباطنية واستعان بهم

السنة الثالثة والعشرون وخمسمائة

فيها ... كانت فتنة الاسماعيلية بدمشق ، وكان ابن محرز قد سلم اليهم حصن القدموس لأن بوري قصده ليأخذه منه ، فسلمه إليهم ، لأن الوزير أبا علي طاهر بن سعد المزدقاني بدمشق يقاتلهم ويهاديهم ، خوفا من بني الصوفي ، فشرع وجيه الدين الفرّج بن الحسن بن علي الصوفي رئيس دمشق مع تاج الملوك بوري في الاغراء

الأمراء ، فسار سونج من حماه الى حلب ، فأحسن زنكي لقضاءهم وأكرمهم وغافلهم أياما ، وقبض عليهم وسونج في الجملة ونهب خيامهم وأثقالهم ، وهرب منهم من قدر وجاء في يومه الى حماه فاستولى على ما فيها لخلوها من الرجال ، ورحل الى حمص ، وكان صاحبها خير خان معه ، وهو الذي حسن له الغدر ، فحين حصل على حمص اعتقله ونهبه ، وطلب منه تسليم حمص فأبى من في القلعة وقاتلوه ، فاقام أياما ورحل الى الموصل ومعه سونج بن بوري ، واعتقل الباقيين في حلب وقيدهم ، والتمس منهم خمسين ألف دينار فشرع بوري في تحصيلها ، ولما بلغ الملوكة فعل زنكي لعنوه وسبوه ، ونفروا منه ، وساءت سيرته ، وبلغ السلطان فجهز إليه جيشا

السنة الخامسة والعشرون وخمسمائة

فيها ...

السنة السادسة والعشرون وخمسمائة

فيها ...

السنة السابعة والعشرون وخمسمائة

فيها ... فتح شمس الملوكة صاحب دمشق بانياس ، وكان القرنج لما أخذوا بانياس ، طمعوا في المسلمين وقووها بالرجال والسلاح وعزموا على نقض الهدنة ، وبلغ شمس الملوكة ، فسار اليها بخيله ورجله وقاتلهم قتالا شديدا ، فلما كان يوم الأحد عشرة صفر زحف اليها ، وترجل وترجلت العساكر بأسرها وطموا الخندق ، وهجموا

البلد ، وقتلوا من الفرنج خلقا كثيرا ، والتجأ الخيالة والفرسان إلى الحصن ، فحصرهم فصاحوا الامان فأمنهم ونزلوا بأسرهم جميعا ، وعاد الى دمشق لست ليال خلون من صفر بالأسارى والغنائم والأسرى في الحبال والرؤوس على الرماح والقصب ، وكان فتحا عظيما لم ير أهل دمشق مثله ، وسار شمس الملوك الى حماه وبها نواب زنكي فأقام عليها أياما وحصرها فقَاتلوه ، ففتحها عنوة ، وقيل بالأمان ، وكان ذلك في رمضان

وفيهما نزل صاحب القدس على الساحل وجمع الفرنج وقصد حلب ، ووصل الى قنسرين ، فخرج اليه الامير سوار نائب زنكي في العسكر ، فالتقوا فقتل من الفريقين نحو من مائتي رجل من الأعيان ، وانهزم سوار إلى حلب ، وتبعهم الفرنج ، وجاء من حلب جماعة فرجع سوار على الفرنج ، فقتل منهم مقتلة عظيمة ، وانهزموا الى أنطاكية .

السنة الثامنة والعشرون وخمسمائة

فيها ... نقض الفرنج الهنة ونزلوا حوران وخرج شمس الملوك اليهم في حشد وجمعه وخيم بأزائهم وكانوا في جمع عظيم ، فلما رأى شمس الملوك أنه لا طاقة له بهم غافلهم في الليل وسار نحو ساحل طبرية وعكا وصور وتلك البلاد ، فقتل وسبى وغنم غنائم كثيرة ، وعاد الى دمشق على طريق الشعراء ، ورحل الفرنج الى بلادهم فساءهم ما رأوا من خراب البلاد ونهبها فذلوا وتفرقوا وذلك في سلخ ذي الحجة .

السنة التاسعة والعشرون وخمسمائة

فيها ...

السنة الثلاثون وخمسمائة

فيها ...

السنة الحادية والثلاثون وخمسمائة

فيها ... خرج ملك الروم من القسطنطينية في مائة الف ، فنزل على أنطاكية فصالحه صاحبها على مال ، فرحل عنها الى بزاعة من أعمال حلب ، فافتتحها بالسيف ، وقتل من فيها ، وقطع زككي الفرات ، فنزل على بعيرين ، وهي للفرنج ، فلم يقدر عليها ، فسار الى بعلبك ، فحصرها فسلمها اليه كمشتكين الخادم

وفيها توفي الامير مرشد بن علي بن المقلد بن نصر بن منذ بن مقلد صاحب شيزر ، كان مرشد عالما بفنون العلوم والاداب صالحا كثير التلاوة للقرآن ، وكان أخوه نصر بن علي قد ولاه شيزر ، فقال والله لا أدخل في الدنيا ، وولاها أخوه سلطان على أولاده ، فمات مرشد في هذه السنة ، ثم أخرج سلطان أولاده من شيزر ، وسنذكر القصة في سنة اثنتان وخمسمون وخمسمائة ، وذكره العماد في الخريدة فقال : فولد أبو سلامة مرشد بن علي في سنة ستين وأربعمائة وتوفي في سنة احدى وثلاثين وخمسمائة ، وأثنى عليه ثناء كثيرا ، وذكره الحافظ ابن عساكر ، وقال : ولد أبو سلامة سنة ستين وأربعمائة ، ودخل طرابلس غير مرة وسافر الى بغداد وأصبهان ، وكان حافظا للقرآن حسن التلاوة كثير الصوم ، شديد البأس والنجدة في الحروب ، وكانت له يد طائلة في علم العربية والكتابة والشعر ، وكان له خط حسن ، كتب بخطه سبعين مصحفا ، وكذا ابنه محمد بن مرشد ، قال : وكان أبي يكتب مصحفا فتذكروا بين يديه خروج الروم ، فرفع المصحف وقال : اللهم بحق من أنزلته عليه إن كنت قضيت بخروج الروم فخذ روحي ولا أراهم ،

فمات عقيب ذلك في رمضان ودفن بشيزر ، وخرجت الروم بعد ذلك في شوال سنة اثنتان وثلاثون ، فحاصروا شيزر أربعة وعشرين يوما ، وتقسموا عليها ثمانية عشر منجنيقا ، ثم رحلوا عنها يوم السبت تاسع عشر رمضان .

السنة الثانية والثلاثون وخمسمائة

فيها ... قدم أهل حلب ويزاعة النساء والصبيان والرجال وكسروا المناير ومنعوا الناس من الصلاة في الجوامع بسبب ما جرى عليهم ييزاعة من الروم .

السنة الثالثة والثلاثون وخمسمائة

فيها ...

السنة الرابعة والثلاثون وخمسمائة

فيها ... عاد أتابك زنكي من بعلبك بعد أن أفنى من قاتله بها ، ونفرت القلوب منه ، ونزل على داريا ، وخرج إليه بعض عسكر دمشق وأحداثها فقاتلوه ، فظفر بهم ، وأطلق فيهم السيف قتلا واسرا ، وراسل جمال الدين محمد صاحب دمشق ، وأن يعطيه حمص وبعلبك وما يحتاج ، فمال إلى الصلح طلبا لحقن الدماء ، فما وافقه أمراؤه وابتدى به مرض طال ، وتوفي في شعبان ، وكان نزول أتابك عليها في ربيع الاول ، واتفق موت محمد في الوقت الذي أصيب فيه أخوه محمود في تلك الساعة ، ودفن في تربة جدته بباب الفرائيس ، وأقاموا ولده غضب الدولة أبو سعيد بن محمد مكانه ،

وأخذت له الايمان على الطاعة ، وعرف زنكي ذلك ، فزحف بعسكره الى البلد طامعا فيه ، وظن أن الخلف يجري بين المتقدمين ، فجاء الامر بالعكس (وخرج العسكر) وأحداث دمشق وقاتلوه قتالا شديدا ، وقالوا : هذا كذاب غدار سفاك ، وقد رأيت ما فعل بأهل بعلبك ، وقام بقتاله معين الدين أنر ، فضعت نفس أتابك ، ورجع الى داريا ، وكان أنر قد بذل للفرنج مالا ليدفعوا زنكي عنهم ، وحمل اليهم المال والرهائن من أقارب المتقدمين ، فاجتمعوا من الحصون والبلاد ليصدوه عن دمشق ، فلمّا تحقق ذلك رحل عن دمشق في رمضان ، طالبا حوران على نية لقاء الفرنج إن جاءوا ، ثم عاد في شوال الى غوطة دمشق ، ونزل بمرج عذراء ، فأحرق عدة ضياع من المرج والغوطة منها : حرستا ، وبلغه نزول الفرنج بالدان في جموعهم ، فرحل الى بعلبك ، وخرج أنر في العسكر وحاصر بانياس ، وفتحها في آخر هذه السنة ، وسلمها الى الفرنج ، وكان ذلك في صلح الفرنج ، وأنهم يسلمونها اليهم ، وبعث زنكي من بعلبك يستدعي التركمان من أماكنهم ، وخرجت المسنة على هذا ، ولما عاد أنر الى دمشق ما رأوا يوم السبت سابع نبي القعدة إلا وزنكي قد صبحهم جريفة علي حين غرة ، وقرب من السور ، وعلم الناس فتركوا الاسوار ، وفتحوا الابواب وخرجوا إليه فردوه ، فنزل تل راهط ، وساق من الخيل والغنم والجمال والدواب مالا يحصيه إلا الله تعالى ، ورحل نحو الشمال .

السنة الخامسة والثلاثون وخمسمائة

فيها ..

المسنة السادسة والثلاثون وخمسمائة

فيها

السنة السابعة والثلاثون وخمسمائة

فيها

السنة الثامنة والثلاثون وخمسمائة

فيها

السنة التاسعة والثلاثون وخمسمائة

فيها ... فتح زنكي الرها ، كان في قلبه منها أمر عظيم لكونها وسط بلاد الاسلام ، ومعقل ممتنع للكفار ، فطرح العيون على جوسلين صاحبها ، فاتفق أنه خرج منها بعساكره نحو حصن منصور ، فحال زنكي بينه وبينها وحصرها وضربها بالجانيق وحشد التركمان والنقابين الحلبيين وغيرهم ، ونقب سورها ، وعلق الاخشاب وضربوا بالنار ، فوقعت منه قطعة ، فدخلها عنوة بالسيف فقتل وأسر ، وأخذ منها أموالا عظيمة ، وكان بها من أسارى المسلمين ألف وخمسمائة ، فخلصوا ، وقيل كانوا خمسمائة ، ثم رم السور ، وكتب للنصارى أمانا وأحسن إلى الرعية ، وأراد أن يبني بها جامعا ، فقال له أصحابه اجعل الكنيسة جامعا ، فقال : نعم ، وشرع في اصلاح الكنيسة وهيأها ، ولم يبق إلا موضع المحراب ، فجاء ومعه أرباب دولته والصناع ، واتفقوا على موضع المحراب اليوم ، قدفروا اساسا عميقا ، وإذا بصخرة ظهرت مكتوب عليها سطران بالسريانية ، فجاء شيخ يهودي فحلها ، ونقلها الى العربية وهما :

أصبحت خلوا من بني الاصفر
اختال بالأعلام والمذبر
مطهر الرحب على أنني لولا
ابن آق سنقر لم أظهر

فاشتد تعجب أتابك والجماعة .
وكان عند ملك طليطلة رجل من علماء المسلمين ، وكان الملك يحبه
ويكرمه ، فجهز جيشا الى جهة إفريقية ، فقتلوا واسروا من
المسلمين وعادوا ، وعاد العالم عند الملك جالس ، وقد نعس ،
فايقظه الملك وقال : أما ترى ما قد فعل اصحابنا بالمسلمين ، وأين
كان محمد من نصرتهم ؟ ، فقال الرجل : كان قد حضر فتح الرها ،
فعجب الملك والقوم ، واستهزوا به ، فقال الملك لا تضحكوا فوالله ما
قال شيئا إلا وأصاب ، فوصل الخبر بعد ذلك بأن الرها فتحت في ذلك
التاريخ (٤) .

وسار أتابك ففتح سروج وما حول الرها من الحصون ، وجاء
الى حصن البيرة فنازله وضايقه ، ولم يبق الا فتحه ، فجاءه الخبر
بأن نصير اللين جقر نائبه بالموصل قد قتل ، فعاد الى الموصل

السنة الاربعون وخمسمائة

فيها ...

السنة الحادية والاربعون وخمسمائة

فيها ... توفي زنكي بن آق سنقر أبو المظفر التركي ، ولقبه أتابك
عماد الدين ، وآق سنقر أبوه لقبه قسيم الدولة ، وكان من أصحاب
السلطان ملك شاه ، ولما قتل آق سنقر ، لم يكن له من الأولاد إلا

زنكي ، وكان ابن عشر سنين ، فاجتمع اليه مماليك أبيه ، وأقام
زنكي إلى سنة ست عشرة وخمسمائة ، فاقطع واسطا والبصرة ،
وقيل أعطي شحنة البصرة ، ورجع تولى زنكي بلادا كثيرة ، ولاء
إياها السلطان ، فقام بها أحسن القيام ، وفتح بلادا كثيرة بإربل
وجزيرة ابن عمر وسنجار والرحبة ، وغيرها وعبر الفرات فأخذ
حلب وحمص وحمص وبعليك ، وعاد إلى الشرق ففتح دارا في سنة
أربع وعشرين وخمسمائة وفتح العقرب وسوس في سنة سبع وعشرين
 وخمسمائة وسار إلى بغداد لنجدة الراشد وخرج به من بغداد سنة
ثلاثين وخمسمائة ، وجرى ما ذكرنا ، وفي سنة أربع وثلاثين
 وخمسمائة ، أخذ شهرزور من ابن قفجاق التركماني ، وحصر
دمشق مرارا ، وبنى العمادية في الهكارية ، وكان فساد الأكراد قد
عم فأنزجروا بها ، وفتح الرها وطبرية والمعرة وحران وحناني
وغیرها ، وكان ينهى أصحابه عن شراء الأملاك ، ويقول الاقطاع
تغني عنها ومتى كانت لنا فلا حاجة إليها ، ومتى ذهبت البلاد منا
ذهبت الأملاك معها ، ومتى كانت لأصحاب السلطان تعدوا على
الرعية وظلموهم ، وكانت له عناية بأخبار البلاد ، ويغرم عليها
الأموال فكان يقف على أخبار الملوك ساعة بساعة ، وإذا جاءه
رسولا لا يمكنه من الحديث مع أحد من الرعية لئلا يخبر بأخبار
البلاد ، وأودع بعض أصحابه خشكاكة فأقامت عنده سنة ثم
طلبها منه ، فأحضرها وقال مثلك يصلح للحفظ ، وولاه قلعة
كفرأشب ، وهي قلعة عظيمة ، وكان يفرق الأموال في القلاع
والبلاد ، ولا يجعلها في مكان واحد ، ويقول إذا كانت الأموال في
موضع واحد وحدث حادث ، وأنا في موضع آخر لم انتفع بها ،
ونهب ، وإذا كانت متفرقة لم يحل بيني وبينها ورجعت إلى
بعضها ، وكان مهيبا - بلغه أن بعض الولاة تعرض لامرأة فقلع
عينيه وقطع ذكره ، فخاف الولاة وأنزجروا .

ذكر مقتله

كان قد نازل قلعة جعبر ، وبها شهاب الدين سالم بن مالك العقيلي وكان ملك شاه أعطاه إياها لما أخذ منه حلب ، وقد ذكرناه فقاتلها زنكي ونصب عليها المنجنيقات وضايقها ولم يبق إلا فتحها ، فلما كانت ليلة الثلاثاء سابع عشر ربيع الآخر اتفق على قتله ثلاثة من خدامه وكان مغري بخفي أولاد الناس ، وخفي جماعة ، فلما كان في هذه الليلة نبحوه في فراشه ، وهربوا إلى القلعة ونادوا بالحراس : عرفوا شهاب الدين بأنا قد جئنا في مهم ، فأحضرهم فأخبروه ، فقال للحراس : صيدوا على عسكره ملحوه ملحوه ، فصادوا ، فدخل أصحابه عليه فوجدوه مذبوحا ، فحملوه في سقينة إلى الرقة فدفنوه بها ، وقد صار موعظة للعالمين .

ذكر ما تجدد من الحوادث بعد مقتله

منها أنها كانت معه أولاده الثلاثة : مودود ، وغازي ، ومحمود ، ولقب مودود قطب الدين ، ولقب غازي سيف الدين ، ولقب محمود نور الدين ، وكان لزنكي ولد آخر اسمه أمير ميران لقبه نصره الدين ، وليس له عقب ، ونور الدين محمود كان له اسماعيل مات ، وانقرض عقبه بعده ، والعقب لقطب الدين مودود ، وسار غازي إلى الموصل وبها زين الدين علي كوجك ، فامتنع عليه أياما حتى تقرررت الأمور ، ثم دخل الموصل ، وهذا هو المشهور ، ورأيت في بعض تواريخ الموصل أن سيف الدين غازي لم يكن مع أبيه لما قتل ، وكان يشهر زور ، وكان أبوه قد أعطاه إياها ، فأرسل إليه زين الدين علي ، وكان زنكي قد عهد إليه أن الموصل لغازي ، فلما جاء استحلفه على أشياء ، ثم دخلها .

وأما نور الدين محمود فإن اليعيسيين وياقوب صلاح

الدين - وسيف الدولة سوار أخذاه ، ومضيا به الى حلب فدخلها ومنها أن الخادم يرزقش القاتل لزكي انفصل من قلعة جعبر في جمادي الآخرة ، لخـوف صـاحـبها مـنـن طلبـه ووصل الى دمشق ظنا منه أنه قد آمن ، ومدلا بما فعل فقبض عليه ، وبعث به الى حلب فبعث به نور الدين الى الموصل ، فقتل أشر قتلة ، ومثلوا به أقبح مثلة .

ومنها أن جوسلين صاحب الرها لما قتل زكي راسل من كان بها من الأرمن ، ووعدهم يوما بعينه يصل اليهم فيه ، فأجابوه ، فجاء فدخل البلد ، وامتنعت عليه القلعة بمن فيها من المسلمين ، وبلغ الخبر نور الدين وهو بحلب ، فسار إليها بعساكره ، فهرب جوسلين ، ودخلها نور الدين فقتل من بها من الأرمن ، وغنم أموالهم ، واستقرت في يد نور الدين ، ولم يعارضه أخو نور الدين سيف الدين غازي .

ومنها اجتماع نور الدين بأخيه غازي ، لما ملك سيف الدين الموصل راسل أخاه نور الدين في الاجتماع به ، فاعتذر بالفرنجة خوفا على نفسه منه ، فداف له واتفقا على أن يجتمعا في الجزيرة ، ويكون مع كل واحد منهما خمسمائة فارس ، فخرج سيف الدين من الموصل ، وقطع نور الدين الفرات ، ووصل الخابور فالتقيا في الليل ، ولم يعرفه نور الدين ، فلما عرفه ترحل وقبل الأرض بين يديه ، وترجل سيف الدين وتعاذقا وبكيا ، وجلسا يتحدثان فقال له سيف الدين : ما الذي مزعك من المجيء الى عندي أكنت تخاف مني ، والله ما خطر لي ما تكره وأنا فلن أريد الناس ، وبمن انتصر إذا فعلت مع أخي وأعز الخلق علي ما يكره ؟! فطاب قلب نور الدين وكان سيف الدين الاكبر

السنة الثانية والاربعون وخمسمائة

فيها ... فتح نور الدين حصن أرتاح وكفر لاثا من بلد حلب

السنة الثالثة والاربعون وخمسمائة

فيها ... وفي ربيع الاول نزلت الفرنج على دمشق خرج ملك الالمان من البصر في جيوش لاتحصى ، واجتمع عليه ملوك الساحل وكنودها ، واجتمعوا في البيت المقدس ، وصلوا صلاة الموت ، وعادوا الى عكا وفرقوا المال في العساكر ، وكان مقدار ما فرقوه تسعمائة الف دينار ، ولم يظهروا أنهم يريدون دمشق ، ووروا بغيرها وهرب المسلمون من بين أيديهم ، وجمعوا الغلال والاتبان وأحرقوها ، وكان صاحب دمشق مجير الدين بن محمد بن بوري بن طغتكين ومدير الامور معين الدين أنر ، فلما كان يوم السبت سادس ربيع الاول ، لم يشعر أهل دمشق إلا وملك الالمان قد ضرب خيمته على باب دمشق في الميدان الاخضر ، واختلّفوا في عددهم ، فقال قـوم في ستة آلاف فارس وعشرين ألف راجل ، ونزل الكدود والخيالة على الشرف القبلي في مائة ألف راجل ، واجتهد المسلمون في احصائهم فلم يقدروا ، وخرج اليهم معين الدين أنر ومجير الدين ايق في مائة الف راجل ، سوى الفرسان ، فقاتلوا في اليوم الاول قتالا شديدا ، فقتل من المسلمين نحو من مائتين منهم الفدلاوي ، وسنذكره في موضعه ، وكان القتال يعمل ليلا نهارا وضايقوا البلد ، ونزلوا على أيوابه ، وكان معين الدين أنر كاتب سيف الدين غازي صاحب الموصل قبل نزول الفرنج على دمشق يستصرخ به ويخبره بشدة بأس الفرنج ، ويقول: أدركنا ، فسار سيف الدين في عشرين ألف فارس ، فنزل بحيرة حمص ، وبعث الى معين الدين يقول قد حضرت بجند عظيم ، ولم أترك ببلادي من يحمل السلاح ، إن أنا جئت إليك ولقينا الفرنج ، وكانت علينا الهزيمة ، وليست دمشق لي ولا لي بها نائب لم يسلم منا أحد وأخذت الفرنج دمشق وغيرها ، فإن أحببت أن أقاتلهم فيسلم البلد إلى من أثق به ، وأن أحلف لك إن كانت النصر لنا عليهم أنني لا أدخل الى دمشق ، وأرجع الى بلادي فمطله معين الدين أنر وبعث الى السواحله يقول : هذا ملك الشرق نازل على حمص ، وليس لكم به طاقة إن رحلتكم وإلا أسلمت

دمشق اليه ، وهو يببىدكم ، وأنا أعطىكم بانياس ، فأجابوه ، وحسنوا للغرباء بالرحيل فأفهموهم ، وكان زمان الفواكه فنزل الفرنج الوادي فأكلوا منها شيئاً كثيراً فأخلت أجوافهم ومات منهم خلق كثير ، ومرض الباقون ، ولما ضاق بأهل دمشق الحال أخرجوا الصدقات والأموال على قدر أحوالهم ، واجتمع الناس في الجامع الرجال والنساء والصبيان ، ونشروا مصحف عثمان ، وحثوا الرماد على رؤوسهم ، وبكوا وتضرعوا ، فاستجاب الله لهم ، فكان مع الفرنج قسيس كبير ، طويل الحية يقتدون به ، فأصبح في اليوم العاشر من نزولهم على دمشق ، فركب حماره ، وعلق في عنقه صليبا ، وجعل في يديه صليبين ، وعلق في عنق حماره صليبا ، وجمع الأقساء بين يديه بالاناجيل والصلبان والكتب ، والخيالة والرجالة ، ولم يتخلف من الفرنجة أحد إلا من يحفظ الخيام ، وقال لهم القسيس ، قد وعدني المسيح أنني أفتح اليوم دمشق وفتح المسلمون الأبواب ، واستسلموا للموت ، وغاروا للإسلام ، وحملوا حملة رجل واحد ، وكان يوما لم ير في الجاهلية والإسلام مثله ، وقصد واحد من أحداث دمشق القسيس وهو في أول القوم ، فضربه فأبان رأسه ، وقتل حماره ، وحمل الباقون ، فانهزم الفرنج ، وقتلوا منهم عشرة آلاف ، وأحرقوا الصليبان والخيالة بالنفط وتبعوهم إلى الخيام ، وحال بينهم الليل ، فأصبحوا قد رحلوا ، ولم يبق لهم أثر ، وبعث الفرنج يطلبون من معين الدين أنز بانياس ، فقال إنما وعدتكم بها إذا رحلتكم ، وهذا فعل الله ، فقالوا نحن نعود إلى دمشق ونقيم عليها فلا نرحل حتى نأخذها ، وكانوا قد حرقوا الثنيات والربوة ، وقطعوا الأشجار ، ودرسوا ظاهر دمشق ، فرأى معين الدين من المصلحة بقاء دمشق ببانياس وكان سيف الدين قد طمع فيها ، فأعطاهم بانياس ، وبقيت في أيديهم حتى فتحها نور الدين محمود ، وكان قد وقع في دمشق في أيام الحصار طاعون وعاد سيف الدين غازي إلى بلاده

وفيهما توفي القندلاوي ، واسمه يوسف بن دوناس بن عيسى أبو الحجاج المغربي الفقيه المالكي ، ذكره جدي والحافظ ابن عساكر ،

قال : قدم الشام ، وسكن بانياس مدة ، وانتقل الى دمشق فاستوطنها ودرس بها بمذهب مالك ، وحدث بالموطأ وغيره ، وقال الحافظ علقته عنه أحاديث يسيرة ، وكان شيخا حسن المفاكهة حلو المناظرة شديد التعصب لأهل السنة ، كريم النفس مطرحا للتكلف قوي القلب صاحب كرامات .

ذكر مقتله

لما كان في اليوم السادس من شعبان ، أول قتال الفرنج دمشق ، خرج الفندلاوي راجلا ومعه أصحابه ، فالتقاه معين الدين أنز فقال للشيخ: إن الله قد عذرك ليس لك قوة على القتال ، ونحن نكفيك فارجع ، فقال قد بعث واشترى فلا والله لا أقيله لا أستقيله ، وقرأ : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم) الآية ، ومضى نحو الربوة ، فتلقيه طلب بين الربوة والنيرب فقتلوه فقال ابن الحكم الاندلسي هذه الأبيات :

بشط نهر داريا	أمورا ما تواتينا
أتانا مائتا ألف	عبيدا أو يزيدونا
ورايات وصلبان	على مسجد خاتونا
فقلنا إذ رأيناهم	وقد جاؤوا يريدونا
وشيخا فندلوا	فقيها يقصد الدينا
ولكن غادروا القـ	س تحت الارض مدفونا

قال الحافظ ابن عساكر : أقام مدة ببانياس خطيبا ، وكان شيخا كبيرا ، ودرس بدمشق في حلقة المالكية ، ولما قتل حمل الى الباب الصغير فدفن به ، وقبره من جانب المصلى قريبا من الحائط ، وعليه بلاطة مذقور فيها شرح حاله ، وراه بعض أصحابه في المنام في تلك الليلة فقال : ما فعل الله بك . فقال : في جنات عدن (على سرر متقابلين) . [الصفات ٤٤]

السنة الرابعة والاربعون وخمسمائة

فيها ... جمع الفرنج من الساحل ليقصدوا بلد حلب ، فسار اليهم نور الدين بعساكره ، وجمع كبير من التركمان ، وكتب الى معين الدين أنر يستنجده ، فبعث إليه الامير بزان في عساكر دمشق ، وجاءته عساكر أخيه سيف الدين غازي والجزيرة ، وخرج الى انطاكية ، خرج إليه البرنس ، وكانت بينهم وقعة عظيمة كسرها نور الدين الكسرة المشهورة ، وقتل من كنودهم ألفا وخمسمائة وأسر مثلهم ، وقتل البرنس وحمل رأسه الى نور الدين فعاد إلى حلب بالغنائم الكثيرة والاسرى فبعث ببعضها إلى أخيه وإلى الخليفة وإلى دمشق وإلى الملوك

وفيها فتح نور الدين حصن أفامية ، وكان على أهل حمص وحماة منه ضرر عظيم ، كانوا يشنون الغارات منه على البلاد .

وكان جوسلين الفرنجي صاحب تل باشر وأعزاز وعينتاب والراوندان ودرېسك وكفرسود ولبلون وبهسنا والبارة ومرعش ، وكفر لاثا وحصن منصور وغيرها من الحصون شمالي (حلب) ، وكان على المسلمين منه بلاء عظيم ، فجهز إليه نور الدين سلاحداره في جيش فظهر عليه جوسلين وأسر السلاحدار ، وبعث به هدية الى صاحب الروم ابن قليج أرسلان ، وقال نفذت اليك سلاحدار

صهره ، وسأبعث إليك بعد هذا غيره ، وكان نور الدين قد صاهر ابن قليج أرسلان ، وبلغ نور الدين قوله فعز عليه قدس جماعة وقال من قدر مذكم على جوسلين أعطيته من الأموال والبلاد مهما أراد ، فجاءت طائفة منهم فنزلوا في بلد عينتاب ، وخرج جوسلين ليغير عليهم ، فاستحسن امرأة فخلا بها تحت شجرة ، وكمن له التركمان فأخذوه اسيرا ، وكان نور الدين بحمص فحملوه اليه فأعطى من جاء به عشرة آلاف دينار ، وكان أسره من أعظم الفتنوح في الاسلام ، لأنه كان شجاعا مقداما غدارا ، غدر غير مرة بالمسلمين ، ولما حصل بيد نور الدين أخذ منه جميع مذكرناه من القلاع والبلاد بعد ذلك وأمن الناس شره .

وفيهما توفي معين الدين أنر بن عبد الله ، مملوك أتابك طغتكين ، والي دمشق ، وكان صاحب أمرها نيابة ، عن أولاد طغتكين ، وكان صالحا عادلا محسنا كافا عن الظلم ، متجنباً للمأثم ، محبا للعلماء والفقراء ، أوقف أوقافا كثيرة على أبواب البر ، وبذل مجهوده في حفظ بيت سيده طغتكين ، فلما مات في ثلاث عشرين ربيع الآخر ، شرع أمر مجير الدين أبق في الانحلال ، وآل أمره إلى الاضمحلال

السنة الخامسة والاربعون وخمسمائة

فيها ... وقع الصلح بين نور الدين ومجير الدين صاحب دمشق ، وقد ذكرنا أن نور الدين تأخر عن دمشق ، فلما سكنت الامطار ، عاد فنزل عليها وضايقها ، ثم إنه أشفق من سفق دماء المسلمين ، فراسلوه ، وخرج إليه مجير الدين أبق والرئيس ابن الصوفي ، وبذلا له الطاعة ، وأن يخطب له على منبر دمشق بعد الخليفة ، وينقش اسمه على الدينار والدراهم ، فرضي وخلع على مجير الدين خلعة السلطنة والطوق والسوارين ، وعلى الرئيس خلعة الوزارة ، وطيب

قلوبهما ، وخرج ، ورحل الى حلب والقلوب معه لما غمر العالم من خيره ، وكان ذلك في المحرم من هذه السنة .

ووصل الملك مسعود قاصدا أنطاكية ، ونزل على تل بـاشر وضايقها في المحرم أيضا

... وفيها أسر ابن جوسلين ، وحمل الى قلعة حلب ، وسار نور الدين ففتح قلعة أعزاز ، ورحل الملك مسعود من تل بـاشر بعد أن اشرفت على الاخذ

وفيها ملكت الفرنج عسقلان ، لانهم ضايقوها ، وقتل من الفريقين خلق كثير ، وعجز من فيها ، فطلبوا الامان ، فأمذوهم ، وكان بها النخائر والعدد والغلال ما لا يحصى ، وقيل إن أهلها كانوا في ضائقة يرتقبون كل يوم الاسطول والنجدة من مصر ، فبيناهم في آخر نفس ، وإذا بمركب صغير قد أقبل من مصر ، فاستبشروا ، وإذا فيه رجل ومعه كتاب من مصر الى الوالي يقول ساعة وقوفك على هذا الكتاب ، تنفذ لنا من مقصبة عسقلان باقة قصب غلاظا تجعلها شبابات ، فقال للرسول : نعم الى غداة عد ، ثم خرج في الليل الى الفرنج ، وأخذ أمانا لأهل البلد ، فلما طلع الفجر فتح الابواب ، ودخل الفرنج البلد ، فأحضر القاصد بالكتاب ، وقال : هذا هو الجواب

السنة السادسة والاربعون وخمسمائة

فيها ... في المحرم عاد نور الدين الى حصار دمشق ، فجاء فنزل عيون الفاسريا وامتد عسكريه الى ما بين عذراء والقصير ، وأرسل الى مجير الدين يقول قد كنت اتفقت معكم ، وحلفت لكم ، والان قد صبح أنكم ظاهرتم الفرنج ، فإن اعطيتموني عساكركم لأجاهد في سبيل الله ، رجعت عنكم ، فلم يردوا عليه جوابا ، فرحل نور

الدين ، فجاء فنزل مشهد القدم ، وأحاطت عساكره بسايلد ، وضايقه ، ولم يزحف خوفا من سفك دماء المسلمين ، وتواترت الاخبار بمجيء الفرنج لنصرة مجير الدين ، فضاقت صدور العلماء والزهاد من هذه الحالة ، ولم تنزل المناوشات تعمل في كل يوم الى ثالث وعشرين صفر ، فرحل الى داريا مستعدا للقاء الفرنج ، وكان عسكره يزداد كل يوم قوة ، وعسكر دمشق يضعف ، ومع هذا فما كان يأذن لأحد في قتال المسلمين ، وما خرج عسكر دمشق إلا وعادوا مفلولين مكسورين ، وقرب الفرنج من داريا ، فأشار على نور الدين خواصه بالرحيل ، وقالوا : نبقى بين الفرنج وبين عسكر دمشق ، فارتفع الى الزبداني ، ووصل الفرنج الى داريا في جمع قليل ، وخرج مجير الدين والمؤيد إليهم ، واجتمعوا بملكهم قما صادفا عندهم من العدة ماكانا يظناه ، فاتفقوا على نزول الفرنج على بصرى فإنها عصت على مجير الدين ، ورحلوا الى رأس الماء ، وأرسل نور الدين أربعة آلاف فارس إلى حوران ، وبلغ نور الدين فعاد الى دمشق ، وقيل نزل بعين الجر من البقاع ، وضايق الفرنج بصرى ، فلم يظفروا منها بطائل ، فعادوا الى بلادهم ، وبعثوا يطلبون من مجير الدين ما قرر لهم من المال عن ترحيلهم نور الدين عن دمشق ، وقالوا لولانا ما رحل .

وعرض نور الدين عسكره بالبقاع ، وكان من عين الجر الى الدلهمية ، فكانوا ثلاثين ألفا من عسكره والتركمان ، وغيرهم ، فعاد الى دمشق ، وقد أطمعته نفسه فيها ، فنزل ارض كوكبا من غربي داريا في ربيع الاول ، ثم رحل فنزل جسر الخشب ، ثم رحل الى مسجد القدم ، فزودي في دمشق بالعسكر والاحداث بالخروج الى قتاله ، فلم يخرج إلا القليل لما وقر في نفوسهم من استنجاد مجير الدين وابن الصوفي بالفرنج .

وبينما نور الدين على دمشق وصله كتاب من الامير حسان المذبجي أنه افتتح مدينة تل باشر ، بالامان في ربيع الاول ، فحزبت البوقات والطبول في عسكر نور الدين بالبشائر ، وأقام نور الدين

على دمشق من غير قتال ولا زحف ، خوفا على المسلمين ، وقال
لا حاجة لي إلى إراقة دمائهم بأيدي بعضهم بعضا ، وإنما أرفههم
ليبدلوا نفوسهم في قتال الكفار ، ثم ترددت الرسائل بينه وبين مجير
الدين وابن الصوفي على يد يرهان الدين علي البلخي ، وأسد الدين
شيركوه ، وأخيه أيوب نجم الدين ، وتقارب الامر الى تجديد أيمان
وعهود وشروط اشترطها عليهم ، ورحل عنهم في العاشر من ربيع
الاخر ، وسار بعض عسكر نور الدين نحو بصرى لأن واليها عصى
على المسلمين ، وبعث فاعتضد بالفرنج ، فاستدعى نور الدين من
دمشق المناجيق وآلة الحصار ، وبعث نور الدين إليه قطعة من
عسكره .

وجاء نور الدين الخبر بأن عسكر الرقة أغار على قلعة جعبر ،
فخرج الامير عز الدين علي بن مالك في أصحابه إليهم ، وقد أغاروا
على أطراف أعماله ليخلص ما استاقوا ، فالتقى الفريقان وأصابه
سهم من كمين ظهر عليه فقتله ، فرجعوا به الى قلعة جعبر ،
 واجلسوا ولده مالك بن علي في منصبه واستقام أمره ، وفي رجب
توجه مجير الدين في جماعة من عسكره وخدواصه الى حلب بقصد
خدمة نور الدين ، وطاعته ، فالتقاه وأكرمه ، وخلع عليه وبالع في
الافعل الجميل في حقه ، وقرر معه تقارير اقترحها عليه ، ثم عاد
عنه الى دمشق مسرورا فدخلها في آخر شعبان .

وفيهما قصدت الفرنج بقاع بعلبك على غرة من أهلها ، ونهبوا ما
فيهما من المواشي ، وسبوا النساء واسروا الرجال ، ولم يبقوا على
أحد ، وكان بعلبك عطاء الخادم فبعث الرجال في إثرهم ، واجتمع
اليهم من البقاع خلق عظيم واتبعوهم فلحقوهم ، وقد أرسل الله
عليهم من الذلج المتدركة ما أبطأهم عن الوصول الى بلادهم ،
فقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وخلصوا الاسارى والمواشي ، ومن سلم
من الذلج .

السنة السابعة والاربعون وخمسمائة

فيها ... وفي المحرم فتح نور الدين محمود رحية إنطربطوس
عذوة ، فطلبوا الامان على النفوس فامنهم ، وملك عدة من
الحصون ؛ منها المرقب ، وكان على الاسلام منه ضرر عظيم ...

السنة الثامنة والاربعون وخمسمائة

فيها ... ضايقت الفرنج عسقلان ، فبعثوا الى نور الدين
يستصرخون به ، والى مجير الدين ابق صاحب دمشق ، فتوجه
مجير الدين ابق الى نور الدين وعند نور الدين تركمان كثير ،
فاتفقوا على النزول على بانياس ليشغلوا قلوب الفرنج بالناس
النازلين على عسقلان ، فساروا إليها يوم السبت تاسع وعشرين
صفر ، وليس فيها من الفرنج من يحميها ، فوقع الخلف بين
المسلمين ، فعاد مجير الدين الى دمشق ونور الدين الى حمص

السنة التاسعة والاربعون وخمسمائة

وفيها ملك نور الدين محمود دمشق وسببه ما ظهر من مجير الدين
من الظلم ومصادرة أهلها وسفك دمائهم ، وأخذ أموالهم ، وقبضه
على جماعة من الاعيان ، واستدعى سيف الدولة ابن الصوفي الذي
ولاه رئاسة دمشق لما أخرج أخاه وجيه الدولة منها فقتله في القلعة ،
ونهب داره وأحرق دور بني الصوفي ، ونهب أموالهم ، وتكاثر
مكاتباته الى الفرنج يستنجدهم ويطمعهم في البلاد ، وكان مراد نور
الدين من أخذ دمشق أنه كان في عزمه خلاص القدس من الفرنج ،
وبلاد الساحل ، وكانت دمشق في طريقه ، وطمع الفرنج في مجير
الدين ، وكان قد أعطاهم بانياس ، فكانوا يشنون الغارات الى باب

دمشق فيقتلون ويأسرون ، وكان مجير الدين قد جعل للفرنج كل سنة قطيعة يأخذها منهم ، وأذل الاسلام وأهله في أيامه وساءت سيرته وكثر فسادهم ، فكانت الامراء والاعيان بدمشق أصحاب نور الدين يقولون : الغياث ، وقالوا : إن شئت حصرناه في القلعة ، فرأى نور الدين أخذ مجير الدين بالطف ، وقال إن أخذته بالقوة استغاث بالفرنج وأعطاهم البلاد ، فيكون وهنا عظيما على الاسلام .

وكان من أشد الامور على الفرنج أن يأخذ نور الدين دمشق ، لأنه كان أحرق قلاعهم وخرب بلادهم ، وكان ليس له دمشق ، فكيف وقد صارت له ، فإنه يتقوى بها ، فعدل الى ملاطفة مجير الدين ، ومكاتبة وبعث اليه بهدايا ، فأدس به ، وصار يكاتبه يستشير به ، فكان نور الدين يكتب إليه بأن فلانا يكاتبني وفلانا يكاتبني ، فتارة يقبض مجير الدين عليهم ، وتارة يذفيهم ، فخلت دمشق من الامراء ، ولم يبق عنده غير عطاء بن حفاظ الخادم السلمي ، وكان صاحب بعلبك ، قد رد إليه مجير الدين أمر دولته ، وكان ظالما ، فكتب نور الدين الى مجير الدين يقول : قد نذر عليك عطاء بن حفاظ قلوب الرعية فاقبض عليه ، وعلم نور الدين أنه لا يتم له أمر في دمشق مع وجود عطاء ، فقبضه مجير الدين ، وأمر بقتله ، فقال له عطاء : لا تقتلني فإن الحيلة قد تمت عليك ، وذهب ملكك ، وسترى ، فلم يلتفت إليه وقتله ، فحينئذ قوي طمع نور الدين في دمشق ، وأرسل الى احداثها وأعيانها ، فأجابوه فसार إليها ، ونزل عليها ، وكتب مجير الدين الى الفرنج يستنجد بهم ، وبذل لهم بعلبك وأموالا كثيرة ، وبلغ نور الدين ، فأرسل الى الاحداث ، ففتحوا له الباب الشرقي ، فدخلها عاشر صفر وقيل سلخ ذي الحجة .

وحصر مجير الدين في القلعة وبلغ ذلك الفرنج فتوة ففوا ، وقال أبو يعلى بن القلانسي : ووصل اسد الدين شيركوه الى غوطة دمشق في ألف فارس ، فنزل على الزقبة في المرج على أنه رسول من نور الدين فلم يخرج إليه أحد من دمشق ، وذلك في الثاني من المحرم فلما كان يوم الاحد ثالث صفر وصل نور الدين بعسكره وخيم بعيون الفار

شيئاً ثم رحل من الغد فنزل بيت الابار(٥) وزحف على البلد من شرقيه وزحف اليه من عسكر دمشق وأحدثه الخلق الكثير ووقع الطراد بينهم أياما ، فلما كان يوم الاحد عاشر صفر زحف نور الدين وظهر إليه العسكر من دمشق على العادة ، ووقع الطراد بينهم فدفعهم نور الدين الى باب كيسان ولم يبق على السور احد لسوء تدبير مجير الدين ، وجاء واحد من رجالة نور الدين الى السور وعليه امرأة يهودية فدلّت له حبلا فتسلق فيه وتبعه الرجالة وأصعدوا علما ، فصاح أصحاب نور الدين : نور الدين يامنصور وامتنع الاجناد والرعية من القتال لما هم عليه من بغض مجير الدين وظلمه ، وعسفه للرعية ، ومحبتهم لنور الدين لعدله وخيره وبادر بعض قطاع الخشب بفأس الى الباب فكسر اغلاقه وفتحه ، ودخل العسكر فلم يقف بين أيديهم أحد ، ودخل نور الدين وعسكره ، ودخل مجير الدين إلى القلعة ومعه خواصه وأغلق بابها ، فأرسل إليه نور الدين بأمان أهل البلد على نفوسهم ودورهم وأموالهم ، وتقرر الامر بينه وبين مجير الدين على حمص ، وكتب له مذشور بذلك ، وخرج إليها بأمواله وأشياءه ، وأحسن نور الدين إلى الناس واطلق المكوس والضمانات ودور البطيخ وسوق الخيل وما يؤخذ من الانهار وغير ذلك ، وكان مجاهد الدين بزان محبوسا في القلعة ، ووصل الرئيس مؤيد الدين بن الصوفي إلى داره غير متعرض لشيء من الولايات وكان في نيته فساد فسر الناس بموته .

فصل

وفيها قتل الظافر صاحب مصر ، وأقام مجير الدين بحمص وكاتب أحداث دمشق في إثارة الفتنة ، وبلغ نور الدين فأعطاه بالس ليبيعه من دمشق ، فلم يرض بها ، ورجع إلى بغداد فبنى دارا مقابل النظامية ، وأقام بها حتى مات وسنذكره .

وفيها وصلت مراكب الفرنج الى تنيس فقتلوا وأسروا ونهبوا وعادوا .

السنة الخمسون وخمسمائة

وفيهما

السنة الحادية والخمسون وخمسمائة

وفيهما

السنة الثانية والخمسون وخمسمائة

وفيهما كانت زلازل عظيمة بالشام وحلب وحماة وشيزر وأفامية وكفر طراباس والمعصرة وحمص ، وأنطاكيا وطراباس ، ودمشق ، وجميع العواصم ، وهلك خلق عظيم ، حتى روي ان معلما كان بحماة في كتاب ، فقام من الكتاب يقضي حاجته ، ثم عاد وقد وقع المكتب على الصبيان فماتوا بأسرهم ، وأعجب من هذا أنه لم يأت أحد يسأل عن صبي كان له في المكتب ووقعت أبراج القلاع وغيرها ، وهلك جميع من في شيزر الا امرأة واحدة وخادم وساخت قلعة أفامية ، وانشق تل جيرون نصفين وظهر فيه بيوت وعمائر ودواويس ، وانشق في اللاذقية موضع وظهر فيه صندم قائم في الماء ، وخربت صيدا وبيروت وطراباس وعكا وصور وجميع قلاع الفرنج .

وفيهما ملك نور الدين محمود حصن شيزر وزال عنها ملك بني منقذ الكتانيين .

السنة الثالثة والخمسون وخمسمائة

وفيهما نازل نور الدين قلعة حارم وأقام بها أياما فلم يقدر عليها ، فرحل عنها ، ثم جاء بعد ذلك فحصرها وفتحها وسنذكره .

وفي سلخ صفر نزلت الفرنج على داريا فحرقوها ونهبوها ، وكانوا قد جاؤوا بغتة ، وخرج اليهم أحداث دمشق فقاتلوهـم الى الليل فأحرقوا جامعها وأذاوا أهل الاقليم .

السنة الرابعة والخمسون وخمسمائة

وفيهما حشد ملك الروم وجمع ، ووصل الى الشام ، وجمع نور الدين عليه العساكر ، وقلت ميـزتهم فعادوا راجعين وغنمهم المسلمون ،

وفيهما نزل نور الدين محمود على حران وأخذها من أخيه أمير ميران وأعطاهـا زين الدين علي اقطاعا ، وسببه أن نور الدين لما مرض وقع الاياس منه ، وكاتب أخوه أمير ميران الجند ، وطمع في الملك فشق على نور الدين

السنة الخامسة والخمسون

وفيهما

السنة السادسة والخمسون وخمسمائة

وفيهما في ربيع الأول نقل المقتفي الى الرصافة ليلة الاربعاء ،
وانزل تابوته في الزبب ومعه جميع ارباب الدولة .
وفيهما قتل طلائع بن رزيك بمصر .

فصل

وفيهما توفي الصالح طلائع بن رزيك ، أبو الغارات ، وزير الديار
المصرية ، أقام وزيرا سبع سنين على أحسن الوجوه ، وبسط
العدل والاحسان ، فلما كان العاشر من رجب وثب عليه بباطني بين
القصرين ، فضربه بسكين في رأسه ، ثم في ترقوته ، فحمل الى
داره ، وقتل الباطني ومات طلائع من الغد ، فحزن الناس
عليه ، وبكوا وأقيمت المآتم بين القصرين والشوارع ومصر ، لأنه
كان جوادا محسنا مشفقا على الرعية بينا صالحا كاسمه ، كثير
الصدقات ، حسن الآثار بنى جامعا على باب زويلة وآخر بالقرافة
في سنة أربعين وخمسمائة ، وبنى تربة الى جانبه وهو مدفون بها ،
وعمر المساجد وكان يفتقد أرباب البيوت وكان فاضلا شاعرا وله
ديوان مليح ، ورثوه الشعراء وقام بعده ولده رزيك بن طلائع بأمر
الوزارة ولقب بمجد الاسلام بن الصالح طلائع سنة تسع وأربعين
 وخمسمائة ، وقتل في دهليز القصر في سنة ست وخمسين وخمسمائة

السنة السابعة والخمسون وخمسمائة

وفيهما حاصر نور الدين محمود بن زنكي حصن حارم ، واجتمع
الفرنج وراسلوه ولاطفوه ، وكانوا خلقا عظيما ، فرجع الى

حلب ، وكان معه مؤيد الدين اسامة بن مرشد بن مزقذ الذي أخرجه
عمه من شيزر ونزل بدار الى جانبها مسجد ، وكان قد نزل بها عام
أول حج ثم عاد الى المنزل بعد عوده من الغزاة فكتب على حائط
المسجد :

لك الحمد يامولاي كم لك منة
علي وفضل لا يحيط به شكري
نزلت بهذا المقام اذ كنت قافلا
من الغزو موفور النصيب من الاجر
ومنه رحلت العيس في عامي الذي
مضى نحو بيت الله والركن والحجر
فأبيت مفروضي وأسقطت ثقل ما
تحملت من وزر الشباب على ظهري (٧)

وفيهما توفيت زمرد خاتون بنت جاولي أخت الملك دقاق بن تاج
الدولة تقيش بن ألب أرسلان ، وأم شمس الملوك اسماعيل ، وشهاب
الدين محمود ابني بوري بن طغتكين .

قرأت القرآن على أبي محمد بن طاووس ، وأبي بكر
القرطبي ، وسمعت الحديث من نصر بن ابراهيم المقدسي
وغيره ، وكانت محبة للعلماء وأهل الخير حذفة المذهب ، وهي التي
بنت مسجد خاتون على الشرف بأرض صنعاء من دمشق ، وأوقفت
عليه الأوقاف الكثيرة ، وليست خاتون التي بنت خانقاه الصوفية
على الشرف القبلي من القبلة ، تلك بنت معين الدين أنر زوجة نور
الدين محمود بن زكي ، وتزوجها صلاح الدين ، وسنذكرها بعد
الثمانين وخمسائة ، ودفنت بجبل قاسيون ، وهي التي بنت
مدرسة خاتون بدمشق .

وأما صاحبة هذه الترجمة فهي التي ساعدت على قتل ابنها
شمس الملوك اسماعيل لما كثرت فسادة وسفكه للدماء وقتله خواص

أبيه ومصائدات الناس ومـواطأة الفـرنج على بلاد المسلمين ، فأراحت منه العباد ، وظهرت منه البلاد .

وقال الحافظ ابن عساكر : دبرت عليه حتى قتل بحضرتها ، وأقامت أخاه محمودا مكانه ، وقد ذكرنا ذلك ، وتزوجها أتابك زنكي طمعا في دمشق فلم يظفر بطايل ، ونقلها الى حلب ، ولما قتل أتابك على قلعة جعبر عادت الى دمشق فأقامت مدة ، ثم حجت على طريق العراق وبخلت بغداد وعادت الى الحج فجاءت بها سنة حتى توفيت ، ودفنت بالبقيع ، وكان قد قل ما يبدها فبلغني أنها كانت بالمدينة تغربل القمح والشعير وتتقوت بأجرهما ، وكانت كثيرة البر والصدقات والصوم رحمها الله تعالى .

وفيهما أقام نور الدين بـحمص أياما ، ثم نزل بلاد الفـرنج فنزل بالبقية تحت حصن الأكراد عازما على حصار طرابلس ، ومعه خلق عظيم وضربوا خيامهم ، ولم يكن للمسلمين يـذك ولا طليعة ظنا من نور الدين أنهم لا يقدمون عليه ، فبينما الناس وسط النهار لم يرعهم الا ظهور الصليبان مسن وراء الجبل الذي عليه الحصن ، فالسعيد من ركب فرسه ونجا ، وخرج نور الدين من خيمته وعليه قباء فركب نور الدين فرس الذوبة وفي رجله شـبحة قطعها كردي فنجا نور الدين ، وقتل الفـرنج وأسروا خلقا عظيما ، واستولوا على العسكر بما فيه ، وكان من قلة الحزم حيث غفلوا عن العدو ، ولم يستظهروا باليزك والطلائع ، وجاء نور الدين الى حمص فلم يـدخلها ، واجتمع اليه من نجا من المعركة ، وأرسل الى حلب ودمشق ، وأحضر الخيام والسلاح والخيل وفرقها في الناس ، ومن قتل أبقي اقطاعه على ولده ، والا فأهله وكان من عزم الفـرنج قصد حمص ، فلما بلغهم نزول نور الدين على البحيرة قالوا : ما فعل هذا الا عن قوة فتوقفوا وفرق في يوم واحد مائتي الف دينار ، وجاء رجل وادعى أنه ذهب له شيء كثير وكان الامر بخلافه ، فكتب النواب الى نور الدين أنه مبطل في دعواه ، فكتب اليهم لا تكذبوا عطاءنا فاني أرجو من الله الأجر على القليل

والكثير ، وكتب اليه الذواب ان الادارات والوقوف كثيرة في البلاد على الفقراء والفقهاء والصوفية ، ولو حملناها اليك في هذا الوقت لاستعنت بها وتعيد العوض ، فغضب وكتب اليهم : (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) (٨) وهل أرجو النصر الا بهؤلاء ، وهل تنصرون الا بضغفائكم ، فكتب الذواب اليه فاذا لم تغير عليهم شيئا ، وقد وقعت في هذه الورطة العظيمة ، فلو أمرتنا لاقترضنا من أرباب الأموال ما نستعين به على جهاد العدو فقد نفذت الخزائن ، ويطمع العدو في الاسلام ، فبات مفكرا وقال في نفسه نقترض ثم ندفع العوض ثم قال ما أفعل ، وبات قلقا الى وقت السحر فنام فرأى انسانا يذشد :

احسنوا مادام أمركم

نافذا في البدو والحضر

واغذموا أيام دولتكم

انكم منها على خطر

فقام مرعوبا مستغفرا مما خطر له وعلم ان هذا تنبيه من الله تعالى ، فكتب اليهم لاحاجة لي في أموال الناس وعاد الفرنج الى بلادهم .

السنة التاسعة والخمسون وخمسمائة

وفيها حارب أمير ميران أخاه نور الدين فكسره نور الدين وسنذكره في ترجمة أمير ميران في السنة الآتية .

وفيها فتحت خارب في شهر رمضان في هذه السنة وكان السبب فيه ان نور الدين لما اصابه بالبقية ما اصابه بعث الى ملوك الاطراف : الى أخيه قطب الدين بالموصل ، وفخر الدين قرا أرسلان بالحصن ، ونجم الدين البسي بماردين ، وغيرهم يطلب النجدة ، فأخبره نجم الدين بأنه جمع العساكر مجدا وعلى مقدمته

زين الدين علي كوجك ، وأما فخر الدين قرا أرسلان فقال له أصحابه : على أي شيء قد عزمتم ؟ قال : على القعود فإن نور الدين قد أثر فيه الصوم والصلاة فهو يلقي نفسه والناس معه في المهالك ، فوافقوه .

فلما كان من الغد نادى في عسكره بالسير الى الغزاة فقبل له في ذلك فقال : ان نور الدين قد كاتب زهاد بلادي المنقطعين عن الدنيا وذكر لهم ماجرى على المسلمين من الفرنج ، وطلب منهم الدعاء وسألهم أن يحدثوا المسلمين على الجهاد ، وقد قعد كل واحد معه جماعة يقرؤون كتب نور الدين ويبكون ويدعون له وعلي ، فان تأخرت خرج أهل بلادي عن طاعتي ، ثم سافر بنفسه ، ولما اجتمعت العساكر على حلب سر نور الدين بقدومها ، وسار على حارم فنازلها ، فبلغ الفرنج فحشدوا وجأؤوا في ثلاثين ألفا وفيهم البرنس صاحب أنطاكية ، والقومص صاحب طرابلس وابن جوسلين والدوك ، وهو رئيس القوم ، وكان فيهم من الرجالة مالا يحصى ، ولما تراءى الجمعان صعد نور الدين على تل عال فشهد من الفرنج ماأنهله وهاله ، فنزل وانفرد عن العساكر ، ونزل عن فرسه وصلى ركعتين ومرغ وجهه على التراب وبكى ، وقال : ياسيدي هذا الجيش جيشك ، والدين بينك ، ومن محمود في الناس ، افعل مايليق بك .

وحملت الفرنج على المينة وفيها عسكر حلب فاندفعوا بين أيديهم ليلبغوا عن الراجل ، وتبعهم الفرنج ، فعطف نور الدين على الرجالة فحصدتهم بالسيف ، ورجعت الفرنج فلم يروا الا الرجالة على الأرض فانخلعت قلوبهم ، وأحاط بهم المسلمون فذلوا وخضعوا ، وعمل فيهم السيف فلم يبق منهم الا من نجا به فرسه ، واسر نور الدين ابن جوسلين من ملوكهم وسنة ألف من أكابرهم ، وغنم ماكان معهم من الأموال والخيل والأسلح والخيام وغير ذلك ، وفتح حصن حارم في حادي عشرين رمضان يوم الجمعة ، وعاد الى حلب بالأسارى والغنائم وامتلات حلب منهم

فبيع الأسير بدينار وفرقهم نور الدين على العساكر واعطى أخاه وصاحب الحصن الأموال العظيمة والتحف الكثيرة ، وعادوا الى بلادهم ، ثم فاداهم نور الدين وكان قد استفتى الفقهاء فاختلفوا فقال قوم : يقتل الجميع ، وقال آخرون : يفادى بهم ، فقال نور الدين الى الفدية ، فأخذ منهم ستمائة ألف دينار معجلاً وخيلاً وسلاحاً وغير ذلك ، فكان نور الدين يحلف بالله أن جميع ما بناه من المدارس والربط والمارستانات وغيرها من هذه المفاداة ، وجميع ما وقفه منها ، وليس فيها من بيت المال درهم واحد .

السنة الستون وخمسمائة

فصل

..... فيها فتح نور الدين بانياس عذوة وكان معه أخوه نصره الدين أمير ميران فأصابه سهم فأذهب إحدى عينيه ، فقال له نور الدين لو كشفت عما أعد لك من الأجر لتمنيت ذهاب الأخرى ، وكان ولد معين الدين الذي سلم أبوه بانياس للفرنج قسائماً على رأس نور الدين ، فقال له نور الدين : للناس بهذا الفتح فرحة واحدة ، ولك فرحتان ، قال : يامولانا ولم ؟ قال : لأن اليوم بردت جلدة أبيك من نار جهنم .

وفيهما فوض نور الدين شحنة دمشق الى صلاح الدين يوسف ابن أيوب على ما قيل فأظهر السياسة ودفنت الأمـور فقال عرقلة (٩) :

رويدكم بالصروح الشام
فاني لكم ناصح في مقالي

وإياكم من سمي النبي
يوسف رب الحجى والجمال
فقطع أيدي النساء
وهذا يقطع أيدي الرجال

فصل

وفيهما توفي امير ميران بن زنكي أخو نور الدين محمود أصابه
سهم على بانياس في عينه ، وقد ذكرنا أن نور الدين لما مرض كاتب
أمير ميران الأمراء ، فلما برأ نور الدين سار إليه وأخذ حران منه
فطرده فمضى الى صاحب الروم ، وجيش الجيوش في سنة تسع
وخمسين وخمسمائه ، وانضم اليه خلق كثير وكان نور الدين نازلا
على رأس الماء فالتقوا فكسر نور الدين وقتل أخو مجد الدين بن
الداية ونهب عسكر نور الدين ، ورجع أمير ميران الى صاحب
حصن كيفا مستجيра به ، فيقال إنه مات عنده ، ويقال انه شفع فيه
نور الدين فقبل شفاعته ، ومات بدمشق .

السنة الحادية والستون وخمسمائة

وفيهما فتح نور الدين العزيمة وصافيتا وهدم قلعتاهما
وسورهما ، ومضى اليه غازي بن حسان صاحب منبج ، وأعطاه
الركة

السنة الثانية والستون وخمسمائة

.....وفيهما عاد اسد الدين شيركوه الى مصر ، وهي المرة
الثانية ، وسببه أن العاضد كتب الى نور الدين محمود يستنجد به

على شاور ، وأنه قد اشتد الأمر وظلم وسفك الدماء ، وما كان في قلب نور الدين من شاور لأنه غدر بأسد الدين واستنجد الفرنج ، فسار أسد الدين من دمشق منتصف ربيع الأول ومعه ابن أخيه صلاح الدين ، فنزل الجيزة غربى مصر على البحر ، وكان شاور قد أعطى الفرنج الأموال وأقطعهم الاقطاعات ، وأنزلهم دور القاهرة ، وبنى لهم أسواقا ، وكان يتقدمهم الملك مرى وابن بيرزان ، فأقام أسد الدين على الجيزة شهرين ، ثم عدى الى بر مصر والقاهرة في خامس عشرين جمادى الآخرة .

ذكر وقعة البابين

ولما عدى أسد الدين صعد الى البابين ، وخرج شاور والفرنج ورتب العساكر ، فجعل الفرنج في الميمنة مع ابن بيرزان ، وعسكره في الميسرة ، وأقام الملك مرى في القلب في شوكة الفرنج والخيالة ، ورتب أسد الدين عساكره فجعل صلاح الدين في الميمنة ، والأكراد في الميسرة ، وأسد الدين في القلب ، فحمل الملك مرى على القلب فتعته ، وكانت أثقال المسلمين خلفهم ، فاشتغل الفرنج بالتهب ، وحمل صلاح الدين على شاور فكسره ، وفرق جمعه ، وعاد أسد الدين الى صلاح الدين ، فحملا على الفرنج فانهزموا فقتلوا منهم ألوفاً ، وأسروا مائة وسبعين فارساً ، وطلبوا القاهرة ، فلو ساق أسد الدين خلفهم لملك القاهرة ، وإنما حول الى الاسكندرية فتلقاه أهلها طائعين ، وولى عليها ابن أخيه صلاح الدين ، فأقام بها وسار أسد الدين الى الصعيد ، واستولى عليه ، وأقام يجمع أمواله ويجبي خواجه ،

وخرج شاور والفرنج من القاهرة فحصروا الاسكندرية ، فأقاموا عليها أربعة أشهر ، وأهلها يقاتلون مع صلاح الدين ويقوونه بالمال ، وبلغ أسد الدين فجمع عرب البلاد ، وسار الى الاسكندرية ينجد صلاح الدين ، وعاد شاور الى

القاهرة ، وراسل أسد الدين وأعطاه اقطاعا بمصر وعجل له مالا فعاد الى الشام ، وصلاح الدين يتبعه ، واعتذر الى نور الدين بكثرة الفرنج والمال ورأى صلاح الدين ما فعله أهل الاسكندرية ، فلما ملك أحسن اليهم وسنذكره .

ثم أن الفرنج طلبوا من شاور أن يكون لهم شحنة بالقاهرة وتكون أبوابها بأيدي فرسانهم ، ويحمل اليهم في كل سنة مائة ألف دينار ، ومن سكن منهم القاهرة يبقى على حاله ، ويعود بعض ملوكهم الى الساحل ، وكان نور الدين ينظر من سـتر رقيق ، ويخاف على مصر غلبة الفرنج عليها فصار بعساكره الى الساحل وفتح المنطيرة ، وقلاعا كثيرة ، فخاف من كان بمصر من الفرنج ، فعادوا الى الساحل في سنة أربع وسـتين وخمسائة ، وسنذكره .

السنة الثالثة والستون وخمسمائة

وفيها

السنة الرابعة والستون وخمسمائة

وفي المحرم ملك نور الدين محمود قلعة جعبر ، خرج صاحبها ابن مالك العقيلي فأخذه بذو كلاب ونهبوا به الى نور الدين ، فأحسن اليه وأكرمه وقال أنت عاجز عن حفظها فاختر ماسميت من البلاد والاقطاعات فامتنع ، فأرسل اليها نور الدين فخر الدين مسعود بن علي الزعفراني ومجد الدين ابن الداية فحصرها ، فلم يقدر عليها ، ثم ان صاحبها طلب من نور الدين سروج وأعمالها ومالا فأعطاه وتسلمها ، وهذه القلعة مازالت في يد بني مالك من أيام السلطان ملك شاه الى هذه السنة ، وبلغ نور الدين أنهم كان لهم رجال يقطعون الطريق .

وفي صفر خرج الفرنج من عسقلان والساحل طالبيين الديار المصرية ، فنزلوا على بلييس وأغاروا على الريف فقتلوا وأسروا ، فأخرج شاور من كان بالقاهرة من الفرنج ، وقتل البعض وهرب الباقون ، وأمر شاور أهل مصر أن ينتقلوا الى القاهرة وأحرق مصر ، وسار الفرنج من بلييس فنزلوا على القاهرة في تاسع صفر ، وضايقوها وضربوها بالمناجيق ، فلم يجد شاور بدا ان كتب لنور الدين بأمر العاضد ، وكان الفرنج لما وصلوا الى مصر في المرتين الأولتين اطلعوا على عوراتها وطمعوا فيها ، وعلم نور الدين فاسترجع وخاف عليها ، وجاءته كتب العاضد وشاور ، فقال نور الدين لأسد الدين : خذ العساكر وتوجه اليها ، وقال لصلاح الدين اخرج معه فامتنع وقال : يامولانا يكفسي مـالـقينا مـن الشدائد ، فقال : لابد من خروجك ، فما أمكنه مخالفة نور الدين فساروا الى مصر ، وبلغ الفرنج فرجعوا الى الساحل ، وقيل ان شاور أعطاهم مائة ألف دينار ، وجاء أسد الدين فنزل على باب القاهرة ، فاستدعاه العاضد الى القصر وخلع عليه في الايوان خلع الوزراء ، وسر أهل مصر بوصوله .

وقيل انه لم يستدعه وانما بعث اليه بالخلع والأموال والاقامات ، وللأمراء الذين معه ، وأقام مكانه وأرباب الدولة يترددون الى خدمته كل يوم وشاور لم يقدر على منعهم لكثرة العساكر وكون العاضد مائلا الى أسد الدين ، فكاتب الفرنج واستدعاهم وقال يكون مجيئكم الى دمياط في البحر والبر ، وبلغ أعيان المصريين فاجتمعوا عند أسد الدين وقالوا : شاور هو فساد العباد والبلاد ، وقد كاتب الفرنج وهو يكون سبب هلاك الاسلام ، ثم إن شاور خاف لما تأخر وصول الفرنج فشرع في عمل دعوة لأسد الدين والأمراء ويقبضهم فنهاه ابنه الكامل وقال : والله لئن لم تنته من هذا لأعرفن أسد الدين ، فقال له شاور والله لئن لم أفعل هذا لنقتلن كلنا ، فقال له ابنه لأن نقتل والبلاد بيد المسلمين ، خير من أن نقتل والبلاد بيد الفرنج ، وكان أسد الدين قد شارط لشاور ثلث البلاد ، فأرسل أسد الدين يطلب منه المال

فجعل يتعال ويماطل وينتظر وصول الفرنج الى البلاد
فقتلوه ، وسنذكره في موضعه ، ولما قتل بعث العاضد منشورا
بالوزارة لأسد الدين بخت الفاضل وعليه بخت العاضد نسخة
الايمان إلى اسد الدين ، وحلف كل واحد منهما لصاحبه بالوفاء
والطاعة والصفاء ، فتصرف أسد الدين شهرين ومات ، ولما احتضر
أوصى لابن أخيه صلاح الدين ، فاختلف عليه جماعة من الأمراء
وسنذكره في عقيب وفاة أسد الدين ، وبلغ نور الدين اتفاق الأمراء
على صلاح الدين في ذلك . انتهى .

فصل

وفيهما توفي صاحب دمشق وهو مجير الدين بن محمد بن بوري بن
أتاك طغتكين ببغداد ، ودفن بداره التي عند النظامية ، وبلغ نور
الدين فجلس له في العزاء ، وقد ذكرنا سيرته .

فصل

وفيهما قتل شاور كما ذكرنا وقائعه الى هذه السنة ، وكان جبارا
لا ينظر في عاقبة الأمور سفاكا للدماء ، ممدوحا قد منحه عمارة
اليمني الشاعر بقصائد .

ذكر مقتله

عزم على عمل دعوة لأسد الدين والأمراء ثم يقتلهم وأن ابنه
الكامل نهاه ، واختلفوا في كيفية مقتله على أقوال :

أحدها : ان الأمراء اتفقوا على قتله لما علموا بمكاتبتهم

للفرنجة ، وأن أسد الدين تمارض ، وكان شاوور يخرج اليه كل يوم والطبل والبوق يضرب بين يديه على عادة وزراء مصر ، فجاء ليعود أسد الدين فقتلوه .

والقول الثاني : أن صلاح الدين وجريدك اتفقا على قتله فأخبرا أسد الدين فنهاهما ، وقال : لاتفعلا فنحن في بلائه ومعه عسكر عظيم فسكتا ، واتفقا أن أسد الدين ركب الى زيارة الشافعي ، فأقام عنده ، وجاء شاوور على العادة لأسد الدين ، فالتقاه صلاح الدين وجريدك وقالوا : انزل هــو في الزيارة فامتنع ، فجذباه فوقع الى الأرض فقتلاه

والقول الثالث : انهما لما جذباه لم يمكنهما قتله بغير أمر أسد الدين وسحبه الغلمان إلى الخيمة ، وانهزم اصحابه الى القاهرة ليجيشوا عليهم ، وعلم أسد الدين فعاد مسرعا ، وجاء رسول من العاضد برقعة يطلب من أسد الدين رأس شاوور ، وتتابعت الرسل ، وكان أسد الدين قد بعث الى شاوور مع الفقيه عيسى يقول : لك في رقبتى أيمان وأنا خائف عليك من الذي عندي فلا تجيء ، فلم يلتفت وجاء على العادة فجذبوه بالقوة عن فرسه وأخله جريدك إلى الخيمة ، وحز رأسه ، فلما عاد أسد الدين استرجع ، وبعثوا برأسه إلى العاضد فسر به ، ودعا العاضد ولد شاوور الكامل فقتله في الدهليز ، وقتل أخاه ، واستوزر أسد الدين على ما ذكرنا ، وقتل شاوور في ربيع الآخر .

وفيهما توفي أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين ، أقام في الوزارة شهرين وأياما لأنه وزر في ربيع الآخر ، وتوفي فجاءة يوم السبت ثاني عشرين جمادى الآخرة ، وكانت وزارته شهرين وخمسة أيام ، وكان كثير الأكل للحوم الغليظة ، وكان يواتر التخم والخوانيق ، فاعتراه خنوق عظيم فقتله ، ودفن بظاهر القاهرة الى أن مات أخوه نجم الدين أيوب ، فحملا جميعا إلى مدينة النبي صلى الله عليه وسلم فدفنا في رباطيهما ، ولما مات كان قد أوصى الى ابن

أخيه صلاح الدين ، فاختلف الأمراء عليه ومنهم عز الدين اليازقي رأس الأتراك ، وسيف الدين علي بن أحمد الهكاري المشطوب ملك الأكراد ، وشهاب الدين محمود صاحب حارم وهو خال صلاح الدين وجماعة وكل واحد منهم رام أن يكون له الأمر ، فبادر العاضد واستدعى صلاح الدين ، وخلع عليه في الأيوان خلعة الوزارة ، وكتب عهده كما فعل بأسد الدين ، ولقبه الملك الناصر ، وقيل إنما لقبه المستضيء بعد ذلك ، وشرع الفقيه عيسى في تفريق البعض عن البعض ، وإصلاح الأمور لصلاح الدين ، وبذل صلاح الدين الأموال وأحسن إلى جميعهم ، وأقام نائباً عن نور الدين يدعو لنور الدين على المنابر بعد العاضد ولصلاح الدين بعدهما .

وذكر الحافظ ابن عساكر أسد الدين فقال : قد ولي دمشق ، وأقام يحارب الفرنج ، وفتح حصونا كثيرة ، وكان شجاعاً مقداماً صارماً مهيباً ، وحج سنة خمس وخمسين وخمسمائة وذكر فتوح مصر .

انتهت ترجمة أسد الدين والحمد لله وحده وصلى على أشرف خلقه محمد صلى الله عليه وسلم .

السنة الخامسة والستون وخمسمائة

وفيهما نزلت الفرنج على دمياط يوم الجمعة ثالث صفر ، وجدوا في القتال ، وأقاموا عليها ثلاثة وخمسين يوماً يضربونها بالمناجيق ويذحفون إليها ليلاً ونهاراً ، ووجه صلاح الدين إليها العساكر مع شهاب الدين خاله وتقي الدين ، وطلب من العاضد مالا فبعث بشيء كثير ، فكان صلاح الدين يقول : مارأيت أكرم من العاضد جهز إلي في حصار الفرنج ألف ألف دينار سوى الثياب وغيرها .

وأشعل نور الدين بلاد الفرنج بالغارات ، ووقع فيهم الوباء

والفناء ، فرحلوا بعد أن مات منهم خلق كثير ، وكان رحيلهم في ربيع الآخر ، وفي شعبان سار نور الدين الى الكرك فنأزله وضربه بالمناجيق ، وجمع ملوك الساحل فجاءوه فتأخر إلى البلقاء .

وفي شوال كانت بالشام زلازل هائلة بحيث وقع معظم دمشق وشرفات الجامع وسقطت رؤوس المنابر ، وكانت تهتز مثل النخل في ريع عاصف ، وكانت بحلب أعظم بحيث وقع نصف القلعة والبلد ، فهلك من أهلها ثمانون ألفا تحت الهدم ، وتهدمت أسوار جميع القلاع وخرج أهلها الى البراري ، ووقعت قلعة حصن الأكراد بحيث لم يبق للسور أثر ، وكذا حماة وحمص ، فلولا أن نور الدين كان بالبلقاء والفرنج في قتاله سار وأخذ حصن الأكراد ، وجاءه ما شغل قلبه من ناحية الشرق ودمشق ، أما من ناحية المشرق فوفاة أخيه ، قطب الدين مودود الموصل ، وأما من دمشق فوفاة العمادي وكان نائبه في حلب وغيرها ، وكانت له بعلبك وتدمر ، وكان عزيزا عند نور الدين وصاحبه وحاجبه ، وبلغه أيضا وفاة مجد الدين أبسن الداية بحلب وكان صاحب بره .

وسار نور الدين الى حلب خوفا عليها من العدو ، لأن أسوارها تهدمت ، وفرق نور الدين العساكر في القلاع خوفا عليها من العدو ، ولأنها بقيت بغير أسوار ، وكانت هذه الزلزلة عامة في الدنيا وأخربت قلاع المسلمين وبلادهم بالشام وحلب والعواصم وأنطاكية ، ونزلت الى اللاذقية وجبلة وجميع بلاد الساحل الى الداروم ، ويقال انه لم يمت من دمشق الا رجل واحد أصابه حجر وهو على درج جيرون ، لأن أهلها خرجوا الى الصحراء .

ثم امتدت الزلزلة وقطعت الفرات فوصلت الى الموصل وسنجار ونصيبين والرها وحران والرقّة وماربين وغيرها ، وامتدت الى بغداد وواسط والبصرة وجميع بلاد العراق ، ولم ير الناس زلزلة من أول الاسلام مثلها أفنت العالم .

وفيهما أمر نور الدين بعمارة جامع داريا القائم الآن ، وكان قديما عند قبة أبي سليمان الداراني ، فأحرقوه لما نزلت الفرنج على داريا في أيام مجير الدين ، أمر أن يعمر - نور الدين - في هذه السنة هذا الجامع في وسط القرية

فصل

وفيهما توفي مودود بن زنكي صاحب الموصل ، ولقبه قطب الدين أخو نور الدين محمود ، كان أسمر اللون ، وتام القامة ، وعادلا منصفاً ، ولما احتضر أوصى الى ولده زنكي ولقبه عماد الدين ، وكان أكبر ولده وأعزهم اليه ، وتوفي قطب الدين ، وقد جاوز الأربعين وكانت ولايته احدى وعشرين سنة .

وفيهما توفي أبو بكر ابن الداية ، ويلقب مجد الدين من أكابر أمراء نور الدين كان شجاعا نبيا بنى بحلب خانداه ، وهي باقية الى هلم جراً ، واتفق موت العمادي في هذه السنة وكان من أعظم أمرائه ، ولما مات بكى نور الدين وقال : قص جناحاي ، وأعطى أولاد العمادي بعليك وقدم على العساكر سابق الدين عثمان ابن الداية أخا مجد الدين ، ودفن مجد الدين بحلب والعمادي بقاسيون في تربة قريبة من تربة شركس شمالها وهي أول تربة بنيت في الجبل واسمه مكتوب على بابها وقفت على باب التربة وعليها مكتوب « هذه تربة العمادي محمد »

السنة السادسة والستون وخمسمائة

وفي أول المحرم سافر نور الدين الى سنجار ففتحها ، وسلمها الى عماد الدين زنكي ابن أخيه ، وسار فنزل على الموصل وأخذها من عبد المسيح وكان بها ، وأزال من الموصل الضمانات

والمكوس ، وعدل وأحسن الى أهله ، وأعطى عمر الملا ستين ألف دينار من فتوح الفرنج ، وأمر بعمارة الجامع الذوري وسط البلد ، وأعطى جزيرة ابن عمر والموصل لابن أخيه سيف الدين ، وأقام عشرين يوما ، وكان يحب الموصل ، فقليل له : لو أقيمت بها ، فقال : ومن يجاهد الكفار ويحفظ بلاد المسلمين ، ثم رحل نحو الشام ومعه عبد المسيح ، وقد أحسن اليه وأقطعه اقطاعا كبيرا ، وكان قد أخذ الموصل ، وهذا كله بأمر الخليفة لأن نور الدين ما كان يعمل شيئا حتى يستأذنه ، ثم قال نور الدين لعبد المسيح : يدحك ما هذا الاسم القبيح ، أما كان في الدنيا مسلم يغيره وكيف وافقك عليه أخي قطب الدين ؟

فصل

وفيها بعث الخليفة (المستضيء) رسولا الى نور الدين محمود يعرفه بخلافته ، ويطلب البيعة له ، فبعث نور الدين الى الخليفة شرف الدين بن أبي عصرون نائبا عنه في الخدمة .

وفيها بنى صلاح الدين بالقاهرة المدرسة الصلاحية للشافعية وكان موضعها حبس المعونة ، وبنى بها أيضا مدرسة المالكية بالقرب من دار العدل ، وولى صدر الدين عبد الملك بن درباس الكردي القضاء بالقاهرة ومصر وأعمالها ، وفي جمادى الأولى خرج صلاح الدين بالعساكر الى الشام فأغار على غزة وعسقلان والرملة ، ومضى الى ايلة ، وكان بها قلعة فيها جماعة من الفرنج ، والتقاء الاسطول في البحر فافتتحها وقتل من فيها ، وشحنها بالرجال والعدد ، وكان على الحاج منها خطر عظيم ، ثم عاد الى القاهرة في جمادى الآخرة .

السنة السابعة والستون وخمسمائة

وفيها خطب لبني العباس بمصر بعد انقطاع الخطبة عن بني العباس فيها مائتي سنة وثمانين سنين .

وفيها بعث الخليفة الخادم صندل المقتفوي، وهو أكبر الخدم الى نور الدين جواب ابن أبي عصرون بالخلع لنور الدين ، وفيها طوق فيه ألف دينار ، والفرجية والعمامة ، ولصلاح الدين دونها ، وبعث لنور الدين سيفين قلده ، سيفا للشام ، وسيفا لمصر ، وزينت بغداد وضربت القباب .

وفي هذه السنة أخذ نور الدين الحمام الهواذي في جميع البلاد في الأبراج تنفذ اليه الأخبار ، وسببه اتساع مملكته ، فكانت من حد بلاد الذوبة الى همذان ، وكان أهم ما عنده قلع الفرنج من الساحل ، فكان اذا تحرك الفرنج لقصده ، أو تحرك لقصدهم ، كتب الكتب على أجنحة الطيور الى البلاد البعيدة ، يستدعي العساكر ، فيأتون اليه بسرعة .

فصل

وفيها توفي العاضد واسمه عبد الله بن يوسف بن الحافظ أبو محمد ، ولم يل أبوه الخلافة ، وقد ذكرناه ، وأمه أم ولد يقال لها ست المنى، ولد سنة أربع وأربعين وخمسمائة وبويع في رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، وهو ابن إحدى عشرة سنة ، وكانت أيامه إحدى عشرة سنة وشهورا ، واختلفوا في سبب وفاته على أقوال :

أحدها : أنه تفكر في أموره فأراها في ادبار ، فأصابه نرب عظيم فمات منه .

والثاني : أنه لما خطب لبني العباس بلغه فاغتم فمات ، وقيل ان أهله أخفوا عنه ذلك وقالوا : ان سلم فهو يعلم ، وان مات فلا ينبغي ان ينغص على هذه الايام التي بقيت من عمره .

والثالث : أنه لما أيقن بزوال دولته كان في خاتم له فص مسموم فمضه فمات ، وختم صلاح الدين على ما في القصر من الأموال والنخائر والتحف والجواهر والعبيد والخدم والخيول والمتاع وغيره ، وكان في القصر من الجواهر النفيسة ما لم يكن عند خليفة ولا ملك ، مما قد جمع على طول السنين ، فمنها القضيبي الزمرد وطوله قبضة ونصف ، والجبل الياقوت الأحمر ، والدرة اليتيمة مثل بيض الحمام ، والياقوتة الحمراء ، وتسمى الحافر ، وزنها أربعة عشر مثقال ، ومن الكتب المنتخبة بالخطوط المندسوبة مائة ألف مجلد ، ووجد عمامة القائم وطيلسانه بحاله ، بعث بهما البساسيري الى المستنصر ، ووجد أموالا لاتحد ولا تحصى ، وأفرد أهل العاضد ناحية عن القصر وأجرى عليهم جميع ما يحتاجون اليه وسلمهم الى قراقوش فعزل الرجال عن النساء واحتاط عليهم وفرق الأموال التي أخذها من القصر في العساكر وباع بعض الجوارى والعبيد وأعطى القاضي الفاضل من الكتب ما أراد وبعث الى نور الدين بعمامة القائم وطيلسانه وهدايا وتحفا وطيبا ومائة ألف دينار ، وكان نور الدين بحلب فلما حضرت بين يديه قال: والله ما كان بنا حاجة الى هذا ما وصل الينا عشر معشار ما أنفقناه على العساكر التي جهزناها الى مصر وما قصدنا بفتح مصر الا فتح الساحل وقلع الكفار منه ، وانقضت أيام المصريين بموت العاضد وعندهم أربعة عشر على عدة بني أمية إلا أن أيامهم طالت فملكوا مائتين وثمانين سنين وبنو أمية ملكوا نيفا وتسعين سنة وقد ذكرنا سيرة المصريين على وجه التفصيل وتقلب الأحوال .

السنة الثامنة والستون وخمسمائة

وفيها بعث صلاح الدين الى نور الدين هدية فيها فيل وحمار

عتابي ، فبعث بها نور الدين الى بغداد ، وخرج الناس للقائها ، وعجبوا من خلقة الحمار ، وكان بمحلة العتابين رجل نحوي قاصر في كل شيء ، قد تعلق بطرف من النحو ، وكان يدعي دعاوى عظيمة ، فخرج مع الناس يتفرج وراه بعض الظراف ، فقال : يا قوم ليس بعجب ان يحمل الفتى حمار عتابي ، عندنا عتابي حمار ، فضحك الناس .

وفيها سار نور الدين الى الموصل وصلى في الجامع الذي بناه وسط البلد ، وتصدق بمال عظيم ، ولما علم صلاح الدين أن نور الدين قد توجه الى الموصل خرج بعساكر مصر فحصر الكرك والشوبك ، ونهب أعمالها ، وكان جماعة من العرب نازلين بأرض الكرك ينقلون الأخبار الى الفرنج واذا اغاروا على البلاد دلوهم على المسلمين ، فنهبهم صلاح الدين ، وقتل البعض ، وأجلى من بقي منهم عن أرض الكرك ، وكتب إلى نور الدين كتابا يخبره بما جرى من العربان وأن لا يبقى منهم أحد وأن يدرك ديارهم فانهم آفة على المسلمين ، ودليل الكفار على الاسلام ، فلذا أبدتهم بحيث أن العدو اذا نهض لا يجد بين يديه دليلا ، ولا يستطيع حيلة ، ولا يهتدي إليه سبيلا ، وهو كتاب طويل .

ثم عاد صلاح الدين الى مصر ، قيل هي أول غزاة ، وذكر القاضي أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم الموصلي ، ويعرف بابن شداد قاضي حلب رحمه الله في سيرة صلاح الدين الكرك والشوبك لأنهما في طريق النصارى المصرية ، وكانوا يغيرون على القوافل منها ، فقصده تسهيل الطريق لتتصل البلاد بعضها ببعض ، فحصرهم في هذه السنة ، فلم يظفر منهم بطائل وتأخر فتحهما الى ما بعد الفتوح .

وعاد نور الدين من الموصل ، وقطع الفرات وقصد بلاد الروم ففتح نور الدين بهسنا ومرعش وقلعا من أعمال قليج أرسلان ، وبينما نور الدين يفتح هذه القلاع اذ جاءه خبر من حمص

بأن الفرنج قد نزلوا عليها ، فرجع الى الشام ومعه ابن الدانشمند قد وعده بخلاص بلاده ، فلما أخذ نور الدين بهسنا ومـرعش والمرزبان خاف منه قليج أرسلان ، فأجابه الى ما أراد ، ورد بلاد الدانشمند ، وشرط عليه نور الدين تجديد اسلامه ، لانه كان يتهم بالزندقة ، وأنه متى طلب منه النجدة بعساكره ينجده ، وأن يزوج ابنته بابن أخيه سيف الدين غازي صاحب الموصل ففعل ، وبعث نور الدين فخر الدين عبد المسيح مع ابن الدانشمند الى ملطية وسيواس ومعه عسكر في خدمته فأقام عنده حتى توفي نور الدين ورجعت البلاد الى قليج أرسلان .

وفيهما قدم القطب النيسابوري (١٠) من حلب الى دمشق بعثه نور الدين مدرسا بالمدرسة الأمينية ، وقيل لم يدرس بالأمينية بل بالزاوية الغربية بجامع دمشق زاوية الفقيه نصر ، وشرع نور الدين لبناء مدرسة للشافعية الى جانب الجاروخية ، فأدركه أجله دون بنائها ، وكان قد وضع نور الدين المحراب وبعض البنيان ، وهياً أمرها على حاله ، فجاء العادل أبو بكر بن أيوب فأزال ذلك البناء وبناهم البناء المحكم ودفن بها (١١) .

وفيهما بعث تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين جيشا الى المغرب مع مملوك له اسمه قراقوش فالتقاه عسكر من عند عبد المؤمن ، فهزمه بعد أن أقام الدعوة العباسية بافريقية ، فعاد الى القاهرة مهزوما .

فصل

وفيهما توفي نجم الدين أيوب بن شاذي بن مروان وكان عاقلا شجاعا حليما رحيمًا جوادا ، عاطفًا على الفقراء والمساكين ، محبا للصالحين قليل الكلام جدا لا يتكلم الا عن ضرورة ، ولما قدم مصر سأله ولده صلاح الدين أن يكون هو السلطان ، فقال : أنت أولى ، فكان يلعب بالأكرة دائما .

قال القاضي ابن شداد : كان شديد الركض بالخيل يلعب بالأكرة ، ومن يراه يلعب بها يقول : ما يموت الا من وقوعه عن الفرس ، وركب يوما من داره ، وخرج من باب النصر يريد الميدان ، فشب به فرسه ، فوقع على رأسه فحمل الى داره ، فمكث ثمانية ايام ، وتوفي ليلة الثلاثاء السابع والعشرين من ذي الحجة ، دفن الى جانب أخيه أسد الدين في بيته بالدار السلطانية ، ثم نقل بعد سنين الى مدينة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان صلاح الدين قد عاد من الكرك فبلغه خبره في الطريق فحزن عليه وتأسف حيث لم يحضره .

فصل

خلف من الذكور ستة : صلاح الدين ، وأبا بكر العادل ، وتوران شاه شمس الدولة ، وشاهنشاه ، وطغتكين سيف الاسلام وبوري تاج الاسلام ، وهو الأصغر ، وشمس الدولة الأكبر ، ومن البنات ست الشام وربيعة خاتون .

السنة التاسعة والستون وخمسمائة

وفيها كتب صلاح الدين الى نور الدين يستأننه في انفاذ جيش الى اليمن ، فأثنى فبعث أخاه توران شاه شمس الدولة ، فسار اليها في رجب ، وكان باليمن رجل يقال له عبد النبي يلقب بالداعي من أصحاب المصريين ، وكان ظالما فأتكا ، فحصره شمس الدولة في قصر زبيد مدة ، ثم طلب الأمان ، فأمنه ، فلما نزل اليه وكل به ، وسار شمس الدولة ففتح صنعاء وحصون اليمن والمدائن ، فيقال انه فتح ثمانين حصنا ومدينة واستولى على أموالها ونخائرها وقتل الخارجي وعبد النبي بن مهدي ، وولى على

زبيد سيف الدولة مبارك بن مذقذ أبا الميمون ، وكان من الفضلاء
جوادا ممدحا ،

وفيهما أكثر نور الدين الصدقات والصلوات وزاد في الأوقاف
وكسا اليتامى وزوج الأراامل وأغنى الفقراء ، وكشف المظالم بحديث
لم يبق في بلاده مظلمة الا وربها ، وبعث محمد بن خالد القيسراني
أمينا على مال القصر ، ومستوفيا لحواصل البلاد ، فأكرمه صلاح
الدين ، وقال : نحن مماليك نور الدين افعل ماأمرك ، الا أن جماعة
من الأكابر قد تصرفوا في أماكن لايمكن انتزاعها منهم ولايرضون
بأن ينقص انتفاعها ، فعلم ابن خالد ان طاعته انما هي مخادعة
ومراوغة ، فسكت ولم يشاققه ، ومات نور الدين في شوال وبطل
ذلك الامر .

وفيهما قبض صلاح الدين على جماعة من أعيان الدولة المصرية
مثل داعي الدعاة وعمارة اليمني وغيرهما ، بلغه انهم يجتمعون
لاثارة الفتن ، واتفقوا على السودان وكتبوا الفرنج ، وأنهم
يريدون قتل صلاح الدين والغز ، ورتبوا مع السودان يبكروا وينادوا
بشعار المصريين ، وكان زين الدين ابن نجية الواعظ قد اطلع على
ذلك ، فخاف من صلاح الدين ، فأنهى اليه الحال ومادبروا فقبض
عليهم ، وقتل داعي الدعاة وصلب عمارة وسنذكره .

فصل

وفيهما توفي عبد النبي بن مهدي
وقفت على تاريخ بمصر فرأيت أن شمس الدولة لما سار الى
اليمن ، وكان أعيانها قد كتبوا الى صلاح الدين يسألونه أن يبعث
اليهم بعض أهله ، فلما وصل شمس الدولة الى مكة صعد صاحبها
الى أبي قبيس فتحصن عليه بقلعة بناها ، وأغلق باب
الكعبة ، وأخذ المفاتيح ، فجاء شمس الدولة فطاف بالبيت وصلى

ركعتين ، وصعد الى باب الكعبة ، وقال : اللهم ان كنت تعلم اني جئت الى هذه البلاد لاصلاح العباد ، وتعهدتها فيسر علي فتح الباب ، وان كنت تعلم اني جئت لغير ذلك فلا تفتحه ، ومد يده فجذب القفل فانفتح ، فدخل شمس الدولة الى البيت وصلى ودعا ، فلما بلغ امير مكة ذلك نزل الى خدمته وحمل المفاتيح واعتذر ، وقال خفت منك ، والآن فأتنا تحت طاعتك ، فقال : اذا أخذت منك مفاتيح مكة فلمن أعطيها ؟ ثم خلع عليه وعلى أصحابه وطيب قلوبهم ، وسار الى اليمن ، فانهزم عبد النبي بين يديه الى زبيد ، وكان أبوه المسمى بالمهدي قد فتح البلاد ، وقتل خاقا كثيرا ، وشق بطون الدوامل وذبح الاطفال على صدورهن ، وكان يرى رأي القرامطة ، ويظهر انه داعية لأهل مصر ويستتر باليمن ، وكان قد مات قبل دخول شمس الدولة اليمن بسنين ، وملك بعده ولده عبد النبي ، ففعل باليمن ما فعله أبوه وسبى نساءهم واستعبدتهم ، وكان أبوه لما مات بنى عليه قبة عظيمة وصرف حيطانها بالذهب الأحمر والجواهر ظاهرا وباطنا بحيث لم يعمل في الدنيا مثلاً ، وجعل فيها قنايل الذهب وستور الحرير ، ومنع أهل البلد من زبيد الى حضرموت أن يحجوا الى الكعبة ، وأمرهم بالحج الى قبر أبيه ، وكانوا يحملون اليها الاموال في كل سنة مالا يحد ولا يحصى ، ويطوفون حولها مثل مايطوفون بالكعبة ، ومن لم يحمل مالا قتله ، وكانوا يقصدونها من الشجر ، فاجتمع فيها أموال عظيمة ، وأقام عبد النبي على الظلم والفسق والفجور وذبح الاطفال وسفك الدماء وسبى النساء الى أن دخل شمس الدولة اليمن ، وجاء الى زبيد فيقال أنه حصر عبد النبي فيها وابنه وقيدته وقتله ، وقد ذكرناه ، ويقال إنه انهزم بين يديه ، وجاء الى قبة أبيه فهدهما وأخذ ما فيها من المال والجواهر والفضة ، وكان على ستمائة جمل ، ونبش القبر وأحرق عظام أبيه ونراها في الريح ، ومضى الى صنعاء ، فحلف شمس الدولة لا ينتهي عنه حتى يقتله ويحرقه كما فعل بأبيه ، وسار خلفه فرجع الى زبيد ، وعاد شمس الدولة اليها فظفر به فأخذ ما كان معه ، وقتله .

فصل

وفيهما توفي أبو القاسم نور الدين محمود بن زنكي بن
أقسنقر ، الملك العادل .

أعلم أن سيرة نور الدين أولى ما صرفت العناية إليها ، واعتمد في
اقتناء الفضائل عليها ، تحت الطالب على نيل المطالب ، وتعديل
بهمة الراغب على تحصيل الرغائب ، وقد ذكر العلماء
سيرته ، و سطر الفضلاء ترجمته ، وقد جمعت في كتابي هذا ما تفرق
في توارixهم من محاسن أخباره ، وأتيت على معظم مآثره
وأثاره .

فصل

في صفته وطرف من أخباره

ذكر الحافظ ابن عساكر أنه ولد في سنة إحدى عشرة
وخمسمائة ، وكان معتدل القامة ، أسمر اللون ، واسع الجبهة
حسن الصورة بلحيته شعرات خفيفة في حذكه .

قال : ونشأ على الخير والصلاح ، وقراءة
القرآن ، والعبادة ، وكان قليل المحافظة للجند ، وكان أبوه زنكي
يقدمه على أولاده ويرى فيه مخايل النجابة ، قال : وفتح نيفا
وخمسين حصنا ، منها قل باشر ، وأعزاز ومرعش وبهسنا وتل
خالد وحارم والمرزبان ورعبان وكسيون والرها ، وكسر برنيس
أنطاكية وقتله ، وقتل معه ثلاثة آلاف ، وأخذ منه ثلاثة آلاف دينار
وخمسمائة زربية ، وخمسمائة حصان ، وخمسمائة
أسير ، واتسع ملكه ، ففتح : الموصل والجزيرة ، وبيار

بكر ، والشام والعواصم ، ودمشق وبلبك وبسانياس ومصر
واليمن ، وخطب له في الدنيا ، وأظهر السنة بحلب وأزال الأذان
بحي على خير العمل ، وبنى بها المدارس وأوقف الأوقاف ، وبنى
سور دمشق والمساجد والمدارس ، وأسقط ما كان يؤخذ من دار بطيخ
وسوق الخيل والغنم والكيالة وجميع المكوس ، وعاقب على شرب
الخمير ، وكان في الحرب ثابت القدم حسن الرمي يتقدم
أصحابه ، ويتعرض للشهامة ، ويسأل الله أن يحشره من بطون
السباع وحواصل الطير ، ووقف أوقافا على المرضى
والمجانين ، وبنى المكاتب لليتامى ، وبنى المدارس
بدمشق ، ووقف على سكان الحرمين ، وأقطع أمراء العرب القطائع
لثلا يتعرضوا للحجاج ، وأمر بأكمل سور المدينة ، وأجرى إليها
العين التي تأخذ من أحد من عند قبر حمزة ، وهى الربط والجسور
والخانات والقناطر ، وجدد كثيرا من قنى السبيل ، ووقف كتباً
كثيرة في مدارس ، وكان حسن الخط ، كثير المطالعة للكتب
الدينية ، متبعاً للآثار النبوية ، مواظباً على الصلوات الخمس في
الجماعات ، عاكفاً على تلاوة القرآن ، حريصاً على فعل
الخيرات ، عفيف البطن والفرج ، مقتصد في الانفاق ، متحريراً في
المطعم والمشرب والملبس ، لم يسمع منه كلمة فحش قط في رضاه
ولا في غضبه ، هذا إلى ما جمع الله فيه من العقل المتين والرأي
الصائب الرزين ، والاقتداء بسنة السلف الصالحين ، حتى روى
حديث المصطفى وأسمعه ، وكان قد استجيز له ممن سمعه وجمعه
حرصاً على الخير في نشر السنة والحديث ، ورجاء به أن يكون ممن
حفظ على الأمة أربعين حديثاً ، كما جاء في
الحديث ، فمن رآه شاهد من جلال السلطنة وهيبه المملكة
ما يبهره ، فإذا فاضه رأى من نصافته وتواضعه ما يحيره ، يحب
الصالحين ويؤافيهم ويזורهم في أماكنهم لحسن ظنه فيهم ، هذا قول
ابن عساكر، وذكر كلاماً طويلاً .

وقال الجزري في تاريخ الموصل (١٢) : قد طالعت تواريخ
الملوك المتقدمة من قبل الإسلام إلى يومنا هذا ، فلم أرها بعد

الخلفاء الراشدين ، وعمر بن عبد العزيز ملكا أحسن سيرة من نور الدين ، ولا أكثر تحريا للعدل والانصاف منه ، ثم ذكر من عدله وزهده وفضله وجهاده واجتهاده من أحسن ما ذكره الحافظ ابن عساكر .

قال : وكان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف فيما يخصه الا من ملك اشتراه من سهمه من غنائم الكفار ، وكان يحضر الفقهاء ويستفتيهم فيما يحل له من تناول الأموال ، فأفدوه من جهات عيذوها ، فلم يتعد الى غيرها ، ولم يلبس حريرا قط ولا ذهباً ولا فضة ، ومنع من بيع الخمر في بلاده ، وكان يحد شاربه عند الناس ، وكان كثير الصيام وله أوراد في الليل والنهار ، وكان يقدم أشغال المسلمين عليها ، ثم يتم أوراده ، وكان قد تزوج الخاتون بنت معين الدين ، فطلبت منه زيادة نفقة فقال : قد فرضت لها ما يكفيها والله لا أخوض جهنم بسببها ، وهذه الأموال ليست لي وإنما هي للمسلمين ، وأنا خادمهم فلا أخونهم فيها ، ولي بحمص ثلاثة دكاكين اشتريتها من الغنائم قد وهبتها إياها ، وكان يحصل منها قدر يسير .

قال وكان يلعب بالأكرة كثيرا ، فكتب اليه بعض الصالحين يذكر عليه ويقول : تتعب الخيل في غير فائدة فكتب اليه نور الدين بخطه : والله ما أقصد اللعب ، وإنما نحن في ثغر والعدو منا قريب ، فربما وقع الصوت فتكون الخيل قد أدمنت على سرعة الانعطاف بالكر والفر ، وإذا طلبنا العدو أدركناه ، ولو تركناها بحالها لصارت جهاما لا ينتفع بها ، ففني في لعب الأكرة هذه .

قال واهديت اليه عمامة مذهبة من مصر فوهبها لشيخ الصوفية أبي الفتح بن حموية (١٣) فبعث بها الى العجم فبيعت بألف دينار قال : وكان عارفا بمنهج أبي حنيفة ، وليس عنده تعصب على أحد .

قال : وكان يوما يلعب بالأكرة في ميدان دمشق فجاءه رجل فوقف بازائه وأشار إليه ، فقال للحاجب : اسأله ما حاجته فسأله فقال : لى مع نور الدين حكومة ، فرمى الصولجان من يده فجاء الى مجلس القاضي كمال الدين الشهرزوري ، وتقدمه الحاجب يقول للقاضي قد قال : لا تنزعج واسلك معه ما تسلكه من أحاد الناس ، فلما سوى بينه وبين خصمه كأحاد الناس ، فلم يثبت له عليه حق ، وكان يدعي ملكا له في يد نور الدين ، فقال نور الدين للقاضي والعدول : هل ثبت له علي حق ؟ قالوا : لا ، فقال : اشهدوا أنني قد وهبت الملك له ، وقد كنت أعلم أن لاحق لك عندي ، وإنما حضرت معك لئلا يقال عني أنني دعيت الى مجلس الشرع فأبيت .

وبدل يوما الى خزائنه فرأى مالا كثيرا فقال : من أين هذا ؟ قال : بعث به القاضي كمال الدين (١٤) من مال الأوقاف ، فقال : ردوه اليه وقولوا له : ان رقبتي رقيقة لا أقدر على حمله غدا ، رقبتي غليظة تقدر على حمله ، قال ونور الدين أول من بنى دار العدل بدمشق ، وسماها دار الكشف ، وسببه أن الأمراء لما قدموا دمشق اقتتدوا الأملاك ، واستطالوا على الناس وخصوصا أسد الدين شيركوه ، وكثرت الشكاوى الى القاضي ، فلم يقدر على الانتصار من أسد الدين ، فأمر ببناء دار العدل .

وأحضر أسد شيركوه أصحابه وبيوانه ، وقال : ان نور الدين ما بنى هذه الدار الا بسببي وحدي لينتقم مني ، والا فمن هو الذي يمتنع عن كمال الدين ، والله لئن أحضرت لدار العدل بسبب واحد منكم لأصلبته ، فان كان بينكم وبين أحد منازعة فأرضوه بمهما أمكن ، ولو أتى على جميع ما في يدي ، فان خروج أملاكي من يدي أهون من أن يراني نور الدين بعين ظالم ، ويسوي بيني وبين أحاد العوام ، ففعلوا وأرضوا الخصوم ، فجلس نور الدين في دار العدل وقال للقاضي : ما أرى أحدا يشكو من شيركوه ، فأخبره الخبر فمسجد وقال : الحمد لله الذي جعل أصحابنا ينصفون من نفوسهم قبل حضورهم عندنا ، فكان نور الدين يقعد في دار العدل في كل

اسبوع أربعة أيام أو خمسة ، ويحضر عنده العلماء والفقهاء ، ويأمر بإزالة الحاجب والبواب ، ويوصل إليه الشيخ الضعيف والعجوز الكبيرة ، ويسأل الفقهاء عما أشكل عليه .

قال : وكان نور الدين إذا حضر الحرب شد تركاشين وحمل قوسين وساس الحرب بنفسه فقـال له القـطب النيسابوري : لاتخاطر بنفسك فأنت عماد الاسلام والمسلمين فلو أصبت في معركة والعياذ بالله لايبقى من يقوم مقامك وذهبت البلاد ، فقال له : من محمود حتى يقال له هذا ، ومن حفظ البلاد قبلي الا الله تعالى .

قال : وكان اذا مات أحد من جنده أو قتل وله ولد ، فان كان كبيرا أقرالقطاع عليه ، وان كان صغيرا رتب معه من يتولى أمره حتى يكبر فكان الأجناد يقولون : هذه أملاكنا ، ونحن نقاتل عليها لأننا نتوارثها ، قال : ماكان يكل الجند على الأمراء بل يتولاهم بنفسه ويباشر خيولهم وسلاحهم مخافة ان يفضي الأمر الى خفضهم ، ويقول : نحن كل وقت في الذفير فاذا لم تكن أجنادنا كاملي العدة دخل الوهن على الاسلام .

قال : وبنى جامعته بالموصل ، وفوض عمارته الى الشيخ عمر الملاء ، وكان من الصالحين فقل له : إنه لا يصلح لمثل هذا ، فقال : اذا وليت بعض الأجناد ، أو بعض العمال لا يخلو من الظلم ، وبناء الجامع لا يفي بظلم رجل مسلم ، واذا وليت هذا الشيخ غلب على ظني أنه لا يظلم ، فاذا كان الاثم عليه لاعلي .

وكان عمر الملاء من الصالحين ، وانما سمي الملاء لأنه كان يملأ تنانير الأجر ويأخذ الأجرة ، فيتقوت بها ، وكان ماعليه مثل القميص والعمامة مايملك غيره ، ولا يملك من الدنيا شيئا ، وكان عالما بفتون العلوم ، وجميع الملوك والعلماء والاعيان ، يزورونه ويتبركون به ، وصنف كتاب سيرة النبي صلى الله عليه

قلت : رحم الله المجد أشار الى ذلك ، أما في زماننا هذا فقد تشعث وقفه وتغيرت صفاته ، ولم يبق منه الا آثاره وبركاته .

حكى ابن الأثير أيضا أن بعض الأمراء كان يحسد القطب النيسابوري على قربه من نور الدين فقال منه ، فقال يامسكين لو نظرت في عيب نفسك لشغلك عن عيوب الناس ، وإن صح ماقلت فله حسنة ، واحدة يغفر الله له بها كل زلة وهي العلم ، وأنت واصحابك ليست عند الله حسنة ، والله لئن عدت الى ذكره أو ذكر غيره بسوء لأؤدبك ، فكف عنه .

قال : ماكان أحد من الأمراء يتجاسر ان يجلس عنده من هيئته فاذا دخل عليه فقير أو عالم أو رب خرقة قام ومشى اليه وأجلسه إلى جانبه ، ويعطيه الأموال ، فاذا قيل له في ذلك ، يقول : هؤلاء لهم حق في بيت المال ، فاذا قنعوا ببعضه فلهم المنة علينا .

وذكره العماد الكاتب في أول البرق الشامي وأثنى عليه ، وقال : وفي سنة تسع وستين وخمسمائة وهي التي توفي فيها نور الدين أكثر من الصدقات والأوقاف ، وعمارة المساجد المهجورة ، وتعفيه آثار الأثام ، واسقاط كل ماكان فيه الحرام ، فما أبقي سوى الجزية والخراج ومايحصل من قسمة الغلات على قويم المناهج .

قال : وأمرني أن أكتب مناشير لجميع أهل البلاد ، فكتبت أكثر من ألف منشور ، وحسبنا ماتصدق به في تلك الشهور ، فكان ثلاثين ألف دينار ، وكان له برسم نفقته الخاصة في كل شهر من الجزية مايبلغ ألفي قرطاس يصرفها في كسوته وملبوسه ومأكوله ، حتى أجرة خياطه وجامكية طباخه ، ويستفضل منها مايتصدق به في آخر الشهر ، وقيل ان قيمة القراطيس مائة وخمسون درهما ، وقيل كل ستين قرطاسا أو سبعين بدينار .

قال : وما كان يصل اليه من الهدايا وغيرها يبعثه الى القاضي يبيعه ويعمر به المساجد المهجورة ، ولا يتناول منه شيئاً ، وأمر بإحصاء مساجد دمشق فأحصيت ، فكانت مائة مسجد ، فأوقف الأوقاف على جميعها ، وذكر العماد جملة من فضائلة ولمعة من فواضله ، ومن المساجد جامع قلعة دمشق ، ومسجد عطية بباب الجابية ، ومسجد الرياحين ، ومسجد سوق الصاغة ، ومسجد دار البطيخ ، ومسجد العباسي ، ومسجد بجوار بيعنة اليهود ، ومسجد الكشك وأشياء أخرى .

قلت : وذكره جدي في المنتظم بكلمات يسيرة فقال : ولي الشام سنين ، وجاهد الكفار ، وكان أصلح من كثير من الولاة ، وكان يتدين بطاعة الخليفة ، والطرق آمنة في أيامه ، والمحامد كثيرة، وذكر بناء المارستان بدمشق ، وجامع الموصل ، وكان يميل إلى التواضع ، ويحب العلماء وأهل الدين ، وقد كاتبني مرارا ، وذكر أسرته لملك الفرنج وأنه أخذ منه ثلاثمائة ألف دينار ، وشرط عليه أن لا يغير على بلاد الاسلام سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام ، وأخذ منه رهائن على ذلك ، هذا ما ذكره جدي في المنتظم في ترجمة نور الدين .

قلت : وقد صنف كتابا سماه الفخر الزوري فيه أحاديث العدل والجهاد ومواعظ وغير ذلك ، وصنف نور الدين أيضا كتابا في الجهاد وهو بدمشق .

قلت : وقد نقل ذكره علماء السير مما وقع لهم من سيرته وما يستدل به على صالح سيرته ، وقد وقع لي مآثر لم يذكرها ومفاخر لم يسطروها ، ولم تكن لغيره من ملوك الجاهلية ولا الاسلام ، ولا رأوها ولو في احتلام ، وكان مشغولا بالصيد ويصيد الغزلان ، فمن ذلك أنه كان في عزمه ان يفتتح بيت المقدس ، فعمر مذبرا وقبله بجامع حلب على اسم القدس فتوفي قبل الفتوح ، فلما ملك صلاح الدين البيت المقدس حمل المذبر اليه وأبقى القبلة بجامع حلب .

ومنها أنه كان له عجائز بدمشق وحلب فكان يخطط الكوافر (١٥) ويعمل السكاكير للأبواب ويبيعها العجائز ولا يدري أحد ، فكان يوما يصوم ويفطر على اثنانها ، وحكى شرف الدين يعقوب ولد المعتمد رحمه الله ان في دارهم سكرة من عمل نور الدين بخوزستان ، وهي باقية الى سنة خمسين وستمئة يتبركون بها . ومنها ما حكاها الشيخ أبو عمر شيخ المقادسة رحمه الله قال : كان نور الدين يزور والدي الشيخ أحمد في المدرسة الصغيرة التي على نهر يزيد المجاورة للدير ، وذور الدين الذي بنى هذه المدرسة ، والمصنع والفرن ، قال : فجاء يوما لزيارة جدي ، وكان في سقف المسجد خشبة مكسورة ، فقال له بعض الجماعة : يا ذور الدين لو كشفت السقف وجددته ، فنظر الى الخشبة وسكت ، فلما كان من الغد جاء معماره ومعه خشبة صحيحة فزرقها موضع المكسورة ومضى ، فعجب الجماعة ، فلما عاد الى الزيارة قال بعض الحاضرين : يا ذور الدين ماتعذبنا به في كشف سقف فقال : لا والله ، وانما الشيخ رجل صالح ، وانما أزوره لانتفع به ، وما أردت أن أزخرف له المسجد وأنقض ما هو صحيح ، وهذه الخشبة يحصل بها المقصود ، فدعوني مع حسن ظني فيه ، فلعل الله ينفعني به .

ومنها ما حكاها لي رجل صالح من أهل حران فقيه الشيخ حياة في سنة خمسين وستمئة قال : لما قتل أتابك زنكي على قلعة جعبر ، وملك نور الدين قلعة حلب تصدق وأزال المكوس ، ورد المظالم ، وأنا حديث عهد بعرس ، وقد ركبني بين ، فقالت لي زوجتي : قد سمعت أوصاف نور الدين واحسانه للناس ، فلو قصدته وأنهيت اليه حالك لاقى بينك ، قال : فخرجت من حران ، وليس معي سوى درهمين ، فتركتهما عندهما و تزودت بدرهم ، وأتيت الفرات وقت القاذلة فعبرت جسر منبج ، وأبعدت عن أعين الناس ، وخلعت ثيابي ونزلت وتوضأت للصلاة وصليت ركعتين وإذا على جانبي شخص ملفوف في عباءة ، فقال لي : يا فقير من أين أنت ؟ قلت : من حران ، قال والى

اين ؟ قلت : إلى حلب ، قال فما تصنع فيها ؟ فقلت : أنا فقير مديون ، وقد بلغني احسان نور الدين الى الخلق ، فقصدته لعله يقضي ديني ، فقال : فأين أنت من نور الدين ، ومن يوصلك اليه وكم عليك دين ؟ فقلت : خمسون ديناراً ، فأخرج يده من العباءة ، وبحث في الرمـل وأخرج منه قرطاساً والقاه الي ، وقال : خذ فاقض به دينك وارجع الى أهـلك ، قال فأخذته فعدته واذا به خمسون ديناراً والتفت فلم أراه ، فبهت ، وبـت في مكاني أتفكر هل أرجع الى حران أم أمضي الى حلب ، وترجع عندي البضي الى حلب ، وقلت في نفسي : فهذه أوفي بها ديني ، فمن أين أتقوت ، ثم قمت وقصدت طريق حلب فبت بباب بزاعة ونمت في الليل فأصبحت تحت قلعة حلب وقت الصباح ، فصليت وقعدت تحت القلعة ، واذا قد فتح بابها ونزل نور الدين في أهبة عظيمة والامراء بين يديه حتى جاء الى الميدان ، فلما أراد أن يدخل نظر الى فرمقني طويلاً ، فأشار إلى خادم بين يديه ، فجاء الخادم إلي وقال : قم فأخذني وصعدني القلعة ، قال : فندمت على مجيئي إلى حلب وقلت : ياليتني قبلت من ذلك الرجل الصالح ولعل نور الدين تـوهم اني اسماعيلي .

قال : فلما كان بعد ساعة عاد نور الدين الى القلعة ، وجلس في الديوان ، ومد سماط عظيم ولم يمد يده إليه واذا قد فتح باب عن يمينه صغير وخرج منه خادم ، وعلى يده طبق خـوص مغـطى بمنديل ، فوضعه بين يديه وفيه عصارة عليها رغيف ، فتأملتها من بعيد وهي ثرية فتناول منها شيئاً وأكل الناس وأكلت معهم ، وصرف الناس ، وبقيت قاعداً خائفاً فأومأ إلي فقممت إلى بين يديه وأنا خائف أرعد فقال : من أين أنت ؟ قلت : من حران ، قال : وما الذي أقدمك ؟ قلت : علي دين وبلغني احسانك فقصدتك لتقضي ديني ، قال : وكم دينك ؟ قلت : خمسون ديناراً قال : أما قد أعطاك أمس صاحب العباءة على الفرات خمسين ديناراً ، هـلا رجعت الى أهـلك وأنت عليك خرقة الفقر ، واذا حصل القوت للفقير فما يطلب شيئاً آخر ، ما يضيع تعبك ورفع سـجـادته

وكانت زرقاء واذا بقرطاس مثل القرطاس الذي أعطاني صاحب العباءة ، قال : فبكيت بكاء كثيرا وقلت : لاأخذ شيئا حتى تخبرني بصاحب العباءة ، قال : هو أمر لايلزمك ، فقلت : يامولانا أنا غريب وضعيف ولي حرمة فبالله عليك ، فقال : احلف أنك لا تتحدث بهذا في حال حياتي ، فحلفت له فكشف القباء واذا بتلك العباءة على جسده ، وقال : أنا ذاك الفقير ، فقلت : ما الذي أعطاك هذه المنزلة ، بأي شيء وصلت الى هذا فقال بقوله تعالى (ان الذين سبقت لهم منا الحسنى) (١٦) ولا بد من السبب ، لما التقينا بالافرنج على حارم ، وبصرنا الله عليهم ، وعدت الى حلب اللقاني في الطريق شاب حسن الوجه طيب الرائحة فسلم علي ، وقال : يامحمود أنت من الأبدال وقد أعطاك الله الدنيا فاشتر بها الآخرة ، وسله مهما شئت ثم علمني كلمات ، وقال اذا طلبت أمرا فانكرها ، فقلت له : بالله من أنت ؟ فقال : أنا أخوك الخضر ، ثم غاب عني ، فاذا عزمتم على أمر وأردت أنذهب الى مكة أو الى المدينة أو الى أي بلد شئت ، لبست العباءة ، وتكلمت بتلك الكلمات ، وأغمض عيني فما افتحها الا وأنا في تلك البقعة .

قلت وحكى لي نجم الدين الحسن بن سلام ، أحد عدول دمشق وأعيانها ، وكان صديقنا وصاحبنا رحمه الله ، قال : ملك الاشرف بن العادل دمشق وبنى مسجداً أبي الدرداء في القلعة ، وأفرده عن الدور ، وبخلت عليه يوماً وهو فيه فقال لي : يانجم الدين كيف ترى هذا المسجد قد عمرته وأفردته عن الدور ، وماصلي فيه أحد منذ زمان أبي الدرداء ، الى الآن ؟ فقلت له : الله الله يامولانا ، مازال نور الدين منذ ملك دمشق يصلي فيه الصلوات الخمس ، فقال : من أين لك هذا ؟ فقلت : حدثني والدي ، وكان من أكابر عدول دمشق ، وكان أبوه يلقب بالسعيد ، أنه لما نزلت الافرنج على دمياط بعد وفاة أسد الدين وضايقوها أشرفت على الأخذ ، فأقام نور الدين عشرين يوماً صائماً لايفطر الا على الماء ، فضعف وكاد يتلف ، وكان مهيباً لايتجاسر أحد يخاطبه في ذلك ، وكان له إمام يقال له يحيى ضرير

يصلي به في هذا المسجد ، وكان يقرأ القرآن ، وله عنده حرمة ، فاجتمع اليه خواص نور الدين وخدمه وقالوا : خفنا على السلطان ونحن في هيبة لانقابله ، وانت تدل عليه ، ونحن نسألك ان يتناول ما يحفظ به من قوته ، فقال : نعم اذا صليت به غداة الفجر سألته ، قال : فلما كان في تلك الليلة رأى الشيخ يحيى في المنام رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له : يا يحيى بشر نور الدين برحيل الفرنج عن دمياط قال : فقلت يا رسول الله ربما لا يصدقني وأريد له أماره ، قال : قل له بعلامة يوم حارم ، قال : وانتبه يحيى وهو ذاهب العقل ، فلما صلى نور الدين خلفه الفجر وسلم ، شرع يدعو ، ففاته أن يتحدث معه ، فقال له نور الدين : يا يحيى ، قال : لبيك يامولانا ، قال : تحدثني أو أحدثك ؟ قال : فارتعد يحيى وخرس ، فقال له : أنا أحدثك رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الليلة ، وقال لك كذا وكذا ؟ فقال : نعم يامولانا ، مامعنى قوله عليه السلام بعلامة يوم حارم ؟ فقال له نور الدين : لما التقينا خفت على الاسلام لأنى رأيت من كثرة الافرنج ما هالني ، فأنفردت عن العسكر فنزلت ومرغت وجهي على التراب ، وقلت : ياسيدي من محمود في الفتنتين ، الدين بينك ، والجند جندك ، وهذا اليوم هو فافعل مايليق بكرمك ، قال فنصرنا الله عليهم .

قلت : وحديثي شهاب الدين النابلسي عم جمال الدين البانياسي ، وكان على ديوان جامع دمشق ، أول ما قدمت الشام اجتمعت به في درب العشاريين في قاعة الوزير صفي الدين بن شكر (١٧) وزير العادل ، وكان هناك جماعة ، فاشتغل الوزير بالحديث معهم ، وكان الشهاب الى جانبي ، فتذاكرنا نور الدين ، فقال : كان أبي يخدم نور الدين في أسفاره ومقامه يتصيد في ارض قطنا ويعفور وأنا معه ، فبينما أنا ذات يوم وقد ركب من الخيم لينذهب الى الصيد ، واذا برجل أعجمي قد أقبل من ناحية دمشق ، وكان معه خيل ومماليك ، وكان تاجرا ، فلما وصل الى نور الدين ، وكان صديقه ، فقال : أين أرمغان ؟ فقال : حاضر

ومضى نور الدين ، فلما عاد استدعاه فأحضر قماشا وعدة ممالك ، وفيهم مملوك مستحسن جدا فقبل المملوك ورد الباقي ، وكان له خادم أبيض اسمه سهيل قد رباه فقال له : ياسهيل خذ هذا المملوك اليك وادفع الى التاجر خمسمائة دينار وخلعة وبغلة ، قال أبو الشهاب : فحدثني سهيل قال : لما قال لي كذا قلت في نفسي : إنا لله وأنا إليه راجعون ، هذا ما اشتري مملوكا قط يساوي خمسين دينارا يشتري مملوكا بخمسمائة دينار ، قال : ففعلت ما أمرني به فتركني أيما ، وقال : ياسهيل أحضر المملوك كل يوم مع المملوك يقيــــــــــــــــف في الخدمة ، قال : فأحضرتة ، فلما كان بعد أيام قال لي : أحضره وقت العشاء الأخيرة الى الخيمة ونم أنت واياه على باب البرج ، قال : فقلت في نفسي : هذا الشيخ في زمن شبابه ما ارتكب كبيرة ، ولما ارتفع سنه يقع فيه والله لا أقتلنه قبل أن يقع في معصية ، قال : فعمدت الى كاذبة لي فاصلحتها وقلت والله لا أقتلنه قبل أن يصل اليه ، وجئت بالمملوك الى الخيمة وأنا قلق ، فسهرت عليه الليل ونور الدين في أعلى البرج ، فلما كان وقت الصبح غلبتني عياني فذمت ، ثم انقلبت فوقعت يدي على خد الغلام ، واذا به مثل الجمرة قد أخذته الحمى ، فأخذته ومضيت به الى خيمتي فلما أصبحت أحضرت الطبيب ، قال : هذا مرض سماوي ، فلما كان وقت الظهر مات فغسلته وكفنته .

فلما كان اليوم الثاني دعاني نور الدين فدخلت عليه فقال : اقعد فقصت ، فقال ياسهيل : « ان بعض الظنن اثم » قال : فاستحييت ، فقال : قد عرفت حالي وأنت ربيتني ، هل عثرت لي على عثرة ؟ قلت : حاشى الله ، قال : فلم حملت الكاذبة وحدثتك نفسك بالسوء ما أنا معصوم ، ولما رأيت الغلام وقع في قلبي منه مثل النار ، فقلت انه من تسويل الشيطان فقلت لك : اشتريه لعلي يذهب عني ما أنا فيه ، فلم يذهب فقالت لي نفسي : أريد أن أراه كل يوم فأمرتك باحضاره ، فقالت : ما أقنع الا بأن تحضره فلما كان في تلك الليلة ما تركتني أنام ، وبقيت أنا واياها

في حرب الى وقت السحر ، فهممت أن أفتح باب البرج أصعده الى عندي ، فجاءتني اليقظة ، وكشفت رأسي وقلت : الهى محمود عبدك المجاهد في سبيلك ، الذاب عن دينك ودين نبيك صلى الله عليه وسلم ، عمر المدارس والربط ، وأوقف الأوقاف وفعل ما فعل أيختم له بمثل هذا ؟ قال : فسمعت هاتفاً يقول : يا محمود قد كفيناك أمره لا بأس عليك فعلمت أنه قد حدث ، وأما أنت ياسهيل جزاك الله عن الصحبة خيراً ، والله القتل أهون علي من الوقوع في المعصية ، ثم قدم سهيلاً وأحسن اليه .

وحكى لي الكمال ابن البانياسي ، ابن أخي الشهاب قال : حكى من يتولى أوقاف نور الدين أنه أجر بعض بساتينه لرجل من دمشق على ستمائة درهم ، فأصاب البساتين جائحة ، فجاء ذلك الرجل يتضرر ، فاسقطوا عنه ثلاثمائة درهم ، فلما كان بعد أيام جاء الرجل ومعه ستمائة درهم ، وهـويبيـكي ، فقلنا له : مالك ؟ قال : رأيت في المنام وقد خرج علي نور الدين من القبر وبيده جـوكان ، وقال : أنت تـكسر وقفـي وأراد أن يضربني ، فقال : أنا تائب ورمى بالدراهم ، فقلنا له : خذها فقال : لا والله أخاف أن يضربني .

وحكى شيخنا تاج الدين الكندي ، رحمه الله ، قال : ماتبسم نور الدين إلا نادراً ، وحكى لي جماعة من المحدثين أنهم قرأوا عليه حديث التبسم ، وكان يرويه فقالوا له : تبسم ، فقال : لا أتبسم من غير عجب .

وحدثني رجل من أهل حران قال : خرج يوماً نور الدين من حران قاصداً إلى الرها ، فاجتاز على نهر وفقير نائم على جنب النهر فوقف وسلم عليه ، فرفع أصبعاً واحدة ، فحرك الفقير أصبعين ، ومضى نور الدين باكياً ، فقيل له : ما هذا ؟ قال : أشار الفقير إلي ، وقال في أي شيء أنت ، هذا كله لماذا ؟ فقلت : من أجل رغيف واحد ، فأشار إلي بأصبعيه فأنا أكل كل يوم رغيفين وأنا

مذلك ، وذكر الاستاذ الجزري في تاريخه قال : كان نور الدين قد جمع العساكر من الموصل والجزيرة وديار بكر ليتحركها بالشام في مقابلة الفرنج ويتوجه بنفسه الى مصر ، فإنه رأى من صلاح الدين فتورا في غزو الفرنج ، وكان المانع لصلاح الدين خوفا من نور الدين ، فكان يقصر في غزوهم ، وما كان يرى نور الدين الا خلاص القدس منهم واستئصالهم من السواحل ، فمضى الى دمشق وأقام يتجهز فأدركه أجله وهو على هذه النية .

ذكر وفاته

كان ختن ولده اسماعيل يوم الفطر ، وهنىء بالعيد والظهور ، ومدحه الشعراء ، وخرج نور الدين يوم الاحد الى المصلى بالأمراء والأجناد ، والقدر يقول : هذا آخر الأعياد ، فمرض وبدأ به الخوانيق ، وما كان يرى الطب ، قال الرحيبي الطبيب : فاستدعانا ، فدخلنا عليه ونحن جماعة من الأطباء وهو في قلعة دمشق في بيت صغير ، كان يتعبد فيه ، وقد استحكم منه المرض واستحكمت الخوانيق على حلقه ، فما كان يسمع له صوت فشرعنا في مداواته ، فلم ينفع فيه الدواء مع حضور أجله ، وكانوا قد أشاروا عليه بالفصد في أول المرض ، فامتنع وكان مهيبا فما روجع ، وكانت وفاته يوم الأربعاء حادي عشر شوال ، ودفن بالقلعة ، ثم نقل الى مدرسته التي انشأها مجاورة الخواصين ، ويقال إنها كانت دار عمر بن عبد العزيز ، وقيل دار سليمان بن عبد الملك ، وعاش ثمانيا وخمسين سنة ، وكانت أيامه ثمانيا وعشرين سنة وستة أشهر ، وقال عرقلة في مدرسة نور الدين :

ومدرسة سيفني كل شيء
وتبقى في نمي علم ونسك

- ٦٩٩٣ -

تضوع ذكرها شرقا وغربا
بذور الدين محمود بن زذكي
يقول وقوله حق وصدق
بغير كناية وبغير شك
دمشق في المدائن بيت ملكي
وهذا في المدارس بيت هلكي

ورثاه رحمه الله تعالى جماعة من الشعراء فقال العماد الكاتب
فيه :

عجبت من الموت كيف اهتدى
الى ملك في سجايا ملك
وكيف ذوى الفلك المستند -
- ر في الأرض والأرض وسط الفلك

وقال ايضا :

ياملك ايامه لم تزل
لفضله فاضلة فاخرة
ملكك دنياك وخلفتها
وصرت تملك بها الآخرة

وحكى أبو اليسر شاعر بن عبد الله قال : تعدى بعض أمراء
صلاح الدين على رجل وأخذ ماله ، فجاء إلى صلاح الدين فلم يأخذ
له بيده فجاء إلى قبر نور الدين فشق ثيابه وحثا التراب على
رأسه ، وجعل يستغيث : يا نور الدين بن أتاك ، ويبكي ، وبلغ
صلاح الدين فاستدعاه وأعطاه ماله ، فزاد بكاءه فقال له صلاح
الدين : ما يبكيك وقد انصفناك ؟ فقال : انما أبكي على ملك
انتصفت ببركاته بعد موته ، كيف يأكله التراب ، ويفقده
المسلمون .

ذكر ألقاب نور الدين

السلطان الملك العادل ، العالم ، العامل ، الزاهد ، العابد الورع
المجاهد المرابط ، نور الدين ، وعدته ، وركن الدين وسيفه ، قسيم
الدولة وعمادها ، اختيار الخلافة ومعهدا ، رضي الامامة
وأمرها ، فخر الملة ومجيرها وشمس المعالي وملكها ، سيد ملوك
الشرق والغرب وسلاطانها ، محيي العدل في العالمين ، منصف
المظلومين من الظالمين ، ناصر دولة أمير المؤمنين .

وذكر الفاظا آخر ، ثم إن نور الدين أسقط الجميع قبل موته
وقال : اللهم وأصلح عبدك الفقير محمود بن زنكي ، وروى أنه كتب
رقعة بخطه الى وزيره خالد بن القيسراني يأمره أن يكتب له صورة
ما يدعى له به على المنابر ، وكان مقصوده صيانة الخطيب عن
الكذب ، ولئلا يقول مـاليس فيه ، فـكتب ابـن
القيسراني (١٨) كلاما ، ودعا له فيه ، ثم قال : وأرى أن يقال
على المنبر ، اللهم وأصلح عبدك الفقير الى رحمتك ، الخاضع
لهيبتك ، المعتصم بقوتك ، المجاهد في سبيلك ، المرابط لأعداء دينك
أبا القاسم محمود بن زنكي بن أقسـنـنـر ، ناصر أمير
المؤمنين ، قال : هذا ما يدخله كذب ولا تزيد ، فكتب نور الدين بخطه
على رأسه ، مقصودي أن لا يكذب على المنبر ، أنا بخلاف كلما يقال
أفرح بما لأعمل إنه عمل عظيم ، الذي كتبت به جيد ، اكتب به
نسحا الى البلاد ، فكتب ، وكان يقول لأصحابه حرام على كل من
صحبني ، ولا يدفع الى قصة مظلوم لا يستطيع الوصول الي .

وذكر ابن الأثير في تاريخه وقال : كان مجلس نور الدين مثل
مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يسمع لأحد فيه كلمة الا
مفيدة ، فلما ملك صلاح الدين دمشق حضر الحافظ ابن عساكر
مجلسه ، فسمع لفظا كثيرا وكل واحد يتحدث مع الآخر ، وليس

للمجلس هيبه ، فبكى الحافظ وقال : يرحم الله نور الدين ، فلقد حضرت مجلسه مرارا فما سمعت أحدا ينطق الا جوابا ، فما هذا اللفظ ؟ فبلغ صلاح الدين فقال : اذا حضر الحافظ عندنا فلايتكلم أحد بكلمة .

ذكر ماجرى بعد وفاته

كان ولده الصالح لم يبلغ الحلم فأجلسوه مكانه ، وحضر القاضي كمال الدين الشهرزوري وشمس الدين بن المقدم (١٩) وجمال الدين ، وريحان وهو أكبر الخدم والعدل أبو صالح ابن العجمي (٢٠) أمين الأعمال ، والشيخ اسماعيل خازن بيت المال ، وتحالفوا أن تكون ايديهم واحدة ، وأن شمس الدين المقدم اليه تقدمه العساكر وتربية الملك الصالح ، ووصل كتاب صلاح الدين من انشاء الفاضل الى دمشق وفيه : أدام أيام مولانا الملك الصالح ورفع قدره ، وأعظم أجر المملوك في مولانا السلطان الملك العادل وأجره ، اصدر خدمته هذه يوم الجمعة رابع عشر ذي القعدة ، وفيه اقيمت الخطبة بالاسم الكريم ، وصرح بذكره في الموسم العظيم ، والجمع الذي لاغوى فيه ولاتأثيم ، وأشبه يوم المملوك فيه أمسه في الخدمة ووفى بما لاه من حقوق النعمة ، وجمع كلمة الاسلام لعلمه أن الجماعة رحمة ، والله تعالى يخلد ملك مولانا السلطان الملك الصالح ، ويصلح به وعلى يديه ، ويديم النعماء عليه ، وذكر فصولا تتعلق بالتهنئة والتعزية .

ولما بلغ الفرنج وفاة نور الدين قصدوا بانياس طمعاً في البلاد ، فراسلهم شمس الدين بن المقدم ، وخوفهم بأس صلاح الدين ، فلم يلتفتوا فصالحهم على مال ودفعه اليهم في ذلك الوقت ، وبلغ صلاح الدين فشق عليه ، وكتب الى شرف الدين ابن أبي عصرون يقول : لما بلغني وفاة المرحوم ، خرجت من مصر لقصد الجهاد وتطهير البلاد من أهل الكفر والعناد فبلغني حديث الهدية

السنة السبعون وخمسمائة

فصل

ملك صلاح الدين

لما انقضت نوبة الاسطول فصار اليها بعساكره ، وكان ابن المقدم قد كاتبه والقاضي كمال الدين بن الشهرزوري ، وابن الجاولي والاعيان ، وكان بالقلعة ربحان الخادم فعزم على قتاله فجهز اليه عسكر دمشق ، وركب صلاح الدين من الجسور والتقاء أهل دمشق بأسرهم وأحدقوا به ، فذثر عليهم الدراهم والدنانير ، وجاء صلاح الدين فدخل دمشق ، ولم يغلق في وجهه باب ولم يمنعه مانع .

وقال القاضي الفاضل ، فملكنا دمشق عناية لا عنوة ، وكان عسكر دمشق لما رأوا فعل العوام بصلاح الدين انكفؤوا راجعين الى القلعة ، ونزل صلاح الدين بدار العقيقي وكانت دار أبيه ، ونزل أخوه شمس الدين بدار عمه أسد الدين شيركوه ، وتمنعت عليه القلعة أياما ، ثم سلمها إليه ربحان الخادم ، وأحسن صلاح الدين الى ابن المقدم والقاضي ابن الشهرزوري ، ومشى الى دار كمال الدين (٢٢) فانزعج وخرج الى لقائه ، وبخل صلاح الدين فجلس وبأسطه ، وقال : يا كمال الدين لما كنت في الشحنة قد كانت بيننا هنات ومشاحنات - وكان كمال الدين يكرهه فكان كل واحد منهما ينقض على الآخر احكامه - فقال له صلاح الدين مامشيت اليك الا لأزيل ما في خاطرك من الوهم ، وأعرفك ان ما في قلبسي لك ماتكره ، فطب نفسا وقر عينا ، فالأمر أمرك والبلد بلدك .

قلت : ومشى صلاح الدين الى دار كمال الدين من أحسن ماسطر في السير ، وهو دليل على تواضعه وعفوه بعد ما قدر ، فيا طوبى لمن جاء بعده ان فكر واعتبر ، وعرف قدر انعام الله عليه فحمد

وشكر ، وأكثر الشعراء في أخذ صلاح الدين دمشق ، ثم ان صلاح الدين اسكن أخاه طغتكين قلعة دمشق ، وطغتكين هو سيف الاسلام ، ثم كتب الى الملك الصالح بن نور الدين كتابا يتواضع له فيه ويخاطبه بمولانا وابن مولانا ، ويقول : انما جئت من مصر خدمة لك لاؤدني مايجب من حقوق المرحوم فلا تسمع ممن حوذك فتفسد احوالك وتختل امورك ، وماقصدي الا جمع كلمة الاسلام على الفرنج ، فعرض كتابه على ارباب دولته وفيهم خالد بن محمد ابن القيسراني وغلتمان أبيه وابن العجمي ، فأشاروا اليه بأن يكاتبه بالغلظة ، فكتب اليه مذكرا عليه ، وينسبه الى كفر النعمة ، وجحد احسان والده وأوعده وهدده ، وبعث بالكتاب مع ينال بن حسان صاحب منبج ، فأغلظ لصلاح الدين في الجواب وقال : السيوف التي ملكتك مصر هي التي تردك ، وأشار الى سيفه فغضب صلاح الدين وقال : والله لولا أنك رسول لضربت عنقك ، والله ماجئت الى هاهنا شرها ولاطمعا في الدنيا ، وفي مصر كفاية ، وماجئت الا لاستنقذ هذا الصبي من يد مثلك وأمثالك ، فأنتم سبب زوال دولته ، ثم طرده بغير جواب ، فعاد الى حلب واستتاب صلاح الدين بدمشق أخاه سيف الاسلام ظهير الدين طغتكين ، وسار الى حمص فأخذها ، وفتح حمصا ، وسار الى حلب فاستغاثوا عليه بالاسماعيلية وأعطوهم ضياعا ومالا فأرسلوا اليه جماعة من فتاكهم ورأهم ناصر الدين خمارتكين صاحب ابي قبيس فعرفهم ، لأنه كان منازعا لهم ، وأذكر عليهم مجيئهم ، وسبق الى خيمة صلاح الدين ليخبره فأدركوه على باب الخيمة ، ثم أرادوا الهجوم على صلاح الدين ، وكان أمير جذوده سيف الدين طغريل ، فجذب السيف وقتل واحدا منهم ، واجتمع الغلمان على الباقيين فقتلوه ، ورحل صلاح الدين عن حلب في أول رجب وجاء الى حمص ، ثم نازل بعلبك فأخذها في رمضان من الخادم يمن الريحاني ، ووصل عسكر الموصل الى حلب ، وانضاف اليهم عسكر حلب ، ونزلوا تل السلطان فساق عليهم وبغتهم وكان مقدمهم عز الدين مسعود أخو سيف الدين غازي ، فكسروهم كسرة عظيمة وانهزموا الى حلب ، وغنم اذقالهم وأسر رجالهم ، فجاء فحصر

حلب وهي المرة الثانية من حصار حلب والمرة الأولى من كسرة الموصل ، ورجع صلاح الدين فنازل حصن بارين وأخذه من ابن الزعفراني ، وكان من أكابر أمراء نور الدين ولقبه فخر الدين واسمه مسعود ، وأعطى مدينة حماة لخاله وقيل لابن خاله وصهره ابن شهاب الدين محمود ، وأعطى حمص لناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه ، وجاءته رسل حلب ، واتفق الحال أن يكون بدمشق نائباً عن الملك الصالح ابن نور الدين فأجابهم ، وشفع في بني الداية وقال : لا بد منهم فلهم علينا حقـــــوق كثيرة ، فقالوا : نعم ، وفارقوه على ذلك وجاءته الخلع والتشريفات من الخليفة ولأهله ، ولقب بالملك الناصر .

فصل

وفيها وصلت البزوية من العراق بين عشرة آلاف فارس وراجل فنزلوا بزاعة والباب فقتلوا ثلاثة عشر ألفاً من أمراء الاسماعيلية ، وسبوا نساءهم وذرايرهم ، وعادوا الى العراق ومعهم الغنائم والرؤوس على رماحهم وعلى القصب عشرون ألف أنثى ، وبعث صلاح الدين العساكر فأغاروا على البلاد الاسماعيلية وأحرقوا سمرين ومصرة مصرين ومصيات ، وضياع جبل السماق وقتلوا معظم أهله .

وفيها استخدم صلاح الدين العماد الكاتب وسببه أنه التقى القاضي الفاضل على حمص ومدحه بأبيات من الشعر ، فدخل الفاضل على صلاح الدين وقال له : تأتيك تراجم الأعاجم وما يحلها مثل العماد فقال : مالي عنك مندوحة أنت كاتبني ووزيرني وقد رأيت على وجهك البركة فإذا سلمت غيرك تحدث الناس ، فقال القاضي : هذا يصل التراجم وربما أغيب أنا ولا أقدر على ملازمتك ، فإذا غبت قام مقامي وقد عرفت فضل العماد وخدمته للدولة الذورية ، فاستكتبه .

وفيها استوزر سيف الدين غازي صاحب الموصل جلال الدين أبا الحسن علي بن جلال الدين الوزير الأصبهاني فظهر منه من الكفاية والنهضة وحسن التدبير والكتابة ما لم يكن في أحد، وكان عمره خمسا وعشرين سنة

السنة الحادية والسبعون وخمسمائة

وأما أخبار الشام فإن الحلبيين نقضوا الصلح الذي كان بينهم وبين صلاح الدين ، وسببه أن سيف الدين غازي لامهم على ذلك ، وأرسل رسولا ، ووقع له كتابين أحدهما إلى صلاح الدين ليأخذ منه عهدا للمواصلة ويكشف ما عنده ، والكتاب الثاني إلى الحلبيين يلومهم على الصلح ويخبرهم أنه مقبل بعساكر الشرق ، وكان صلاح الدين بدمشق فبدأ به الرسول وقد ربط الكتابين في منديله لتغفله ، فلما دخل على صلاح الدين غلط فناوله كتاب الحلبيين لسعاية صلاح الدين فتأمله وعلم أن الرسول غلط فلم يقل له كلمة وفهم الرسول ، فقام وخرج من عنده ولم يمكنه الاستدراك ، وكتب صلاح الدين إلى مصر لأخيه الملك العادل أبي بكر بتجهيز العساكر المصرية إلى الشام سرعة ، وجمع سيف الدين العساكر من الجزيرة ، وكان أخوه عماد الدين زنكي بسنجار عاصيا له مائلا إلى صلاح الدين ، فصالحه وجاء سيف الدين فقطع الفرات ونزل عليها وبعث إلى أمراء حلب وكمشكين الخادم وتقرر بينهم أمر ، وسار إلى حلب والتقاء الملك الصالح بن نور الدين فاعتنقه سيف الدين وبكى ، ونزل بظاهر حلب بعين المباركة ، وصعد القلعة جريئة ، وكان أمراء حلب يركبون كل يوم إلى خدمته ، ثم رحل إلى تل السلطان ومعه عساكر الشرق وبيار بكر والحلبين فكانوا عشرين ألفا مابين فارس وراجل ، وبلغ صلاح الدين ، وهو بدمشق ولم يكن عنده سوى ستة آلاف ومارأى التخلف عن لقائهم وكان في انتظار العسكر المصري فسار ونزل

حماة وترك اثقاله بها ، وسار الى جباب التركمان ، وجاءه رسول
الحلبيين يخوفونه بأسهم ويأمرونه بالرجوع الى مصر .

قال رسولهم : فوافيته وهو في خيمة صغيرة على بساط
لطيف ، وتحت سجادة ، وبين يديه مصحف ، وهو مستقبل القبلة
الى جانبه زربته وسيفه وقوسه وتراكشه معلق في عمود
الخيمة ، فلما رأيته وقع في خاطري أنه المنصور ، لأنني فارقت
سيف الدين والأمراء وهم على طنافس الحرير والخمور تروق
والخواطي تعمل ، وليس في خيامهم خيمة الا وفيها أنواع
المحرمات ، فأبيت إليه الرسالة ، وجاء وقت الظهر فضج العسكر
بصوت الأذان ، وفي كل خيمة امام فقال لي : الحق بأصحابك وقل
لهم يستعدوا للقائي فاني عند طلوع الشمس نازل عليهم (ويحكم
الله بيننا وهو خير الحاكمين) (٢٣) .

قال : ففارقتة وأنا على بصيرة من نصره وخذلانهم ، وسقت
عامة الليل فوافيتهم وقت الفجر وهم سكارى ، فطلبت سيف الدين
ف قيل هو نائم قال : والله ما انتظر الشمس الا واعلام صلاح الدين
قد اقبلت والكوسات تخفق وأصحابنا نيام فقاموا مسرعين وكان
يوم الخميس عاشر شوال وكان على ميمنة صلاح الدين ابن خاله
شهاب الدين محمود ، وعلى ميسرته ابن زين الدين صاحب إربل
وصاحب بصرى وهو في القلب ، وكان في ميمنة المواصلة مظفر الدين
ابن زين الدين صاحب إربل ، وعلى ميسرته الحلبيون وسيف الدين
في القلب ، وكان صلاح الدين قد وقف على تل عال فحمل ابن زين
الدين فطحن ميسرة صلاح الدين ، وحمل الحلبيون على ميمنته
فتعصروها ، فنزل اليهم واتفق وصول العساكر المصرية في تلك
الساعة مع تقي الدين عمر ، وعز الدين فرخ شاه وناصر الدين محمد
ابن أسد الدين فهال ذلك الحلبيين من دق الكوسات ، وكثرة
الأطلاب ، والعدد الوافرة والخيال العربية ، فأنخذلوا وولوا
منهزمين ، وساق صلاح الدين خلفهم وأسر أمراءهم ، ونجا سيف
الدين بنفسه ، وعاد صلاح الدين الى خيامهم فوجد سراق سيف

الدين مفروشا بالرياحين والمغاني جلوس في انتظاره ، والخمور تروق ومطابخه يقدورها ، وفيه اقفاص الطيور فيها أنواع من القماري والبلايل والهزارات ، فأرسل صلاح الدين بما كان في السراق والمغنين والخمور والطيور اليه وقال للرسول قل له : اشتغالك بها أليق من مباشرة الحروب ، ولا تعد الى مثلها ، ثم فرق صلاح الدين الخزائن والخيول والخيام على اصحابه وأعطى عز الدين فرخشاه سراق سيف الدين وكان عز الدين قد أبلى في ذلك اليوم بلاء حسنا ، ثم سار صلاح الدين فنزل على منبج وبها قطب الدين ينال بن حسان فقاتله ، واتفق وقوع شلثة في السور وطلب الأمان على نفسه فأمنه ، فخرج سليبا ، وخرج صلاح الدين من الحصن ثلاثمائة الف دينار وعرض عليه المقام عنده فامتنع وكان بينه وبين صلاح الدين شنان قديم ، فأذف ان يكون تبعا له ، فسار الى الموصل فأقطعه سيف الدين الرقة ، وسار السلطان لفتح حصن بزاعة ، ونازل أعزاز فأقام عليه ثمانية وعشرين يوما ، وفتحه في ذي الحجة .

فصل

وفيها وثبتت الاسماعيلية على صلاح الدين وهو على أعزاز ، جاءه ثلاثة في زي الأجناد ، فضربه واحد بسكين في رأسه وكان في عمته زرد مدفون فلم يجرحه وخدشه السكين في خده وقتل داود بن مسكلان وقتل الثلاثة ، فرحل صلاح الدين فنزل على حلب ، فبعث الملك الصالح اخته الخاتون بنت نور الدين الى صلاح الدين في الليل ، فدخلت عليه فقام قائما وقبل الأرض وبكى على نور الدين ، فسألت أن يرد عليهم أعزاز فقال : سمعا وطاعة وأعطاهما اليها ، وقدم إليها من الجواهر والتحف والمال شيئا كثيرا ، واتفق مع الملك الصالح أن له حماة وما فتحه إلى مصر ، وأن يطلق الصالح أولاد الداية .

وسار الى بلاد الاسماعيلية فنصب المناجيق على مصبات ، ونهب العساكر بلادهم ، وقتلوا وسبوا وكان مقدم الاسماعيلية سنان بن محمد ، وأرسل الى شهاب الدين محمود صاحب حماة خال صلاح الدين يقول له : نحن جيرانك وقد فعل ابن اختك ما فعل ، والمصلحة رحيله عنا ، فاشفع اليه ، فما أمكنه مخالفتهم ، فأخبر صلاح الدين وقال اخاف على نفسي فرحل الى دمشق .

فصل

وفيه قدم شمس الدولة أخو صلاح الدين من اليمن الى دمشق في سلخ ذي الحجة ، وفيها فوض سيف الدين غازي أمر الموصل الى مجاهد الدين قيمان الخادم ، وكان قبل ذلك نائب سيف الدين .

السنة الثانية والسبعون وخمس مائة

..... وفيها تزوج صلاح الدين بالخاتون عصمة الدين ، بنت الأمير معين الدين أنر زوجة نور الدين محمود ، وكانت بقلعة دمشق ، زوجها منه شرف الدين بن أبي عسرون .

وفيه كانت نوبة الكنز مقدم السودان بالصعيد ، جمع كل أسود بالصعيد ، وسار إلى القاهرة في مائة ألف ليعيد الدولة المصرية ، فخرج اليه الملك العادل سيف الدين ، وأبو الهيجاء الهكاري وعز الدين موسك ، وقتل الكنز بمن معه ، ويقال أنهم قتلوا منهم ثمانين ألفا ، وعادوا الى القاهرة فقال العماد الكاتب : قتل الكنز وما انتطح فيها عنزان .

وفيه سار صلاح الدين الى مصر واستناب أخاه شمس الدولة

على الشام ، وجاءت الفرنج الى داريا فأحرقوها ، ونهبوا وعادوا .

وفيها أمر صلاح الدين قراقوش بعمارة سور على القاهرة ومصر وضع فيه أموالا كثيرة ، ولم ينتفع به أحد .

وفيها أبطل صلاح الدين الخفارة التي كانت تؤخذ من الحاج بجبة مما يحمل في البحر ، وعوض صاحب مكة في كل سنة ثمانية آلاف اردب قمح تحمل إليه في البحر ، ويحمل مثلها فتفرق في أهل المارستان في القصر ، ووقف عليهما الأوقاف وعلى أهل الحرمين ..

السنة الثالثة والسبعون وخمسمائة

فصل

... وفيها كانت وقعة الرملة في جمادى الآخرة خرج صلاح الدين من مصر بالعساكر على عسقلان ثم رحل يريد تل الصافية فازدحمت العساكر على الجسر يريدون العبور ، فلم يشعروا الا وقد خالطهم الفرنج فبعث تقي الدين عمر وقاتل ، ثم قتل من المسلمين خلق كثير وانهزمت عساكر الاسلام وأسر كثير ، منهم الفقيه عيسى وغيره ، ولولا أن الليل حجز بينهم لم يبق من المسلمين أحد ، وسار صلاح الدين في الليل الى مصر من غير دليل ولا ماء ، ولا زاد ، وكانت هذه الوقعة من أعظم الوقائع أبليت في الاسلام فأوهنت صلاح الدين ، لأنه كاد أن يتلف جوعا وعطشا ، ونهبت خزائنه وقتل رجاله وأسر أبطاله ، وكان مقدم الفرنج أرناط وكان من أكبر ملوك الفرنج ، وكان نور الدين قد أسره في وقعة حارم وحبس في قلعة حلب ، فأطلقه الملك الصالح فجاء ومعه ملوك الفرنج ، وما أذل عسكر المسلمين إلا أنهم تفرقوا في الغارات ، وكانو زيادة على عشرين ألفا ، ووقعت الكسرة ومعظمهم

لم يعلم فلما رجعوا من الغارات لم يجدوا صلاح الدين ولم يكن لهم حصن يأوون اليه فدخلوا الرمل ، وتبعهم الفرنج قتلا وأسرا ، ومن سلم منهم مات جوعا وعطشا وكان يوما عظيما على الاسلام لم يجبره الا وقعة حطين .

ورجع أرناط بجمعه الى حماة فأناخ عليها ، وبها شهاب الدين محمود خال صلاح الدين ، وهو يومئذ مريض ، وعنده سيف الدين المشطوب فقاتلهم العسكر وأهل حماة قتالا عظيما ، ولولا المشطوب لأكوها وقطعوا أشجارها وأحرقوا ضياعها ، ورحلوا إلى حارم وبها كمشتكين الخادم عاصيا على الملك الصالح اسماعيل ، فنصبوا عليها المناجيق وقاتلوها أياما فلجأت الضرورة الى مصالحة الملك الصالح فبعث اليه النجدة فرحلوا الى أنطاكية وقتل كمشتكين وأبو صالح . بن العجمي ، وبلغ صلاح الدين نزول الفرنج على حماة ، فجمع العساكر بمصر ، وسار الى الشام فقدم دمشق وبها أخوه شمس الدولة مشغول بذااته ولهوه ، وكان قد بعث الى الفرنج بمال مصانعة ، فعز على صلاح الدين ولامه وقبح فعله ، وقال انت مشغول باللعب وتضييع أموال المسلمين ، وكان وصول صلاح الدين الى دمشق في شوال ، واستتاب بمصر أخاه العادل ابا بكر ...

فصل

وفيهما توفي كمشتكين الخادم خادما نور الدين محمود وكان من أكابر خدمه ، ولأه قلعة الموصل نيابة عنه ، فلما مات نور الدين هرب الى حلب ، وخدم شمس الدين بن الداية ، ثم جاء الى دمشق وأخذ الملك الصالح ، وجاء به الى حلب وقد ذكرناه وأقطعه الملك الصالح حارم وأقام بها ، وعصى عليه ، فلما حصره الفرنج صالحه وقد ذكرناه .

واختلف في قتله على قولين : أحدهما ان كمشتكين حسد ابا صالح بن العجمي وزير الملك الصالح ، فوضع عليه الاسماعيلية فقتلوه ، واستقل كمشتكين بالامر فقيل للملك الصالح ما قتل وزيرك الا الخادم ليستبد بالامر ، فحبسه وطالبه بتسليم قلعة حارم ، فكتب الى نوابه ان يسلموها قال العماد الكاتب فلما طال أمره قصر عمره .

والثاني أنهم لما امتنعوا من تسليم قلعة حارم خرج اليها الملك الصالح من حلب ومعه الخادم فقال: مرهم بتسليمها فلم يقبلوا ، فعلقه منكوسا وبخن تحت أنفه ، فمات ، وعاد الملك الصالح الى حارم فأخذها وسلمها بعد ذلك الى مملوك أبيه جريديك ...

فصل

وفيهما توفي شهاب الدين محمود خال صلاح الدين ، كانت له حماة فنزلت عليه الفرنج وهو مريض فتوفي ، وأعطاه صلاح الدين لناصر الدين منكورس بن خمارتيكن صاحب صهيون ، وقيل انما اعطى صلاح الدين حماة لتقي الدين عمر ، وقيل في السنة الآتية ، وكان ناصر الدين نائبا عن تقي الدين

السنة الرابعة والسبعون وخمسمائة

فصل

وفيهما عصى شمس الدين ابن المقدم ببعلبك وكان صلاح الدين قد أعطاه اياها ، وقدم صلاح الدين دمشق فأرسل الى ابن المقدم

يطلبه ، فاعتذر خوفاً من شمس الدولة لأنه طلب منه بعلمك فامتنع ، فخرج صلاح الدين من دمشق ونزل على بعلمك وأقام تسعة أشهر يحاصرها فنقد ما عنده ، فأرسل إلى السلطان يطلب العوض فأعطاه بارين وكفر طاب وخرج شمس الدين بن المقدم إليها وسلم صلاح الدين بعلمك إلى أخيه شمس الدولة. وفيها مات الهذفري ملك الفرنج ، بلغ صلاح الدين أنه يريد أن يغير على دمشق فبعث عز الدين فرخشااه ابن أخيه بعسكر دمشق إلى عين الجبر وقال: تقيم هناك إلى مرج عيون ، فإن جاؤوك ، فأرسل كتب الطيور إلى ولا تواقفهم حتى أتيتك ، فسار فنزل مرج عيون فلم يشعروا إلا بطلائع الهذفري قد خالطوه ، فاضطر إلى القتال فاقتتلوا أشد قتال ، فجرح الهذفري وأثقلته جراحه فأوثقوه وأخذوه ، وانهزموا وغنمهم فرخ شااه ومات هذفري بعد أيام ، وجاء صلاح الدين فنزل قصر يعقوب وبعث السرايا والغارات إلى بلد الفرنج ...

السنة الخامسة والسبعون وخمسمائة

وفيها كان السلطان نازلاً على تل القاضي ببانياس ، فأجمع رأيهم مع بقية المسلمين على أن يقتحموا على الكفار بيارهم ، ويستوعبوا ما بقي في أيديهم من الغلات في يوم واحد ، ثم رجعوا فرحلوا صوب البقاع ، فنهضوا ليلة الأحد ثاني عشر محرم ، فلما أصبح جاءه الخبر بأن الفرنج قد خرجوا فالتقاهم ، وأنزل الله نصره على المسلمين ، فأسر فرسانهم وشجعانهم ، وانهزمت رجالتهم في أول اللقاء

فأسر مقدم الداوية والاسبتار ، وصاحب طبرية وابن بيزران صاحب الرملة ، وابن القومصية ، وقسطلان يافا ، وصاحب جينين ، وصاحب جبيل ، وكانت وقعة عظيمة ، فخلص بعضهم ومات بعضهم في الأسر وخلص الفقيه عيسى ، وكان قد أخذ من الرملة وقد ذكرناه ، وحسب من القطيعة بستين ألف دينار ، وقيل

إن وقعة مرج عيون كانت في المحرم ، وهذه وقعة مخاضة بيت
الاحزان .

وفيها سار السلطان في ربيع الأول الى حصن يعقوب ويسمى
قصر يعقوب وبيت الاحزان عند المخاضة ، فنصب عليه
المناجيق ، وخلع على النقاين ، وباشق القتال بنفسه فعلقوا
النقوب ، وأحرقوا الأخشاب فسقطت الأبراج ، فصاحوا
الآمان ، وعاجلهم المسلمون ففتحوه عنوة ، وكان عرض سور
عشرة أذرع وطوله أربعون ذراعاً فقتل المسلمون منهم ألفاً
وخمسمائة ، وخلصوا من أسارى المسلمين مائة أسير ، وكان بيت
الاحزان الذي يزعمون أن يعقوب كان يذفر فيه ويبيكي على يوسف
كنيسة ، فجعله السلطان مسجداً وذكر الشعراء هذا الحصن فقال
أحمد بن زفانة الدمشقي ويلقب بالذشو :

فقال :

هلاك الفرنج أتى عاجلاً
وقد آن تكسير صلبانها
ولو لم يكن قد دنا حتفها
لما عمرت بيت أحزانها

وكتب الفاضل الى بغداد كتاب كسر الفرنج ، فأمر الخليفة بضرب
البوقات والدياب على أبواب الأمراء ما عدا طبول الخليفة ، ولم
يشهد تقي الدين هذه الغزاة ، وسببه أن قليج أرسلان نزل على
حصن رعبان في عشرين ألفاً وادعى أنه له ، فسار تقي الدين إليه في
ألف فارس وهزمه ، فكان تقي الدين يدل بهذه الواقعة حيث هزم
الوفا بألف ، انتهى .

وفيها ختن السلطان ولده الملك العزيز عثمان فاتخذ له يوسف بن
الحسين ، ويعرف بابن المجاور معلماً وتسلم فرخشا بهلبك ومات
المستضيء ...

السنة السادسة والسبعون وخمسمائة فصل

وفيها توفي سيف الدين صاحب الموصل

وفيها سار صلاح الدين الى بلاد الروم ، وسببه ان نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن سكمان بن أرتق صاحب حصن كيفا قد انتمى اليه ، وكان عز الدولة قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان قد زوجه ابنته فأساء العشرة معها ، فكتبت الى ابيها تشكوه فبعث اليه ، إما ان تحسن عشرتها ، وإما ان تفارقها ، فلم يلتفت اليه ، وكاتب صلاح الدين قسار في نجدته فالتقاه ابن أرتق على نهر يقال له الأزرق بين بهسنا وحصن منصور ، ثم عبرا منه الى النهر الأسود ، وجاءت رسل قليج وتقرر الصلح وعاد السلطان الى بلاد ابن ليون فأخربها ونهبها ، فصالحه على مال واسارى ، فرجع الى دمشق

وفيها توفي الملك المعظم شمس الدولة أخو صلاح الدين لأبيه ، واسمه توران شاه ، ولقبه فخر الدين وكان أكبر من صلاح الدين ، وقد ذكرنا اخباره وبخوله الى اليمن وأخذه لبعلبك ، وكان جوادا سمحا حسن الاخلاق ، الا انه كان في نفسه من الملك ويرى انه احق به من صلاح الدين ، وكانت تبدو منه كلمات في حال سكره ، وبلغ صلاح الدين فأبعده الى اليمن فسفك الدماء وقتل الأراامل وأخذ الأموال ، وأعطاه بعلبك ، فبلغه عنه اشياء فخاف منه فأبعده عنه الى الاسكندرية ، فأقام بها منعكفا على لهو ولعبه ، ولم يحضر حروب أخيه صلاح الدين ، فتوفي بالاسكندرية في هذه السنة ، فأرسلت أخته ست الشام وكانت شقيقته فحملته في تابوت الى دمشق فدفنته في تربتها التي انشأتها على الشرف الشمالي عند العوينة ، وبنت عليه قبة وبهذه التربة ولدها حسام

الدين بن لاجين ، وزوجها ناصر الدين محمد بن اسد الدين شيركوه ، ودفنت هي بعد الكل ، (٢٤) وسنذكرها إن شاء الله تعالى .

فصل

وفيهما توفي سيف الدين غازي بن مودود بن غازي بن آقسنقر صاحب الموصل ، ابن أخي نور الدين ، وكان من أحسن الناس صورة عاقلا وقورا غيورا للدماء مع شح كان فيه ، قال المجد ابن الأثير : كان قد علق عليه سل ، وطالت علته ، وأجدبت البلاد قبل موته ، وخرج الناس يستسقون وخرج سيف الدين معهم ، فاستغاث اليه الناس وقالوا: كيف يستجاب لنا والخمور والخواطىء والمظالم بيننا؟ فقال: قد ابطلتها ، ورجع البلد وفيهم رجل صالح يقال له ابو الفرج الدقاق ، فأهرق الخمور لا غير ، ونهب العوام دكاكين الخمارين ، فاستدعي الدقاق الى القلعة وقيل له: أنت جرأت العوام على السلطان ، وضرب على رأسه ، فأنكشف رأسه واطلق ، ونزل مكشوف الرأس ، فقيل له غط رأسك ، فقال : لا والله لا أغطيه حتى ينتقم ممن ظلمني فمات الزردار والذي ضربه بعد قليل ومرض سيف الدين وتوفي .

ذكر حكايته مع الشيخ ابي احمد بن الحداد الزاهد :

كان أبو احمد قد انقطع في قرية من بلاد الموصل يقال لها الفضيلية ، ومنها أصله ، وهي على فراسخ من الموصل

حدثني ابو بكر القديمي واسماعيل الشعار ، وكانا قد صحبا الشيخ أبا احمد قال : كان سيف الدين يزور الشيخ أبا أحمد ، فقال

له : يا سيف الدين أي فائنة في زيارتك وأنت تشرب الخمر وتبيع المحرمات وتمكس المسلمين ، فإن كنت تدع هذا والا فلا تجيء الى عندي ، فقال: ياسيدي أنا تأثب الى الله من جميع ما قلت ، وترك الجميع وعاد الى ماكان عليه .

وكان للشيخ طاقة على باب الزاوية ينظر من يجيء من دمشق ، قال: فبينما نحن عنده ذات يوم وإذا بسيف الدين قد أقبل وصعد إلى الدرج ، فقال لي أبو أحمد: أغلق الباب في وجهه ، وقل له ما لك عندي شغل ، وادفعه الى أسفل الدرج ، قال أبو بكر القديمي : فخرجت فاستحييت منه ، فقال لي سيف الدين: يا شيخ افعل بي ما أمرك الشيخ وأدار ظهره إلي فدفعت في ظهره حتى أنزلته إلى أسفل الدرج ، فقعد يبكي وقد صاح الجند بأسرهم ، فأشار اليهم ان اسكتوا، ثم قال لي: يا شيخ أبا بكر اصعد إلى الشيخ وقل له : مالي توبة؟ قال: فصعدت اليه واخبرته فقال: قل له : يجوز قد أننت له ، قال : فخرجت وقلت: له بسم الله ، فدخل على الشيخ فبكى وقبل يده وقاب الى الله تعالى ، وعاد الى الموصل ، فأقام مدة يسيرة ، ومات يوم الأحد ثالث صفر ، ولم يبلغ ثلاثين سنة ، وكانت ولايته عشر سنين وشهورا .

وأراد ان يعهد الى ولده سنجر شاه ، فامتنع أخوه عز الدين مسعود من ذلك ، وقال له مجاهد الدين قيمان وأكابر الأمراء: قد علمت استيلاء صلاح الدين على البلاد وقربه منا وسنجر شاه صبي لا رأي له وأخوك عز الدين كبير السن صاحب رأي وشجاعة ، اعهد اليه واجعله وصيا على أولادك ففعل ، وكانت الرعية قد خافت من عز الدين مسعود لاقدامه على سفك الدماء وحدته ، فلما ولي تغيرت أخلاقه فصار رفيقا بالرعية قريبا منهم محسنا اليهم .

ولما مات سيف الدين كان صلاح الدين في حدود الروم ، فأرسل اليه مجاهد الدين قيمان الفقيه أبا شجاع بن الدهان البغدادي ، يطلب منه ان يكون مع عز الدين كما كان مع أخيه سيف

الدين ، ويبقى عليه الجزيرة وما بيده من حران والرها والركة والخابور ونصيبين وقاطع الفرات ، فقال صلاح الدين : أما ما خلف عليه من بلاد الموصل فهو باق على حاله ، وأما ما ذكره من بلاد الجزيرة فإنما كانت بيده بشفاعة الخليفة على شرط أن يقوي ثغور المسلمين بالمال والعساكر ، أما الآن فالخليفة قد فوض أمرها الي ، لا أفعل فيها إلا ما أراه من المصلحة

السنة السابعة والسبعون وخمسمائة

وفيه عاد صلاح الدين من دمشق الى القاهرة واستتاب بدمشق ابن أخيه عز الدين فرخشاه بعساكر الشام فبلغ قريبا من تيماء ، وبلغ البرنس فرجع الى الكرك ، وأمر صلاح الدين أخاه سيف الدين بالسير الى اليمن فأقام يتجهز .

وفيه توجه صلاح الدين الى الاسكندرية فخيم بظاهرها عند عمود السواري ، وقال : نقم تجاه الشيخ ابي طاهر السلفي ونسمع من ابن عوف موطا مالك بزاويته على الطرشوشي ، وتم له ولأولاده السماع ، وكان واليها فخر الدين قراجا

وكان في هذه السنة بالمرزة خطيب يقال له العالم ، زور على صلاح الدين خطأ بزيانة في جامكته ، ووقف عليه فرخشاه فعلم باطن الحال ، فهم بالايقاع به فهرب الى القاهرة واستجار بالسلطان فأجاره ، وقال : ما أخيب قصدك ، وكتب له توقيعا بما طلب وحج بالناس من العراق طاشكين .

فصل

وفيه توفي الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود بن زنكي ، صاحب حلب ، وكان مرضه بالقولنج بدأ به في رجب .

ونذكر ابن الاثير في تاريخه: أنه لما اشتد به المرض ، وضعف وصف له الأطباء قليل خمر ، لا أفعل حتى أسأل الفقهاء ، فسأل الشافعية فأفتوه بالجواز ، وسأل العللاء الكاششاني فسأفته أيضا ، ولم يفعل وقال: إن كان الله قرب أجلي أيؤخره شرب الخمر؟ قال: لا ، قال: فوالله لا لاقيت الله وقد لقيت ما حرم علي ، فمات ولم يشربه .

قلت: أخطأ الكاششاني فإن الخمر لا يباح عند أبي حنيفة وجميع اصحابنا للتداوي ، وكذا عند مالك وأحمد ، وعند الشافعي يجوز للضرورة ، ، عندنا ان الله لم يجعل شفاء الامة فيما حرم عليها .

ولما اشتد مرضه أحضر الامراء واستحلفهم لعز الدين صاحب الموصل ، فقبل له: لو أوصيت الى ابن عمك عماد الدين صاحب سنجار ، وهو تربية أبيك ، وزوج اختك ، وشجاع كريم ، وعز الدين له من الفرات الى همدان؟ فقال: إن هذا لم يخف عني ، ولكن قد علمتم استيلاء صلاح الدين على الشام ومصر واليمن ، وعماد الدين لا يثبت له ، وعز الدين له العساكر والأموال فهو اقدر على حفظ حلب ، ومتى ذهب حلب ذهب الجميع ، فاستحسنوا قوله .

وتوفي في الخامس والعشرين من رجب ، ولم يبلغ عشرين سنة وكانت أيامه ثمانين سنين وشهرا ، وأقام الحلبيون النوح عليه والمأتم ، وفرشوا الرماد في الأسواق وأقاموا مدة على ذلك ، وجرى عليهم ما لم يجر على أحد ، لأنه كان صالحا كما سمي ، عادلا منصفا حسن السيرة على اسلوب أبيه ، وتزوج عز الدين ام الملك الصالح في شوال ، وأقام في قلعة حلب الى سادس عشر شوال ، وعلم أنه لا يمكنه حفظ الشام مع الموصل للازمته الشام ، وألح عليه الامراء في طلب الزيادات ودلوا عليه لأنهم اختاروه ، وضاق عليه ، فسار الى الرقة ، واتفق مع أخيه عماد الدين صاحب سنجار ، وتقايضا ، ورحل عماد الدين الى حلب في سادس عشر المحرم سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ، وكتب صلاح

الدين الى الخليفة يستأننه في الاستيلاء على حلب ، ويقول بأن جماعة الاتابكية يسعون في تفريق الكلمة ، ويستنهضون الفرنج لقتال المسلمين ، ويستعينون علينا بالاسماعيلية ، وأقام بمصر منتظرا الجواب

السنة الثامنة والسبعون وخمسمائة

وفي المحرم سار سيف الدين طغتكين الى اليمن ، فنزل بزبيد وبها حطان (٢٥) ، فأمره أن يسير الى الشام ، فجمع أمواله ونخائره واسبابه فنزل بظاهر زبيد ، فقبض عليه سيف الاسلام وأخذ جميع ما كان معه ، وكان قيمته ألف ألف دينار ، ثم قتله بعد ذلك ، وكان عثمان الزنجبيلي بعين ، فلما بلغه ذلك سار الى الشام بعد ان اثر في اليمن أثارا كثيرة ، وأوقف أوقافا ، وله مدرسة بمكة ، ورباط بالمدينة وغيرها .

وفي خامس المحرم خرج صلاح الدين من مصر ، فنزل البركة قاصدا الى الشام ، وخرج أرباب الدولة لوداعه ، وأنشده الشعراء ابياتا في الوداع فسمع قائلا يقول في ظاهر الخيم:

تمتع من شميم عرار نجد
فما بعد العشية من عرار

وطلب القائل فلم يوجد ، فوجم السلطان ، وتطير الحاضرون فكان كما قال اشتغل السلطان بالشرق والفرنج ، ولم يعد بعدها الى مصر ، وسار السلطان على ايلة والحسي ووادي موسى ، وكان فرخشاه بدمشق فبلغه ان الفرنج قد اجتمعوا عند الكرك لقصد السلطان ، فخرج من دمشق فنزل طبرية وعكا ودبورية فقصدوه فالتقاهم وكسروهم ، وقتل منهم الوفا واسر ، وساق عشرين الفا من الأنعام وغيرها ، وفتح حصنا مشرفا على الاسود على شقيف

يقال له حصن جلدك ، وقتل من فيه ، وأسكنه المسلمين وجعلهم
طلائع ، وساق الى بصرى ، فالتقى السلطان عندها فسر به وبخلا
دمشق في صفر .

وفيهما كانت وقعة الحاجب لأولئ مع الفرنج ، خرج البرنس
صاحب الكرك الى ايلة فأقام بها ، ومعه الأخشاب على الجمال
والصناع بعمل المراكب ، وكان قصده مكة والمدينة والغارات في
البحر ، فلما تم عملها ركب فيها ووصل الى عيذاب في بحر
القلزم ، فأخذ مراكب التجار ونهب وقتل وأسر ، وسار يريد
جبة ، وبلغ الخبر الى سيف الدين العادل أخي السلطان ، فأمر
حسام الدين الحاجب لأولئ ، فركب في بحر القلزم وسار
خلفهم ، وساعده الريح فأدركهم ، وقد أشرقوا على مدينة النبي
صلى الله عليه وسلم ، فهرب بعضهم في البحر ، وأسر
الباقيين ، فأخذ مائة وسبعين أسيرا ، وخلص أموال
التجار ، وردّها إليهم ، واستولى على مراكبهم ، وعاد الى القاهرة
وكتبوا الى السلطان بذلك ، فقال: تضرب رقاب الأسارى بعضهم
بالقاهرة وبعضهم بمكة والمدينة ففعلوا ، وكتب القاضي الفاضل الى
الخليفة كتابا في هذا المعنى : وكان الفرنج قد ركبوا من الأمر
نكرا ، واقتضوا من البحر بكرا ، وعمروا مراكب شحذوها بالمقاتلة
والأزواد ، وضربوا بها سواحل تهامة وأوغلوا في البلاد ، وما ظن
المسلمون إلا ان الساعة قد نثر مطوى شروطها ، وطوى مذشور
بساطها ، فثار غضب الله لفناء بيته المحرم ، ومقام انبيائه
المعظم ، وضريح نبيه المفخم ، صلى الله عليه وسلم، وزخر من
فضل الله أنه كان البيت إذ قصده أصحاب الفيل ، ووكلا الأمور
الى الله ، فكان حسبهم ونعم الوكيل ، فلم يبق من العدو خبرا ولا
أثر (وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا) (٢٦)

السنة التاسعة والسبعون وخمسمائة

وفي يوم الأحد عاشر المحرم تسلم السلطان آمد وبخل اليها وجلس في دار الامارة ، ثم سلمها وأعمالها الى نور الدين محمد بن قرا ارسلان ، وكان وعده بها لما جاء الى خدمته ، ولما أخذها صلاح الدين خرج الرئيس محمود بن علي ومحمد بن كيكلدي منها بأموالها وحريمها الى الموصل ، وأعانها صلاح الدين بسدواب تنقل بعض قماشهما ، فحملا ما خف حملة ، وعجزا عن حمل كثير من النخائر والأسلحة .

وفي المحرم عاد السلطان فقطع الفرات قاصدا الى حلب ، واجتاز في طريقه بعين تاب ، وبها ناصح الدين محمد بن خمارتكين ، ونزل اليه ، وقام بالضيافة ، فأبقاها عليه ، وجاءه ابن الساعاتي فأذشده :

وانهض الى حلب في كل سايقة
سيوفها تغني عن الفلك
ما فتحها غير إقليد الممالك
والداعي الى جميع الخلق والمالك

فنازل حلب في سادس عشر المحرم ونزل بالميدان الأخضر وبأشر القتال بكرة وعشيا وزحف يوما أخوه تاج المالك بوري فجاءه سهم في عينه ، فوقع مريضا ، ومات في الثالث والعشرين من صفر ، ثم علم عماد الدين زنكي أنه لا طاقة له به ، وضح من اقتراح الأمراء عليه ، فقال لحدسام الدين طمان : اخرج الى صلاح الدين وسله في الصلح فخرج سرا ولم يعلم به أحد ، فقرر الصلح وان يرد اليه سنجار وأعمالها ، والخابور ، ونصيبين ، وأنه يسلم اليه قلعة حلب ، وعلم الناس بالصبح ، فخرجوا الى صلاح الدين فخلع

عليهم ، وجعل اهل حلب تحس القلعة اجسانة وثيابا
وصابونا ، وصاحوا على عماد الدين: يا فاعل ، يا صانع ، انزل
فاغسل الثياب مثل المخانيث ما يصلح لك غير هذا ، وعملوا فيها
الاشعار وتغنوا بها في الاسواق ، ومنها :

وبعت بسنجار خير القلاع
تكلتك من بائع مشتري

فلما كان اليوم العشرون من صفر توفي تاج الملوك أخو
السلطان ، فحزن عليه حزنا عظيما وجلس العزاء ، ونزل اليه عماد
الدين فالتقام السلطان وأكرمه وخدمه ، وقدم له الخيول والتحف
الجليلة ، وعاد عماد الدين الى القلعة وأقام السلطان كتيبا حزينا
وكان يبكي ويقول : ما وفيت حلب بشعرة من أخي ، وقيل انه قال ما
غلت حلب بيوري ، والاول اليق بالسلطان لانه ما كان في البيت مثل
بوري ، وسار عماد ، الدين من يومه الى سنجار ، وأقام السلطان
في المخيم غير مكترث بحلب لما جرى عليه من وفاة اخيه ، ثم صعد
القلعة سلخ صفر ، فأذشده القاضي ابن زكي الدين محمد بن علي
القرشي ، قاضي القضاة بدمشق ابياتا منها .

وفتحكم حلبا بالسيف في صفر .
مبشر بفتوح القدس في رجب

فعجب الناس من رمية من غير رام ، فكان كما قال ، ولكن بعد
اربع سنين ، وهو الذي خطب بالقدس لما فتحه السلطان ، وولى
السلطان القضاء بحلب محي الدين بن الزكي والقلعة سيف الدين
يازكيچ ، والديوان ناصح الدين اسماعيل بن العميد وأعطى تل
باشر وتل خالد لبدر الدين دلدرد ، ابن بهاء الدين
ياروق ، وأعطى قلعة أعزاز لعلم الدين سليمان بن جندر ، ثم رحل
عن حلب يوم السبت ثاني عشرين ربيع الآخر ، وبخل

دمشق ، وكان دخوله دمشق ثالث جمادى الاولى فأقام بها أياما ثم خرج الى الفوار ، فأقام بها على رأس الماء .

وفيها بعث الخليفة عسكريا الى دقوقا فأخذها وفيها كانت غزاة بيسان ، ورحل السلطان من الفوار في جمادى الآخرة ، فنزل بيسان وقد هرب أهلها فقدم بين يديه جرديك الذوري ، وجاولي الاسدي وجماعة من الذورية فجاءوا الى عين الجالوت والفرنج الى الفولة ، فصادفوا على عين جالوت طائفة من الفرنج فقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأسروا مائة فارس ، ورحل السلطان الى الفولة يطلب المصاف فتحصن الفرنج في الداخل ، ولم يخرج منهم أحد ، فلما كان في الليل ساروا طالبين عكا ورحل السلطان خلفهم يقاتل الساقة فقتل منهم جماعة فدخلوا عكا وعاد السلطان على صفورية فنهب وأحرق وعاد الى دمشق .

ثم خرج في رجب الى الكرك ، وكان أخوه سيف الدين العادل قند كتب اليه يطلب منه ان يعرضه بحلب عوض مصر ، فكتب اليه ان يوافيه على الكرك ، فالتقى على الكرك ، ونصب السلطان عليها المناجيق ، وحشد الفرنج ونزلوا الوالة ، قريبا من الكرك ، فرأى السلطان أن حصار الكرك يطول فعاد الى دمشق ومعه أخوه الملك العادل ، فأعطاه حلب ، فسار اليها وبها ولده السلطان الملك الظاهر غازي ، وسيف الدين يازكيكج ، فسلمها اليه ، وقدم الظاهر دمشق مع يازكيكج في شوال ، وأقام الظاهر في خدمة أبيه راضيا في الظاهر ، وفي الباطن فيه ما فيه .

وفيها وصل عبد الرحيم شيخ الشيوخ من بغداد رسولا الى صلاح الدين ومعه محي الدين أبو حامد محمد ابن قاضي القضاة كمال الدين بن الشهرزوري رسولا من الموصل ، فأغلق محي الدين على السلطان وقال: تحالف لعز الدين ان هذه الجزيرة وما يقطع الفرات من ناحية الشرق يكونوا مضافين الى عز الدين ولا تعلق لك بهم ، والا جاء البهلوان وملول العجم اليك ، واتفقوا

عليك ، فغضب السلطان وقال: أنا قاصد اليكم ، فإذا فرغت منكم
سرت الى البهلوان

وفيها توفي تاج الملوك بـوري .. كما ذكرنا - ابن ايوب اخو
صلاح الدين ، وكنيته أبو سعيد ، ولد في ذي الحجة سنة ست
 وخمسين وخمسائة وكان الله عز وجل قد جمع فيه مكارم
 الأخلاق ، ولطف طباع وكرما وشجاعة ، وفضلا وفصاحة ، وكان
 أديبا وشاعرا مترسلا ، وله ديوان شعر ذكره العماد في الخريدة
 وأثنى عليه وأنشد مقطعات من شعره

السنة الثمانون وخمسائة

وفيها كتب زين الدين بن نجية الواغظ من مصر الى صلاح الدين
 يشوقه اليها ، وكان السلطان بدمشق : أدام الله أيام مولانا
 السلطان الملك الناصر ، وقرنها بالتأييد والنصر والتسيد ، أو ما
 يشتاق مولانا الى مصر ونيلها وخيرها وسلسيلها ، ودار
 ملكه ، ودارة فلكه وبحرها وخليجها وذررها وأريجها ، ومقسم
 مقاسمها ، وأنيس أبياتها ، وقصور معزمها ، ومبارك عزها ،
 وجيزتها وجيزرتها ، وبركها وبركتها ، وتعلق القلوب
 بقلوبها ، واستتلاف النفوس لاسلوبها ، وملتقى
 البحرين ، ومرتقى الهرمين ، وروضة جنانها ، وجنة
 رضوانها ، ومشاهدها ومجامعها ، ومساجدها وجوامعها ،
 ونواضر بساطينها ومناظر ميادينها ، وساحات سواحلها ، وآيات
 فضائلها !؟

وذكر ابن نجية كلاما طويلا من هذا الجنس فكتب اليه السلطان:
 ورد كتاب الفقيه زين الدين أدام الله توفيقه ، لا ريب ان الشام
 أفضل وأن أجر ساكنه أجزل ، وإن القلوب اليه أميل ، وإن زلاله
 البارد أحلى وأنهل ، وإن الهواء في صيفه وشتائه أعدل ، وإن

الجبال فيه أجمل ، والجمال به أكمل ، وإن القلب به أروح ، والروح به أقبل ، ودمشق فعاشقها بها مستهام ، وما على محبتها ملام ، وما في ربوتها ريبسة ، ولكل نور فيها سيبه ، وساجعاتها على المنابر الورق ، وهزاراتها وبلايلها تعجم وتعرب ، وكم فيها من جوارى ساقيات وسواقي جاريات ، وثمار بلا أثمان ، وروح وريحان وفاكهة ورماني ، وخيرات حسان ، وكون الله تعالى أقسم (والتين والزيتون) يدل على فضله المكثون ، وقال صلى الله عليه وسلم: الشام صدقة الله من بلاده ، يسوق إليها خير أمة من خلقه ، وعامة الصحابة اختاروا المقام بالشام ، وفتح دمشق بكر الاسلام ، وما يذكر ان الله تعالى ذكر مصر ، ولكن على لسان فرعون بقوله: (اليس لي ملك مصر) (٢٧) لكن هذا أخرج مخرج العتب له والذم ، إلا ترى أن يوسف عليه السلام نقل منها الى الشام ، ثم المقام بدمشق أقرب الى الرباط وأوجب للنشاط ، وأين قطوم المقطم من النيريين ، وأين دار منيف من ذروة الشرف المبين ، وأين لبانة لبنان من الهرمين ، وهل هما إلا مثل السلعتين ، وهل للنيل من طول نيله وطول نيله برد بردا في دفع العليل ، وما لذاك الكثير من طلاوة هذا القليل ، وإن فاخرتنا بالجامع وفيه البشر ظهر بذلك قصر القصر ، ولو كان لهم بانياس لما احتاجوا الى قياس المقياس ، ونحن لا نجفوا الوطن كما جفاه ، ولا نأبى فضله كما أباه ، وحب الوطن من الايمان ، ونحن لا نذكر ان اقليم مصر إقليم عظيم الشأن ، ولن نقول كما قال المجلس الفاضلي : ان دمشق تصلح ان تكون بستانا ولا نذكر ان أحسن ما في البلاد البستان ، ولعل زين الدين يرجع الى الحق ويوافق على ما هو الاحق .

قلت : عاب السلطان على ابن نجية كون اصله ومنشأه بدمشق ، وفضل عليها مصر ، وليس من طارقه ولا تلاله ، وكان أولى أن يتشوق الى السلطان من غير وصف لما فيه مضاهاة لوطنه وبلاله .

فصل

وفيها هجم السلطان نابلس كانت عساكر الشرق وصلت اليه
لنجدته فيها : نور الدين بن قرا أرسلان صاحب الحصن وأمد وبيار
بكر ، ومظفر الدين بن زين الدين ، والعاذل من حلب ، وتقي الدين
عمر ، فخرج من دمشق ونزل الكرك ونصب عليها المناجيق ، وكان
أعظم مهماته فتحه ، لكونه على طريق مصر ، وبلغ الفرنج فجمعوا
الفارس والراجل وقصدوه ، ونزلوا الواله قريبا من الكرك ، فاغتنم
السلطان خلوا الساحل منهم ، وسار على الإلقاء ونزل الغور وهجم
نابلس فقتل وسبى ونزل على سبسطيه وبها الرهبان والاقساء
وعندهم الودائع فطلبوا منه الأمان ، وأن يطلقوا ما عندهم من
الأسارى ، فأمنهم ثم سلك الغور وطلع على عقبة فيق ، وعاد الى
دمشق ، وكان عنده رسل الحلبية شيخ الشيوخ ، وشيخ الشيوخ
بالرحبة ، وحج بالناس من العراق طاشتكين .

فصل

وفيها توفي ايلغازي بن البي بن تمر تاش بن ايلغازي بن
ارتق ، واقبه قطب الدين صاحب ماربين وكانت وفاته في جمادى
الآخرة ، وخلف ولدين صغيرين ، وكان جوادا شجاعا عادلا منصفا
عاقلا ، والحمد لله وحده وصلى على أشرف خلقه محمد وعلى آله
وصحبه وسلم .

السنة الحادية والثمانون وخمسمائة

وفيها قطع السلطان الفرات ، ونزل على حران سادس عشرين

صفر ، وسار السلطان ونزل على الموصل ، وضايقها وخرج اليه اهله العوام والخواص فقاتلوه وظهروا عليه ، وجاءه الملوك زين الدين صاحب إربل ، وسنجرشاه صاحب الجزيرة ، وعسكر بيار بكر ، وكان القتال يعمل كل يوم وتخرج المواصلة اليه عراة يقاتلون ، فبينما هو على ذلك جاءه الخبر بوفاة شاه أرمن صاحب اخلاط ، وجاءت كتب بمقدميها يطلبونه ، فشاو الامراء فأشاروا إليه بقصد اخلاط ، لما رأوا أنهم لاطمع لهم في الموصل ، وقالوا: ما تفوت الموصل فسار الى اخلاط وفي مقدمته ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه ، وتقي الدين عمر فوصلوا ميافارقين ، وبها الاسد يرنةش ، مملوك صاحب آمد فامتنع عليهم وقال: أنا وصي يتامى أستاذي قطب الدين وبعد هذا فالأمر للخاتون والنتهم ، فأرسل اليها صلاح الدين خادما ووعدهما ان يتزوجها ، ويزوج ابنه احدى بناتها ، فأجابت وسلمت اليه ميافارقين وأعطاهما الهتاخ ، وأعطى يرنةش جبل جور ، وكان الحاكم على اخلاط الوزير مجد الدين بن الموفق ، وهو الذي كاتب السلطان فبعث اليه الفقيه عيسى ليكشف الحال ، فغالطه وقال : في القلعة سيف الدين بكتمر ، وبها ابنة البهلوان زوجة شاه أرمن ، وربما جاء البهلوان بعساكر آذربيجان وهمنان والشرق فنزل قريبا من اخلاط وارسل الى السلطان يقول: هذه البلاد لابنتي ، وهي في القلعة ، والمصلحة تبقى المودة بيننا ودوام الصداقة ، فرجع السلطان الى الجزيرة ، ورجع البهلوان الى بلاده بعد ان حمل اليه سيف الدين بكتمر اموالا وهدايا ، وولى السلطان على ميافارقين وبيار بكر مملوكه سنقر الخلاطي .

وعاد الى الموصل ، وهذه المرة الثالثة ، وهي الاخيرة فنزل الاسماعيليات ، وقيل نزل على كفر رمان ببجلة ، وعزم ان يشتهي بذلك المكان ، واستعد المواصلة للحصار ، فأشار أمراء عز الدين عليه أن يخرج اليه النساء بكتاب يتشفعن اليه فخرجوا معهن والدة عز الدين مسعود فأكرمهن ووعدهن الاحسان ، وقرر عماد الدين الصلح وخطب للسلطان بالموصل ، واعطى شهرزور والبوازيج ،

ووقف عليها قرية تعرف بباقيلا على ورثة شيخ الشيوخ ببغداد ، ورحل عن الموصل يريد الجزيرة .

قال العماد وكان السلطان قد لازم قراءة القرآن في شهر رمضان ، واشتد الحر ، وقيل إنه قد رد النساء اللاتي خرجن يشفعن ، فندم على ردهن فمرض مرضا شديدا فتناثر شعر رأسه ولحيته ، وقيل إنه سقي وضعف ضعفا خيف عليه منه وأرجف بموته ، وأقام على نصيبين وقد أيسنا منه ، ثم تماثل فحمل في محفة الى حران ، ونزل بظاهرها وبنى بها دارا سماها دار العافية .

فصل

وكانت المنجمون قد حكموا بأن يهب رمل هواء مزعج يهلك الناس ، فدفروا سرايبيا واختفوا ، وظهر كذب المنجمين .

فصل

وفيهما توفيت عصمة خاتون بنت معين الدين زوجة السلطان صلاح الدين ، وكانت قبله زوجة السلطان نور الدين محمود ، وكانت من أعف النساء وأكرمهن وأحزمهن ، ولها صدقات وبر عظيم ، بنت بدمشق مدرسة لأصحاب أبي حنيفة في حجر الذهب قريبة من حمام أركش وتعرف بمدرسة خاتون ، وبنت الصوفية رباطا على الشرف القبلي خارج باب النصر على بانياس وبنت تربة بقاسيون على نهر يزيد ودفنت بها ، ووقفت على هذه الأماكن أوقافا كثيرة ، وكانت وفاتها في رجب ، وبلغ السلطان وفاتها وهو مريض بحران ، فتزايد مرضه ، وحزن عليها وتأسف وكان يصدر عن رأيها ، ومات بعدها أخوها سعد الدين مسعود بن

معين الدين انر في هذه السنة ، وكان من أكابر الامراء زوجة السلطان أخته ربيعة خاتون لما تزوج أخته الخاتون ، فلما توفي مسعود بن أنر تزوج ربيعة الخاتون مظفر الدين بن زين الدين .

وفيها توفي محمد بن أسد الدين شيركوه ، ولقبه ناهض الدين ابن عم صلاح الدين كان السلطان يضافه لأنه يدعي أنه أحق بالملك منه ، وكان يبلغ السلطان عنه هذا ، وكان قد فارق السلطان من حران وجاء الى حمص ، وكان زوج أخت السلطان ست الشام ، وكانت وفاته بحمص يوم عرفة بقي يتناثر لحمه ، وقيل إنه سم ، وقيل مات فجأة فنقلته زوجته ست الشام الى تربتها بالعويينة شمالي دمشق ، فدفنته بها عند أخيها شمس الدولة ، ولما بلغ السلطان وفاته أبقي على ولده أسد الدين شيركوه حمص وتدمر والرحبة وسلمية ، اقطاع ابيه ، وخلع عليه وكتب له منشورا بها ، والحمد لله وحده وصلى على أشرف خلقه محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

السنة الثانية والثمانون وخمسمائة

فصل

قطع السلطان الفرات ، ووصل الى حلب ، وخرج منها يريد الشام فتلقيه أسد الدين صاحب حمص وأخته سفري خاتون بتسل السلطان ، ومعها الهدايا العظيمة ، وسار الى حمص فأطلق المكوس وأزال الضمانات ، وقال لأخيه العادل أبي بكر: أقسم التركة بينهم على فرانس الله تعالى ، وكان قد خلف شيركوه وسفري وزوجته ست الشام ، فصعد العادل الى قلعة حمص وأقام أياما فقسم التركة ، وكان قد خلف أموالا عظيمة وجواهر ومناطق الذهب والفضة ، فكان مبلغ التركة ألف ألف دينار ، وكان القاضي نجم الدين بن أبي عصرون حاضر القسمة ، فقام يوما فوقعت من

تحت ذيله منطقة مجوهره ، فذسبه العادل الى مالايلىق ، وكان نجم
اللىن منزها عن ذلك ، لانه كان عفىفا جوادا شرف النفس فحلف
للعادل أننى ما علمت بها ، وصدق ، وإنما الحساد وجدوا طريقا
للقول .

وفىها دخل سيف الاسلام الى مكة ، ومنع من الأذان بحى على
خير العمل ، وقتل جماعة من العبيد كانوا يؤذون الناس ، وأغلق
أمير مكة باب البيت وصعد الى أبى قبيس فارسلى الىه وطلب المفتاح
فامتنع من اذفانه فقال سيف الاسلام قل لصاحبك ان الله نهانا عن
أشياء فارتكبناها ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم : لا تأخذوا
المفتاح من بنى شىبة ، فنأخذه ونستغفر الله تعالى ، فبعث الىه
بالمفتاح .

وفىها قسم السلطان البلاد بين أولاده وأهله برأى القاضى
الفاضل ، فانه لما مرض أشار عليه بذلك .

وفىها ظهر الخلاف بين الفرنج ، وتفرقت كلمتهم ، وكان ذلك
سببا لسعانة الاسلام .

وفىها غدر ابرنوس صاحب الكرك ، واسمه ارناط ، وكان أخبث
الفرنج وأشرهم ، فقطع الطريق على قافلة جاءت من مصر الى
الشام ، وفىها خلق عظيم ومال كثير ، فاستولى على الجميع قتلا
واسرا ونهبا ، فأرسل الىه السلطان يوبخه على ما فعل ، ويقول
أين العهود والمواثىق ، رد ما أخذت ، فلم يلتفت وشن الغارات على
المسلمين وقتك فىهم ، فنذر السلطان دمه وأقام السلطان بدمشق
بتجهز للقاء العدو ، واستدعى العساكر من الشرق والغرب

السنة الثالثة والثمانون وخمسمائة

وفيهما فتح البيت المقدس ، وعكا وحصون الساحل وسببه وقعة
حطين ، خرج السلطان من دمشق غرة المحرم بعساكر الشام فنزل
بصرى يرتقب وصول اخته ست الشام وابنها ابن لاجين ، وكان قد
بلغه ان البرنس يرتقب وصولهم فخاف من غدره ووصل الحاج في
أواخر المحرم ، وخلا سر السلطان منهم ، فسار الى الكرك فقطع
الاشجار ، ورعى الزرع ، وفعل بالشوبك مثله ، وأقام ينتظر
عسكر مصر وكان عند مسيره الى الكرك أمر ولده الأفضل أن ينزل
على رأس الماء بطائفة من العسكر ، ينتظر باقي عسكر
الشرقية ، فأنهض الأفضل طائفة للغارة على طبرية ، وجعل مقدم
العسكر _____ ساكر الشرقية م_____ ظفر
الدين بن زين الدين وعلى عسكر الشام صارم الدين قيمان النجمي
فنازلوا طبرية ، وتقدم بدر الدين دلدرد مقدم عسكر حلب الى
طبرية ، فخرج اليه مقدم الداوية والاسبطار بجماعة معهم فقاتلوه
فقتلهم دلدرد وأسر بعضهم ، وسار الى صفورية ففعل كذلك ، وعاد
بالأسارى الى الأفضل وهو على شعب الشهاب وجاء السلطان الى
تسيل - قرية غربي نوى - وصعد تلها وعرض العساكر ، وسر بما
رأى ، واندفع يوم الجمعة سابع عشرين ربيع الأول نحو فيق ورحل
الأفضل معه فالتقوا على الاقدوانة ، وكان يقصد المسير الى العدو
يوم الجمعة تبركا بأدعية الخطباء ، وخيم على ساحل البحيرة في
اثني عشر الفا من الفرسان ، فأما الرجالة فيقال انهم كانوا في
ثمانين الفا بين فارس وراجل ، فنزلوا الصفورية ، وتقدم السلطان
الى طبرية فنصب عليها المناجيق ، ونقب أسوارها ، ففتحها يوم
الخميس رابع عشر ربيع الآخر ، وتمنعت القلعة عليه وبها الست
زوجة القومص ، وتقدم الفرنج فنزلوا لوبية يوم الجمعة عند طلوع
الشمس ، وملك المسلمون عليهم الماء ، وكان يوم حارا ، والتهب
الغور عليهم ، وأضرهم مظفر الدين بن زين الدين النار في
الزرع ، وباتوا طول الليل والمسلمون حولهم ، فلما طلع الفجر يوم

السبت قاتلوا الى الظهر ، وطلعوا الى تل حطين والنار تضرع حولهم ، فهلكوا وتساقطوا من التل ، وكان القومص معهم ، فحمل وفتح له السلطان دربا فصعد الى صدف وعلت السيوف في الفرنج قتلا وأسرا ، وأسر من الملوك كاي وأخوه جفري وبرنس الكرك والهنفري ، وصاحب جبيل وبيروت وصيدا ، ومقدم الداوية والاسبتار ، وغيرهم وجيء الى السلطان بصليب الصليبوت ، وهو مرصع بالجواهر والياقوت في غلاف من الذهب ، وهو عند النصرى مثل المسيح والذي أسر الملك درباس الكردي ، والذي أسر البرنس ابراهيم غلام المهراني .

فلما راهم السلطان نزل وسجد له تعالى ، وجاء الى خيمته فاستدعاهم ، فجلس الملك عن يمينه ، وبرنس الكرك الى جانب الملك ، ونظر السلطان الى الملك وهو يلث عطشا ، فأمر له بقدح من ثلج وماء فشرب منه وسقى البرنس ، فقال ما أننت في سقيه ، وكان السلطان قد نذر ان يقتل البرنس بيده ، فقال له: غدار حلفت وغدرت ونكثت ، وجعل يعدد عليه غدرا ، ثم قام اليه فضربه بالسيف على كتفه ، وتممه المماليك ، وقطعوا رأسه وأطعموا جثته الكلاب .

فلما راه الملك قتيلا ، خاف وطار عقله ، فأمنه السلطان ، وقال: هذا غدار كذاب ، غدر غير مرة ، ثم عرض السلطان الاسلام على الداوية والاسبتار فمن أسلم منهم استبقاه ، ومن لم يسلم قتله ، فقتل خلقا عظيما ، وبعث بباقي الملوك والأسارى الى دمشق الى الصفي بن القابص ، فاعتقل الأعيان في القلعة ، وباع الأسارى بثمان بخس ، حتى باع بعض الفقراء أسيرا بنعل فقيل له : هذا ثمن بخس ، فقال اربت هوانهم .

وبخل القاضي ابن ابي عصرون الى دمشق وصليب الصليبوت مذكسا بين يديه ، وعاد السلطان الى طبرية ، فأمن صاحبها ، فخرجت بذفسها ومالها الى عكا ، وولى طبرية قيمان

النجمي ، وأما القومص فانه خرج من صفت الى طرابلس فمات بها .

ف قيل انه مات من جراحات كانت به ، وقيل ان امرأته سمته ، وقيل هذا كان سببا في هلاك بين النصرانية وأكثر الشعراء في هذه الواقعة .

ذكر فتح عكا

وفيهما لغتان المد والنسبة اليها عكاوي ، وعكه بالهاء .
وسار السلطان من طبرية فنازلها يوم الاربعاء سـلـخ ربيع الآخر ، وليس بها من يحميها لان وقعة حطين أبانتهم ، وكانوا ثلاثين ألفا ، فطلبوا منه الامان على نفوسهم وما يقدرون على حمله ، فأمنهم وبخلها يوم الجمعة غرة جمادى الاولى وبها من الاسارى المسلمين أربعة آلاف ، فاستنقذهم وجعل الكنيسة جامعا وولاهها ولده الافضل ، وولى القضاء والخطابة والامامة عبد اللطيف ابن ابي النجيب الشهرزوري ، وغنم المسلمون أموالا لا تحصى ، ولما دخلوا عكا ركز كل واحد رمحه على دار فأخذها وما فيها ، وأعطى السلطان الفقيه عيسى جميع ما يختص بالداوية ، ولم يحضر هذه الفتوح العادل سيف الدين أخو السلطان ، فجاء ففتح في طريقه مجدل يابا ويافا ، وحضره الملك العزيز لأنه تقدم مع العسكر المصري ، ومضى الى مصر وما عاد اجتمع بأبيه وفارق أباه في شعبان ، والسلطان على صدور .

وكتب العماد الكاتب الى بغداد كتابا اوله (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الأرض يرثها عبادي الصالحون) (٢٨) والحمد لله على انجاز هذا الوعد ، وعلى نصرة هذا الدين الحنيف من قبل ومن بعد ، وجعل من بعد عسر يسرا ، وأحدث من بعد أمر أمرا ، وهون هذا الأمر الذي ما كان الا سلام يستطيع عليه

صبراً ، وخطب النبي بقوله: (واقْد منْنا عليك مرة أخرى) (٢٩) فالأولى في عصر النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة ، والأخرى في هذه الدولة التي عتق فيها من رق الكتابة ، والزمان كهيئته قد استدار ، والحق ببهجته قد استنار ، والكفر قد رد ما عنه من الشعار ، والخادم يشرح من هذا الافتح العظيم ، والنصر الكريم ، ما يشرح صدور المؤمنين ، ويسـوء وجـوه الكافرين ، ويورد من البشرى ما أنعم الله به في يوم الخميس الثالث والعشرين من ربيع الآخر سالخه ، وذلك سبع ليال وثمانية أيام حسوما عدموا فيه نفوسا وجسوما ، فأصبحوا قد هـووا في الهاوية (كأنهم اعجاز نخل خاوية) (٣٠) وأصبحت البلاد الى الاسلام ضاحكة ، كما كانت بالكفر باكية ففي يوم الخميس الأول فتحت طبرية ، والجمعة والسبت كانت الكسرة التي ما ابقت منهم بقية لا يقوم لهم بعدها قائمة ، (وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهي ظالمة) (٣١)

وفي يوم الخميس سلخ الشهر فتحت عكة بالأمان ، ورفعت بها أعلام الايمان وهي ام البلاد ، وأخت ارم ذات العماد ، وصليب الصلبوت عندنا مأسور ، وقلب الكفر الاسير بخشبه المكسور مكسور ، وأنصار الصليب وأعوانه قد أحاطت به يد القبضه ، وعلق رهنه ، فلا يقبل فيه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، وطبرية قد رفعت أعلام الاسلام عليها ، وهو خير يومها ، وصارت البيع مساجد يعمرها من يؤمن بالله واليوم الآخر ، وصارت المذابح مواقف لخطباء المنابر ، وعد الحصون التي فتحت .

وقال في آخر الكتاب - وما يتأخر النهوض الى البيت المقدس ، وهذا أوان فتحه ، وقد دام عليه ظلام الضلال ، وقد أن يسفر فيه الهدى عن صحة السلام .

ذكرما فتح السلطان في هذه السنة من بلاد الفرنج وطبرية وعكا

• لما فتح عكا راح الى تبنين ، وتسلمها وتسلم صيدا وبيروت وجبيل وغيرها والداروم والرملة وبيننا وبينت جبـرين والخليل وعسقلان ، فكان بين أخذ الفرنج وبين خلاصها خمس وثلاثون سنة ، لانهم ملكوها في جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، وفوض السلطان القضاء والخطابة الى جمال الدين عبد الله بن عمر قاضي اليمن ، وتسلم السلطان هذه الأماكن في اربعين يوما ، أولها ثامن عشرين جمادى الأولى وآخرها الثامن من رجب .

ذكر فتوح القدس

سار اليه السلطان فنازله يوم الأحد منتصف رجب ، وكان المنجمون قد قالوا له: تفتح القدس ، وتذهب عينك الواحدة ، فقال رضيت أن أفتحه وأعمى ، وكان قد نزل على غريبه أولا ، ثم انتقل الى شماليه من باب العمود الى برج الزاوية ، ومن هذا المكان أخذه الفرنج ، وكان مشحونا بالبطارقة والخيالة والرجالة ما يزيد على ستين الفا ، غير النساء والذرية ، فنصب عليها المناجيق وآلة القتال ، وتعلق النقابون بالسور ، وقاتل الفرنج قتالا شديدا ، فلما رأوا ان المسلمين قد ظهرروا عليهم سقط في ايديهم وايقنوا بالخذلان ، فصاحوا الامان ، فبطل عنهم القتال واستقر الأمر على ان يخرجوا بأنفسهم واموالهم وذرائعهم ، سوى الخيل الحربية والسلاح ، بعد ان يؤدي كل واحد منهم عشرة دنانير ، وعن المرأة خمسة دنانير ، وعن الصبي أربعة دنانير ، وعن الطفل دينار ، ومن عجز منهم كان رقيقا سيملك ، ومن أراد من النصارى

الاقامة ، فليقم وتؤخذ منه الجزية ، وأقر بأيديهم القمامة ، وعيدوا
اماكن يزورونها ، وسلموا البلد يوم الجمعة سابع عشرين رجب ليلة
المعراج ، فكان استيلاء الفرنج عليه اثنتين وتسعين سنة لأنهم
أخذوه في سنة احدى وتسعين وأربعمائة ، وفتح في هذه السنة وهي
سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وبذل السلطان الصخرة وغسلها
بالماء ، وقيل غسلها بلحيته وهو يبكي ، ومحا الصور
منها ، وكسر الصليبان ، وأحرق دار الداوية ، وعمر المسجد
الأقصى ، وفرق الأموال التي أخذها من الفرنج ، وكانت نيفا
وثلاثمائة ألف دينار على العلماء والفقهاء والصوفية ، وكان قد
حضر معه هذا الافتح زهاء على عشرة آلاف عمامة من جميع
الأجناس ، وتناول جماعة من الأعيان على الخطابة ، فذكر
السلطان قول ابن زكي الدين :

وفتحه حلبا بالسيف في صفر
مبشر بفتوح القدس في رجب

قال الفاضل : إنه أنطق الله السلطان بالغيب ، فأعطاه الخطابة
وابن زكي الدين قاضي القضاة بدمشق .

وقال ابن القادسي في نيله : إن صلاح الدين خطب بسالبيت
المقدس ، وهو وهم منه ، وخلص السلطان من القدس ثلاثة آلاف
من أسارى المسلمين ، وبعث مع الفرنج النين كانوا في القدس من
أوصلهم الى صور ، وكان بها مركيس .

قلت : ولقد ضيع السلطان الحزم بتسيير الفرنج الى صور ، ولم
ينظر في عواقب الأمور ، فان اجتماعهم بصور كان سببا لأخذهم
البلاد ، وقتلهم بعا من قتلوا من الأعيان وأجناد الاسلام ، وقد
كان الواجب عرضهم على الاسلام فإن أبوا فالسيف ، « وهو
أصدق انباء من الكتب » وأنى وكيف ، وما اشبه هذه القضية بفدية
الأسارى يوم بدر حيث أشار بعض الصحابة بأخذ ذلك

القدر ، وبعضهم أشار بضرب الرقاب ، وماصدر ذلك الرأي إلا عن صدر ، فلا جرم قتل منهم يوم أحد سبعون ، وأسر سبعون من المسلمين كما فعلوا يوم بدر بالمشركين .

وكان القاضي الفاضل بدمشق مريضاً لم يحضر هذا الفتح ، فأمر السلطان العماد الكاتب أن يكتب كتاباً إلى بغداد بالفتح ، فكتب في أوله : (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً) (٣٢) ، والحمد لله الذي أنجز لعباده الصالحين وعد الاستخلاف ، وقهر بأهل التوحيد أهل الشرك والخلاف ، وخص سلطان الديوان العزيز بهذه الخلافة ، وبذل الأمن به من بعد المخافة ، وأبخر هذا الفتح الأسنى والنصر الأهنى لخدام المقام النبوي ، ومنحه أخلص أوليائه ، وأخص أصفيائه بعد أن انقرض من الملوك الماضية والقرون الخالية على حسرة تمنيه ، وفوات ترجيه ، وتقاشرت عنه الهمم وتخاذلت عنه ملوك الأمم قلله الحمد الذي حقق بفتحه ما كان في النفس ، وبذل وحشة الكفر فيه من الإسلام بالأنس ، وجعل عزيوميه ما حيا نل أمس ، وأسكنه العالم والفقير بعد البطرك والقس ، وعباد الصليب ومستقبلي الشمس ، وأخرج أهل يوم الجمعة من أهل يوم الأحد ، وقمع من كان يقول بالتثليث أهل قل هو الله أحد ، وقد فتح الخادم بأمر الله من الداروم إلى طرابلس ، وجميع ما حوت مملكة الفرنج إلى نابلس وغسلت الصخرة بدموع الباكين من المؤمنين ، ونزع لباس اليأس عنها بأفاضة ثواب المحسنين ، ورجع الإسلام غريبه منه إلى داره ، وطلع قمر الهدى من سراره ، وعانت الأرض المقدسة إلى ما كانت عليه من التقديس ، وأمنت المخاوف بها ، وفيها فصارت صباح السرى ، ومناخ التعريس ، وأقصى من المسجد الأقصى الأقصى من الله الأبعدون ، وتوافد إليه المصطفون المقربون ، وخرس الناقوس برحيل المسيحيين ، وخرج المفسدون ببخول المصلحين ، وقال المحراب لأهله مرحباً وأهلاً ، ورفعت الأعلام الإسلامية على منبره فأخذت من بره أوفى نصيب ، وتلت

بالسنة عزتها (نصر من الله وفتح قريب) (٣٣) وغسلت الصخرة
بدموع المتقين من نذس الكافرين ، وأبعد اهل الالحاد من قربها
بقرب الموحدين

ونذكر بها ماضي من عهد المعراج النبوي والاعجاز
المحمدي ، وعاد الاسلام بسلام البيت المقدس الى تقديسه ، ورجع
بيت الله من التقوى الى تأسيسه ، وذكر العماد فصولا في هذا المعنى
(٣٤)

فصل

وفي شعبان سار السلطان الى صور فوصلها غرة رمضان
فوجدتها مدينة حصينة ، وهي في البحر مثل السفينة ، والبحر
محيط بها ، من جوانبها وليس لها طريق في البر الا من مكان واحد
فيه سبعة ابراج ، وبه المركيس ، وكان شجاعا حازما ، وقد
انطوى اليه جميع من كان بالقدس والساحل من الفرنج ، وأقام
السلطان ينتظر الاصول من مصر ، فوصل فقاتلهم في البر
والبحر ، واتفق ان الاصول غفل ليلة فكبسه الفرنج فأخذوا
المراكب ، ورمى بعضهم نفسه في البحر ، فتأخر السلطان في سلب
شوال ، ووصل اليه من بغداد تاج الدين ابوبكر حامد أخو العماد
الكاتب ، فالتقاه السلطان وأكرمه ، وكان معه رسالة تذكر
مشحونة بالعتاب على اسباب . منها: ان الخليفة عتبه لأجل ابن
البوشنجي ويلقب بالرشيد ، وكان صبيا ببغداد ، ولا يؤبه له فخرج
الى الشام ، واتصل بصلاح الدين ، وقيل له هذا من بيت كبير ...

السنة السادسة والثمانون وخمسمائة

وفي سابع المحرم بخل الب ارسلان بن السلطان طغرل الى بغداد
وهو صبي صغير وعليه كفن وببده سيف مشهور كأنه يطلب عفو

الخليفة وجاء فنزل بباب الذوبي ، وبأس العتبة فبكى أهل بغداد ، ورق له الخليفة ، وأنزله دار ابن العطار مقابل المخزن ، وأكرمه وأحسن نزله ، وعفا عن جرائم أبيه وما فعل ابن يونس ، واستدعاه الى باب الحجرة وخلع عليه خلعة السلطنة ، وطوقه بطوق من ذهب ، واجتمع بولي العهد أبي نصر محمد .

وفيهما تسلم الخليفة قلعة الحديثة ، بعد حصار كثير ، وفيها بنى الخليفة دار الفلك ، ورتب فيها ابنة السيد العلوي ، ويقال لها ست الجدود .

وأما حديث السلطان ، فإن هذه السنة دخلت وهو مرابط على الخروبة ، وفي ربيع الآخر تسلم شقيف أرزون بالأمان بعد الحصار الطويل ، وضيق على صاحبها أرناط ، بدمشق فسلمه ، ومضى الى صور ، وفي هذا الشهر قدمت العساكر الإسلامية على السلطان ، وفيهم الملك الظاهر صاحب حلب ، وأسد الدين شيركوه صاحب حمص ، وسابق الدين عثمان صاحب شيزر ، وعز الدين ابراهيم بن المقدم وغيرهم ، فتقدم السلطان الى تل كيسان وعزم على لقاء الفرنج ، وقد وصل رسول الخليفة فخر الدين نقيب العلويين بمشهد التين ومعه خمسة أحمال نפט ، وتوقيع بعشرين ألف دينار تقترض من التجار على الخليفة فشق على السلطان وقال : أنا في يوم واحد أخرج مثل هذا وأضعافه ، وما أنا مضطر ، ورد عليه الجميع ، فأشار عليه بعض أصحابه بأخذ النفط للغزاة فأخذه ، ورد التوقيع ، وقال: يرحم الله العاضد وصل إلي منه في عشرين يوماً بمقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار ، ومثلها عروض .

حديث حريق الابراج

كان للافرنج ثلاثة ابراج من الخشب والحديد ، والبسوها جلود البقر المسقاة بالخل والخمر لئلا تعمل فيها النار ، وطمسوا خندق عكا ، وسحبوا الابراج على العجل الى السور ، فأقبلت مثل الجبال ، وأشرفت على البلد ، وفي كل برج خمسمائة مقاتل ، فأيس المسلمون من البلد ، وقصد حيل بينهم وبين السلطان ، والعساكر ، واجتهدوا في الوصول الى البلد فلم يقدروا ، ورماهم الزرقون الذين في البلد بالنفط فلم يحترق منها شيء ، وكان بعكا شاب دمشقي يقال له ابن النحاس ، ليس له في الديوان اسم ، وكان عارفا بالنفط والحريق ، فهيا ثلاثة قدور ، وقال لقراقوش : انصب لي منجنيقا ، فانتهره وقال : قد عجز الصناع فمن أنت ؟ فقال : قد عملت قدورا لله تعالى وما اريد منكم شيئا ، وما يضركم ان ارمي بها في سبيل الله ، فإن دفعت والا فاحسبني واحدا منهم ، فقال قراقوش : ما يضرنا ذلك ، ثم نصب له المنجنيق فرمى قدرة واحدة في البرج ، فاحترق بمن فيه ، ثم فعل ذلك بالثاني والثالث فكبر المسلمون وسمع السلطان وكبير العساكر ، وفرح قراقوش والأمراء وطمسوا بالخل والأموال ، فلم يأخذ منها شيئا ، وقال : انا فعلت هذا لله تعالى ، وكان ذلك صبيحة يوم الجمعة العشرين من ربيع الأول .

قلت وقد اجتمعت بابن النحاس في حلب سنة ثلاث وستمئة وحكى لي صورة الحريق ، وكان يحضر مجالسي ، فطاب قلبه يوما فقال للناس : اشهدوا ان نصف ثوابي في حريق الابراج لفلان عني .

وبعد يومين من حريق الابراج وصل عماد الدين زنكي صاحب سنجار الى خدمة السلطان ، فالتقاء وتعانقا وسار به السلطان الى خيمته ، فترجل عماد الدين قبل السلطان ومشى في خدمته بمقدار ما

لبس السلطان زرموجته ، وبخل السلطان الخيمة ، وقدم له السلطان من الطرف ما يقدم لمثله وبسط له الثياب الاطلس ، فمشى عليها ، وأنزله في طرف الميسرة .

حديث ملك الألمان

وفي هذه السنة قطع الألمان خليج القسطنطينية الى بلاد قليج ارسلان في ستمائة الف جاؤوا من أفرنجة ، فخاف منهم ملك القسطنطينية ، فقالوا: لا تخف نحن ما جئنا الا لنخلص القدس ، وصليب الصلبوت ، ونملك بلاد المسلمين ، فلما دخلوا بلاد قليج ارسلان لم يكن له بهم طاقة فاحتاج الى مسالمتهم ، وكتب الى السلطان يعتذر بالعجز عنهم ، وساروا طالبيين ووقع فيهم الوباء ، فدفنوا كثيرا من سلاحهم ظنا منهم اذا عادوا اخذوها ، فهلكوا ، وأخذ المسلمون ما دفنوه ، ووصلوا الى نهر طرسوس فتخلص منهم ابن ليون بقلاعه لأنه أرمني ، وهم روم فأراد الملك ان يسبح ، وكان ماؤه بادرا فنهوه ، وقالوا : لا تفعل فأنت متعوب ، فقال : لا بد فسبح فأخذته الحمى ، فأقاموا على النهر بسببه ، فأوصى الى ولده الذي كان في صحبته ومات ، فسالقوه في خيل وحملوا عظامه ليدفنوه في القدس .

ولما مات اختلفوا على ولده ، لأنه كان له آخر أكبر منه فكانوا يميلون إليه ، فتأخر عنه أكثرهم ، وبخل أنطساكية في جيش قليل ، وسأل البرنس أن يخلي له القلعة ليضع أمواله وأثقاله فيها ، وكان في البرنس خبرة فأجابه الى ذلك ظنا منه أنه لا يتفق عوده اليها ، وكان كما ظن ما عاد ، وأخذ البرنس الجميع .

ثم سار الى طرابلس ، وجعل أهل الجبال يقتلونهم وينهبونهم ، فما وصلوا طرابلس الا في نفر يسير ، فأقاموا أياما ، وساروا إلى عكا فلقبهم الافرنج واستبشروا بهم ، ووصل

رسول ملك القسطنطينية يعتذر الى السلطان من الروم ، وكان صديق السلطان ، وأنه خطب للخليفة والسلطان بـقسطنطينية ، وانقطعت اخبار عكا عن السلطان ، فندب اقواما للسباحة وأعطاهم المال في أوساطهم ، والطيور في أعابهم فترد الأخبار ، ثم احترز الفرنج بعد ذلك بشباك نصبوها في المساقاة ، فاذا جاء سابح وقع فيها ، فامتنع الناس .

وبعث قراقوش يشكو قلة الميرة ، فرتب لهم السلطان بطسة كبيرة وجعل فيها نصارى من أهل بيروت كانوا قد أسلموا ، فقال : ارفعوا الصليبان على البطسة كأنكم قاصدين الفرنج ، ففعلوا ذلك ، فخرج اليهم الفرنج في الشواني ، فقالوا : نراكم قاصدين البلد ، فقالوا ما أخذتموه ، بعد ؟ قالوا : لا ، فقالوا : وراءنا بطسة اخرى ردها عن البلد ، فذهبوا ، عنهم ، فرددوا القلوع الى البلد ودخلوا الميناء ، وكبر المسلمون وامتاروا أياما .

واما ابن ملك الألمان فانه اعد دبابة عظيمة ، فدخل تحتها الوف من الناس ، و لها رأس عظيم برقبة طويلة اذا نطحت السور دخلت فيه وهدمته ، وعمل بطسة لها خرطوم طويل ، اذا ارادوا قلب السور انقلب بالحركات ، وزحفوا الى برج الذبان ، فأحرق المسلمون جميع ذلك ، وطلبت العساكر الشرقية العود الى بلادها ، فقال السلطان: في هذه الحالة اصبروا الى زمان الشتاء ، فاما عماد الدين صاحب سنجار فأقام وأما سنجر شاه صاحب الجزيرة ، فأصر على الرحيل ، ودخل على السلطان فقبل يده ، وسار من ساعته ، وكتب السلطان وراءه كتابا يقول فيه ، وفي اوله كلاما منه :

من ضاع مثلي من يديه
فليت شعري ما استفاد

فقرأ الكتاب ولم يلتفت ، وسار فلقية تقي الدين عند عقبة فيق ، فقال : له الى اين ؟ فأخبره فقال : ارجع ، فقال ما ارجع ، وكان تقي الدين مقدما فقال : ارجع يا صبي والا رجعت مقهورا فرجع فسأل تقي الدين السلطان فعفا عنه .

وفيها كتب السلطان الى يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ، أمير الغرب ، كتابا يستنجد به على يد شمس الدين بن منقذ (٣٥) ودخل فصل الشتاء فأعطى السلطان العساكر دستورا وأقام في نفر يسير .

وفي ذي الحجة مات ابن ملك الالمان ، واستشهد بعد جماعة ، منهم جمال الدين محمد بن أرككز خرج في شاني يقاتل ، فاحتاطت به مراكب الفرنج وعرضوا عليه الأمان ، فقال ما أضع يدي الا في يد مقدمكم الكبير ، فجاء اليه المقدم الكبير ، فأخذ بيده وعانقه وألقى نفسه وایاه في البحر فغرقا .

وفيها تسلم صلاح الدين الشوبك بعد حصار شديد بالأمان ، وفيها ملك سيف الدين صنعاء ، واعطاها لولده شمس الملوك الذي ادعى الخلافة ، ووحج الناس من بغداد طاشتكين

وفيها توفي يوسف بن علي بن بكتكين صاحب إربل ، ولقبه زين الدين وهو أخو مظفر الدين ، وزين الدين ، كان عند السلطان في هذه السنة على الخروبة ، فمرض في رمضان ، فارتحل من الخروبة الى الناصرة ، فأقام يمرض نفسه ، وكان عنده أخوه مظفر الدين يمرضه فيقال انه سقاه سما فمات ، وظهرت على مظفر الدين أمارات ذلك ، فانه لم يكثر بموته ، ولا تأسف عليه ، وبلغ السلطان فحزن عليه وبكى لأنه صاحبه ومصافيه وشاكره وداعيه ، وحزن المسلمون عليه لما كان عفته وشبابه وغربته .

وقال العماد : اتينا مظفر الدين نعزيه ظنا منا انه قد حزن عليه

حزن الأخ على أخيه ، فكأننا جئنا نهنته ، وإذا به مشغول عن العزاء بحياته أمواله وأسبابه ، والقبض على عماله وكتابه ، ثم أرسل مظفر الدين إلى السلطان يطلب منه إربل وينزل عن حران والرها ، فأجابه إلى ذلك ، وسأله كتاباً إلى صاحب إربل في هذا المعنى ، والله تعالى اعلم .

السنة السابعة والثمانون وخمسمائة

وفيها استيلاء الفرنج على عكا ، اشتد عليها الحصار في جمادى الآخرة ، وطم الفرنج الخنادق ، ونصبوا المناجيق والدبابات والسهل ، ومل المسلمون من السهر والتعب والقتال وكثرت فيهم الجراح ، وكان الفرنج قد صنعوا تلاً من تراب يقدمونه يسيراً ويسيراً ويقادون من ورائه ، لأن المسلمين أحرقوا أبراجهم ومناجيقهم ودباباتهم ، فعملوا هذا التل وشرفوه ، فصار للمقاتلة مثل الحائط ، وجاء كتاب أهل عكا إلى السلطان يقولون قد عجزنا وما بقي إلا طلب الأمان والتسليم ، فلم يرد على السلطان خبر أشد من ذلك ، لأنه كان قد نقل إلى عكا جميع سلاح الساحل والقدس ودمشق وحلب ومصر ، فقال: إني هاجم على القوم من البر ويخرج المسلمون من البلد ، فقالوا : ما هذا مصلحة فقد نرى ما بين أيدينا من الخنادق والرجالة كالسور ، ويعدمهم الخيالة ، وهم أضعاف عدنا ، ولم يوافقوه ، ولما كان يوم الجمعة سابع عشر رجب ، والسلطان قد ركب والعساكر بأسرها ، وإذا بأعلام الفرنج قد ظهرت على عكا وقت الظهر ، وصاح الفرنج صيحة عظيمة ، وطلع علم على القلعة وآخر على مأذنة الجامع ، وملأوا الأبراج بالأعلام ، وبخلوا عكا وأسروا من كان بها ، واستولوا على جميع ما كان فيها ، وكانوا قبل ذلك قد قرروا على أهلها مائتي ألف دينار ، وألفي أسير ، وصليب الصليبوت ، ويخرج من بها من المسلمين سالمين بأموالهم وأهلهم ، وأخبروا السلطان ، فأجابهم فقال الفرنج : سلموا إلينا المال والأسارى ، واقنعوا بأماننا حتى

ندسلم إليكم اصحابكم ، فقال السلطان: وأي أمانة لكم ، ونخاف من غدركم ، والبلد وما فيه قد صار بأيديكم ، وتوقف الحال .

فلما كان يوم السبت سابع عشرين رجب خرج الفرنج من عكا ، ووقفوا وسط المرج بين تل كيسان والعياضية ، وأحضروا المسلمين موثقين في الحبال ، وكانوا زهاء عن ستة آلاف مسلم ، وحملوا عليهم حملة رجل واحد ضربا وطعنا ، فقتلواهم فنزل المسلمون يشاهدونهم ولا يعلمون ما يصنعون بهم لبعدهم عنهم ، فعادوا وأخبروا السلطان فبكى بكاء شديدا ، ويقال انه لطم على رأسه وندف لحيته ، ووقع العويل والبكاء في العسكر ، ورحل السلطان من منزله .

ذكر ما جرى بعد انفصال امر عكا

ولما كان غرة شعبان يوم الأحد رحل الفرنج من عكا ومقدمهم الانكلتار ، وكان ملكا عظيما ، فسار في البر بالفارس والراجل ، والمراكب في البحر ، ومعهم فيها ازوادهم ، فنزلوا على نهر القصب ، وكانوا ثلاثة اقسام: الملك العتيق واسمه كاي في المقدمة مع الساحلية ، والانكلتار والفرنسية معه في الوسط وأولاد الست أصحاب طبرية في الساقة والسلطان في اعراضهم ، وجرى بينهم قتال على نهر القصب قتل فيه اياز الطويل ، مملوك السلطان ، وكان فارسا عظيما في دبوسه عشرة أرطال حديد ، وكان يضرب الفارس ويهشمه ، فقاتل في ذلك اليوم قتالا عظيما ، وقتل من الفرنج جماعة ، فتقنطر به فرسه فقتلوه ، فحزن السلطان عليه ودفن على تل عال مشرف على بركة

وطلب الانكلتار الاجتماع بالملك العادل سيف الدين ، وركبا كل واحد في نفر يسير فقال له الانكلتار: انما جئنا لنصرة أفرنج

الساحل ، فردوا عليهم ما أخذتم ، واحقنوا دماء الفريقيين فقال
العادل : حتى اجتمع بالسلطان .

ذكر وقعة ارسوف

لما كان السبت رابع عشر شعبان أصبح الفرنج على
نصبة ، وصف السلطان عساكره ، فاندفع جماعة من
المسلمين ، وثبت العادل وقيماز النجمي وعسكر الموصل وكان
مقدمهم خرم شاه ولقبه علاء الدين ولد عز الدين مسعود ، فلقبه
السلطان في ذلك بالملك السعيد ، ثم غارت عليهم عساكر
المسلمين ، فلولا حيطان ارسوف لحل بهم الحتوف ،

وذكر محمد بن القادسي في نيله وقال: انهزم صلاح الدين في ذلك
اليوم ورجع في عسكر الموصل ، وكانوا فوارس .

وقد حكى القاضي ابن شداد ، وكان حاضرها ، وليس المخبر
كالمعائن ، فقال : ما انهزم السلطان ، انما بقي في سبعة
رجال ، واعلامه واقفة وكوساته تخفق ، فلما رأى ما نزل
بالمسلمين ، صاح فيهم وحرضهم ، ووقف في ظلته ، فلما راه
الناس في ظلته ثابتا أتت العساكر اليه ، فتراجع الفرنج الى
منزلته ، وقتل من الفريقين جماعة ، وأما قول ابن القادسي انه قتل
من الانكلتار مائة ألف وأربعين ألفا ، فإن الفرنج ما بلغت عدتهم
يوم ارسوف ثلاثين ألفا ، قال القاضي قتل منهم خمسون افرنجيا
وقيل أقل .

حديث خراب عسقلان

وسار السلطان من ارسوف ، فنزل عسقلان ، فأجمع الأمراء

على خرابها ، فبكى السلطان على خرابها ، وقال : والله ان فقد اولادي اهلون علي من خرابها ، أو أن أنقض منها حجرا ، فقالوا : اخرجها والا جرى عليها ما جرى على عكا ، وهذه بين يافا والقدس ، ولا يمكن حفظ الموضعين ، واخترايهما شيء ، وجاء الخبر نزول الفرنج على يافا ، فأمر بخرابها ، وكان فيها شيء كثير فأجابه المسلمون فنهبوها ، وأخربوا بعض السور والسلطان يبكي وينتحب ، ، وبعث الانكلتار يعرض على العادل ان يزوجه بأخته ، فأجاب العادل ، فاجتمعوا ووقفوا الأمر ، وقالوا : ان تنصر العادل ويدخل في بينها ، والا غضب المسيح على الانكلتار ، فتوقف الحال على ما ذكر الأقساء ، وكان الانكلتار يجتمع بالعادل في كل وقت ، ويتهايان ، وكان خديعة من الاثنين ، وبعث الانكلتار الى السلطان يقول : لا بد من القدس ، وصليب الصليب فادفعهما إلينا ولك من قاطع الأردن إلى ناحية الشرق ، فقال السلطان : أما القدس فهو اعظم عندنا مما هو عندكم ، انه مسرى نبينا صلى الله عليه وسلم ، ومجمع الملائكة ، فلا يتيسر ان ننزل عنه ، وأما صليب الصليب فهلاكه عندنا قربة عظيمة فلا يجوز ان نفرط فيه الا لمصلحة راجعة الى الاسلام هي اوفى منه ، فقال : الانكلتار للعادل : اجمع بيني وبين السلطان ، فقال : الملوك اذا اجتمعوا تقبح الحرب بينهم بعد ذلك ، فاذا انتظم الصلح حسن الاجتماع ، وعاد الفرنج الى الرملة ، وطلع السلطان إلى القدس في ذي القعدة ، واخذ في تحصينه ، وشرع ينقل الحجارة هو وأولاده ، على أكتافهم وأمرأه وأجناده ، والقضاة والسيسفقاء والعلماء ، والعامه والخاصة .

وفيهما عزل السلطان أبا حامد محمد بن عبد الله بن أبي عصرون عن قضاء دمشق ، وولى محيي الدين بن زكي الدين قالوا ، سبب عزل ابن أبي عصرون عن قضاء دمشق مداخلته الجند ، واشتغاله بما اشتغل به الأمراء من اتخاذ الخيول والمماليك والبرك ، ومباشرة الحروب ، ومعاملة الأمراء ومداينتهم ، فتبرم السلطان منه وعزله . وفيها حج بالناس من بغداد طاشتكين .

فصل

وفيهما توفي أسعد بن المطران الطبيب ، ويلقب بالموفق ، وكان نصرانيا اسلم على يد السلطان ، وكان غزير المروءة ، حسن الأخلاق كريم العشرة جوادا مهيبا متعصبا للناس عند السلطان ، ويقتضي حوائجهم ، وكان قد صاحبه صبي من المسلمين اسمه عمر ، وكان حسن الصورة فأحسن إليه ، وكان الموفق يحب أهل البيت ، ويبغض ابن عنين الشاعر لخبث لسانه ولقبح هجائه وطلبه لأعراض الناس ، ويحرض السلطان على ذفيه من البلاد ، وقال اليس هو القاتل :

سلطاننا أعرج وكاتبه

أعمش والوزير منحذب

فهجاه ابن عنين وقال

قالوا الموفق شيعي فقلت لهم

هذا خلاف الذي للناس منه ظهر

فكيف يجعل دين الرفض مذهبه

وما دعاه الى الاسلام غير عمر

وكان الموفق يعود الفقراء المرضى ، ويحمل اليهم من عنده الاشربة والادوية حتى أجرة الحمام ، وزوجه السلطان بجارية له يقال لها جورة ، وكانت من حظايا السلطان ، ونقل معها جهازا عظيما ، وقال ليلة عرسها احملوا اليه المطبخ ، فنزل الموفق جامع دمشق ليصلي العصر ، فجاء اليه صوفية الخانكاه وطلبوا منه سمعا بالخانكاه ، فقال: سمعا وطاعة ، وقام فدخل الى الخانكاه الصميصاطي واستدعى مطبخ السلطان من دار العقيقي ، واحضر المغاني والحلاوة الكثيرة الى الخانكاه ، ونزلت العروس مع حظايا

السلطان الى دار العقيقي ، فسأقمن طول الليل ، وهو عند الصوفية ، وهم يرقصون ، وما علموا انها ليلة عرسه فاستحى ان يعرفهم ، فلما كان في آخر الليل قيل للصوفية ايش عملتم الرجل الليلة عريس على جارية السلطان ، والساعة يبلغ السلطان فيغضب فجاءوا اليه بأجمعهم ، واعتذروا وسألوه ان يمضي فقال: لا والله الى الصباح ، وبلغ السلطان فقال: الام على هذا وتقريبه ، فكانت وفاته في ربيع الاول بدمشق ، ودفن بقاسيون على قارعة الطريق عند دار زوجته جورة ، ولما مات اشترت زوجته دارا وبنت الى جنبها مسجدا ، وبنت له تربة وهي تعرف اليوم بتربة جورة ولما قدمت الشام سنة ثلاث وستمئة كانت جورة ، باقية وكانت صالحة عابدة .

فصل

وفيهما توفي القاضي أبو القاسم قاضي حماه ، واسمه الحسين ، ابن حمزة بن الحسين كان فاضلا جوادا سمحا لا ينزل قدره عن النار ، يضيف الخلائق من الخاص والعام ، وما اجتمع أحد بحماة من الاكابر الا وأضافه ، وكان صلاح الدين يحبه ، وكذا العادل وتقي الدين ، وبلغني ان العادل اجتاز بحماة فأرسل الى القاضي يقول له: اريد الحمام خلوة ، فأخلاه فما خرج العادل من الحمام الا وقد جهز له من الفواكه ، وكان قد تزوج بدمشق خطلخ خاتون بنت سودكين فأولدها ابنة وسمها زينب ومات القاضي وهي صغيرة ، فلما بلغت تزوجها رجل من أهل حماة يقال له اسماعيل ابن العرباض ، ثم مات عنها ، قلت فتزوجتها في سنة عشرين وستمئة وتوفيت في سنة ثلاث واربعين وستمئة وانا ببغداد ، فدفنوها بتربتي بقاسيون ، وخلف ابو القاسم ولدا ذكرا ، ولولده اولاد ، ومات القاضي وهو على قضاء حماة رحمه الله تعالى .

وفيهما توفي الامير سليمان بن حنذر من اكابر أمراء حلب ومشايخ

الدولتين النورية والصلاحية، وهو والد صديقنا علم الدين بن سليمان، وشهد سليمان مع السلطان حروبه كلها، وهو الذي أشار بخراب عسقلان لتتوفر العناية على حفظ القدس، ولما صعد السلطان إلى القدس مرض سليمان فطلب المسير إلى حلب فأذن له السلطان، فسار فتوفي بغاغب في أواخر ذي الحجة وحمل إلى حلب فدفن بها.

وفيها توفي حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين، ابن أخت صلاح الدين صاحب نابلس، واسمها ست الشام، وكان شجاعا مقداما جوادا، توفي ليلة الجمعة تاسع رمضان بدمشق، وبينه وبين وفاة تقي الدين ساعات، ففجع السلطان بابن أخيه وابن اخته في يوم واحد، ودفن بالتربة التي أنشأتها والدته بالعوينة بظاهر دمشق.

وفيها توفي الصفي بن القابض وزير صلاح الدين، واسمه نصر الله، وكان قد خدم السلطان لما كان بشحنة دمشق، وأمه بالمال، فرأى له ذلك فلما ملك استوزره، وكان شجاعا ثقة بينا أمينا، فلما نزل الفرنج داريا، والسلطان في الشرق جمع من أهل دمشق سوادا عظيما، وخرج إلى ظاهر البلد، فظنّوهم عسكريا فرحلوا وكان كثير المعروف، وكتب أملاكه لمالكيه لأنه لم يكن له ولدا، وبني بالعقيدة مسجدا ودفن به في رجب، ويعرف اليوم بمسجد الصفي...

السنة الثامنة والثمانون وخمس مائة

وفيها في ربيع الأول ولي جدي مدرسة الشيخ عبد القادر، فذكر الدرس بها

وقال ابن القادسي: وفي جمادى الأولى جاس الشيخ أبو الفرج بن

الجوزي عند تربة أم الخليفة المجاورة لمعروف الكرخي ، فتاب مائة وثلاثون شخصا ومات ثلاثة في المجلس بوجدهم .

وفيها حبس الخليفة طاشتكين امير الحاج ، وكان في قلبه منه من ذوبة ابن يونس وتقصيره في القتال ، ونقل إلى الخليفة انه يكاتب صلاح الدين ، وكبر عنه ابن يونس ، فاعتقله تحت التاج واختفى خبره بحيث أقام سنين لم يطلع له على خبر .

وفيها كانت ذوبة الخويفة ، وكان السلطان قد كتب الى مصر يستدعي العساكر ، فاجتمع على بلبس خلق عظيم وقافلة عظيمة فيها اموال الدنيا ، وكان الانكلتار يتربص مجيئهم فبعث السلطان يحذرهم وقال ابعدوا في البرية ، وبلغ الانكلتار قريتهم ، فركب من تل الصافية في ألف فارس مردفين بألف راجل ، وساروا حتى نزلوا ماء يقال له الحسي ، وجاء الانكلتار فكبسهم بغتة قبيل الصبح وهم غارون ، فالتسعيد من نجا بنفسه ، وكانت ذوبة لم يجر مثلها في الاسلام ، ساقوا من الجمال ثلاثة آلاف جمل ، ومن الخيل ألفا وخمسمائة فرس ، ومن البغال مثلها ، ومن المسلمين خمسمائة اسير ، ومن العين ألف ألف دينار ، ومن الثياب مثلها ، وكان في القافلة فلك الدين أخو العادل لأمه ، فنجا على فرسه وعاد الفرنج إلى تل الصافية في سادس عشر جمادى الآخرة وبلغ السلطان فاسقط في يده وقال : الأمر لله .

ولما حصل ذلك بيد الافرنج ، عزموا على قصد مصر ، ثم عدلوا الى القدس ، وبعث الانكلتار الى البلاد الساحلية ، فاستدعى الفارس والراجل ، فجاءه خلق عظيم ، فسار من الرملة الى بيت ذوبة ، ووصل الانكلتار الى القبيبة في نفر يسير ، وشاهد القدس ، وعاد الى بيت ذوبة .

وكان السلطان في القدس ، فشاور الأمراء ، وقال انتقم جند الاسلام ومنعته ودماء المسلمين واموالهم واهاليهم متعلقة

بكم ، فان خفتهم طووا البلاد طيا ، وكنتم المطالبين بذلك ، فقالوا: نحن مماليكك وما تطير رؤوسنا الا بين يديك ، واقترقوا على هذا ، فلما كان في الغد اختلفوا فقال بعضهم : ما نقيم حتى يكون السلطان معنا ، نخاف ان يجري علينا ما جرى على اهل عكا .

وبلغ السلطان فبعث اليهم يقول: هذا مجد الدين فرخشاه ابن أخي يكون عندكم ، وأكون أنا من وراء أذب عنكم ، فقالوا: ما هذا برأي وانما نخرج ونصدقهم الدملة ، فإن قهرناهم والا نسلام العسكر ونمضي الى دمشق ، فعز عليه ذلك خوفا على القدس ومن فيه من المسلمين ، وبات ليلة الجمعة ساهرا باكيا متضرعا ، وبعث بالصدقات الى الفقراء ، وطلع الفجر فجلس الى الضحى يدعو ومضى الى المسجد الأقصى ، فدخل المقصورة وسجد وبكى وتضرع الى الله تعالى .

وكان جريدك في اليك ، فجاءت منه رقعة يقول: قد ركبوا بأسرهم ، وبات السلطان ليلة السبت قلقا لم يعرف المنام ، فلما طلع الصباح جاء جريدك مسرعا فقال السلطان: يهنيك رحلوا نحو الرملة ، فسجد السلطان وانكشفت أخبارهم ، وسبب رحيلهم ذلك لان السلطان كان أمر بطم الصهاريج والآبار التي كانت حول القدس ، فقال لهم الانكلتار : ومن أين نشرب؟ قالوا : من العيون التي حول القدس ، فقال يتخطفوننا فحكموا منهم ثلاثمائة من علمائهم ، وحكم الثلاث مائة اثني عشر ، وحكم الاثنا عشر ثلاثة على عانتهم في النوازل ، فباتوا يتشاورون فترجع عندهم الرحيل ، وقالوا: السلطان حاضر ، ومعه العساكر ، فارحلوا فرحلوا طالبين عكا ، وكانوا قد اخذوا يافا وحصنوها .

فأقام السلطان بالقدس حتى تيقن وصولهم الى عكا ، فخرج فنزل على يافا وحصنها وتعلق النقابون في الأسوار ، وملك المدينة وأشرفوا على أخذ القلعة فصاح أهلها الأمان ، ونهب المسلمون البلد فوقف ممالك السلطان على الأبواب كل من خرج ومعه شيء

أخذوه وعز ذلك على الأمراء والأكراد ، وسلموا القلعة ، وبعث السلطان لها جماعة من أصحابه وبقى فيه من الفرنج أربعون رجلا ، فبينما هم على ذلك انذاحت مراكب يسيرة ، فرأوا علم السلطان عليها فظنوا أنه قد أخذها فتوقفوا ، وقويت نفوس الفرنج الذين في القلعة ، وعلموا أنها مراكب الانكلتار فرمى واحد نفسه في الماء ، وسبح اليهم وقال: تقدموا فارسوا إلى المينا ، وكانت خمسة وثلاثين مركبا ، ووصل الانكلتار ، فهرب المسلمون من البلد وتأخر السلطان إلى يازور ، وجاء الانكلتار فنزل في منزلة السلطان ، ولم يكن معه سوى عشرين فارسا ، وثلاثمائة راجل ، وعشرين خيمة ، والسلطان في ألوف ، فبعث إلى السلطان يقول: أنت سلطان عظيم ، ومعك هذا الجيش الكثير ، ومعظم عساكر المسلمين ، فكيف رحلت عن منزلتك عند وصولي ، وليس عندي احد ، ولا طلعت من البحر إلا بزيولي ، فغضب السلطان ، وبات على غضب ، فلما أصبح ركب وركبت العساكر والانكلتار نازل على حاله لم يصل إليه من الفرنج أحد ، فحمل إليه المسلمون ، وهو في عشرين فارسا وثلاثمائة راجل ، فلم يتحرك ، فعظم على السلطان وصاح بالأطلاب: ويحكم وكم معه وأنتم عشرة آلاف وزيادة ، فلم يجبه أحد وقال له الجناح أخو المشطوب يقل لعلوك الذين ضربوا الناس بالأمس وأخذوا كسبهم ، ويقال ان الانكلتار أخذ رمحهم وحمل من طرف الميمنة إلى طرف الميسرة ، فلم يعترض أحد وساق السلطان من حينه إلى النطرون .

ونزل في خيمة صغيرة وحده وانفرد ، ولم يتجاسر أحد أن يكلمه ، وجاءت رسل الانكلتار إلى السلطان يقول: قد هلكنا نحن وأنتم وما طلبت الصلح لتقصير وضعف مني بل حرصا على المصلحة العائد نفعها علينا وعليكم .

ثم وقع الاتفاق على أن البلاد الساحلية التي بأيدي الفرنج هي لهم ، والبلاد الجبلية التي فيها القلاع تبقى بأيدي المسلمين ، وما بين العاملين يكون مناصفة ، واختلفوا في عسقلان ، ثم اتفقوا أنها

تكون للفرنجة خرابا لاتعمر ، وأعطاهم السلطان القمامة ، وكتبوا كتاب الصلح ، واتفقوا ولم يؤاخذ السلطان الجناح بـل عفا عنه ، وكان عفوه من كمال عفوا السلطان ، لأن الناس كلوا وملوا وعلتهم النديون وذلوا ، وخاف السلطان ايضا على البيت المقدس ، وانهقد الصلح ، وارتفعت أصوات الفريقين وضجوا فرحا وسرورا ، وكان يوما عظيما ، واختلط الفريقان وزال بينهم الشنآن ، وسار الانكلتار في البحر طالبا بلاده ، فمات قبل أن يصل اليها ، وعاد السلطان إلى دمشق ، وعزم على الحج ففيل له : البلاد خراب ، وما نأمن من غدر الفرنج فتوقف .

فصل

ووصل الى السلطان كتاب في غرة السنة من اليمن أن ثلاثة أنهار من الحبشة تغيرت ، كانت عذبة فصار الواحد أجاجا ، والآخر لبنا والثالث دما .

وحج بالناس من بغداد فلك الدين ، ومن الشام درباس الكردي .

فصل

وفيه توفي سنان بن سليمان ، صاحب الدعوة بـقـلاع الشام ، وأصله من البصرة ، وكان في حصن الموت ، فرأى منه صاحب الأمر في تلك البلاد نجابة وشهامة ويـقـظـة ، فسيره الى حصون الشام ، وكانت له معرفة وسياسة وحذق في استجلاب القلوب ، وكان مجيئه الى الشام في أيام نور الدين محمود ، فأقام واليا ثلاثين سنة ، وجرت له مع السلطان قصص ، وبعث اليه جماعة فوثبوا عليه ، وقد ذكرناه وفي عزم السلطان قصده ، ولم يعطه طاعة قط ، ولما صالح السلطان الأفرنج وعزم على قصده توفي .

ويحكى عنه الغرائب والعجائب ، وفي الجملة أنه كان كما وصفنا ولم يقم أحد بعده مقامه.

فصل

وفيهما توفي سيف الدين المشطوب ملك الهكارية ، واسمه علي بن أحمد الهكاري ، كان شجاعا صابرا على الحرب مطاعا في قبيلته ، دخل مع أسد الدين شيركوه إلى مصر في المرات الثلاث ، وشهد فتح مصر ولزم خدمة السلطان ، فكان ممن أسر بعكا ففدى نفسه بخمسين ألف دينار عجل منها عشرين ألفا ، وأعطاهم رهائن بالباقي ، وأطلق فأحسن السلطان إليه وأعطاه نابلس وأعمالها فجار ديوانه على أهلها ، فاتفق أن السلطان اجتاز بنابلس من القدس في عوده إلى دمشق ، فاجتمع أهلها وشكوا إلى السلطان واستغاثوا فقال : ما لهؤلاء ؟ قالوا : يتظلمون من المشطوب ، وهو راكب بين يديه ، فقال : يا علي لو كان هؤلاء يدعون لك حتى يسمع الله ، فكيف وهم يدعون عليك .

واختلفوا في وفاته ، فقال العماد الكاتب : مات المشطوب في نابلس في آخر شوال ، وقال القاضي ابن شداد : مات في القدس ، وصلي عليه في المسجد الاقصى ، ودفن بداره .

وفيهما توفي قليج ارسلان بن سليمان بن قتلمش بن اسرائيل بن سلجوق ، صاحب بلاد الروم ولقبه عز الدين .

وفيهما توفي المركيس صاحب صور ، قدم عليه راهبان فلزما الكنيسة وتعبدا عبادة زائدة ، وبلغه خبرهما فقربهما ، ولم يكن يصبر عنهما ، فأغفلوه ليلة وذبحاه فأخذا وقررا فقالا : نحن من الاسماعيلية ، فقتلا وسر الانكلتار بقتله ، لأنه كان يضاهيه ويضاده ، ویراسل السلطان في الاعانة عليه ، فلما قتل استقل

الانكلتار بالامر ، وزوج الانكلتار زوجة الماركيس بكندھري ابن اخت ملك الانكلتار من أبيه ، وابن اخت ملك الافرنسيس من أبيه ، وأقام الانكلتار كندھري موضع الماركيس ، وكانت امرأة الماركيس حاملا منه فدخل بها كندھري وهي حامل ، وما ذاك عيب عندهم في بين النصرانية ، ويكون الولد مذسوبا لأمه ، وكان الملك في المملكة فأقام كندھري ملك الافرنج سبع سنين

السنة التاسعة والثمانون وخمسمائة

ويقال لها سنة الملوك مات صلاح الدين ، وبكتمر شاه أرمن وعز الدين صاحب الموصل

وفيها توفي بكتمر بن عبد الله مملوك شاه أرمن بن سكرمان صاحب خلاط ، مات شاه أرمن ولم يخلف ولدا ، فاتفق خواصه على بكتمر ، فضبط الأمور وأحسن إلى الرعية ، وعدل فيهم ، وصاحب العلماء والصوفية ، وكان حسن السيرة متصدقا صالحا دينا جاءه أربعة من الصوفية ، وكان لا يمنع صوفي ، فتقدم إليه واحد فمنعه الخازندارية ، فقال دعوه فتقدم وبيده قصة فأخذها منه فضربه بسكين فشق جوفه ، فمات من ساعته ، فأخذوهما وقرروهما فقالا : نحن من الاسماعيلية ، وكانوا قد شفّعوا إليه في أمر لا يليق ، فلم يقبل شفاعتهم فعملوا هذا ، فأحرقوا ، وذلك في جمادى الاولى وخلف بكتمر ولدا صغيرا

فصل

وفيها توفي عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي بن أقسنقر صاحب الموصل ، كان خفيف العارضين أسمر مليح اللون ، عادلا منصفًا محسنًا عاقلا جوادا ، صبر على حصار صلاح الدين للموصل ثلاث مرات حفظا على البلاد ، وفرق الأموال ودارى حتى سلم له الملك ،

وكان قد بنى في داره مسجدا يخرج إليه في الليل ، ويصلي فيه أورادا كانت له ، ويلبس فرجية أهداها له الشيخ عمر المسناني الصوفي فيصل فيها ، وكان قد خرج من الموصل في جهاد ، لقتال الملك العادل سيف الدين بن أيوب ، وكان على حران بعد موت صلاح الدين ، ثم عاد في سابع عشرين شعبان مريضا فاحتضر فجعل يتشهد ويذكر الله تعالى ويقر بالشهادتين ، وعذاب القبر ، ومذكر ونكير والصراط والحساب والميزان ، وتوفي ودفن بمدرسته التي أنشأها بالموصل بمقابر دار السلطنة ، وكانت أيامه ثلاث عشرة سنة وستة أشهر ، وأوصى بالملك إلى ولده الأكبر نور الدين أرسلان شاه ، وكان أخوه شرف الدين مودود يروم السلطنة ، فصرها عنه أخوه عز الدين إلى ولده نور الدين أرسلان شاه ، وقام بالأمور مجاهد الدين قيمان أحسن قيام

فصل

وفيها توفي الملك السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي بن مروان ، من أولاد خلفاء بني أمية ، وذكر ابن القادسي ، أن شاذي مملوك بهرون ، وهذه من هنات ابن القادسي ، وما كان شاذي مملوكا قط ولا جرى على أحد من بني أيوب رق ، وإنما شاذي خدم بهرون الخادم في قلعة تكريت ، استنابه فيها وقد ذكرناه .

ذكر طرف من أخباره

ولد صلاح الدين بتكريت في سنة اثنتان وثلاثين وخمس مائة ، ونشأ في حجر أبيه أيوب ، وربى في الدولة النورية ، وولاه نور الدين دمشق ، وخرج مع عمه أسد الدين إلى مصر فملكها ، وقد ذكرنا ذلك أولا ، وكان شجاعا سمحا جوادا مجاهدا في سبيل الله ، يجود بالمال

قبل الوصول إليه ، ويحيل به ، ومتى عرف وصول حمل وقع عليه بأضعافه ، وما خيب أحدا بالرد وإن لم يكن عنده شيء لطف به كأنه غريم يستمهله ، وكان مغرما بالانفاق في سبيل الله وحسب ما أطلقه ووهبه مدة مقامه على عكا مرابطا للفرنج من رجب سنة خمس وثمانين وخمسمائة الى يوم انفصاله عنها في شعبان سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ، مدة ثلاث سنين وكسر ، فكان اثني عشر ألف رأس من الخيل العرباب والاكاديش الجياد ، للحاضرين معه في الجهاد ، والقادمين عليه من البلاد ، غير ما أطلقه من الاموال في أثمان الخيل المصابة في القتال .

وقال العماد : ولم يكن له فرس يركبه إلا وهو موهوب ، ولا جاءه قود إلا وهو مطلوب وما كان يلبس الا ما حل لبسه وتطيب به نفسه ، كالكتان والقطن والصوف ، ويخرج عالي أثمان كسوته في أثمان المعروف ، ومجالسه منزهة عن الهزء والهزل ، ومحافله حافلة بأهل العلم والفضل ، وما سمعت منه قط كلمة فحش ولا كلمة تسقط ولا لفظة تسخط ، ويؤثر سماع الاحاديث بالاسانيد ، ويتكلم عنده في العلم الشرعي المفيد ، ويلين للمـــــــؤمنين ويغلظ على الكافرين ، ومن جالسه لا يعلم أنه جليس سلطان ، بل يعتقد أنه أخ من الاخوان ، وكان حليما ، مقيلا للعثرات ، متجاوزا عن الهفوات ، تقيا وليا صفيا ، ماردا سائلا ، ولا صدائلا ، ولا أخجل ولا خيب أملا .

قال : وشكا إليه أيوب بن كتعان دينا ، مبلغه اثنا عشر ألف دينار ، فقضاه عنه ، قال : وكتب إليه سيف الدولة بن منقذ ، نائبه بمصر ، أن بعض الضمان انكسر عليه مال كثير ، وربما وصل إلى الباب ويتمحل ، فلما كان بعد أيام وصل ذلك الرجل إلى الباب ، وتمحل وبلغ السلطان ، فأرسل إليه يقول احذر احذر أن تقع في عين ابن منقذ .

قال العماد : ورأى معي يوما دواة محلاة ، فأنكر علي ، وقال :

ما هذا ؟ فلم اكتب بعد بها عنه أبدا ، قال : وكان محافظا على الصلوات في أوقاتها ، مواظبا على مفروضاتها ومسنوناتها ، ومارأيته يصلي إلا في جماعة ، ولم يؤخر صلاة من ساعة إلى ساعة ، ولا يلتفت إلى قول منجم ، وإذا عزم على أمر توكل على الله الذي يقدم ويؤخر .

وذكره القاضي ابن شداد في السيرة وأثنى عليه ، وحكى عنه العجائب ، فمن ذلك انه قال : كان حسن العقيدة ، كثير الذكر لله تعالى ، وإذا جاء وقت الصلاة ، وهو راكب نزل فصلى وماتركها إلا في مرضه ، الذي مات فيه ثلاثة أيام اختلط فيها ذهنه ، وكان قد قرأ عقيدة القطب النيسابوري ، وعلمها أولاده الصغار ، ليرسخ في أذهانهم من الصغر وكان يأخذها عليهم .

وأما الزكاة فإنه مات ولم تجب عليه قط ، وأما صدقة الزواجل فاستندفت أمواله كلها ، وكان يحب سماع القرآن ، واجتاز يوما على صبي صغير بين يدي أبيه ، وهو يقرأ القرآن ، فاستحسن قراءته ، فوقف عليه وعلى أبيه مزرعة .

قال : وكان شديد الحياء ، خاشع الطرف ، رقيق القلب ، سريع الدمعة ، شديد الرغبة في سماع الحديث ، وإذا بلغه عن شيخ رواية عالية ، وكان ممن يحضر عنده استحضره ، وسمع عليه ، وأسمع أولاده ومماليكه وأمرهم بالعود عند سماعه إجلالا له ، وإن لم يكن يحضر عنده ولا يطرق أبواب الملوك ، سعى اليه وسمع منه ، وروى عنه ، وتردد اليه ، ومضى إلى الاسكندرية ، وسمع الحديث الكثير من الحافظ السلفي ، ومن ابن عوف الموطأ ، وكان مبغضا لكتب الفلاسفة ، وأرباب المنطق ، ومن يعاند الشريعة ولما بلغه عن السهروردي ما بلغه أمر ولده الملك الظاهر بقتله ، وكان محبا للعدل له اثنان وخمسون مجلسا للعلم تحضره القضاة والفقهاء ، ويصل إليه الصغير والكبير والشيخ والعجوز ، وما استغاث إليه أحد إلا وأجابه وكشف ظلامته ، واستغاث اليه زهير الدمشقي على تقي

الدين عمر وقال : ما يحضر معي مجلس الشرع ، فأمر تقي الدين بالحضور معه ، وكان أعز الناس عليه تقي الدين .

قال : ولقد ادعى رجل على السلطان أن سنقر الخلاطي مملوكه مات على ملكه ، قال : فأخبرته فأحضر الرجل ، وتزحزح عن طراحته وساواه في الجلوس ، فادعى الرجل ، فرفع السلطان رأسه إلى جماعة الشيوخ من الأمراء الخيار ، وهم وقوف على رأسه ، فقال : لمن تعرفون سنقر الخلاطي ؟ قالوا : نشهد أنه مملوكك ، وأنه مات على ملكك ، ولم يكن للرجل بينة فأسقط في يد الرجل ، قال : قلت يامولانا رجل غريب ، وقد جاء من خلاط في طمع ونفدت نفقته ، وما يحسن أن يرجع من المولى خائباً ، فقال : يا قاضي هذا إنما يكون على غير الوجه ، ووهب له خلعة ونفقة وبغلة وأحسن إليه .

قال : وفتح أمد ووهبها لابن قرا أرسلان ، واجتمع عنده وفود بالقدس ولم يكن عنده مال قباع ضيعة من بيت المال ، وفرق ثمنها فيهم ، قال : وسألت ابن بير زان يوم انعقاد الصلح عن عدة الفرنج الذين كانوا على عكا وهو جالس ، فقال للترجمان : قل له كانوا خمسمائة ألف إلى ستمائة ألف ، قتل منهم أكثر من مائة ألف ، وغرق معظمهم ، وكان يوم المصاف يدور على الاطلاق ويقول : هل أنا إلا واحد منكم ، وكان في الشتاء يعطي العساكر دستورا وهو نازل على برج عكا ، ويقيم طول الشتاء في حلقته في نفر يسير ، قال : وكنا على الرملة فجاءه كتاب بوفاة تقي الدين ، فقال : وقد خنقته العبرة : مات تقي الدين ، ولم يعلم بذلك أحد حتى عاد العدو ، ولقد واجهه الجناح على يافا بذلك الكلام القبيح فما قال له كلمة وقد استدعاه فأيقن بالهلاك ، وارتقب الناس أن يضرب رقبتهم فأطعمه فأكهة جاءت من دمشق وسقاه ماء وتلجا ، قال : وكان للمسلمين لصوص يدخلون خيام الفرنج في الليل ويسرقونهم ، فسرخوا ليلة صبيا فباتت أمه تبكي طول الليل ، فقال لها الفرنج : إن السلطان رحيم القلب فانهبي إليه ، فجاءته وهو على تل الخروبة

راكب ، فعفرت وجهها وبكت فسأل عنها ، فأخبروه بقصتها فرق لها ودمعت عيناه ، وتقدم إلى مقدم اللصوص باحضار الطفل ، ولم يزل واقفا حتى أحضره ، فلما رآته بسكت وأخذته وأرضعته ساعة ، وضمته إليها ، وأشارت الى ناحية الفرنج ، فأمر أن تحمل على فرس وتلحق بالفرنج ففعلوا .

وقال : وكان حسن العشرة ، طيب الخلق ، حافظا لانساب العرب ، عارفا بخيولهم ، طاهرا للسان ، والقلم ، فماشتم أحد قط ، ولا كتب بيده ما فيه أذى مسلم ، وما حضر بين يديه يقيم إلا ويترحم على مخالفه وجبر قلبه وأعطاه ما يكفيه ، فإن كان له كافل وإلا كفله ، وسرق من خزانته يوما ألفا دينار ، وجعل في الكيسين فلوس فما قال شيئا ، وذكر القاضي من مناقبه الغرر وسطر من فضائله مازين به التواريخ والسير .

قلت : حكى لي المبارك سندقر الحلبي قال : كان الحجاب يزبحمون على طراحته فجاء سندقر الخلاطي ، ومعه قصص فقدم له قصة ، وكان السلطان قد مديده اليمنى على الأرض ليستريح ، فداسها سندقر الخلاطي ، ولم يعلم ، وقال له : علم عليها فلم يجبه ، فكرر عليه القول ، فقال له : ياطواشي أعلم بيدي أو برجلي ؟ فنظر سندقر قرأى يد السلطان تحت رجله فخجل وتعجب الحاضرون من هذا الحلم ، ثم قال السلطان : هات القصة فعلم عليها ، ومازال السلطان على هذه الاخلاق حتى توفاه الله تعالى إلى مقر رحمته ورضوانه .

ولما كان السادس عشر من صفر وجد كسلا ، وحمل حمى صفراوية ، وكان قد ركب فالتقى الحاج ، فركب وبكى ، وتأسف حيث لم يكن معهم ، وأصبح يوم السبت والحمى بحالها ، وتزايد به المرض حتى ضعف ، وأجمع الاطباء على أنه لايفصد فخالفهم الرحيبي وفصده ، فكان سبب وفاته ، وحجب عن الرجال ، وتولاه النساء وأحضر الأفضل والامراء ، سعد الدين مسعود ، أخو بدر

الدين مودود ، وشحنة دمشق ، وناصر الدين صاحب صهيون ،
وسابق الدين عثمان صاحب شيزرابن الداية ، وميمون القصري
وأبيك الفارسي ، وأبيك فطيس ، وحسام الدين بشارة ، وسامة
الجبلي ، وغيرهم فاستحلفهم لنفسه ، وكان عنده أبو جعفر إمام
الكلاسة يقرأ القرآن ، فلما انتهى الى قوله تعالى (هو الله الذي لا
اله الا هو عالم الغيب والشهادة) (٣٦) وقد كان غاب ذهنه فقال
صحيح ، وكانت وفاته يوم الاربعاء بعد صلاة الفجر السابع
والعشرين من صفر ، وغسله الخطيب الدولي ، وصلى عليه القاضي
محيي الدين بن الزكي ، وبعث إليه القاضي الفاضل الاكفان
والحنوط من أحل الجهات ، ودفن بدار البستان موضع جلوسه .

قال ابن القاسي : ودفن معه سيفه ، قال الفاضل هذا يتوكل عليه
في الجنة ، وهو وهم من ابن القاسي ، لأن سيفه بعث به ولده
الافضل إلى بغداد ، وسنذكره .

وعمل الافضل العزاء ثلاثة أيام وحزن الناس عليه حزنا لم يحزن
قبله مثله على غيره .

قال العماد : دخلنا عليه ليلة الأحد العيادة ، ومرضه في زيادة ، وفي
كل تضعف القلوب ، وتتضاعف الكروب ، ثم انتقل من دار الفناء
الى دار البقاء سحرة يوم الاربعاء ، ومات لموته رجاء الرجال ،
وأظلم لغروب شمس فضاء الافضال ، ودفن بقلعة دمشق في
مسكنه ، ودفن جماع الكرم والفضل في مدفنه ، ورثاه الشعراء ،
وبكاه الفصحاء ، فمن ذلك قصيدة ذكرها العماد في البرق الشامي ،
عندها مائتان وعشرون بيتا ذكرت ههنا غررها ، وسطرت دررها
فاولها يقول :

شمل الهدى والملك عم شتاته
والدهر ساء واقلعت حسناته

ومنها

بالله أين الناصر الملك الذي
لله خالصة صفت نيّاته
أين الذي مذ لم يزل مخشية
مرجوة وثباته وهباته
أين الذي كانت له طاعاته
مبذولة ولربه طاعاته
أين الذي مازال سلطانا لنا
يرجى نداءه وتتقى سطواته
أين الذي شرف الزمان بفضله
وسمت على الفضلاء تشريفاته
لاتحسبوه مات شخصا واحدا
بل عم كل العالمين مماته
ملك عن الاسلام كان محاميا
أبدا لماذا أسلمته حماته
قد اظلمت مذ غاب عنا دوره
لما خلت من بدره داراته
دفن السماح فليس تنشر بعدما
أودى إلى يوم النشور رفاته
الدين بعد أبي المظفر يوسف
أقوت قواه واقفرت ساحاته
بحر خلا من واربيه ولم تزل
محفوفة بوفوده حافاته
من اليتامى والارامل راحم
متعطف مفضوضة صدقاته
لو كان في عصر النبي لأنزلت
من ذكره في ذكره آياته
بكت الصوارم والصواهل إنخلت
من سلها وركوبها عزماته

يا وحشة الاسلام حين تمكنت
من كل قلب مؤمن روعاته
ما كان أسرع عصره لما انقضى
فكأنما سنواته ساعاته

ياراعيا للدين حين تمكنت
منه الذئاب واسلمته رعاته
ما كان ضرك لو أقمت مراعيها
بيننا تولى مذ رحلت ولاته
فارقت ملكا غير باق متعبا
ووصلت ملكا باقيا راحاته
فعلى صلاح الدين يوسف دائما
رضوان رب العرش بل صلواته

وكتب الفاضل الى الظاهر وهو بحلب كتاب التعزية يقول فيه :
(لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة) (٣٧) الآية : كتبت الى
الملك الظاهر أحسن الله عزاءه في مصابه ، وجعل الخلف فيه لماليك
المرحوم وأصحابه ، والدموع قد حفرت الزواجر ، والقلوب قد بلغت
الحناجر ، فإني قد ودعت أباك مخدومي وداعا لانتقي بعده ،
واسلمت الى الله طالبا فضله ورفهه ، ولم تدفع عنه جذوده القضاء ،
ولاردت عنه الاسلحة والخزائن البلاء ، والعين تدمع والقلب
يخشع ، ولانقول ما يسخط الرب وإنما عليك يا يوسف لحزون :
وفي آخر الكتاب : فان اتفقتما ما عدمتم إلا شخصه ، وإن اختلفتم
فالمصائب المستقبليّة هولها عظيم .

قلت : قد فات الفاضل شيئان أحدهما النعيم ، والثاني عند قوله
هولها عظيم ، كان ينبغي أن يقول : (ذلك تقدير العزيز
العليم) (٣٨) .

ذكر ما خلفه ، واختلفوا فيه

ذكر القاضي ابن شداد في سيرة السلطان وقال توفي ، ولم يخلف سوى سبعة وأربعين درهما ناصرية وجرما واحدا صوريا ذهبيا ولم يخلف دارا ولا عقارا ولاضيعة ولا بستانا ولا سقفا ولا غيره ،

وقال العماد الكاتب : لم يخلف في خزائنه سوى ستة وثلاثين درهما ، وبينارا واحدا ذهبيا - ذكر بمعنى ما ذكر ابن شداد .

ذكر فتوحاته :

اول ما فتح الديار المصرية ، والحجاز ومكة والمدينة ، واليمن من زبيد الى حضرموت متصلا بالهند ، وفي الشام : دمشق وبعلبك وحمص وبانياس وحماة وحلب وأعمالها ، ومن حصون الساحل بلاد القدس وغزة والداروم وتل الصافية وعسقلان ويافا وقيسارية وحسي وعكا وطبرية والشقيف وصفد وكوكب والكرك والشوبك ونابلس وصيدا وبيروت وجبيل وجبله واللاذقية والشفر وبكاس وصهيون وبلاطنس وحصن برنية وقد ذكرنا تلك الحصون .

ومن الشرق حران والرها والرقه ورأس العين وسنجار ونصيبين وجملين والموزر ، وسروج وديار بكر وميافارقين وأمد وحصونها وشهرزور والبوازيج ، وخطب له على المنابر من باب همذان الى الفرات ، ومن الفرات الى حضرموت ، ومن المغرب إلى إفريقية .

ويقال انه فتح ستين حصنا ، وزاد على نور الدين بمصر والحجاز والمغرب واليمن والقدس ، والساحل وبلاد الفرنج ، وديار بكر ، ولو عاش لفتح الدنيا شرقا وغربا وبعدا وقربا ، وإن كان مبدأ فتوحه مصر بهمة نور الدين وأمواله وعساكره ورجاله ، وبينهما

مقاربة في السيرة والعدل والايام واجتناب الاثام وكلاهما لم يبلغ ستين سنة ولا خلا من فضيلة ومزينة حسنة ، وقد ذكرنا ان نور الدين ولد في سنة احدى عشرة وخمسمائة ، وتوفي سنة تسع وستين وخمسمائة ، وولد صلاح الدين سنة اثنتان وثلاثين وخمسمائة وتوفي سنة تسع وثمانين وخمسمائة وقد ذكرنا ذلك .

ذكر اولاده

كانوا ستة عشر ذكرا وابنة واحدة ، وكان اكبر اولاده الافضل علي ولد بمصر سنة خمس وستين وخمسمائة يوم عيد الفطر ، وأخوه لاييه وأمه خضر الملقب بالظافر ، ولد بمصر سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة واخوهما لاييهما وأمهما موسى ويلقب قطب الدين ، ولد بمصر سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة ، وعثمان الملك العزيز ولد بمصر سنة سبع وستين وخمسمائة ، واخوه لاييه وأمه يعقوب الاعز ، ولد بمصر سنة اثنتان وسبعين وخمسمائة ، وغازي الملك الظاهر ولد بمصر سنة ثمان وستين وخمسمائة ، واخوه لاييه وأمه . الزاهر داود ولد بمصر سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة ، والمعز اسحاق ولد سنة سبعين وخمسمائة ، والمؤيد واسمه مسعود ولد بدمشق سنة احدى وسبعين وخمسمائة ، والأشرف محمد ولد بالشام سنة خمس وسبعين وخمسمائة ، واخوه لاييه وأمه ملك شاه ، ويلقب بالغالب ولد بالشام سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ، واخوهما لاييهما وأمهما أبو بكر ، ويلقب بالنصرة ولد بخران بعد وفاة أبيه في سنة تسع وثمانين وخمسمائة .

وأما البنت فاسمها مؤنسة خاتون ، تزوجها الكامل محمد بن العادل ماتت عنده ، وكان لصلاح الدين ولد اسمه اسماعيل مات في حياة أبيه .

ذكر قضاته ووزرائه وكتابه

القاضي كمال الدين بن الشهر زوري ، وشرف الدين بن أبي
عصرون ، وولده أبو حامد ومحيي الدين بن زكي الدين ، ووزيره
صفي الدين بن القابض ، وكتابه : الفاضل ، والعماد ، وكان
الفاضل حاكما على الجميع ، وهو المشار إليه بالسيف والقلم ،
لا يصدر السلطان إلا عن رأيه ، ولا يمضي في الأمور إلا بمضائه .

ذكر ما تجدد بعد وفاته

كان أخوه العادل سيف الدين لما توفي بالكرك ، فقدم دمشق
معزيا للأفضل ، فأقام ثم رحل إلى الجزيرة إلى البلاد التي أعطاها
إياها السلطان ، وهي : حران والرها وسميساط ، والرقعة وقلعة
جعبر ، وميافارقين ، وبيار بكر ، وكان له بالشام : الكرك
والشوبك ، وبعث الأفضل ضياء الدين بن الشهر زوري رسولا إلى
الخليفة ، ومعه زربية السلطان وسيفه وحصانه وكزاغنده ، ودبوسه
وتحف كثيرة ، وعاب الناس عليه بحيث بعث بعدة السلطان إلى
بغداد ، وكتب كتابا إلى الخليفة بيد ابن الشهر زوري ، فمنه :
أصدر العبد خدمته هذه ، وصدره معمور بالولاء ، وقلبه مغمور
بالصفاء ، وذكر كلاما طويلا ، فقبل لابن الشهر زوري (له الأمر
من قبل ومن بعد) (٣٩) ، وأما العادل فإن المشاركة ثاروا عليه ،
واستثاروا عز الدين صاحب الموصل وأصحابه ، فأشار عليه المجدد
ابن الأثير بالخروج ، وأشار عليه مجاهد الدين قيمان بالمقام ليظهر
حقائق الأمور ، ويراسل جيرانه : ابن زين الدين صاحب إربل ،
وسنجر شاه صاحب الموصل ، وعماد الدين صاحب سنجار ، وخرج
عز الدين من الموصل واجتمع على حران ، فاستنجد العادل بأولاد
أخيه ، فجاءته عساكر الشام ، ومصر ومصرض عز الدين على

نصيبين بالاسهال وترك العساكر مع أخيه عماد الدين ورجع الى الموصل جريئة فمات بها ، ثم إن الملك العزيز قدم الى الشام وتقدم في منزلته ، وقدمت معه العساكر على الأفضل ، وبعث إليه العادل ارحل إلى مرج صفر ، فرحل وهو مريض ، وكان قصد العادل أن يبعده عن البلد لتصل العساكر ، فوصل الظاهر من حلب ، والمنصور من حماة ، وشيركوه من حمص ، والأمجد من بعلبك في نجدة الأفضل ، فقال العادل : قد تقرر أنه يرجع إلى مصر ، ويقع الاتفاق ، وتعود الامور إلى ما كانت عليه ، واشتد مرض العزيز ، ولولا مرضه ما صالح ، فأرسل العزيز كبراء دولته فخر الدين شركس وغيره ، فحلف الملوك وطلب مصاهرة العادل ، فزوجه ابنته خاتون ، ورجع كل واحد إلى بلده ، وذلك في شعبان .

وقال العماد الكاتب : ولما انفصلت العساكر عن دمشق شرع الأفضل في اللهو واللعب ، واحتجب عن الرعية ، وانقطع إلى لذاته فسمي : الملك الذوام ، وفوض الأمر الى وزيره ابن الجزري ، وحاجبه الجمال محاسن بن العجمي فأفسدا عليه الأحوال ، وكانا سببا لزوال دولته ، واستبدلا بكبراء الأمراء والأجناد أراذل الناس ، ففسدت أمور العباد .

حواشي المحاسن اليوسفية

- ١ - ذكرنا من قبل انها بلدة في انزيبجان ، وتقارن هذه الروايات مع ما جاء حول اني ودولة منوچهر هناك وقضاء الكرج عليها .
- ٢ - بعد ما تعرض صلاح الدين للاغتيال احتجز فصار يبيت ويقيم في برج خشبي محصن .
- ٣ - اليزك : الاستطلاع
- ٤ - القنابل : الكتائب ، واراد هنا المنجنقات واللات الرمي الاخرى .
- ٥ - انظر كنز العمال ج ٦ ص ٤ - ١٤ .
- ٦ - أبرز قاعة البيت الايوبي ايام صلاح الدين ومؤسس الدولة الايوبية بحماة .
- ٧ - لم اجده بهذا اللفظ
- ٨ - انظره في موسوعة اطراف الحديث - ط . بيروت ١٩٨٩ ج ٣ ص ٢١٦ .
- ٩ - سورة العنكبوت - الآية : ٦٩
- ١٠ - اراد قوله تعالى في سورة هود - الآية: ٤٢ : . وهي تجري بهم في موج كالجبال .
- ١١ - سورة النحل - الآية: ١١٠
- ١٢ - سورة آل عمران - الآية : ١٣٤ .
- ١٣ - سورة القلم - الآية : ٤
- ١٤ - سورة يوسف - الآية : ٩٠
- ١٥ - سورة البقرة - الآية : ٢١٦ .
- ١٦ - لمزيد من التفاصيل انظر تاريخ دولة الكنوز الاسلامية لعطية القويحي - ط . القاهرة ١٩٧٦ ص ٦٨ - ٨٠
- ١٧ - قرنا حماه هما جبل زين العابدين وجبل الهاشمية الى جواره حاليا .
- ١٨ - خارج حلب
- ١٩ - عرف من قبل باسم الفنديق .
- ٢٠ - سورة الانفال - الآية : ٤٢
- ٢١ - قلعة من نواحي حلب بين نهر الجوز والبيرة . معجم البلدان
- ٢٢ - قرب زيزون بجوار شلالات تل شهاب في محافظة درعا - سورية .
- ٢٣ - هي عنجر حاليا في بقاع لبنان على مقربة من الحدود مع سورية .
- ٢٤ - انظر سورة الاحزاب - الآية : ٢٦ .
- ٢٥ - سورة الروم - الآية ٤٧
- ٢٦ - من انواع الخناجر المعكوفة والطويلة .
- ٢٧ - لم اجده بهذا اللفظ
- ٢٨ - سورة غافر ، الآية : ٨٥ .
- ٢٩ - سورة الاحزاب - الآية ٢٥ .
- ٣٠ - الاوج : الحدود او الثغور ، والهنكرهم الهنغار .
- ٣١ - اي هيتوم ملك ارمينية الصغرى .

- ٧٠٦٦ -

- ٣٢ - أي فارسا .
- ٣٢ - سورة الحاقة - الآية ٧
- ٣٤ - سورة الفرقان - الآية ٢٦ .
- ٣٥ - سورة الرعد - الآية ٣٨ .
- ٣٦ - سورة يوسف - الآية ٧٧
- ٣٧ - سورة الاحزاب - الآية : ٢٥
- ٣٨ - القيمون : حصن قرب الرملة .
- ٣٩ - سورة القصص - الآية : ٦٠
- ٤٠ - سورة الانفال - الآية : ٦٦
- ٤٠ - سورة الطلاق - الآية ٣ .
- ٤١ - سورة هود - الآية : ١١٥ .
- ٤٢ - سورة آل عمران - الآية : ٥٤ .
- ٤٣ - سورة البقرة - الآية : ١٥٦ .
- ٤٤ - سورة الاحزاب - الآية : ٣٨ .
- ٤٥ - سورة الرحمن - الآية : ٦٠
- ٤٦ - أي قائد القلعة
- ٤٧ - بالفارسية البيكار - الحرب
- ٤٨ - مائزان تحملان الاسم نفسه الى الجنوب من دمشق .
- ٤٩ - سورة الحشر - الآية : ٢٢
- ٥٠ - سورة الرعد - الآية . ٣٠

حواشي مرآة الزمان

- ١ - ربما تل معشر هو تل صليبي الحالي وهو يقع على ارتفاع يمكن منه مراقبة شيزر
- ٢ - جوسلين صاحب حصن تل باشر ، ابن القلاذسي : ٢٧٩ .
- ٣ - كذا في الاصل ولا وجه لها ، وفي تاريخ دمشق : ٢٩٤ ، « كان النزول على الاقحوانة » .
- ٤ - الخبر عند ابن الاثير في الكامل ، على انه حدث في صقلية
- ٥ - في غوطة دمشق قرب جرمانا حيث هناك تل اثري كبير .
- ٦ - تاريخ دمشق لابن القلاذسي ص ٥٠٣ - ٥٠٦ حيث المزيد من التفاصيل .
- ٧ - نيوان اسامة بن منقذ ص ٢٨٢ - ٢٨٣ مع فوارق ، واسم المسجد مسجد سبرين
- ٨ - سورة الرعد - الآية : ١١
- ٩ - عرقلة الكلبي ، حسان بن زمير [ت ٥٦٧ هـ] له نيوان شعر مذكور .
- ١٠ - مسعود بن محمد بن مسعود توفي سنة ٥٧٨
- ١١ - هي المدرسة العادلية ومقر مجمع اللغة العربية من قبل .
- ١٢ - اي كتاب الباهر لابن الاثير الجزري .
- ١٣ - هو عمر بن علي بن محمد بن علي بن حموية شيخ الشيوخ المتوفي سنة ٥٧٧ .
- ١٤ - محمد بن عبد الله بن القاسم المتوفي سنة ٥٧٢ .
- ١٥ - الكوافر جمع الكافر ، وهو ثوب يلبس فوق الدروع
- ١٦ - سورة الانبياء - الآية : ١٠١
- ١٧ - عبد الله بن علي توفي سنة ٦٣٠ .
- ١٨ - محمد بن نصر الخالدي توفي سنة ٥٤٨ .
- ١٩ - محمد بن عبد الملك قتل سنة ٥٨٣ .
- ٢٠ - توفي سنة ٥٧٣ .
- ٢١ - مجد الدين مات سنة ٦٦٥ .
- ٢٢ - محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري .
- ٢٣ - سورة الاعراف - الآية : ٨٧ .
- ٢٤ - هي المدرسة الشامية البرانية ، قيد الترميم حاليا في دمشق .
- ٢٥ - حطان بن كامل بن منقذ الكياني (٥٧٨ هـ)
- ٢٦ - سورة الزمر - الآية : ٧١
- ٢٧ - سورة الزخرف - الآية : ٥١ .
- ٢٨ - سورة الانبياء الآية : ١٠٥
- ٢٩ - سورة الصافات - الآية : ٣٧ .
- ٣٠ - سورة الحاقة - الآية : ٧
- ٣١ - سورة هود - الآية : ١٠٢
- ٣٢ - سورة النور - الآية : ٥٥

- ٧٠٦٨ -

- ٣٣ - سورة الصف الآية : ١٣
٣٤ - مزج المصنف في نصه اكثر من رسالة من رسائل العماد وجه كل منها الى جهة
٣٥ - هو عبد الرحمن بن محمد ابن اخي اسامة بن مقلد ، انظر ترجمته المستخرجة من المقفى
المقريزي .
٣٦ - مات سنة ٥٨١
٣٦ - الشهرزوري .
٣٧ - سورة الاحزاب - الآية ٢١
٣٨ - سورة يس - الآية : ٣٨ .
٣٦ - سورة الدحر - الآية : ٢٢ .
٣٩ - سورة الروم - الآية : ٤

المحتوى

- ٣ - توطئة
- ٩ - كتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية
- ١١ - خطبة الكتاب
- ١٣ - القسم الاول في ذكر موله
- ١٤ - ذكر ما شهدناه من مواظبته على القواعد الدينية
- ١٩ - ذكر عدله
- ٢٢ - ذكر طرف من كرمه
- ٢٤ - ذكر شجاعته
- ٢٦ - ذكر اهتمامه بأمر الجهاد
- ٢٨ - صبره واحتسابه
- ٣٢ - ذكر نبذ من حلمه
- ٣٥ - محافظته على اسباب المروءة
- ٤٠ - القسم الثاني في بيان تقلبات احواله
- ٤٢ - ذكر حركته الى مصر
- ٤٤ - ذكر عوده الى مصر ثانية
- ٤٥ - ذكر عوده الى مصر ثالثة
- ٤٧ - وفاة شيركوه
- ٤٨ - قصد الفرنج دمياط
- ٥٠ - طلبه والده
- ٥١ - موت العاضد
- ٥٢ - اول غزواته
- ٥٣ - وفاة والده نجم الدين
- ٥٤ - وفاة نور الدين
- ٥٥ - منافقة الكنز
- ٥٥ - قصد الفرنج الاسكندرية
- ٥٧ - خروج السلطان الى الشام
- ٥٩ - معركة قرون حماء
- ٦٢ - معركة الرملة
- ٦٣ - عود السلطان الى الشام
- ٦٤ - وفاة الصالح اسماعيل
- ٦٥ - مقايضة حلب بسنجار
- ٦٥ - عود السلطان من مصر
- ٦٦ - نزوله على الموصل
- ٦٧ - اخذ سنجار
- ٦٧ - قصة شاه ارمن صاحب خلاط

- ٦٩ - عوبه الى الشام
- ٦٩ - اخذه حلب
- ٧٠ - اخذه حارم
- ٧١ - غزاة عين جالوت
- ٧٢ - غزاة الكرك
- ٧٣ - اعطاء العادل حلب
- ٧٤ - وصول ابن شداد اليه
- ٧٥ - غزاة اخرى الى الكرك
- ٧٧ - غزاة الموصل الثانية
- ٧٨ - موت شاه ارمن
- ٧٩ - الصلح مع الموصل
- ٧٩ - عوبه الى الشام
- ٨٠ - مسير الملك العادل الى مصر
- ٨٢ - غزاة الى الكرك
- ٨٤ - وقعة حطين
- ٨٩ - فتح القدس
- ٩٠ - قصد صور
- ٩١ - كسرة الاسطول
- ٩٢ - حصار كوكب
- ٩٣ - اخذ اللاذقية وجبله
- ٩٥ - فتح انطربوس
- ٩٦ - فتح اللاذقية وجبله
- ٩٧ - فتح صهيون
- ٩٨ - فتوح برزنية
- ١٠٠ - فتوح دريساك
- ١٠١ - فتوح بغراس
- ١٠٢ - فتح صدد
- ١٠٢ - فتح كوكب
- ١٠٤ - حصار شقيف اردن
- ١٠٦ - اجتماع الفرنج لقصد عكا
- ١٠٦ - استشهاد ابيك الاخرس
- ١٠٧ - وقعة ثانية
- ١٠٨ - مسيره الى عكا
- ١٠٨ - وقعة اخرى
- ١١٠ - اخذ صاحب الشقيف
- ١١٢ - واقعة عكا
- ١١٥ - التراجع عن تل العياضية
- ١١٦ - وقعة للعرب مع العدو
- ١١٧ - المصافى الاعظم على عكا
- ١٢٤ - وصول خبر الالمان
- ١٢٥ - وقعة الرمل
- ١٢٦ - وفاة الققيه عيسى

- ١٢٦ - تسليم الشقيف
- ١٢٧ - طريفة
- ١٢٧ - وصول رسل الخليفة
- ١٢٩ - لطيفة للملك الظاهر
- ١٣٠ - وصول صاحب سنجار
- ١٣٢ - خبر ملك الالمان
- ١٣٣ - كتاب الكارغيكوس الارمني
- ١٣٥ - مسير العساكر الى اطراف البلاد
- ١٣٦ - تمام خبر ملك الالمان
- ١٣٧ - الوقعة العادلية
- ١٤١ - وصول الكندھري
- ١٤١ - وصول رسالة من القسطنطينية
- ١٤٣ - حريق المنجنيقات
- ١٤٥ - اخال بطسة من بيروت
- ١٤٦ - قصة العوام عيسى
- ١٤٦ - حريق المنجنيقات
- ١٤٧ - تمام حديث ملك الالمان
- ١٤٨ - وصول البطس من مصر
- ١٤٩ - محاصرة برج الذبان
- ١٥٠ - وصول الالمان الى عسكرهم
- ١٥٢ - حريق برج الكبش
- ١٥٢ - قدوم الملك الظاهر
- ١٥٥ - قصة معز الدين
- ١٥٧ - طلب عماد الدين الدستور
- ١٥٧ - خروج العدو الى رأس الماء
- ١٦١ - وقعة الكمين
- ١٦٣ - اخال البديل الى البلد
- ١٦٥ - الظفر يمراكب العدو
- ١٦٥ - موت ابن ملك الالمان
- ١٦٦ - غارة اسد الدين
- ١٦٧ - وقائع عنة
- ١٦٨ - وصول الملك الفرنسيس
- ١٦٩ - نادرة وبشارة
- ١٦٩ - ملك الانكتار
- ١٧٠ - قصة الرضيع
- ١٧١ - الانتقال الى تل العياضية
- ١٧٣ - مضايقة البلد
- ١٧٣ - وصول الانكتار
- ١٧٤ - غرق بطسة اسلامية
- ١٧٥ - حريق الدبابة
- ١٧٥ - وقعات عنة
- ١٧٨ - هرب المركيس الى صور

- ٧٠٧٣ -

- ١٧٨ - حصول بقية عساكر الاسلام
- ١٧٩ - وصول رسول الانكثار الى السلطان
- ١٨٠ - مضايقة البلد
- ١٨٢ - ضعف البلد ومفاوضات التسليم
- ١٨٤ - كتب وصلت من البلد
- ١٨٥ - مصالحة اهل البلد
- ١٨٦ - تسليم عكا
- ١٨٧ - وقعة جرت
- ١٨٨ - خروج ابن ياريك
- ١٨٩ - قتل المسلمين الذين كانوا بهكا
- ١٩٠ - مسير العدو الى عسقلان
- ١٩٧ - وقعة جرت
- ١٩٨ - مراسلة جرت
- ١٩٨ - اجتماع العادل والانكثار
- ١٩٩ - وقعة ارسوف
- ٢٠٥ - رحيله الى الرملة
- ٢٠٧ - وصول رسول المراكيس
- ٢٠٨ - مسير العادل الى القدس
- ٢٠٩ - اخبار يزك عكا
- ٢١٠ - رسول العادل الى الانكثار
- ٢١١ - هرب شيركوه بن باخل
- ٢١٢ - رسالة من العادل الى السلطان
- ٢١٣ - عود الرسول الى الانكثار
- ٢١٤ - خروج الفرنج من يافا
- ٢١٥ - وفاة تقي الدين
- ٢١٥ - كتاب من بغداد
- ٢١٧ - وصول صاحب صيدا
- ٢١٧ - واقعة الكمين
- ٢١٨ - ماجرى بين العادل والانكثار
- ٢١٩ - رسالة الانكثار الى السلطان
- ٢١٩ - حضور صاحب صيدا بين يدي السلطان
- ٢٢٠ - وصول رسول الانكثار
- ٢٢١ - الرحيل الى تل الجزر
- ٢٢٣ - مسير الملك العادل
- ٢٢٤ - انفصال رسول المراكيس
- ٢٢٥ - خروج المشطوب من الاسر
- ٢٢٦ - عود رسول هصور
- ٢٢٦ - قتل المراكيس
- ٢٢٧ - تنمة خبر الملك المنصور
- ٢٢٧ - قدوم رسول ملك الروم
- ٢٢٨ - ماجرى للعادل قاطع الفرات
- ٢٢٩ - استيلاء الفرنج على البدارون